جامعة بغداد
كلية التربية / ابن رشد

الحياة الاجتماعية في مؤلفات الجاحظ

اطروحة تقدم بها

عبد الكريم عز الدين صادق

الى مجلس كلية التربية (ابن رشد)/ جامعة بغداد
جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه فلسفة
في التاريخ الإسلامي

بإشراف

الاستاذ الدكتور
خاشع المعاضيدي

1424هـ

2003



إقرأ بأسم ربك الذي خلق _ خلق
الانسان من علق _ إقرأ وربك
الأكرم _ الذي علم بالقلم _ علم
الانسان مالم يعلم _



ســورة العلــق (الآيــة 1 -

الإهـــــداء

الى علمــاء بغـداد

عبــر كل العصــور

اهدي هذا البحث المتواضع

الـبــاحــث

المحتــويـات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـة البحث

يشـمل هـذا البحـث دراسـة النشـاطات الاجتماعيـة المختلفـة فـي مؤلفـات الجـاحظ، والجـاحظ (ت255هـ/868م) غنـي عـن التعريـف لشـهرته فـي ميـادين العلـم والمعرفـة وموسـوعي فـي ثقافتـه العامـة ومنهـا الادب العربـي، وان كتاباتـه الادبيـة، قـد ارفـدتنا بمعلومـات تاريخيـة متنوعـة، ومنهـا المعلومـات التاريخيـة ـ الاجتماعيـة والتـي تبحـث فـي النشـاطات الاجتماعيـة المختلفـة، حيـث تبـين لنـا مؤلفاتـه جوانـب اجتماعيـة وتاريخيـة للمجتمع العربي قبل الاسلام، وكذلك في عصوره الاسلامية المختلفة.

وقـد اعطـى الجـاحظ اهميـة كبيـرة للحيـاة الاجتماعيـة للمجتمـع العربـي الاسـلامي فـي العصـور العباسية، وهـذا امـر طبيعـي لمعاصـرته ذلـك المجتمـع، فكانـت دراسـاته مـنهلاً كبيراً لنا وللباحثين والمؤرخين والادباء.

وقـد واجهتنـا بعـض الصـعوبات فـي هـذا البحـث، ومنهـا القـدرة اللغويـة والبلاغيـة الرفيعـة للجـاحظ، والتـي تتطلـب مـن الباحـث التـأني والتعمـق فـي اسـتيعاب تلـك المفـردات اللغوية، وحاولنا ان نقدمها في هذا البحث باسلوب مبسط خالٍ من الصعوبة والتعقيد.

ومـن الصـعوبات الاخـرى التـي واجهتنـا هـي كثـرة مؤلفـات الجـاحظ، مـن رسـائل وكتـب، ممـا تجعـل الباحـث ان يتتبـع تلـك المؤلفـات فـي المكتبـات العامـة والشخصـية، ليكـون مطلعاً على تلك المؤلفات التي لها علاقة بموضوع البحث.

ومـن الصـعوبات الاخـرى ايضـاً، هـي مناقشـة آراء الجـاحظ التاريخيـة والاجتماعيـة التـي وقفنـا عليهـا، فوجدنا مـن خـلال مؤلفاتـه بانـه يتمتـع بقـدرة ثاقبـة علـى النقـاش والجـدل فـي المواضـيع التـي يبحثهـا، وهـذا ماجعلنـا ان نكـون حـذرين فـي مناقشـة تلـك الآراء اذ ماعلمنـا بـأن صـاحب هـذه المؤلفـات لـه بـاع كبيـر فـي الفكـر والكتابـة، وتجربـة وممارسـة عميقـة فـي هذا المجال.

وقُسـم البحـث الـى عـدة فصـول ومواضـيع، وقـدمنا فـي بدايـة البحـث توطئـة فـي سـيرة الجـاحظ الشخصـية، والعلميـة، وبشـكل موجزوذلـك لعـدم علاقتـه بمضـمون البحـث، فضـلاً عـن الكتابـات والمؤلفـات الكثيـرة الحديثـة والتـي بحثـت عـن سيرة الجـاحظ ومناهجـه في المجالات الأدبية والتاريخية والعقائدية.

ووزعنـا مفـردات البحـث علـى اربعـة فصـول وحسـب ماجمعنـاه مـن معلومـات فـي مؤلفات الجاحظ.

تكفـل الفصـل الاول البحـث عـن مكونـات المجتمـع، حيـث قمنـا بدراسـة هـذه المكونـات والتـي تشـمل القوميـات والاجنـاس، والـديانات المختلفـة، والفئـات الاجتماعيـة، واهل المهن والحرف.

امـا الفصـل الثـاني، فتناولنـا فيـه الاخـلاق الاجتماعيـة التـي وردت فـي مؤلفـات الجـاحظ، ومنهـا الاخـلاق المحمـودة التـي تشـمل الجوانـب الايجابيـة والرفيعـة فـي السـلوك

الانساني وسبل تعزيزها وتطويرها، وكذلك دراسة الاخلاق المذمومة، وهي الجوانب السلبية في السلوك الانساني وسبل الابتعاد عنها.

اما الفصل الثالث، فيشمل دراسة العادات والتقاليد الاجتماعية، وفي مواضيع متعددة وهي: التخاطب الاجتماعي، التقاليد العائلية، الزينة والتجميل، الاعياد، الهوايات والالعاب، المعتقدات الموروثة الشعبية، الموت والقبور.

اما الفصل الرابع، فقد درسنا فيه الحياة المعاشية، مثل الملابس، الطعام والاشربة، الحالة الصحية، الاسواق والتجارة، الترف والفقر والقدرة الشرائية، العمل والصناعة، النقل، التعليم والمعرفة، الموسيقى والغناء، الجريمة والانتحار.

وبعد فأن هذه الفصول الاربعة تبين لنا بوضوح جوانب عديدة ومختلفة عن النشاطات الاجتماعية في المجتمع العربي الاسلامي، التي ابرزها الجاحظ لنا باسلوبه الادبي الرفيع والشيق، مع بيان آرائه وملاحظاته الثاقبة والدقيقة في الكثير من النشاطات الانسانية الفردية والجماعية.

وعلى الرغم من كثرة المؤلفات التي كتبت عن الجاحظ في المكتبة العربية في الاختصاصات الادبية والدينية والتاريخية والاجتماعية، الا اننا حاولنا ان نقدم من خلال هذا البحث المتواضع دراسة شاملة وواسعة للجوانب الاجتماعية التي وردت في مؤلفات الجاحظ، ووفق منهجين الاول: ان يكون هذا البحث ضمن اطار الدراسات التاريخية، والثاني ان يكون هذا البحث متوافقاً مع ضوابط كتابة المنهج التاريخي السليم المتبع به في الدراسات التاريخية الجامعية.

واعتمدنا في هذا البحث على عدد من المصادر والمراجع العربية والاجنبية المختلفة. وفي مقدمتها مؤلفات الجاحظ مثل رسائله وكتبه إذ كانت هي المصادر الاساسية لهذا البحث، فقد كانت رسائل الجاحظ التي حققها عبد السلام محمد هارون من المصادر المهمة، لدقة المحقق في التحقيق، فضلاً عن العدد الكبير والشامل لرسائله



التي جاءت في اربعة اجزاء، ومما يزيد من اهمية هذه الرسائل اذا ماعلمنا بانها تتعلق في الاساس بأمور اجتماعية كثيرة لها علاقة بمضمون البحث.

اما كتاب الحيوان فهو دائرة معارف متعددة في الادب والتاريخ وعلم الحيوان والعقائد، وقد استفدنا منه كثيراً في معلومات تاريخية واجتماعية.

وقد زودنا كتاب البخلاء بمعلومات قيمة عن نوادر البخلاء وطرقهم في النجل، وجوانب من حياة الطفيليين، فضلاً عن المعلومات التي وردت عن انواع الاطعمة والمأكولات.

ويتطرق كتاب (البرصان والعرجان والعميان)، الى شريحة اجتماعية اصيبت بالعوق الجسمي، واثر هذا العوق على حياتهم اليومية، وهنا يقدم لنا الجاحظ مصادر القوة لهذه الشرائح ووسائلهم في مواجهة ظروف الحياة رغم عوقهم.

اما كتاب (البيان والتبيين) ففيه معلومات قيمة عن آداب العربية، واللهجات العربية المختلفة في الدولة العربية الاسلامية، وفيه آراء عن الشعوبية ومخاطرها، مع بيان آرائه في المدافعة عن العروبة ضد الشعوبية.

ومن اجل الاعتزاز بالقيم الاخلاقية الرفيعة فان كتاب تهذيب الاخلاق للجاحظ، فيه الكثير من المعلومات الاساسية عن القيم الاخلاقية الانسانية المحمودة والمذمومة منها.

وبين لنا كتاب (التبصر بالتجارة) المنسوب للجاحظ، معلومات عن البضائع المستوردة والمصدرة في الدولة العربية الاسلامية، وبالتالي فان ذلك يعطي لنا صورة تفصيلية عن تبضع الناس من المواد في الاسواق والقدرة الشرائية في ذلك.

فضلاً عن الرسائل والكتب الاخرى للجاحظ والتي اغنت البحث في الكثير من المعلومات، ولهذا يمكن القول ان مؤلفات الجاحظ لتمثل لنا مكتبة متكاملة على الرغم من ضياع الكثير منها.

واعتمدنا في البحث على مصادر تاريخية متنوعة لها علاقة بمضمون البحث، ففي مجال تراجم الرجال، استفدنا من بعض الكتب التاريخية ومنها: كتاب الطبقات الكبرى، لابن سعد (ت230هـ/845م)، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت463هـ/1071م)، والانساب للسمعاني (ت562هـ/1166م)، ومعجم الادباء لياقوت الحموي (ت626هـ/1228م)، ووفيات الاعيان لابن خلكان (ت681هـ/1282م).

وأمدتنا كتب الادب العربي بمعلومات اجتماعية وتاريخية واسعة في هذا الميدان بل ان البعض من الادباء، قد سلكوا منهج الجاحظ في كتاباتهم ايضاً، ومن هذه الكتب، الكامل في اللغة والادب للمبرد (ت285هـ/897م)، وعيون الاخبار لابن قتيبة (ت276هـ/889م)، والمحاسن والمساوئ للبيهقي (ت320هـ/933م)، وكتاب الموشى للوشاء (ت325هـ/936م)، ومقامات بديع الزمان الهمذاني (ت398هـ/1007م)، وثمار القلوب للثعالبي (ت429هـ/1037م)، ومحاضرات الادباء للراغب الاصبهاني



(ت502هـ/1108م)، والعقد الفريد لابن عبد ربه الاندلسي (ت597هـ/1200م)، ونهاية الأرب للنويري (ت733هـ/1332م)، والمستطرف للأبشيهي (ت850هـ/1446م).

وقد استفدنا من كتاب لسان العرب، لابن منظور (ت711هـ/1311م)، في التعرف على الكثير من معاني المفردات اللغوية العربية.

اما المعلومات الجغرافية، فقد اعتمدنا بالأساس على كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي لما يتضمنه من معلومات واسعة ووافية عن المدن والقصبات والقرى التي اشار اليها الجاحظ في مؤلفاته.

كما استفدنا من المصادر العربية الاصيلة الاخرى وفي الميادين التاريخية والادبية والدينية والجغرافية، والتي لها علاقة بمضمون البحث.

وقد استفدنا من المراجع العربية الحديثة والتي تناولت الحياة الاجتماعية، ومنها كتاب الحياة الاجتماعية في بغداد للدكتورة رمزية الاطرقجي، وكتاب الجاحظ وحياته وآثاره للدكتور طه الحاجري، وكتاب الحالة الاجتماعية في العراق للدكتورة مليحة رحمة الله، وكتاب الجاحظ والحاضرة العباسية للدكتورة وديعة طه النجم، والمجتمع



العباسي من خلال كتابات الجاحظ للدكتور محمد عويس، فضلاً عن المراجع العربية المهمة الاخرى.

واستفدنا من كتاب الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء للمستشرق شارل بلات، وفي معلومات كثيرة ومهمة عن سيرة ونشأة الجاحظ.

وتم الاستعانة بعدد من المؤلفات والمراجع الاجنبية المعربة، والمجلات الدورية والاطاريح الجامعية، من اجل اغناء البحث.

وقبل الختام اقدم شكري وتقديري الى عمادة كلية التربية / ابن رشد، جامعة بغداد، والسيد رئيس قسم التاريخ، لتعاونهم معنا في هذا البحث.

وكذلك اقدم شكري وتقديري الكبير الى الاستاذ الدكتور خاشع المعاضيدي، المشرف على هذا البحث، الذي بذل قصارى جهده في سبيل انجازه بالمستوى المطلوب.

واقدم شكري وتقديري الى اساتذة التاريخ الاسلامي والاساتذة الآخرين في قسم التاريخ، اخص منهم بالذكر اساتذتي في السنة التحضيرية لمرحلة الدكتوراه، والاساتذة الذين أسدوا الرأي والتوجيه في اغناء البحث وتطويره.

كما اقدم الشكر والتقدير الى منتسبي قسم الدراسات العليا في الكلية لجهودهم الكبيرة، وتعاونهم معي في سنوات الدراسة والبحث.

ولاأنسى ان اقدم الشكر والتقدير الى عائلتي جميعهم، لما بذلوه لنا من دعم مادي ومعنوي من اجل انجاز هذا البحث .. متمنياً من الله العلي القدير الموفقية والسؤدد للجميع انه على كل شيء قدير ...

الباحث

عبد الكريم عز الدين صادق

ملاحظة:



نظراً للاستخدام المتكرر لرسائل الجاحظ من تحقيق الاستاذ عبد السلام محمد هارون في هذا البحث، فقد تم الاشارة الى ذلك في الهامش كالآتي:

(الجاحظ، الرسائل، (اسم الرسالة)، الجزء، رقم الصفحة)

وقد استخدمنا رسائل محققة اخرى للجاحظ وبصورة قليلة، وهي ليست من تحقيق المحقق المشار اليه اعلاه، فتم الاشارة الى ذلك في الهامش كالآتي:

(الجاحظ، الرسائل، اسم المحقق، اسم الرسالة، الجزء، رقم الصفحة)



تـوطـئـة

سـيرة الجـاحـظ:

هو "عمرو بن بحر بن محبوب، ابو عثمان، الجاحظ، المصنف الحسن الكلام، البديع التصانيف"[(1)].

وقد اختلف المؤرخون في اصله، فمنهم من يرى بأنه كان من الموالي، وان جد الجاحظ كان اسود البشرة يقال له فزارة وكان جمالاً لعمرو بن قلع الكناني[(2)]، وهذا يوحي بأن "الجد الاعلى للجاحظ، ربما كان افريقياً اسود البشرة، وانه كان يعمل لدى سيده عمرو بن قلع الكناني جمالاً أي في تجارة القوافل. وقد اكتسب النسب العربي عن طريق الولاء لبني كنانة[(3)]"[(4)].

وهنالك روايات تبين بأنه من اصل عربي، وانه ينتمي الى صليبة، وانه من قبيلة كنانة العربية[(5)]. ويبدو لنا بأن موقف الجاحظ في الدفاع عن قضايا وشؤون

---

(1) الخطيب البغدادي، ابو بكر احمد بن علي بن ثابت (ت463هـ/1071م)، تاريخ بغداد او مدينة السلام، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون سنة، جـ12، ص(213-212).

(2) ياقوت الحموي، شهاب الدين ابي عبد الله (ت626هـ/1228م)، معجم الادباء، دار احياء التراث العربي، بيروت، بدون سنة، جـ16، ص74.

(3) الكناني: بكسر الكاف وفتح النون وكسر النون الثانية، هذه النسبة الى عدة من القبائل .. واما كنانة قريش، فجماعة ينسبون اليها وفيهم كثرة وشهرة. وجماعة انتسبوا الى آبائهم واجدادهم، وليسوا من القبائل. ينظر: السمعاني، ابو سعد عبد الكريم بن محمد ابن منصور التميمي (ت562هـ/1166م)، الانساب، تعليق عبد الله عمر البارودي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988، جـ5، ص98.

(4) ينظر: الملاح، د. هاشم يحيى، الجاحظ واسهاماته الثقافية في تعزيز وحدة الامة، مقالة في مجلة المورد، م30، العدد 3، سنة 2002م، بغداد، ص47.

(5) ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ12، ص213؛ ياقوت الحموي، معجم الادباء، جـ16، ص74.

العروبة، والتصدي للشعوبية، وكما سيرد ذلك في المباحث القادمة، لدليل على الانتماء الروحي والحقيقي للعروبة.

وقد ولد الجاحظ في البصرة، اما سنة ولادته فقد اختلف فيها المؤرخون، فمنها ان سنة ولادته هي "خمسون و مائة وولد في آخرها"[1]، ولو كان "ذلك صحيحاً لكان عمره عند وفاته مائة وخمس سنين، ولم يشر احد من مترجميه الى هذه الناحية"[2].

ولذلك ذهب البعض من المؤرخين والباحثين بان سنة ولادته هي (160هـ)[3] على الاصح، ونحن نميل الى هذا الرأي ايضاً، اذ ماعلمنا بأن الجاحظ "مات سنة خمس وخمسين ومائتين .. وقد جاوز التسعين من العمر"[4].

ولقب بالجاحظ، "بفتح الجيم وبالحاء المكسورة بينهما الالف وفي آخرها الظاء... وذلك لان عينيه جاحظتان"[5] أي فيهما بروز واضح.

ولم تكن للجاحظ اهتمامات عائلية، لانه لم يتزوج، ولم يكن لديه اولاد[6]، وكانت لهذه العزلة الاجتماعية في عدم تكوين الاسرة، الاثر الكبير في اهتماماته الشخصية والتفرغ الكلي الى النشاطات المعرفية والعلمية.

ومن المحتمل بأن لقباحة منظره الاثر الكبير في امتناعه عن الزواج، وقد ذكر ذلك صراحة قائلاً: "ذكرت لأمير المؤمنين المتوكل[1] لتأديب ولده فلما نظر اليّ استبشع منظري، وامر لي بعشرة آلاف درهم، وصرفني فخرجت"[2].

قضى بداية حياته في حالة من الحاجة والفقر، وذلك لاشتغاله في العلم، وكانت امه هي التي تمونه وتساعده في ذلك[3]، ثم حدث من "رأى الجاحظ يبيع الخبز والسمك بسيحان[4]"[5].

وبعد ان ذاع صيته في مجالس الادب، اصبح مقرباً الى كبار رجال الدولة، فقد انتقل الى بغداد عاصمة الخلافة العباسية، ولذلك نرى ابا عثمان في مجلس الخليفة

---

(1) ينظر: ياقوت الحموي، معجم الادباء، جـ16، ص74؛ البغدادي، اسماعيل باشا، هدية العارفين اسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، دار الفكر، بيروت، 1982، جـ5، ص802.

(2) بلات، شارل، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة د. ابراهيم الكيلاني، دار اليقظة العربية للتأليف والنشر، دمشق، 1961، ص92.

(3) الغريري، د. صبري احمد، الجاحظ ودوره في التدوين التاريخي، رسالة دكتوراه مقدمة الى الجامعة المستنصرية، مطبوعة على الآلة الكاتبة، ايلول، 1990، ص38؛ سركيس، يوسف الياس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، مطبعة سركيس، مصر، 1926، جـ1، ص666؛ الزركلي، خير الدين، الاعلام، بدون سنة، جـ5، ص239.

(4) ينظر: ياقوت الحموي، معجم الادباء، جـ16، ص74؛ ابن خلكان، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد، (ت681هـ/1282م)، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق د. احسان عباس، دار صادر، بيروت، بدون سنة، جـ3، ص474.

(5) ابن الاثير، عز الدين ابو الحسن بن علي الكرم الشيباني (ت630هـ/1232م)، اللباب في تهذيب الانساب، دار صادر، بيروت، بدون سنة، جـ1، ص(249-248).

(6) ينظر: بو ملحم، د. علي، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1980، ص259.

(1) هو جعفر بن المعتصم، بويع له بالخلافة في ذي الحجة سنة 232هـ، وكان المتوكل قد جفا ابنه محمداً المنتصر، فأغروا القادة الاتراك بالأخير، وقتلوا المتوكل في شوال من سنة 247هـ، وكانت خلافته اربع عشرة سنة وتسعة اشهر وتسعة ايام / ينظر: اليعقوبي، احمد بن يعقوب بن جعفر (ت بعد 292هـ/904م)،

المأمون، والخليفة يحدثه عن كتبه في الامامة واثرها في نفسه، كما نراه هنالك في المناسبات الرسمية التي تدعى لها الشخصيات البارزة[6]، وكذلك انيطت اليه وظيفة ديوان الرسائل ايام المأمون ثلاثة ايام ثم انه استعفى فاعفي منها[7]. ورغم ذلك ظلت علاقته وطيدة بالخلافة العباسية وكبار رجال الدولة حتى في انتقال عاصمة الخلافة العباسية من بغداد الى سامراء، وذكر احد الاطباء قائلاً:"دخلنا يوماً بسر من

رأى علي عمرو بن بحر الجاحظ نعوده وقد فُلِج[1]، فلما اخذنا مجالسنا اتى رسول المتوكل فيه"[2]، وهذا يدل على اهتمام الخليفة المتوكل بصحته وسلامته، حتى ان الخليفة المتوكل قد طلب ان يحمل اليه الجاحظ من البصرة في السنة التي قتل فيها[3].

وان احد الباحثين عن العلم والمعرفة، خرج ليبحث عن الجاحظ واللقاء به، فيقول: "خرجت لأعرجُ على شيء حتى قصدت بغداد فسألت عنه فقيل: هو بسر من رأى، فاصعدت اليها فقيل لي: قد انحدر الى البصرة، فانحدرت اليه"[4].

وهذا يبين لنا بأنه كان متنقلاً بين مدن الطرق الرئيسة آنذاك وهي بغداد والبصرة وسامراء، وهذه المدن فيها الولادة والنشأة والثقافة.

وضمن علاقته الخاصة والوطيدة بكبار رجال الدولة، فانه كان ملازماً للوزير محمد بن عبد الملك[5] الملق ب بابن الزيات، ولما قُبض على الوزير ابن الزيات، "هرب الجاحظ فقيل له. لم هربت؟ قال: خفت ان اكون ثاني اثنين اذ هما في التنور، يريد ماصنع بمحمد، وادخاله تنور حديد فيه مسامير كان هو صنعه ليعذب الناس فيه، فعُذب هو فيه حتى مات (يعني محمد بن الزيات)"[6].

وان اتصاله بابن الزيات، جعل من الوزير ان يقطعه ارض واسعة سميت بالجاحظية[7].

تاريخ اليعقوبي، تعليق محمد صادق بحر العلوم، ط4، المكتبة الحيدرية، النجف، 1974، جـ3، ص(222-231).

(2) الوشاء، ابو الطيب محمد بن اسحاق بن يحيى (ت325هـ/936م)، الموشى او الظرف والظرفاء، تحقيق كمال مصطفى، دار صادر، بيروت، 1965، ص94.

(3) ينظر: ابن المرتضى، احمد بن يحيى (ت840هـ/1436م)، طبقات المعتزلة، تحقيق سوسنة ديفلد-فلزر، دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون سنة، ص68.

(4) وهو نهر بالبصرة / ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، بدون سنة، جـ3، ص293.

(5) ياقوت الحموي، معجم الادباء، جـ16، ص74.

(6) ينظر: الحاجري، د. طه، الجاحظ حياته وآثاره، دار المعارف، مصر، 1962، ص214.

(7) ياقوت الحموي، معجم الادباء، جـ16، ص(79-78).

(1) الفالج: وهو غياب الحركة جزئياً او كلياًمن احد شقي البدن، ويدعى الشلل النصفي / ينظر: ابو بكر محمد الرازي (ت303هـ/915م)، المنصوري في الطب، تحقيق د. حازم البكري، ط1، الكويت، 1987، ص661.

(2) القالي، ابو علي اسماعيل بن القاسم (ت356هـ/968م)، الامالي والذيل، المكتب التجاري، بيروت، بدون سنة، جـ1، ص50.

(3) ينظر: ياقوت الحموي، معجم الادباء، جـ16، ص113.

(4) م.ن، جـ16، ص105.

(5) هو ابو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة، المعروف بابن الزيات، وزير المعتصم، وتوفي في سنة ثلاثة وثلاثين ومائتين / ينظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ5، ص(101-94).

(6) ياقوت الحموي، معجم الادباء، جـ16، ص76.

(7) ينظر: ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، ص69.

وجيء بالجاحظ الى احمد بن ابي دؤاد[1]، بعد مقتل الوزير محمد بن عبد الملك الزيات، مقيداً في جبة صوف. فقال له ابن ابي دؤاد: والله ياعمرو ماعلمتك الا متناسياً للنعمة، جاحداً للصنيعة، معدداً للمثالب، مخفياً للمناقب، وان الايام لاتصلح مثلك، لفساد طويتك، وسوء اختبارك. فقال له الجاحظ: خفض عليك، فوالله، لان تكون المنة لك عليّ، خير من ان تكون لي عليك، ولان تعفو في حال قدرتك، اجمل بك من ان تنتقم. فقال له ابن ابي دؤاد: ماعلمتك الا كثير تزويق اللسان، فعفى عنه، فلما كان من الغد، شوهد الجاحظ متصدراً في مجلس ابن ابي دؤاد، وعليه خلعة من ثيابه وهو مقبل عليه بوجهه، يقول: هات يا ابا عثمان[2]، وان هذه الرواية تدل على امكانية الجاحظ البلاغية والكلامية وقدرته على الاقناع.

ونظراً للحقبة الزمنية الطويلة التي عاشها الجاحظ، فقد قضى اواخر حياته بالمرض والمتاعب، ويتحدث احدهم قائلاً: "صرت الى منزل الجاحظ في اول ماقدمت من بلدي، وقد اعتل علته التي فلج فيها، فأستأذنت عليه، فخرج اليّ خارج من منزله، فقال لي: يقول لك: وما تصنع بشقٍ مائل، ولعاب سائل. فانصرفت عنه...وقال يوماً لمتطيب يشكو اليه علته: قد اصطلحت الاضداد الى جسدي، ان اكلت بارداً اخذ برجلي، وان اكلت حاراً اخذ برأسي"[3]، وهنالك اجماع بين المؤرخين القدماء والمحدثين بأن وفاة الجاحظ كانت سنة خمس وخمسين ومائتين[4].

وكانت وفاته في "المحرم .. بالبصرة"[1]، وتتفق الروايات التي التي وصلتنا على سنة وفاته الا رواية منفردة، ترى بأن سنة وفاته هي "خمسون ومائتان"[2]، وهذه

---

(1) هو ابو عبد الله احمد بن ابي دواد، القاضي، كان معروفاً بالمروءة، وله مع المعتصم في ذلك اخبار مأثورة، وولاه منصب قاضي القضاة، وكان بينه وبين الوزير ابن الزيات منافسات وشحناء، وتوفي بمرض الفالج في المحرم سنة اربعين ومائتين / ينظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ1، ص(91-81).س

(2) ينظر: التنوخي، ابو علي المحسن بن علي (ت384هـ/994م)، الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، 1978، جـ1، ص361.

(3) المرتضى، علي بن الحسين الموسوي العلوي (ت436هـ/1044م)، امالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967، جـ1، ص199.

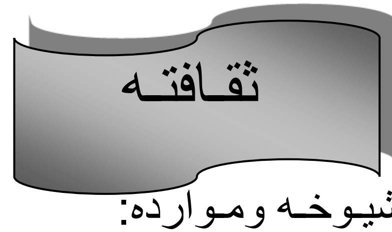
(4) ينظر: ياقوت الحموي، معجم الادباء، جـ16، ص74؛ ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، ص70؛ الخوانساري، محمد باقر، روضات الجنان في احوال العلماء والسادات، دار المعرفة، بيروت، بدون سنة، جـ5، ص326؛ برد كلمان كارل، تاريخ الادب العربي، ترجمة د. عبد الحليم النجار، دار المعارف، مصر، 1962، جـ3، ص(107-106)؛ وجدي، محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرون، دار الفكر، بيروت، بدون سنة، جـ3، ص38، الزركلي، الاعلام، جـ5، ص239.

(1) ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ3، ص(475-474).

(2) ابن العماد الحنبلي، ابو الفلاح عبد الحي (ت1089هـ/1678م)، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون سنة، جـ2، ص121.

الرواية لايمكن الاعتماد عليها او تكون قد تناقلتها المصادر بالخطأ غير المقصود لدى النساخين للكتب. وبسنة وفاته فانه قد عاش اكثر من "تسعين سنة"[3].

وهنالك من الباحثين المعاصرين من يذكر بان سبب وفاته هو ان كتبه انهالت عليه فقضت عليه[4]، وقد يكون انهيار الكتب وسقوطها على الجاحظ هي نتيجة لسقوطه في لحظات الموت وارتطامه بأكداس الكتب والرسائل، حيث ورد ان الخليفة المعتز بالله[4] تحدث مع احد المقربين اليه قائلاً: "ورد الخبر بموت الجاحظ. فقلت لامير المؤمنين طول البقاء ودوام العز ... قال المعتز: لقد كنت احب ان اشخصه اليّ وان يقيم عندي. فقلت له انه كان قبل موته عطلاً بالفالج"[5]، وهذا يؤكد بان مرضه هو سبب موته.



شيوخه وموارده:

الجاحظ من الشخصيات الادبية والفكرية المتعددة المواهب، وقد اغنت هذه الشخصية المكتبة العربية بالعديد من الكتب والرسائل، واصبح ادبه وفكره مثار جدل واهتمام الباحثين والمفكرين المهتمين بالتراث العربي الاسلامي.

"وكان يقال: اربعة لم يُلحقوا ولم يسبقوا: ابو حنيفة في فقهه، والخليل في ادبه، والجاحظ في تأليفه، وابو تمام في شعره"[1].

"ولاتنطبق كلمة اديب، بكل معانيها، على كاتب عربي بقدر ماتنطبق على الجاحظ، معلم أهل القلم في عصره وبعد عصره. موسوعة علمية شاملة، على قوة

(3) ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ3، ص475.

(4) عويس، د. محمد، المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ، دار الثقافة، مصر، 1977، ص17؛ الحسيني، د. احمد حماد، كتاب الحيوان للجاحظ، مقالة في تراث الانسانية، دار الفكر، بيروت، بدون سنة، جـ3، ص222.

(4) المعتز بالله الزبير بن جعفر المتوكل، بويع وله يومئذٍ ثماني عشرة سنة، بعد خلع المستعين لنفسه، ثم خلع المعتز نفسه في رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، ومات بعد ان خلع نفسه بستة ايام، ودفن بسامرا / ينظر: المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت346هـ/957م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، جـ2، ص543.

(5) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ12، ص219.

(1) الثعالبي، ابو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (ت429هـ/1037م)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار النهضة، مصر، 1965، ص170.

شخصـية وقـدرة ابـداع وخفـة روح وسـلامة ذوق، تلـك هـي اهـم خصـائص ادبينـا الـذي تعلـم كتبه العقل اولاً"[2].

ففـي مجـال علـوم الحـديث النبـوي الشـريف، وعلـى الـرغم مـن اهتمامـه اليسـير بهـذا العلم، الا انه "حدث عن حجاج بن محمد[3] .... وابي يوسف القاضي[4]"[5].

وفي مجال الادب فانه "سمع من ابي عبيدة"[6].

والاصـمعي[1]، وابـي زيـد الانصـاري[2]، واخـذ النحـو عـن الاخفـش[3] ابـي الحسـن وكان صديقه"[4].

ويشـير الجـاحظ الـى اهميـة مصـادره وثقافتـه مـن المجـالس الادبيـة والثقافيـة آنـذاك فيقـول: "الا انـا علـى حـال سـنذكر جمـلاً مـن احاديـث روينـاهـا ووعيناهـا، وامـورٍ رأيناهـا وشاهدناها، وفضائل تلقفناها من افواه الرجال وسمعناها"[5]ومنها المربد[6].

وهـذا يـدل بوضـوح علـى اثـر الملاحظـة التجريبيـة التـي يراهـا، ويحـاول ايجـاد المفـاهيم والايضـاحات لتلـك الملاحظـات التـي شـغلت فكـره، والتـي سـتأتي فـي مباحثنـا القادمة.

وقـد تـأثر الجـاحظ بالعقـل واثـره فـي الفكـر الانسـاني، فتـأثر بالمعتزلـة تلـك الفرقـة الاسـلامية التـي اعطـت للعقـل اهميتـه، وهـي "اعظـم مدرسـة مـن مـدارس الفكـر والكـلام عرفها الاسلام واقدمها، ظهرت في بداية القرن الهجري الثاني في مدينة البصرة"[7].

وكـان للجـاحظ مركـز متميـز فـي تـاريخ المعتزلـة، واليـه "تنسـب الفرقـة المعروفـة بالجاحظيـة مـن المعتزلـة .. ومـن مـذهب الجاحظيـة ان المعـارف كلهـا ضـرورية الطبـاع وليس شيء من ذلك من افعال العباد"[8].

وكان استاذه من المعتزلة "ابي اسحاق النظام[1]"[2].

ومـن مصـادر ثقافتـه المهمـة مطالعاتـه الكثيـرة والمتنوعـة للكتـب والرسـائل الادبيـة والثقافيـة، والتـي اسـهمت فـي اتسـاع دائـرة معارفـه الثقافيـة والفكريـة، والتـي انتجـت العـدد الكبير من المؤلفات المهمة للجاحظ في المكتبة العربية الاسلامية.

واذا "وقـع فـي يـده كتـاب قـرأه مـن اولـه الـى آخـره، أي كتـاب كـان"[3]، وقـال احـدهم:" لـم أرَ قـط ولاسـمعت مـن أحـب الكتـب والعلـوم اكثـر مـن الجـاحظ، فانـه لـم يقـع بيده

---

(2) جبر، د. جميل، نوادر الجاحظ، دار الاندلس، بيروت، 1963، ص(7-5).

(3) حجاج بن محمد، ابو محمد الاعور، ترمذي الاصـل، توفي ببغداد في شـهر ربيع الاول سـنة سـت ومائتين، وكان ثقة صدوقاً / ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ8، ص(238-237).

(4) القاضـي ابو يوسـف يعقوب بن ابراهيم بن حبيب، وهو من اهل الكوفة، وصـاحب ابي حنيفة رضـي الله عنه، كان فقيهاً عالماً، سكن بغداد، وتولى القضـاء بها، وكانت ولادته سنة ثلاث عشرة ومائة وتوفي سـنة اثنتين وثمانين ومائة ببغداد / ينظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ6، ص(389-378).

(5) السمعاني، الانساب، جـ2، ص6.

(6) ابو عبيدة البصـري، معمر بن المثنى، مولى بني تيم، كان اعلم الناس باللغة وانسـاب العرب واخبارها، وهو اول من صـنف غريب الحديث، ولد سـنة عشـر ومائة، وتوفي سـنة ثمان ومائتين / ينظر: ياقوت الحموي، معجم الادباء، جـ19، ص(162-154).

(1) ابو سـعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي، المعروف بالاصـمعي الباهلي، كان صـاحب لغة ونحو، واماماً في الاخبار والنوادر والملح والغرائب، وهو من اهل البصـرة، كانت ولادته سـنة اثنتين، وقيل ثلاث وعشرين ومائة، وتوفي سنة سبع عشرة ومائتين، بالبصرة، وقيل بمرو / ينظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ3، ص(176-170).

(2) سـعيد بن اوس بن ثابت، ابو زيد الانصـاري صـاحب النحو واللغة، وكان ثقة ثبتاً من اهل البصـرة، وقدم بغداد، وتوفي في البصـرة سـنة خمس عشـرة ومائتين وله ثلاث وتسـعون سـنة / ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ9، ص(80-77).

كتاب قط الا استوفى في قراءته كائناً ماكان، حتى انه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر"[4].

واذا ماتفحصنا كتاب (الحيوان) وهو من ابرز مصنفاته، حيث جمع فيه علوم عديدة، ليؤلف بدوره موسوعة تراثية مهمة، فإننا سنلاحظ بأن المصادر الاساسية لهذا الكتاب تعتمد على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وكذلك اعتماده الكبير على الشعر العربي، وكذلك خبرته الواسعة في قراءة الكتب ومنها كتاب الحيوان لأرسطو، ثم آراء وافكار المعتزلة، وخبرته الشخصية[5].

وهذه العوامل العديدة والمتنوعة، لابد من ان تغني الكاتب بالوسائل الاساسية للكتابة الناجحة والهادفة.

تلاميذه:

تعتبر مدرسة الجاحظ من المدارس المتميزة في العصور العباسية، ومن خلال تأثيرها على الثقافة والفكر الاسلامي آنذاك، ففي مجال علوم الحديث النبوي الشريف،

(3) ابو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي النحوي البلخي المعروف بالأخفش الاوسط، احد نحاة البصرة، وكانت وفاته سنة خمس عشرة ومائتين / ينظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ2، ص(381-380).

(4) ياقوت الحموي، معجم الادباء، جـ16، ص75.

(5) الجاحظ، ابو عثمان عمرو بن بحر (ت255هـ/868م)، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط1، مكتبة الخانجي، مصر، 1979، جـ1، ص29.

(6) ياقوت الحموي، معجم الادباء، جـ16، ص75.

(7) جار الله، زهدي حسن، المعتزلة، مطبعة مصر، القاهرة، 1947، ص1.

(8) الشهرستاني، ابو الفتح محمد عبد الكريم ابن ابي بكر احمد (ت548هـ/1153م)، الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة، 1968، جـ1، ص75.

(1) ابو اسحق ابراهيم بن سيار النظام. وهو من اهل البصرة .. روي انه كان يقول وهو يجود بنفسه اللهم ان كنت تعلم اني لم اقصر في نصرة توحيدك اللهم ولم اعتقد مذهباً الا سنده التوحيد اللهم ان كنت تعلم ذلك في فأغفر لي ذنوبي وسهل عليّ سكرة الموت. قالوا: فمات من ساعته / ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، ص(51-52).

(2) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ12، ص213؛ ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، ص(68-67).

(3) الشريف المرتضى، امالي المرتضى، جـ1، ص194.

(4) ياقوت الحموي، معجم الادباء، جـ16، ص75.

(5) ينظر: الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969، جـ1، المقدمة، ص(23-18).

روى عنه "ابو بكر عبد الله بن ابي داود السجستاني[1] وابن بنت اخته يموت بن المزرع[2]"[3].

وكان طلاب العلم يتوافدون من كل البقاع الى مدرسة الجاحظ الثقافية، لتلقي العلوم والمعرفة، وان رجلاً بالأندلس التقى مع احد طلبة الجاحظ، فسأله عن سبب اجتماعه مع ابي عثمان، ولم يقع ابو عثمان الى الاندلس؟ فقال: كان طالب العلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء ابي عثمان، فوقع الينا كتاب التربيع والتدوير، فأشاروا اليه. ثم اردفه عندنا كتاب البيان والتبيين، فبلغ الشهرة في هذين الكتابين، قال فخرجت، لا أعرج على شيء، حتى قصدت بغداد، فسألت عنه، فقيل لي: هو بسر من رأى، فأصعدت اليها، فقيل: قد انحدر الى البصرة. فانحدرت اليه، وسألت عن منزله فأرشدت، فدخلت اليه، واذا هو جالس وحواليه عشرون صبياً، ليس فيهم ذو لحية غيره. قال: فدهشت، فقلت: ايكم ابو عثمان؟ فرفع يده، وحركها في وجهي، وقال: من اين؟ فقلت: من الاندلس .. قال: ما جئت تطلب؟ قلت: العلم. قال: ارجع بوقت، فانك لاتفلح. قلت له: مالنصفتني ... قال: فترى حولي عشرين صبياً، ليس فيهم ذو لحية غيري، ماكان يجب ان تعرفني بها؟ قال: فأقمت عليه عشرين سنة[4]، وهذا يدل على المنزلة العلمية المرموقة التي يتمتع بها الجاحظ.

مؤلفاته:

تُعد مؤلفات الجاحظ مكتبة متعددة المعارف والعلوم، فهي موسوعة متنوعة في مجالات العلوم العقلية والانسانية، وكان فطناً في كتابته لتلك المؤلفات، فلما "اشتهر امر الجاحظ وانتشر ذكره كان يعرض كتبه في احسن صورة لئلا يستثقل الناس قراءتها"[1].

وسعى الجاحظ الى الحفاظ على نسخ كتبه من التحريف والتزوير، ومن الاعيب الآخرين، وهذا نابع من اعتزازه بمؤلفاته القيمة، قائلاً في ذلك: "واجبنا ان نأخذ في ذلك بالحزم، وان نحتاط فيه لأنفسنا ومن ضمّه كتابنا، ونبادر الى تفريق نسخ منها وتصييرها في ايدي الثقات والمستبصرين .. ففعلنا ذلك وصيرناه امانة في اعناقهم، ونسخة باقية في ايديهم، ووثقنا بهم امناء ومستودعين وحفظةً"[2].

ولايترك امره الى هذا فحسب، فاذا ماحصل تحريف يقوم بإجراءات لصيانة مؤلفاته من التحريف، مضيفاً في ذلك قوله: "فأن شيب به شوب يخالفه، واضيف اليه

---

[1] ابو بكر عبد الله بن ابي داود سليمان بن الاشعث الازدي السجستاني، كان محدث العراق وابن امامها في عصره، مات ببغداد في ذي الحجة سنة عشر وثلاثمائة وهو ابن ست وثمانين سنة وستة اشهر / ينظر: السمعاني، الانساب، جـ3، ص225.

[2] يموت بن المزرع بن يموت، ابو بكر العبدي، من عبد القيس بصري قدم بغداد في سنة احدى وثلاثمائة وهو شيخ كبير، مات بدمشق في سنة اربع وثلاثمائة / ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ14، ص(358-360).

[3] السمعاني، الانساب، جـ2، ص6.

[4] ينظر: التنوخي، نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي، بيروت، 1973، جـ8، ص(202-203)؛ ياقوت الحموي، معجم الادباء، جـ16، ص(105-104).

[1] بروكلمان، كارل، تاريخ الادب العربي، جـ3، ص107.

[2] الجاحظ، الرسائل، طبقات المغنين، جـ3، ص(136-135).

مالايلائمــه، رجعنــا الــى النسـخة المنصـوبة، والاصـول المخلـدة عنـد ذوي الامانــة والثقــة، واقتصــرنا عليهــا، واسـتعلينا بهـا علــى المبطلـين، ودفعنــا بهـا .. تحريـف المحـرفين، ونزيـد المتزيدين"[3].

وكانـت مؤلفاتـه تلقـى اهتمامـاً مـن قبـل مختلـف الفئـات مـن النـاس ومـنهم كبـار رجـال الدولــة، ففــي مجلــس ابــن العميــد[4] الــوزير، جــرى ذكــر الجــاحظ، فغــض منـــه بعــض الحاضـرين لـذلك القائـل، وسـكت الـوزير عنـه، فلمـا خـرج الرجـل قيـل للـوزير: سـكتَّ ايهـا الاستاذ عـن هـذا الرجـل فـي قولـه مـع عادتـك فـي الـرد علـى امثالـه، فقـال: لـم اجـد فـي مقابلتـه ابلـغ مـن تركـه علـى جهلـه، ولـو وافقتـه وبينـت لـه لنظـر فـي كتبـه وصـار بـذلك انسـاناً، فكتـب الجاحظ تعلم العقل اولاً والادب ثانياً، ولم استصلحه لذلك"[1].

ومؤلفـات الجـاحظ غزيـرة وعديـدة، ولغزارتهـا اصـبحت لهـا مـن الاهميـة بـأن تأخـذ اهتمامــاً كبيــراً مــن لــدن البــاحثين والمــؤلفين، فقـد ذكـر يـاقوت الحمـوي فــي كتابــه معجـم الادباء عناوين كتب ورسائل الجاحظ، فكانت مجموعها حوالي (130) مؤلفاً[2].

وقـد أُحصـيت عنـاوين واسـماء مؤلفـات الجـاحظ مـن خـلال كتبـه ورسـائله المشـورة وغيــر المنشــورة، والجــزء الكبيــر مــن تلــك المؤلفــات مفقــود، وقــد ورد الــبعض منهــا فــي المؤلفـات والمصـادر العربيـة الاصـيلة الاخـرى، والقليـل مـن تلـك الرسـائل والكتـب منسـوب اليــه، فكانــت حــوالي (188) كتابـاً ورسـالة، واهـم ماكتبــه الجـاحظ فـي المعلومـات التاريخيـة والاجتماعيــة، الكتـب والرسـائل التاليـة: الـبخلاء، البيـان والتبيـين، الحيـوان، مقـالات الزيديـة والرافضــة، مقـالات العثمانيـة، كتـاب امامـة معاويـة بـن ابـي سـفيان، كتـاب فضـل هاشـم علـى عبـد شـمس، رد النصـارى، رسـالة فـي مـدح التجـار، رسـالة فـي الـوكلاء، طبقـات المغنـين، اقســام فضــول الصــناعات ومراتــب التجــارات، غــش الصــناعات، الاخطــار والمراتــب والصــناعات، كتــاب النــواميس (فــي حيـل اهـل الغـش والتـدليس)، حيـل المكـدين، اخـلاق الشــطار، كتــاب الاخبــار، رســالة ابــي حســان فــي امــر الحكمــين وتصــويب رأي اميــر المـؤمنين علـي بـن ابـي طالـب، رسـالة فـي اثبـات امامـة اميـر المـؤمنين علـي بـن ابـي طالـب، رسـالة فـي بنـي أُميـة، رسـالة فـي العباسـية، رسـالة فـي تفضـيل بنـي هاشـم علـى مـن سـواهم، كتــاب القحطانيـــة والعدنانيـــة، كتـــاب العـــرب والمـــوالي، كتـــاب العجـــم، فخـــر عبـــد شـــمس ومخـــزوم، فـــي فضـــائل ســـلالة النبـــي (صـــلى الله عليـــه وســـلم)، امامـــة ولـــد العبـــاس، كتـــاب الصـــرحاء والهجنـــاء، كتـــاب فصـــل مـــابين الرجـــال والنســـاء، كتـــاب اطعمـــة العـــرب، كتـــاب الاخـــوان، كتـــاب امهـــات الاولاد، كتـــاب العـــالم والجاهـــل، كتـــاب الصـــوالجة، كتـــاب النـــرد والشـــطرنج، رســـالة الحلبـــة، رســـالة فـــي الحاســـد والمحســـود، فـــي تفضـــيل النطـــق علـــى الصـــمت، رســـالة فـــي اســـتنجاز الوعـــد، الشـــارب والمشـــروب، ذم اللـــواط، كتـــاب الوعـــد والوعيـد، كتـاب الانـس والسـلوى، كتـاب تحسـين الامـوال، كتـاب الحـزم والعـزم[3]، فضـلاً عـن الرسـائل والكتـب الاخـرى للجـاحظ فـي المواضـيع التاريخيـة والاجتماعيـة ذات الصـلة بالأحـداث التاريخيـة، الا ان الجـزء الكبيـر مـن تلـك الرسـائل والكتـب مفقـود، ولكـن الجـزء

---

(3) م.ن، جـ3، ص(135-136).

(4) ابو الفضـل محمد بن العميد ابي عبد الله الحسـين بن محمد الكاتب، المعروف بإبن العميد، تولى الوزارة سـنة ثمان وعشـرين وثلثمائة، وكان يسـمى الجاحظ الثاني، توفي سـنة سـتين وثلثمائة / ينظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ5، ص(101-113).

(1) ينظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ13، ص473.

(2) ينظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ16، ص(106-110).

(3) ينظر: بروكلمان، تاريخ الادب العربي، جـ3، ص(106-128).

المنشور والمخطوط من مؤلفات الجاحظ هي الاخرى كثيرة، وتغني الباحث في البحث والدراسة وفي مجالات عديدة ..

منهجه في الكتابة:

يتسم منهج الجاحظ في الكتابة بعدة سمات مميزة، وتأتي تلك السمات كنتيجة لثقافته المتعددة الاتجاهات والاغراض، وتنبع من ثقافته المبكرة التي تلقاها في صغره بالبصرة، واولى تلك المحطات في صغره هي المساجد، وبدأ "المسجد في زمن مبكر كبيت مشترك يجتمع فيه المسلمون ... فهم ينتقلون من حلقة الى حلقة مستمعين الى محدث تارة والى مفسر تارة اخرى او يتحدث الافراد بينهم، او يختلطون بين جموع المستمعين الى القصاص .. وكان للجاحظ اصحاب من المسجديين .. اختلط بهم وشارك في احاديثهم"[(1)]، على ان علمه الواسع "جاء من مطالعاته الخاصة في الكتب"[(2)]، فجاءت مؤلفاته كنتيجة لتلك الاسباب الآنفة الذكر.

وكان منهج الجاحظ في التأليف والكتابة يتسم بالحذر من اعدائه وحساده، معلقاً على ذلك "ان خصماءنا وان موهوا وزخرفوا ، غير بالغين .. الغلبة عند ذوي العدل دون الاستماع منا .. الى ان تفاقم الامر وعيل الصبر، وانتهى الينابيع عصابةٍ لو امسكنا عن الاجابة عنها والاحتجاج فيها، علماً ان من شأن الحاسد تهجين مايحسد عليه"[(3)]، ويضيف في مكان آخر من مؤلفاته: "خطر ببالنا كثرة العيابين من الجهال برب العالمين، فلم نأمن بأن يسرعوا بسفه رأيهم وخفة احلامهم الى نقض كتابنا وتبديله، وتحريفه عن مواضعه، وازالته عن اماكنه التي عليها رسمنا، وان يقول كل امرئٍ منهم في ذلك على حاله، وبقدر هواه ورأيه، وموافقته ومخالفته، والميل في ذلك الى بعض، والذم لطبقة والحمد لاخرى، فيهجنوا كتابنا، ويلحقوا بنا ماليس من شأننا"[(4)].

ويبدي الجاحظ معاناته وآلامه في كتبه، ويشير الى ذلك في كتاب الحيوان، قائلاً: "أول ذلك العلة الشديدة، والثانية قلة الاعوان، والثالثة طول الكتاب"[(1)].

وتبدو ثقته بمؤلفاته واضحة، فعندما يعرض اسئلته العديدة على احد منافسيه طالباً منه الاجابة على تلك الاسئلة، وعلمه بعدم مقدرة ذلك الشخص على الاجابة فيقول له: "وقد سألتك، وان كنت اعلم انك لاتحسن من هذا قليلاً ولاكثيراً، فإن اردت ان تعرف حق هذه المسائل وباطلها ومافيها خرافة ومافيها محال، ومافيها صحيح، فاسد، فألزم نفسك قراءة كتبي ولزوم بابي"[(2)]، وهذا يدل على مقدرته في صياغة الاسئلة، ومقدرته المعرفية الموسوعية المتعددة ومن خلال مؤلفاته العديدة.

ويجد الجاحظ المعالجات اللازمة لتأمين مؤلفاته من عبث الاعداء والحساد قائلاً: "وربما الفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه والفاظه، فأترجمه بإسم غيري، واحيله على من تقدمني عصره .. فيأتيني اولئك القوم بأعيانهم، الطاعنون على الكتاب الذي كان احكم من هذا الكتاب، لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليّ، ويكتبونه

(1) بلا، شارل، الجاحظ، ص(343-342).
(2) فروخ، د. عمر، تاريخ الادب العربي، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1981، جـ2، ص304.
(3) الجاحظ، الرسائل، كتاب القيان، جـ2، ص(145-144).
(4) الجاحظ، طبقات المغنين، جـ3، ص135.
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص208.
(2) الجاحظ، رسالة التربيع والتدوير، تحقيق فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، بدون سنة، ص91.

بخطوطهم، ويصيرونه اماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم، ويتأدبون به، ويستعملون الفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم .. فتثبت لهم رياسة يأتم بهم قوم فيه، لانه لم يترجم باسمي، ولم يُنسب الى تأليفي"[3].

ومن اجل ان يكون القارئ قريباً من كتاباته بعيداً عن الملل والرتابة، فانه يضيف الى مايكتبه "بنوادر من ضروب الشعر، وضروب الاحاديث"[4]، ليخرج القارئ من باب الى باب، ومن شكل الى شكل.

وعنده "ان يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل، وعلى ان الكتاب اذا كثر هزله سخف، كما انه اذا كثر جده ثقل. ولابد للكتاب من ان يكون فيه بعض ماينشط القارئ، وينفي النعاس عن المستمع"[5]، والحقيقة ان هذا المنهج في الكتابة هو من المناهج الواعية والمتقدمة لهذا الموضوع.

ويذهب احياناً في مخاطبة القارئ بالمنهج البسيط الذي لايكون عبئاً عليه حتى في الاسلوب اللغوي معلقاً على ذلك "بأن وجدتم في هذا الكتاب لحناً، او كلاماً غير معرب ... انا انما تركنا ذلك لان الاعراب يبغض هذا الباب، ويخرجه عن حده"[1].

كما انه ينتقد غيره من الكتّاب في اسلوبهم بالكتابة، لان ماكتبوه "فروعاً لم يبينوا عللها، وصفات حسنةٍ لم يكشفوا اسبابها، واموراً محمودة لم يدلوا على

(3) الجاحظ، المحاسن والاضداد، تحقيق فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، 1969، ص4.
(4) الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص7.
(5) الجاحظ، الرسائل، النساء، جـ3، ص153.
(1) الجاحظ، البخلاء، دار بيروت، لبنان، 1980، ص61.

اصولها"[2]، وان البعض من هؤلاء الكتّاب "لايحاسبون انفسهم، ولايوازنون بين ماعليهم ولهم"[3].

بينما يرى ان المنهج الصحيح ان تكون كتابه "مذهباً عدلاً، ولايكون كتاب اسرافٍ في مديح قوم، واغراق في هجاء آخرين"[4]، ويضيف: "بأننا لو استعملنا غير الصدق لفضلنا قوماً وحابينا آخرين. ولم نفعل ذلك، تجنباً للحيف، وقصداً للانصاف"[5].

والحقيقة فان المتتبع لمؤلفات الجاحظ سيلاحظ بوضوح التناقض في كلامه هذا وفي بعض مؤلفاته، فهنالك ميول واتجاهات مختلفة لديه لهذه الجهة او تلك، ويدافع عن تلك الجهة ويهاجم الجهة الاخرى بعنف.

بينما يرى بأن مايكتبه فيه "موعظةٍ وتعريف وتفقهٍ وتنبيه"[6]، ومن اجل التحقق من سلامة هذا المنهج يعلق على ذلك قائلاً: "وقد تركنا في كل بابٍ من الابواب التي صنفنا في كتابنا، فُرَجاً لزيادةً ان زادت، ولاحقة ان لحقت، او نابتة ان نبتت"[7].

منهجه في الكتابة الاجتماعية:

تعد كتب ورسائل الجاحظ من المصادر المهمة في المعلومات التاريخية الاجتماعية للمجتمع العربي عبر مراحله التاريخية، وصولاً الى عصر المؤلف، ويعلق احد الباحثين على هذا الموضوع قائلاً: "لقد درس الجاحظ دراسات واسعة من الناحية الادبية ولكن لم يتصدّ احد بعد لالتقاط واستخراج ماتكشفه كتب الجاحظ ورسائله من جوانب التاريخ الاسلامي وخاصة منه التاريخ الاجتماعي .. مع ان هذا الفكر الموسوعي الذكي منجم للمعلومات والمعطيات والاخبار الفريدة"[1].

وان اهتمامه بالجوانب الاجتماعية لاتتركز على عصر المؤلف فحسب، بل ان كتبه ورسائله هي "خلاصة ماعرفته الاجيال التي سبقت الجاحظ والتي تلته من الحكمة والسداد والنصح المنبثق عن وعي وتجربة"[2]، وان المؤرخين القدماء قد انتبهوا الى ملاحظات الجاحظ التاريخية والاجتماعية على وجه الخصوص المسعودي ويقول بهذا: "وقد ألف الناس كتباً في التاريخ والاخبار ممن سلف وخلف، فأصاب البعض وأخطأ البعض، وكل قد اجتهد بغاية امكانه، وأظهر مكنون جواهر فطنته"[3]، ثم يذكر المسعودي هؤلاء الكتاب ويذكر فيما بينهم (ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ).

وتتميز ظاهرة الجاحظ الاجتماعية من خلال تفاعله مع المجتمع، وكان المسجد والمسجديون الذين يلتقون في المسجد، "ان يزيد من تجاربه الانسانية فان المشاهد التي

(2) الجاحظ، الرسائل، رسالة المعاش والمعاد، جـ1، ص96.
(3) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص25.
(4) الجاحظ، الرسائل، مناقب الترك، جـ1، ص36.
(5) م.ن، طبقات المغنين، جـ3، ص(134-133).
(6) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص37.
(7) الجاحظ، الرسائل، طبقات المغنين، جـ3، ص135.
(1) مصطفى، شاكر، التاريخ العربي والمؤرخون، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1978، جـ1، ص218.
(2) الجاحظ، رسائل الجاحظ، تقديم د. الشيخ محمد علي الزعبي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986، ص13.
(3) مروج الذهب، جـ1، ص11.

كانت تمر كل يوم امام ناظريه تتجدد دوماً، فان مخالطة النحويين واللغويين مكنته من ملاحظة الجمهور المتنوع من اعراب وحضريين"[4].

واهم مايميز هذه الظاهرة، استخدامه المنهج التجريبي في الكتابة التاريخية الاجتماعية، وقدرته على الملاحظة والتدقيق والتحليل للظواهر الاجتماعية، ولذلك فقد كانت "ملاحظته الدقيقة لخصائص الاجناس والاقوام وتعليلها بالظروف الطبيعية والاجتماعية التي تحيط بها ثم تقدير مايمكن ان يكون لها"[1].

ولذلك فانه يستخدم في فهمه ملاحظاته على مشاهداته الشخصية اليومية للأحداث، ومنها قوله: "انا اخبرك اني قد رأيت منهم شيئاً عجيباً وامراً غريباً: رأيت في بعض غزوات المأمون ... الخ"[2]، ويقول: "واردت مرة .. وانا خارج من بغداد، وارى فوارس من اهل خراسان .. الخ"[3].

وكانت حصة المجتمع البغدادي الذي عاصره المؤلف، اثراً مهماً في ملاحظاته الاجتماعية، ويشير الى ذلك قائلاً في احدى رسائله: "ولم نقصد في وصف من وصفنا من الطبقات التي صنفنا منهم، الا لمن ادركنا من اهل زماننا ممن حصل بمدينة السلام، واذ خرج عنها ونزع الى الفتوة بعد التوبة، والى اخلاق الحداثة بعد الحنكة، وذلك في سنة خمس عشرة ومائتين"[4]، وهنا نلاحظ ذكره في تحديد السنة التي كتبت فيها رسالته، وكذلك فانه كان محبوباً في البصرة، ولاة واعياناً[5].

ثم انه يقوم بانتقاء الفئات التي يريد دراستها، وهو منهج متخصص في الوصف والتحليل التاريخي والاجتماعي، يبتغي من وراءه الوصول الى تحديد الحقائق مشيراً الى ذلك بالقول: "وسنذكر جميع مافي هذه الاصناف من الآلات والأدوات، ثم ننظر ايهم لها اشد استعمالاً، وبها اشد استقلالاً، ومن اثقب كيسا وافتح عيناً واذكى يقيناً .. وأدوم نفعاً في الحروب .. حتى يكون الخيار في يد الناظر للتصفح لمعانيه، والمقلب لوجوهه، والمفكر في ابوابه"[6].

وابدى الجاحظ اهتماماً بالحياة الشعبية للمجتمع العربي، معتبراً ذلك من المصادر المهمة في تزويده بالمعلومات التاريخية والاجتماعية، وان مؤلفاته "مصدر

(4) بلات، شارل، الجاحظ، ص344.
(1) كتابجي، زكريا، الترك في مؤلفات الجاحظ ومكانتهم في التاريخ الاسلامي حتى اواسط القرن الثالث الهجري، دار الثقافة، بيروت، بدون سنة، ص216.
(2) الجاحظ، الرسائل، مناقب الترك، جـ1، ص61.
(3) م.ن، طبقات المغنين، جـ1، ص62.
(4) الجاحظ، الرسائل، طبقات المغنين، جـ3، ص143.
(5) الحسني، د. احمد حماد، كتاب الحيوان، مقالة تراث الانسانية، جـ3، ص221.
(6) الجاحظ، الرسائل، مناقب الترك، جـ1، ص(30-29).

لاغنى عنه لدراسة البيئة الشعبية في المجتمع العربي قبل الاسلام، وبعد. ومن مزايا هذا المصدر ان كاتبه منحدر من نفس البيئات التي كتب عنها"[1].

ويعطي الجاحظ للخاصة من الناس اهتماماً في احداث الحياة اليومية، "ولكن طموحه وامله في طبقة اهل المعرفة والمتكلمين يأتي بالدرجة الاولى من اهتمامه"[2]، ويعلق على ذلك "بأن اكثر العامة، وبعض الخاصة، لما كانت تجهل الاقسام التي تجب لملوكها عليها، ... حصرنا آدابها في كتابنا هذا لنجعلها قدوة لها، واماماً لتأدبها"[3]، وهنا يظهر اهتمامه بالخاصة من الناس على حساب العامة منهم.

وعندما يعرض فئات الناس الى الدراسة فانه يبتغي من وراء ذلك الى تحليل تلك العناصر الاجتماعية من السكان وباسلوب طريف ومشوق، فعندما يكتب عن اهل العوق، فانه لايريد "ان يذكر العيوب والعاهات .. بل قصد بذلك ان يجلو صورة ناصعة مشرقة لذوي العاهات"[4]، وعندما كتب عن البخلاء، فان اكثر رواياته "واقعة ولكن الجاحظ ستر اسماء نفر من اصحابها"[5]، وغايته الرئيسية في ذكر البخلاء وطرقهم واساليبهم، من اجل ان يوضح للقارئ "حقارة البخلاء ليعظم سخاء العرب عن طريق مقارنة النقيضين"[6].

أهمية مؤلفاته

نظراً لأهمية مؤلفات الجاحظ من الناحية التاريخية والاجتماعية والادبية، فقد اصبحت تلك المؤلفات مصدراً مهماً الى الكثير من المؤلفين في العصور الاسلامية اللاحقة لعصر المؤلف، ونهجوا نهجه في الكتابة، ومنهم "تلميذه المبرد صاحب كتاب الكامل وابن الفقيه صاحب تقويم البلدان والثعالبي .. والبيهقي (كتاب المحاسن والمساوئ ... واثر كتاب الحيوان في رسائل اخوان الصفا .. وقد اخذ القزويني والدميري وهما من علماء الحيوان"[1].

وتتسم مؤلفاته بتعدد المعلومات والمصادر، فأصبحت دائرة موسوعية في فنون ومعارف عديدة، وتتبعنا المصادر العربية القديمة، ومنها بوجه الخصوص الكتب (التاريخية ـ الأدبية)، فلاحظنا ان الكثير من المؤلفين قد انتهج منهجاً موسوعياً في الكتابة، كان مؤسسه الجاحظ، ومنها الكتب الموسوعية كالعقد الفريد، وصبح الاعش،

(1) الموروث الشعبي في آثار الجاحظ، صدر بمناسبة انعقاد الندوة العربية للفلكلور في بغداد من (1-10 آذار 1977)، بغداد، ص6.
(2) النجم، د. وديعة طه، الجاحظ والحاضرة العباسية، مطبعة الارشاد، بغداد، 1965، ص138.
(3) الجاحظ، التاج في اخلاق الملوك، تحقيق وتقديم فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، 1970، ص10.
(4) الجاحظ، البرصان والعرجان والعميان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الرشيد للنشر، بغداد 1982، مقدمة المحقق ص(خ).
(5) فروخ، د. عمر، تاريخ الادب العربي، جـ2، ص308.
(6) جبر، د. جميل، الجاحظ ومجتمع عصره، الطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1958، ص17.
(1) دائرة المعارف الاسلامية، ترجمة احمد الشيناوي، وآخرون، بدون سنة، جـ6، ص238.

ونهاية الأرب، وغيرها من المؤلفات العربية، وسيتضح ذلك من خلال فصول البحث اللاحقة والتي اسهمت في تعزيز رواياته وآرائه.

ويبدو انه كان يتمنى ان تتوارث مؤلفاته وتبقى بين الناس على مر العصور، حيث روى احدهم قائلاً: "كنت عند الجاحظ، فرآني اكتب خطاً رديئاً في ورق رديئ متقارب السطور، فقال لي: مااحسبك تحب ورثتك، فقلت: وكيف ذاك؟ قال: لاني اراك تسيئ بهم فيما تخلفه"[2].

كما انه اجاز لبعض المؤلفين في عصره بالاقتباس من كتبه[3].

واثارت مؤلفات الجاحظ آراء المؤلفين فيما بعد بين مادح وذام له، وكتب ابو حيان التوحيدي كتاباً سماه (تقريظ[4] الجاحظ)[5]، الفه "للاشادة بفضل ابي عمرو فتقمص فيه روحه، وساير اسلوبه، وتأثر طريقته حتى لكأن مؤلفه الجاحظ نفسه"[1]، وان هذا الكتاب مفقود، ولكن ياقوت الحموي ذكر البعض منه قائلاً: "قال ابو حيان في كتاب تقريظ الجاحظ: اني لم اجد في جميع من تقدم وتأخر ثلاثة: لو اجتمع الثقلان على تقريظهم، ومدحهم، ونشر فضائلهم، في اخلاقهم وعلمهم، ومصنفاتهم ورسائلهم، مدى الدنيا الى ان يأذن الله بزوالها، لما بلغوا آخر مايستحقه كل واحد منهم، احدهم: هذا الشيخ الذي انشأنا له هذه الرسالة، وبسببه جشمنا هذه الكلفة، اعني ابا عثمان، عمرو بن بحر"[2]، ويضيف التوحيدي في كتاب آخر له مشيراً الى مؤلفات الجاحظ قائلاً: "وكتبه هي الدر النثير، والنور المطير، وكلامه الخمر الصرف والسحر الحلال"[3].

وهنالك من المؤلفين من يعارض الجاحظ في مؤلفاته، فيرى المؤرخ والجغرافي المسعودي، بان كتاب (الامصار وعجائب البلدان) للجاحظ، "هو كتاب في نهاية الغثاثة، لان الرجل لم يسلك البحار، ولااكثر الاسفار.. وانما كان خاطب ليل، ينقل من كتب الوراقين"[4]، كما ان البعض من من اصحاب الحديث اتهموه بالتزييف والتحريف[5]، وذكرنا سابقاً بان الخطيب البغدادي يعده من اصحاب الحديث وروي عنه الحديث.

---

(2) الشريف المرتضى، امالي المرتضى، جـ1، ص196.

(3) ينظر: ابن قتيبة الدنيوري، ابو محمد عبد الله بن مسلم (ت276هـ/889م)، عيون الاخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون سنة، جـ3، ص(221، 238، 273).

(4) تقريظ: المدح والخير / ينظر: ابن منظور، ابو الفضل جمال الدين محمد (ت711هـ/1311م)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، بدون سنة، جـ7، ص218.

(5) ينظر: ياقوت الحموي، معجم الادباء، جـ15، ص7.

(1) محي الدين، د. عبد الرزاق، ابو حيان التوحيدي، سيرته وآثاره، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979، ص252.

(2) ياقوت الحموي، معجم الادباء، جـ3، ص28.

(3) التوحيدي، ابو حيان علي بن محمد بن العباس (ت414هـ/1023م)، البصائر والذخائر، تحقيق د. وداد القاضي، ط4، دار صادر، بيروت، 1999، جـ1، ص3.

(4) مروج الذهب، جـ1، ص86.

(5) ينظر: النجم، د. وديعة، الجاحظ، ص5.

الفصـل الأول / مكـونات المجتمـع

فــي دائــرة اهتمامــات الجــاحظ بالحيــاة الاجتماعيــة التــي وردت فــي مؤلفاتــه، فقــد اورد ملاحظاتــه عــن مكونــات المجتمــع، عــن القوميــات والــديانات والفئــات والمهــن، وفيمــا يأتي اهمها مع مناقشة آرائه فيها.

أولاً / القوميـات والأجنـاس

أ – العــرب

ان المتتبــع لمؤلفــات الجــاحظ، ســيجده ميــالاً ومــدافعاً عــن القوميــة العربيــة، ومهاجمــاً علــى آراء الشــعوبية فــي ذلــك العصــر، ويــرى فعاليــة القوميــة العربيــة وحضــور مقوماتهــا، لان العــرب "اســتووا فــي التربــة وفــي اللغــة، والشــمائل والهمــة، وفــي الانــف والحميــة، وفــي الاخــلاق والســجية، فســبكوا ســبكاً واحــداً، وافرغــوا افراغــاً واحــداً، وكــان القالــب واحــداً، تشــابهت الاجــزاء وتناســبت الاخــلاط .. جــرى علــيهم حكــم الانفــاق فــي الحســب، وصــارت هذه الاسباب ولادة اخرى حتى تناكحوا عليها، وتصاهروا من اجلها"[(1)].

وعنــده بــان اللغــة هــي العامــل المشــترك الــرئيس فــي حضــور القوميــة ومقوماتهــا، وان اللغــة العربيــة قــد اعطــت للقوميــة العربيــة بعــداً انســانياً وحضــارياً كبيــراً، وبــذلك فانــه يــرى بــان "الكــلام كلامهــم، وهــو ســيد عملهــم، فقــد فــاض بيــانهم، وجاشــت بــه صــدورهم، وغلبــتهم قــوتهم عليــه عنــد انفســهم"[(2)]، وهــذا يــأتي مــن اهتمــام العــرب وقــادتهم ورمــوزهم باللغــة العربيــة، وقــال الخليفــة عمــر بــن الخطــاب (رضــي الله عنــه) فــي ذلــك: "تعلمــوا العربيــة فانها تزيد في المروءة"[(3)].

ان اهتمــام الامــة العربيــة بلغتهــا قــد جعــل "حكمتهــا اشــرف الحكــم، لفضــل اللســان علــى اليــد، والبعــد عــن امتهــان الجســد، اذ خــروج الحكمــة مــن الــذات، بمشــاركة الآلات، اذ لابد للانسان من ان يكون تولى ذلك بنفسه، او احتاج فيه الى آله او معين من جنسه"[(1)].

ويــرى ان الله ســبحانه وتعــالى قــد اشــار الــى فضــل اللغــة العربيــة لانــه "بعــث افضــل انبيــاءه واكــرم رســله مــن العــرب، وجعــل لســانه عربيــاً، وانــزل عليــه قرآنــاً عربيــاً، كمــا قــال الله تعــالى: (بلســان عربــيّ مُبــين)[(2)]. فلــم يخــص اللســان بالبيــان، ولــم يُحمــد بالبرهــان الا عنــد وجــود الفضــل فــي الكــلام، وحســن العبــارة عنــد المنطــق، وحــلاوة اللفــظ عنــد الســمع"[(3)]، وانــه عزَّ وجل قــد بعــث محمــداً (صــلى الله عليــه وســلم) الــى "العجــم فضــلاً عــن العــرب .. فقــد بعثــه

(1) الجاحظ، الرسائل، مناقب الترك، جـ1، ص11.
(2) م.ن، حجج النبوة، جـ3، ص273.
(3) ابن قتيبة، عيون الاخبار، جـ1، ص412.
(1) ابن رشيق، ابو علي الحسن القيرواني (ت456هــ/1064م)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط4، دار الجيل، بيروت، 1972، جـ1، ص19.
(2) القرآن الكريم، سورة الشعراء، الآية 195.
(3) الجاحظ، الرسائل، تفضيل النطق على الصمت، جـ4، ص237.

الـى جميـع العـرب، وكلهـم قومـه، لانهـم جميعـاً يـد علـى العجـم، وعلـى كـل مـن حـاربهم مـن الامم، لان تناكحهم لايعدوهم، وتصاهرهم مقصور عليهم"[4].

ولـذلك اهـتم الرسـول محمـد (صـلى الله عليـه وسـلم) باتقـان اللغـة العربيـة فكـان "افصـح العـرب لسـاناً، واحسـنهم بيانـاً، واسـهلهم مخـارج للكـلام، واكثـرهم فوائـد مـن المعاني، لانه كان من جماهير العرب"[5].

واهـتم العـرب بالنسـب والقرابـة، وتلـك القرابـة "تسـتحق بالانسـاب الثابتـة، والارحـام الشـابكة .. وبطاعـة الآبـاء والعشيرة،وبالشـكر النـافع، والمـديح البـاقي"[6]، ولكنـه يحـذر مـن التعصـب والمفاخرة فـي النسـب لان الامـور المحمـودة والمذمومـة "مـن الجمـال والدمامـة، واللـؤم والكـرم، والجـبن والشـجاعة، فـي كـل حـين، وانتقالهمـا مـن امـة الـى امـة، ووجـود كـل محمـود ومـذموم فـي اهـل كـل جـنس مـن الآدميـين. وهـذا غيـر مـدفوع عنـد الجميـع"[7]، وهـذه اشـارة الـى وجـود طبـائع مختلفـة بـين النـاس فـي العائلـة الواحـدة، بغـض النظر عن الانتماء في النسب لتلك العائلة.

ويميـل الجـاحظ فـي دراسـته للمجتمـع العربـي الـى اهـل البـدو فيصـفهم، بـانهم "اجـود شـماً وألطـف حسـاً مـن غيـرهم، واولادهـم اجـود شـماً مـنهم"[1]، وتـرى الاعرابـي دقيقـاً مهزولاً لايشيب، فيجعل من "ذلك دليلاً على كرم اعراقه وشرف ولادته"[2].

والعـرب تفتخـر بشـجاعتها ومعاركهـا، "وأوعـى لمـا تسـمع، واحفـظ لمـا تـأتى، ولهـا الاشـعار التـي تقيّـد عليهـا مآثرهـا، وتخلـد محاسـنها. وجـرت مـن ذلـك فـي اسـلامها علـى مثـل عاداتهـا فـي جاهليتهـا"[3]، وكـان فرسـان العـرب قبـل الاسـلام "اشـد عـدواً مـن الظبـي، وربمـا جاع احدهم فيعدوا الى الظبي فيأخذ بقرنه"[4].

ويـروي لنـا مـن خـلال مشـاهداته اليوميـة، روايـةٍ يتضـح مـن خلالهـا دماثـة الخلـق العربـي وتـأثيره علـى القوميـات الاخـرى، قـائلاً: "رأيـت عبـداً اسـود حبشـياً .. قـدم مـن شـق اليمامـة .. وكـان وحشـياً لطـول الغربـة مـع الابـل .. فلمـا رآنـي سـكن الـيّ، وسـمعته يقـول: لعن الله ارضاً ليس بها عرب"[5].

وعنـده ان الاعرابـي اذا اعتـراه "البـرص[6] فيجعلـه زيـادة فـي الجمـال، ودلـيلاً علـى المجـد، فمـا ظنـك .. فـي العـرج والعمـى وهمـا لايسـتقذران ولايتقـزز منهمـا ولايعـديان ولايظـن ذلـك بهمـا، ولاينقصـان فـي تـدبير، ولايمنعـان مـن سـؤدد"[7]، وهـي ملاحظـات تـنم عـن ميـول الجـاحظ الـى القوميـة العربيـة والـدفاع عنهـا، ولـذلك فأملـه بـالعرب كبيـر، "ولاتـزال العـرب بخيـر مالبسـت العمـائم وتقلـدت السـيوف وركبـت الخيـل"[8]، وهـي

(4) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السـلام محمد هارون، ط5، مكتبه الخانجي، القاهرة، 1985، جـ3، ص291.
(5) الجاحظ، الرسائل، تفضيل النطق على الصمت، جـ4، ص238.
(6) م.ن، مناقب الترك، جـ3، ص179.
(7) م.ن، المعاد والمعاش، جـ1، ص126.
(1) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص507.
(2) م.ن، ص23.
(3) الجاحظ، البيان، جـ3، ص366.
(4) الراغب الاصبهاني، ابو القاسم حسين بن محمد (ت502هـ/1108م)، محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1961، جـ3، ص141.
(5) الجاحظ، الرسائل، رسالة في الحنين، جـ2، ص406.
(6) البرص: داء معروف، وهو بياض يقع في الجسد / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ7، ص5.
(7) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص16.
(8) الجاحظ، الرسائل، فصل مابين العداوة والحسد، جـ1، ص(362-361).

اشارات تدل على اعتزازه بفروسية العربي وشجاعته، وان هذه السمات هي رموز الخير والنصر في الانسان العربي.

ويرى ان اسباب تفوق العرب على باقي الامم لانهم "لم يكونوا اصحاب جمع وكسب، ولااصحاب احتكار لما في ايديهم وطلب ماعند غيرهم، ولاطلبوا المعاش من السنة الموازيين رؤوس المكاييل .. ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة، ولم يستغنوا الغنى الذي يورث البُلدة .. ولم يحتملوا ذلاً قط فيميت قلوبهم ويصغر عندهم انفسهم. وكانوا سكان فيافٍ وتربية العراء، لايعرفون .. البخار والغِلظُ ولاالعفن، ولاالتخم. اذهان حداد، ونفوس منكرة، فحين حملوا حدهم ووجهوا قواهم لقول الشعر وبلاغة المنطق .. وتصاريف الكلام .. وحفظ النسب، والاهتداء بالنجوم، والاستدلال بالآفاق، وتعرف الانواء، والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب، والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس .. بلغوا بذلك الغاية، وحازوا كل امنية .. وصارت نفوسهم اكبر، وهممهم ارفع من جميع الامم وافخر"[1].

وفي موضوع الدعوة العباسية، فان الجاحظ يقدم لنا ادلته على ان هذه الدعوة هي عربية الانتماء والانتساب، وله الفضل في السبق التاريخي للاشارة الى هذا الموضوع، حيث يبين ان نقباء الدعوة العباسية وهم قادة هذه الدعوة هم من صميم العرب[2].

☞ العرب والشعوبية:

من المواضيع التي تصدى لها الجاحظ في عصره هي ظاهرة الشعوبية، والشعوبية "قوم متعصبون على العرب مفضلون عليهم العجم، ظهرت دعوتهم بعيد عصر الخلفاء بدخول اجيال كثيرة من الفرس والترك والنبط في خدمة الدولة الاسلامية ... وألف الشعوبيون رسائل وكتباً، وصنفوا المسامرات والخطب"[3].

وكانت الشعوبية في عصر الجاحظ، تتصيد الامور التافهة السهلة، المتعلقة "بالمأكل والملبس، الى غير ذلك .. وكذلك وقع الشعوبيون على اشعار العرب في باب

(1) الجاحظ، الرسائل، مناقب الترك، جـ1، ص(70-69).

(2) يذكر الجاحظ هؤلاء النقباء وهم من صميم العرب قائلاً: (كأبي عبد الحميد قحطبة ابن شبيب الطائي، وابي محمد سليمان بن كثير الخزاعي، وابي نصر مالك ابن الهيثم الخزاعي، وابي داود خالد بن ابراهيم الذهلي، وكأبي عمرو لاهز ابن قريظ المرئي، وابي عتيبة موسى بن كعب المرئي، وابي سهل القاسم ابن مجاشع المزني، ومن كان يجري مجرى النقباء ولم يدخل فيهم، مثل مالك ابن الطواف المزني. وبعد فمن هذا الذي باشر قتل مروان .. الاعرب الدعوة) / ينظر: م.ن،جـ1،ص(23-22) مناقب الترك، جـ1، ص(23-22).

(3) علي، محمد كرد، الاسلام والحضارة العربية، ط3، القاهرة، 1968، جـ1، ص35.

الهجاء .. وموقف الجاحظ .. الدفاع عن العرب قومه، فيؤكد عزهم، ومجدهم وكرمهم، ويفوت الفرصة على الشعوبية بإظهار بخلهم، وعاداتهم السيئة ومثالبهم"[1].

ويدافع الجاحظ عن العروبة من الشعوبية المتمثلة في الاقوام "الفارسية والتركية"[2]، وكذلك الموالي في الدولة العربية الاسلامية.

ويرى الجاحظ ان المنهج الفكري للشعوبية لايتركز على اسس سليمة وحقيقية "لانهم بلغوا غايات البدع، ثم قرفوا بذلك العصبية التي هلك بها عالم بعد عالم، والحمَّية التي لاتبقي ديناً الا افسدته ولادنيا الا اهلكتها، وهو ماصارت اليه العجم من مذهب الشعوبية، وماقد صار اليه الموالي من الفخر على العجم والعرب"[3]، ويلاحظ ان الجاحظ لم "يقابل تعصب الشعوبيين الفرس ضد العرب والثقافة العربية الاسلامية بتعصب مماثل ضد الفرس والثقافة الفارسية، بل انه انتقد العقائد الفاسدة والمناقضة لمبادئ الاسلام"[4]، ولذلك وضع كتابيه "(البيان والتبيين) و (البخلاء) ورسائل، ليعظم شأن العرب في حضارتهم وآدابهم وتاريخهم"[5].

ثم يذكر لنا الافكار التي اطلقها الشعوبيون ضد العرب، وتتضح هشاشة تلك الافكار لمن يطلع عليها للوهلة الاولى، لان الشعوبية ارتكزت في ذلك على عادات وتقاليد عربية موروثة وبسيطة لاتشكل ظاهرة سلبية حقيقية، بينما ترك الشعوبيون الكثير من التقاليد العربية الانسانية والمهمة والتي اثرت على تطور التاريخ الانساني دون الاشارة اليها، واولى تلك المطاعن على خطباء العرب "بأخذ المخصرة[6] عند مناقلة الكلام .. وكذلك الاسجاع عند المنافرة والمفاخرة .. والقول عند المعاقدة والمعاهدة .. مع الذي عابوا من الاشارة بالعصى، .... ولزومهم العمائم في ايام الجموع، واخذ المخاصر في كل حال، وجلوسها في خطب النكاح .. والتماسح بالأكف .. والتعاقد على الملح، واخذ العهد الموكد"[1]، وكذلك "الاتكاء والاعتماد على القوس .. والاشارة بالقضيب"[2]، والحقيقة ان تلك العادات هي من السجايا الانسانية الجميلة والتي تساعد على تنمية العلاقات الاجتماعية بصورة افضل، ولذلك يبرز الجاحظ الاسباب الحقيقية للشعوبية من وراء هذا التضليل، قائلاً في ذلك: "والشعوبية .. المبغضون لآل النبي، صلى الله عليه وسلم، واصحابه ممن فتح الفتوح، وقتل المجوس، وجاء بالاسلام، تزيد في جشوبة عيشهم، وخشونة ملبسهم، وتنقص من نعيمهم ورفاغة عيشهم"[3].

ثم يبين مآل اليه ملوك فارس بمجيء الاسلام، وكيف تمزقت عروشهم، مما دفع بالشعوبيين ان يتخذوا موقفاً معادياً للعرب حملة راية الفتوح والاسلام، وذاكراً في ذلك رواية تاريخية حيث تذاكر حذيفة بن اليمان وسلمان الفارسي اعاجيب الزمان، وتغير الايام، وهما في عرصة ايوان كسرى، وكان هنالك اعرابي يرعى الغنم نهاراً،

---

(1) حمدي، د. محمد بركات، سخرية الجاحظ من بخلائه، ط2، عمان، 1982، ص37.
(2) أمين، احمد، ظهر الاسلام، ط5، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969، جـ1، ص63.
(3) الجاحظ، الرسائل، رسالة في النابتة، جـ2، ص20.
(4) الملاح، د. هاشم يحيى، الجاحظ واسهاماته الثقافية، مجلة المورد، ص51.
(5) جبر، د. جميل، الجاحظ، ص23.
(6) المخصرة: شيء يأخذه الرجل بيده ليتوكأ عليع مثل العصا ونحوها / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ4، ص242.
(1) الجاحظ، البيان، جـ2، ص(7-5).
(2) م.ن، جـ1، ص383.
(3) الجاحظ، البخلاء، ص319.

فاذا كان الليل صيرهن الى داخل العرصة، وفي العرصة سرير رخام كان كسرى ربما جلس عليه، فصعد الغنم على سرير كسرى، فتعجبا من تغير احوال الزمان[4].

ثم يبرز سلامة نيته في الدفاع عن العرب، وانتقاده لملوك فارس قائلاً: "فان تعجبت من استسقاطي لعقل كسرى ابرويز وآبائه، واحبائه وقرابته، وكتابه واطبائه، وحكمائه .. فاني اقول في ذلك قولاً تعرف به اني ليس الى العصبية ذهبت"[5]، ثم يدافع عن العرب قائلاً: "فان اثرت ان تتعجب، حتى دعاك التعجب الى ذكر ابرويز، فأذكر سادات قريش، فانهم فوق كسرى وآل كسرى"[6].

ثم يبين بطلان ادعاءات الشعوبيين، لانهم على علم بحقيقة الامر، "فمتى اخذت بيد الشعوبي فأدخلته بلاد الاعراب الخُلص، ومعدن الفصاحة التامة، ووقفته على شاعر .. او خطيب .. علم ان الذي قلت هو الحق، وابصر الشاهد عياناً. فهذا فرق مابيننا وبينهم"[7].

كما تشير لنا الروايات التاريخية عن فشل البعض من هؤلاء الشعوبيين في اعمالهم اليومية، وضعف تأثيرهم، فعندما قدم الخليفة المأمون الى العراق امتحن الكاتب ابراهيم بن اسماعيل بن داوود فتعنت،ثم أستنهضه في الأعمال ففشل، وكان ابراهيم شعوبيا، وكان يتهم بالثنوية[1]، بينما "عقول العرب فوق الديانة بعبادة الاصنام والخشب المبخور، والحجر المنصوب، والصخرة المنحوتة"[2].

ويستمر الجاحظ في دفاعه عن العرب، فيؤلف كتاب "الصرحاء والهجناء، والصرحاء هم العرب الخلص النسب، والهجناء هم اولاد الأماء"[3]، و "الهجين عند العرب الذي ابوه شريف وامه وضيعة والاصل في ذلك ان تكون أمةً، وانما قيل هجين من اجل البياض .. والدليل ان الهجين الابيض ان العرب تقول مايخفى ذلك على الاسود والاحمر أي العربي والعجمي ويسمون الموالي وسائر العجم الحمراء"[4].

"وقد نجمت من الموالي ناجمة، ونبتت منهم نابتة، وتزعم ان المولى بولايةٍ قد صار عربياً .. وقد جعل الله المولى بعد ان كان عجمياً عربياً بولائه، كما جعل حليف قريش من العرب قرشياً بحلفه"[5]، وادعاء الموالي في هذا من اجل ان يتداخلوا مع المجتمع العربي وبمبررات عديدة، وليصبحوا اسياداً فيه بينما كانت العرب تقول:

---

(4) ينظر: الجاحظ، البيان، جـ3، ص148.
(5) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص(327-326).
(6) م.ن، جـ5، ص328.
(7) الجاحظ، البيان، جـ3، ص30.
(1) ينظر: الجاحظ، الرسائل، ذم اخلاق الكتاب، جـ2، ص204.
(2) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص327.
(3) الحاجري، الجاحظ، ص240.
(4) المبرد، ابو العباس محمد بن يزيد (ت285هـ/897م)، الكامل في اللغة والادب، بيروت، بدون سنة، جـ1، ص314.
(5) الجاحظ، الرسائل، رسالة في النابتة، جـ2، ص21.

"لايزال الناس بخير ماتباينوا فاذا تساووا هلكوا. وتقول: لايزالون بخير ماكان فيهم اشراف واخيار"[6].

ويدحض آراء الموالي في ذلك قائلاً: "واي شيء اغيض من يكون عبدك يزعم انه اشرف منك وهو مقرٌ انه صار شريفاً بعتقك اياه. وقد كتبت ... في رد الموالي الى مكانهم من الفضل والنقص، والى قدر ماجعل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف. وارجو ان يكون عدلاً بينهم، وداعيةً الى صلاحهم، ومنبهةً لما عليهم ولهم"[1].

القبائل العربية:

ضمن اعتزاز الجاحظ بالعرب، فقد اشار في مؤلفاته الى جوانب عديدة من الحياة العربية، ومنها القبائل العربية، وما تتمتع به تلك القبائل من السمو والرفعة والشرف.

قريش:

ويبين المكانة المرموقة لقريش في الحياة العربية، ويظهر ميوله واندفاعه مع قريش، وقريش "اسم اشتق لهم من التجارة والتقريش، فهو افخم اسمائهم واشرف انسابهم، وهو الاسم الذي نوه الله تعالى به في كتابه، وخصهم به في محكم وحيه وتنزيله، فجعله قرآناً عربياً يتلى في المساجد، ويُكتب في المصاحف"[2]، وقيل وانها "كانت تجاراً تكتسب وتتجر .. فشبهت بحوت في البحر"[3].

وقيل ايضاً بان قريش كانت تدعى النضر بن كنانة، وكانوا متفرقين في بني كنانة، فجمعهم قصي بن كلاب بن مرة .. من كل ادب الى البيت، فسموها قريشاً. والتقريش: التجميع. وسمي قصي بن كلاب مجمعاً"[4].

وتنقسم قريش الى قريش البطاح، والظواهر، "وقريش البطاح: هي قبائل عبد مناف، وبني عبد الدار، وبني عبد العزى بن قصي، وزهرة، ومخزوم، وتيم بن مرة، وجمح، وسهم، وعدي،.. وبنو عتيك بن عامر بن لؤي. وقريش الظواهر: بنو محارب والحارث بن فهر، وبنو الادرم بن غالب بن فهر، وبنو هصيص بن عامر بن لؤي"[1].

وكانت مكة رمزاً مهماً عند قريش قبل الاسلام، وكانت "العرب قاطبة ترد مكة في ايام الموسم، وترد اسواق عكاظ وذا المجاز، وتقيم هناك الايام الطوال، فتعرف قريش لاجتماع الاخلاق لهم والشمائل والالفاظ، والعقل والاحلام، وهي وادعة وذلك

---

(6) ابن عبدربه الاندلسي، احمد بن محمد (ت597هـ/1200م)، العقد الفريد، تحقيق د. عبد المجيد الترجيني، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، جـ3، ص(357-356).

(1) الجاحظ، الرسائل، رسالة في النابتة، جـ2، ص22.

(2) م.ن، مدح التجار وذم عمل السلطان، جـ4، ص256.

(3) الازرق، ابو اليد محمد بن عبد الله بن احمد (ت244هـ/858م)، اخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الاندلس، بيروت، بدون سنة، جـ1، ص108.

(4) ابن عبدربه، العقد الفريد، جـ3، ص266.

(1) المسعودي، مروج الذهب، جـ1، ص376.

قائم لها، راهن عندها في كل عام، تمتلك عليهم فيقتسمونهم، فتكون غطفان للميرة، وبنو عامر لكذا، وتميم لكذا، تغلبها المناسك وتقوم بجميع شأنها"[2].

ومن عادات قريش قبل الاسلام في مكة اذا احرموا في غير الاشهر الحرم "لم يدخلوا بيوتهم من ابوابها، ودخلوها من ظهورها اذا كانوا من اهل الوبر، واذا كانوا من اهل المدر نقبوا في بيوتهم مايدخلون ويخرجون منه، ولم يدخلوا ولم يخرجوا من ابواب البيوت"[3].

ويتضح كرم قريش في مواسم الحج، "فسقوا الحجيج، واقاموا القرى لزوار الله تعالى، وهم بوادٍ غير ذي زرع ... وقد اورث ذلك صدورهم من السعة بقدر مااورث غيرهم من الضيق"[4]، وهذه اشارة الى دعمه للعروبة ضد الشعوبية، فضلاً عن ذلك، فان لقريش قبل الاسلام مكارم اخرى ومنها، العمارة، والسدانة، والحجابة، والندوة، واللواء، والمشورة، والسفارة، والحكومة، يتوارثون ذلك كابر عن كابر[5].

ولنقاوة عرقهم ونسبهم "فانها لم تلد في الجاهلية ولداً قط لغيرها ولقد اخذ ذلك منهم سكان الطائف، لقرب الجوار وبعض المصاهرة"[6].

ولذلك فاننا نرى قريش "قوم لم يزل الله تعالى يقلبهم في الارحام البريئة من الآفات، وينقلهم من الاصلاب السليمة من العاهات، ويعبيهم لكل جسيم، ويربيهم لكل عظيم"[7].

واستمرت مآثر قريش بظهور الاسلام، فمنهم "النبوة والخلافة والشورى"[1]، وما اتسمت به قريش من سائر العرب "ان الله تعالى جاء بالاسلام وليس في ايدي جميع العرب سبيةٍ من جميع نساء قريش، ولاوجدوا في جميع ايدي العرب ولداً من امرأة من قريش"[2].

وهذه الخصال التي اتصفت بها، قد خصها الله تعالى بذلك لانهم "اقرب الناس بيوتاً من بيت الله، واقربهم قرابةً من رسول الله"[3] صلى الله عليه وسلم.

ثم ان الجاحظ يذهب اكثر من ذلك في دعمه ومساندته لقريش، وهم نواة ودعاة الاسلام، فيرى ان الله تعالى احبهم لانهم "حُمساً تنسُك في دينها، وتتأله في عبادتها. وكان مانعاً لهم من الغارات والسباء، ومن وطء النساء من جهة المغنم، ولذلك لم يئدوا البنات ولاولدت منهم امرأة غيرهم من جهة السباء، ولازوجوا احداً من العرب حتى يتحمس ويدين بدينهم. ولذلك لما صاروا الى بناء الكعبة لم يخرجوا في بنائها من اموالهم الا مواريث آبائهم ونسائهم، خوفاً من ان يخالطه شيء من حرام، اذ كانت ارباح التجارات مخوفاً عليها ذلك. فلما كانوا بوادٍ غير ذي زرع ويحتاجون الى الاقوات، واقامة القرى، ولم يجدوا بداً من ان يتكلفوا مايعيشهم ويصلح شأنهم، فأخذوا الايلاف،

---

(2) الجاحظ، الرسائل، الاوطان والبلدان، جـ4، ص118.
(3) الشريف المرتضى، أمالي المرتضى، جـ1، ص377.
(4) الجاحظ، الرسائل، رسالة في المعلمين، جـ3، ص(47-46).
(5) ينظر: ابن عبدربه، العقد الفريد، جـ3، ص268.
(6) الجاحظ، الرسائل، الاوطان والبلدان، جـ4، ص115.
(7) م.ن، المعلمين، جـ3، ص46.
(1) ابن حبيب، ابو جعفر محمد (ت245هـــ/858م)، المحبر، تصحيح ايلزه ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون سنة، ص165.
(2) الجاحظ، الرسائل، الاوطان والبلدان، جـ4، ص115.
(3) الثعالبي، ثمار القلوب، ص12.

ورحلوا الى الملوك بالتجارات"[4]، وهذا تفسير يبين فيه اهتمام قريش بالتجارة وهي مكسبهم الرئيس في حياتهم.

وبذلك اصبحت قريش موضع الاحترام والتقدير لدى القبائل الاخرى، فاننا لم نر قريشياً انتسب الى قبيلة من قبائل العرب، "وقد رأينا من قبائل العرب الاشراف رجالاً ... ينتسبون في قريش .. الذي وجدنا من ذلك في بني سليم، وفي خزاعة، وفي قبائل شريفة"[5].

ومن خصالهم الاخرى انهم "لم يشاركوا العرب والاعراب في شيء من جفائهم، وغلظ شهواتهم، وكانوا لايأكلون الضباب، ولاشيئاً من الحشرات"[1]، وقد علم الناس كيف "كرم قريش وسخاؤها، وكيف عقولها ودهاؤها، وكيف رأيها وذكاؤها، وكيف سياستها وتدبيرها .. وكيف رجاحة احلامها اذا خف الحليم، وحدة اذهانها"[2].

ان الوصف للقبائل العربية وتقسيماتها هو اشبه بما يكون بتقسيم الجسم الانساني الارفع فالارفع، "فالشعب اعظمها، ومشتق من شعب الرأس، ثم القبيلة من قبلته، ثم .. الصدر، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة"[3].

وكذلك تفاوتت مكانة القبائل العربية في المجتمع العربي، فربما قبيلة "سعدت بالحظ، وربما حظيت بالجد، وانما ذلك على قدر الاتفاق، وانما هو كالمعافى والمبتلى"[4].

وتشترك القبيلة العربية في عدة محاسن حميدة، فان "تباغض الاقرباء عارض دخيل، وتحابهم واطد اصيل .. والتناصر اعمم، والتصادق في المودة اكثر. فلذلك القبيلة تنزل معاً وترحل معاً، وتحارب من ناوأها معاً"[5]، وايضاً فقد اشتركت القبائل العربية في الصورة والشمائل والاخلاق، "وكلهم مع ذلك عربي خالص غير مشوب"[6].

بنو هاشم:

يبرز الجاحظ في مؤلفاته دور العرب الريادي في الحياة الانسانية، ويبرز الدور الكبير لقريش في حياة العرب، ثم يستعرض دور بني هاشم في تلك الحياة، وهذه الاتجاهات والميول تأتي في انتساب الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى قريش وهو الهاشمي النسب، ولابد للكاتب العربي المسلم ان يعزز دورهم في ذلك، فيرى ان خصال قريش في الجاهلية: اللواء والندوة والسقاية وزمزم والحجابة، وهذه الخصال "مقسومة

(4) الجاحظ، الرسائل، المعلمين، جـ3، ص47.
(5) م.ن، الاوطان والبلدان، جـ4، ص114.
(1) الجاحظ، الرسائل، الاوطان والبلدان، جـ4، ص117.
(2) القيرواني، ابو اسحاق ابراهيم بن علي (ت453هـ/1061م)، زهر الآداب وثمر الالباب، شرح د. زكي مبارك، ط4، دار الجيل، بيروت، بدون سنة، جـ1، ص(96-95).
(3) ابن رشيق، العمدة، جـ2، ص191.
(4) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص102.
(5) الجاحظ، الرسائل، النساء، جـ3، ص149.
(6) م.ن، مناقب الترك، جـ3، ص169.

في الجاهلية لبني هاشم وعبد الدار وعبد العزى، دون بني عبد شمس. على ان معظم ذلك صار شرفه في الاسلام الى بني هاشم"[1].

ولذلك قال الجاحظ واصفاً ذلك: "العرب كالبدن وقريش روحها، وهاشم سرها ولبها، وموضع غاية الدين والدنيا منها. وبنو هاشم ملح الارض، وزينة الدنيا، وحُلى العالم .. ولباب كل جوهر كريم، وسر كل عنصر لطيف"[2].

وعنده ان للهاشمي سمات وصفات تستبين على صورته، "ولابد للهاشمي، قبيح الوجه كان او حسناً، او دميماً كان او بارعاً رائعاً، من ان يكون لوجهه وشمائله طبائع يبين بها من جميع قريش وجميع العرب"[3]، وهذه اشارة الى دماثة الخلق عند الهاشميين والتي تتضح ملامحها من خلال سيماهم.

ويرى بانه هنالك ثلاث رجالٍ بني اعمام في بني هاشم، "في زمانٍ واحدٍ، كلهم يسمى محمداً، وكلهم سيد وفقيه وعابد، يصلح للرياسة والامامة .. وهذا من اغرب مايتهيأ قي العالم، ويتفق في الازمنة، وهذه لايشركهم فيها احد، ولايستطيع ان يدعى مثلها احد"[4].

ويرى ان الله تعالى قد حبا بني هاشم بكثرة عددهم، وذلك من اعظم مفاخر العرب، "فولد علي بن عبد الله بن العباس[5] اليوم مثل جميع بني عبد شمس. وكذلك ولد الحسين بن علي بن ابي طالب، هذا مع قرب ميلادهما"[6]، ثم يقدم لنا احصائية عددية لبني آل ابي طالب، قائلاً: "فتهيأ في آل ابي طالب من الاذكار مالم نعرفه في قديم الدهر وحديثه، ولافيما قرب من البلدان ولافيما بعد. وذلك ان آل ابي طالب احصوا منذ اعوام .. فكانوا قريباً من ألفين وثلاثمائة، ثم لايزيد عدد نسائهم على رجالهم الا دون العشر. وهذا عجب"[1]، ويبدو لنا ان هذا الرقم هو موضع عجب عند الجاحظ، وعلى الرغم من

---

(1) الجاحظ، آثار الجاحظ، تقديم عمر ابو النضر، ط1، فضل هاشم على عبد شمس، 1969، ص193.

(2) الثعالبي، ثمار القلوب، نقلاً عن الجاحظ، ص13.

(3) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص140.

(4) هؤلاء الرجال هم: محمد ابن علي بن عبد الله بن العباس، ومحمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب، ومحمد بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب / ينظر: الجاحظ، الرسائل، الاوطان والبلدان، جـ4، ص121.

(5) ابو محمد علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي، وهو جد السفاح والمنصور الخليفتين، توفي سنة سبع عشر ومائة بالحميمة وهو ابن ثمانين سنة / ينظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ3، ص(378-274).

(6) الجاحظ، آثار الجاحظ، فضل هاشم على عبد شمس، ص206.

(1) الجاحظ، الرسائل، الاوطان والبلدان، جـ4، ص123.

انه لايمثل عدداً كبيراً، ولذلك فقد يكون ذلك الاحصاء قد شمل الطالبيين الساكنين في مدينة بغداد فقط في حينها.

وقصي وهو جد بني هاشم، "فكان له الشرف والرياسة من قريش في الجاهلية"[(2)] في ابناءه، وقصي هذا "اول رجل من بني كنانة اصاب ملكاً، واطاع له به قومه"[(3)].

بنو بدر:

ضمن اعتزاز الجاحظ بالقبائل العربية، فانه يذكر باعتزاز بني بدر، "ولم يتهيأ من الشاهد والمثل لمادح في احدٍ من العرب، ماتهيأ لبني بدر"[(4)].

وبيوتات العرب قبل الاسلام ثلاثة: "فبيت قيس في الجاهلية بنو فزارة ومركزه بنو بدر، وبيت ربيعة بنو شيبان، ومركزه ذو الجدين، وبيت تميم بنو عبد الله بن دارم، ومركزه بنو زرارة"[(5)]، وبنو بدرٍ "كانو مفحمين، وكان ماالطلق الله به ألسنة العرب خيراً لهم من تصيير الشعر في انفسهم"[(6)].

بنو مخزوم:

ويذكر الجاحظ باعتزاز كذلك بني مخزوم، فلم "تمدح قبيلة في الجاهلية، من قريش، كما مُدحت مخزوم"[(7)]، ويضيف قائلاً: "بنو مخزوم ضُرب بهم المثل، ووصفوا في كل غاية، فقيل: انبهُ من مخزومي"[(8)].

ولكنه وضمن ملاحظاته الاجتماعية للمجتمع العربي، فانه يلاحظ الكبر والغرور لدى بني مخزوم، مما جعلهم بمستوى هو اقل من مستوى بعض القبائل العربية الاخرى، قائلاً في ذلك: "واختصاصهم بالتيه والكبر، فانهم ابطرهم ماوجدوه لانفسهم من الفضيلة، ولو كان في قوى عقولهم فضل على قوى دواعي الحمية فيهم لكانوا كبني هاشم في تواضعهم وفي انصافهم لمن دونهم"[(1)].

عبد القيس:

ضمن اهتمامات الجاحظ بالدور البيئي والنفسي في تكوين الشخصية ودورها في الحياة الاجتماعية، فانه يرى بأن عبد القيس النازلين قرى البحرين، قد لمعوا في الشعر، ويعزى السبب "الى ان طعامهم اطيب من طعام اهل اليمامة"[(2)].

---

(2) ابن حبيب، المحبر، ص164.
(3) الازرق، اخبار مكة، جـ1، ص107.
(4) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص382.
(5) ابن رشيق، العمدة، جـ2، ص192.
(6) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص381.
(7) م.ن، جـ4، ص(382-381).
(8) الثعالبي، ثمار القلوب، نقلاً عن الجاحظ، ص298.
(1) الثعالبي، ثمار القلوب، نقلاً عن الجاحظ، ص117.
(2) م.ن، جـ4، ص380.

بنـو الحارث:

ويـرى الجـاحظ بانـه لبنـي الحـارث الشـرف، وهـم فـي كعـب "يجـرون مجـاري ملـوك اليمن، ومجـاري سـادات اعـراب اهـل نجـد، ولـم يكـن لهـم فـي الجاهليـة كبيـر حـظٍ فـي الشـعر. ولهم في الاسلام شعراء مفلقون"[3].

بنـو حنيفة:

نـرى ان بنــي حنيفـة يتمتعـون بمزايـا عديـدة، ويفقـدون الـى مزايـا اخـرى، فبنـو حنيفـة "مـع كثـرة عـددهم، وشـدة بأسـهم، وكثـرة وقـائعهم، وحسـد العـرب لهـم علـى دارهـم وتخـومهم وسـط اعـدائهم، حتـى كـأنهم وحـدهم يعـدلون تكبـراً كلهـا. مـع ذلـك لـم نـر قبيلـة قـط اقـل شـعراً منهم"[4].

بنـو اسد:

يتمتـع رجـال بنـي اسـد بالقـدرة فـي المخاطبـة والكـلام، فهـم مـن القبائـل العربيـة التـي اتسـمت بـالادب والخطابـة حتـى قـال عمـر بـن عبـد العزيـز: "مـاكلمني رجـل مـن بنـي اسـد الا تمنيـت ان يمـد لـه فـي حجتـه حتـى يكثـر كلامـه فأسـمعه .. ولـيس فـي بنـي اسـد الا خطيـب، او شاعر، او زاجر، او كاهن، او فارس"[1].

ب ـ الـزنج:

ضـمن ماطرقتـه مؤلفـات الجـاحظ فـي الاجنـاس والقوميـات، فـان المؤلـف قـد تطـرق الى موضوع الزنج ويقصد بذلك "الجنس الاسود عموماً بما فيه الهنود"[2].

وفـي ضـوء ذلـك كتـب رسـالته "التـي ينـاقش فيهـا فخـر السـودان علـى البيضـان ويبحث في حقوقهم في المجتمع"[3].

وعنـده ان الـزنج امـة مـن الامـم المهمـة فـي الارض، معلقـاً علـى ذلـك: "اذا سـمعتموني اذكـر العـوام فـاني لسـت اعنـي الفلاحـين والحشـوة والصـناع والباعـة .. وانمـا الامـم المـذكورون مـن جميـع النـاس اربـع: العـرب، وفـارس، والهنـد، والـروم. والبـاقون همـج واشـباه الهمـج"[4]، ولكنـه لـم يكـن كثيـر السـفر والترحـال، فقـد تكـون هـذه الصـفة المطلقـة علـى الآخـرين، جـاءت بـدون التحقـق والاثبـات مـن ذلـك، ويمتـاز الـزنج بسـواد لـونهم "ولايقال للزنج والحبشة والنوبة بيض ولاحمر، وليس لهم اسم الا السود"[5].

---

(3) م.ن، جـ4، ص381.
(4) الحيوان، جـ4، ص380.
(1) الجاحظ، البيان، جـ1، ص174.
(2) جبر، د. جميل، الجاحظ، ص68.
(3) النجم، د. وديعة، الجاحظ، ص113.
(4) الجاحظ، البيان، جـ1، ص137.
(5) الجاحظ، الرسائل، فخر السودان، جـ1، ص210.

ويبين انواع الزنج آنذاك، قائلاً: "رأيت السبي يجيء من سواحل قنبلة[1] وغياضها واوديتها .. وقنبلة: اسم الموضع الذي ترفون منه سفنكم الى ساحله لأن الزنج ضربان: قنبلة ولنجويه[2]"[3].

ولذلك فاننا نجد ان الجاحظ قد عرض لنوعين من الزنج احدهما بالاصالة، وللآخر بالتبعية، فاما الذين ذكرهم اصالة فهم الزنج "ومنهم اليهم من اهل النوبة والحبشة، واما الآخرون فهم من عداهم كأهل الهند والسند .. ثم بعض القبائل العربية التي غلب السود عليها كبني سليم"[4].

ويرى ان الاختلاط بين الزنج والبيض يولد انساناً سماه الخلاس، "والعادة من هذا التركيب انه يخرج اعظم من ابويه واقوى من اصليه ومثمريه"[5].

ويرى بأن للزنوج صفات تميزهم عن الآخرين، "فليس في الارض امة في شدة الابدان وقوة الاسر أعم منهم فيهما. وان الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الاعراب وغيرهم. وهم شجعان اشداء الابدان اسخياء"[6]، وانهم اذا اقبلوا "بحرابهم ورماحهم وقسيهم وسيوفهم، وراياتهم، وخيولهم وفيولهم ـ مع سواد الوانهم وضخم ابدانهم ـ رأيت هولاً لم ترَ مثله ولم تسمع به، ولم تتوهمه"[7].

وعلىالرغم من صفات الشجاعة والشدة لدى الزنوج، لكن "لاتراه ابداً الا طيب النفس ضحوك السن، حسن الظن"[8].

ومن صفاتهم الحسنة الاخرى، انهم "اولو فصاحة في ألسنتهم، وفيهم خطباء بلغتهم، يقف الرجل الزاهد منهم فيخطب على الخلق الكثير منهم، ويرغبهم في القرب من بارئهم، ويبعثهم على طاعته، ويرهبهم من عقابه وصولته"[9].

ومن سماتهم الاخرى في سواد لونهم، بأنهم يختلفون عن الشقران والحمران في ميزة مفيدة، لانه من اتصف ببياض لونه "واذا خاف النخاس ان يكون ذلك البياض برصاً قرص ذلك المكان، فان احمر فهناك دم، وان لم يحمر عزم على ان به عيباً وفحشة"[1].

وقد تعلم الزنج بعض العادات والتقاليد بالفطرة، "فهم اطبع الخلق على الرقص .. والموزون والضرب بالطبل على الايقاع الموزون من غير تأديب ولاتعليم"[2].

---

(1) قنبلة: هي جزيرة من احواز الزنج ومتصلة بجبل القمر وبلاد سُفالة الزنج، وهذه الجزيرة اهلها مسلمون وبلاد بربراً / ينظر: المسعودي، التنبيه والاشراف، دار مكتبة التراث، بيروت، 1981، ص67.

(2) لنجوية: هي جزيرة عظيمة بأرض الزنج فيها سرير ملك الزنج واليها تقصد المراكب من جميع النواحي / ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ5، ص23.

(3) الجاحظ، الرسائل، فخر السودان، جـ1، ص211.

(4) الحاجري، د. طه، الجاحظ، ص(242-241).

(5) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص157.

(6) الجاحظ، الرسائل، فخر السودان،جـ1، ص195.

(7) م.ن، جـ1، ص(201-200).

(8) م.ن، جـ1، ص196.

(9) المسعودي، مروج الذهب، جـ1، ص339.

(1) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص56.

(2) الجاحظ، رسائل الجاحظ، شرح محمد افندي ساسي المغربي، فخر السودان على البيض، مطبعة السعادة، مصر، ص63.

وان البعض من هذه الصفات الايجابية لدى الزنوج، دفع بالرجال نحو النساء الزنجيات، فهذا الفرزدق[3] الذي كان "اعلم الناس بالنساء، وكان قد جرب الاجناس كلها فلم يجد مثلهن، ولذلك تزوج ام مكية الزنجية واقام عليها، وترك النساء للذي وجد عندها. وفي ذلك يقول:

يارب خودٍ[4] من بنات الزنج تمشي بتنورٍ شديد الوهج"[5].

ويرى الجاحظ ان لاهل السند في الطبخ طبيعة[6]، يختلفون فيها عن الآخرين. ومن صفات الزنج السخاء والكرم، وعند بعض الناس ان ذلك عائداً الى ضعف عقولهم ولجهلهم بالعواقب، ويناقش الجاحظ هذا الرأي مفنداً له، قائلاً: "بئس مااثنيتم على السخاء والاثرة، وينبغي في هذا القياس ان يكون اوفر الناس عقلاً واكثر الناس علماً ابخل الناس بخلاً واقلهم خيراً. وقد رأينا الصقالبة ابخل من الروم، والروم ابعد رويّة واشد عقولاً ... ولو كان العقل كلما كان اشد كان صاحبه ابخل، كان ينبغي ان يكون الصبي اكرم الناس خصالاً. ولانعلم في الارض شراً من صبي: هو اكذب الناس وأنمُّ الناس، واشره الناس وابخل الناس، واقل الناس خيراً .. وانما يخرج الصبي من هذه الخلال اولاً فأولاً، على قدر مايزداد من العقل فيزداد من الافعال الجميلة .. فالعقل هبة، وحسن الخُلق هبة، والسخاء والشجاعة كذلك"[1]، وبهذا تظهر قدرة الجاحظ العقلية في دحض افكار الآخرين.

ثم يضع مقارنة في آداب الطعام بين الزنجي وغيره من الناس، فيرى اعجابه بالزنجي في طريقة تناوله للطعام، حيث روى احدهم اليه قائلاً: "لم انتفع بأكل التمر الا مع الزنج واهل اصبهان. فأما الزنجي فانه لايتخير وانا اتخير، واما الاصبهاني فانه يقبض القبضة ولايأكل من غيرها، ولاينظر الى مابين يديه حتى يفرغ من القبضة"[2].

وان السندي "اذا صار الى البدو، وهو طفل خرج افصح ... ولهم طبيعة في الصرف، لاترى بالبصرة صيرفياً الا وصاحب كيسه سندي"[3]، وبذلك تظهر محاسن اهل الزنج بصور متعددة في المجتمع.

ويضيف الجاحظ الى سماتهم، سمة اخرى، وهي ان اهل السند لايتطبعون بسهولة الى بعض الوظائف والاعمال الاجتماعية، فقد تمت محاولة "التحويل رجال السند الى موضع الفراشين من الروم، فلم يفلحوا فيه"[4].

وعند الجاحظ بأن لبعض الاحباش سمة اطلق على تسميتها اللّطع، وهو "ضرب من البرص، وهو يصيب بواطن شفاه الخصيان من الحبشان ... وربما كان الحبشي منهم ضخماً .. فيكون هولاً من الاهوال"[5].

---

(3) الفرزدق، واسمه همام، بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع، وانما سمي الفرزدق، لانه شُبه وجهه بالخبزة، وهي فرزدقة / ينظر: الجمحي، محمد بن سلام (ت231هـ/844م)، طبقات فحول الشعراء، شرح محمود محمد شاكر، القاهرة، جـ2، ص298.

(4) خود: الفتاة الحسنة الخلق الشابة / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ3، ص165.

(5) الجاحظ، الرسائل، فخر السودان، جـ1، ص214.

(6) الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص435.

(1) الجاحظ، الرسائل، فخر السودان، جـ1، ص(197-196).

(2) الجاحظ، البخلاء، ص273.

(3) الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص434.

(4) م.ن، جـ3، ص435.

(5) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص57.

وقـد دخلـت ثلاثـة اشـياء مـن بـلاد الـزنج الـى المجتمـع العربـي، ومنهـا "الغاليـةُ، وهـي اطيـب الطيـب وافخـره واكرمـه. ومنهـا الـنعش[6] وهـو اسـتر للنسـاء واصـون للحُـرم. ومنها المصحف، وهو اوقى لما فيه واحصن له، وابهى وأهيأ"[7].

جـ - الترك:

بعـد ان اطلعنـا علـى مؤلفـات الجـاحظ وماجـاء فيهـا مـن معلومـات عـن التـرك، فقـد وجـدنا ان كتاباتـه فـي هـذا الميـدان قائمـة علـى الوصـف اكثـر مـن التحليـل والاسـتنتاج، وانـه كثيـراً مايـذهب الـى المـدح المبـالغ فيـه بـالترك دون ابـراز القواعـد الحقيقيـة والواقعيـة فـي كتاباتـه، بـل جـاء هـذا الوصـف المبـالغ فيـه نتيجـة للعصـر الـذي عاشـه، وتغلـب العنصـر التركـي علـى مؤسسـات الدولـة العربيـة الاسـلامية العباسـية، وعلاقتـه الشخصـية المتينـة بكبار رجال الدولة والوزراء الترك.

فلمـا قـدم بغـداد فـي ايـام الخليفـة المـأمون اتصـل بـابراهيم بـن العبـاس الصـولي[1]، وصـار احـد المقـربين اليـه وقـدم اليـه بعـض رسـائله[2]، وكـذلك اتصـل بـالفتح بـن خاقـان التركـي[3]، وصـار مقربـاً اليـه[4]، ولـذلك ارتأينـا عـدم الاطالـة فـي الموضـوع مـع بيـان ابـرز النقاط التي اشار اليها الجاحظ في موضوع الترك.

فعنـدما كتـب الجـاحظ مادحـاً للعـرب، فلـم يكـن هـذا المـدح وصـفاً فحسـب، بـل قـدم الينـا الكثيـر مـن العـادات والتقاليـد والسـلوك الحسـن للانسـان العربـي فـي الحيـاة الواقعيـة الاجتماعيـة، والعـرب حـاملي رايـة الاسـلام والمـدافعين عنـه، فلـم يكـن مدحـه لهـم تعصـباً منه، بل قولاً للحقيقة.

وفـي الفتوحـات العربيـة الاسـلامية، فقـد تعـرف العـرب علـى قوميـات عديـدة فـي الاراضـي المفتوحـة والمحـررة، "واخـذ العـرب والاتـراك انفسـهم يطلقـون اسـم (التـرك) او (التركمانيـة) علـى الـذين يـدخلون فـي الاسـلام مـن بطـون الاتـراك .. وكلمـا تقـدم الاسـلام فـي ديار الترك اصبحت كلمة الترك تشمل الجزء الاكبر فالاكبر من الشعب التركي"[5].

وكـان الخلفـاء العباسـيون ومـنهم المنصـور وكبـار رجـال الدولـة يحثـون علـى نشـر المسـاواة بـين القوميـات المختلفـة داخـل الدولـة العربيـة الاسـلامية، حرصـاً مـنهم علـى توسـيع المشـاركة الشـعبية فـي الحكـم، "فيخصـون مـواليهم بالمواكلـة والبسـط والايـناس، لايبهرجـون الاسـود لسـواده، ولاالـدميم لدمامتـه، ولاالصـناعة الدنيئـة لـدناءتها، ويوصـون

---

(6) النعش: سـرير الميت عند العرب .. وعند العامة: النعش للمرأة والسـرير للرجل / ينظر: الفراهيدي، ابو عبد الرحمن خليل بن احمد (ت175هـ/791م)، كتاب العين، تحقيق د. مهدي المخزومي، د. ابراهيم السامرائي، بغداد، 1980، جـ1، ص258.

(7) الجاحظ، الرسائل، فخر السودان، جـ1، ص202.

(1) ابراهيم بن العباس بن محمد بن صـول تكين الصـولي، الشـاعر المشـهور، واصـله تركي، توفي سنة ثلاثون واربعين ومائتين بسر من رأى / ينظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ1، ص(47-44).

(2) ينظر: ياقوت الحموي، معجم الادباء، جـ16، ص84.

(3) الفتح بن خاقان بن احمد بن غرطوج وزير المتوكل، قتل سـنة سـبع واربعين ومائتين / ينظر: الكتبي، محمد بن شـاكر (ت764هـــ/1362م)، فوات الوفيات، تحقيق د. احسـان عباس، دار صـادر، بيروت، بدون سنة، جـ3، ص177.

(4) ينظر: ياقوت الحموي، معجم الادباء، جـ16، ص75.

(5) كتابجي، زكريا، الترك في مؤلفات الجاحظ، ص(28-27).

بحفظهم اكابر اولادهم. ويجعلون لكثير من موتاهم الصلاة على جنائزهم، وذلك بحضرة من العمومة وبني الاعمام والاخوة"[1].

ويرى الجاحظ ان الخلافة العباسية في عصره قد وفقت في تذليل الصعاب امام الاختلاف في تلك القوميات العديدة داخل مؤسسات الدولة، قائلا: "ان جند الخلافة اليوم على .. اقسام: خراساني، وتركي، ومولى، وعربي .. وانه اكثر من حمد الله وشكره على احسانه ومننه، وعلى جميع اياديه وسابغ نعمه، وعلى شمول عافيته وجزيل مواهبه، حين ألف على الطاعة هذه القلوب المختلفة، والاجناس المتباينة، والاهواء المتفرقة"[2].

ويبدو ان للترك سمات مشتركة فيما بينهم، فقد اشار اليها الجاحظ قائلاً: "الا ترى انك ترى البصري فلا تدري أبصري هو ام كوفي، وترى المكي فلا تدري أمكي هو ام مدني. وترى الجبلي فلا تدري أجبلي هو ام خراساني، وترى الجزري فلا تدري أجزري هو ام شامي. وانت لاتغلط في التركي، ولاتحتاج .. الى مساءلة. ونساؤهم كرجالهم، ودوابهم تركية مثلهم"[3].

ويفسر ذلك بأن للدور البيئي والوراثي اثراً مهماً في هذا التشابه حيث ان "في تركيبهم واخلاط طبائعهم من تركيب بلدهم وتربيتهم، ومشاكلة مياههم ومناسبة اخوانهم، ماليس مع احدٍ سواهم"[4].

ويرى ان الجندي التركي يتمتع بمعنويات عالية وقدرة متميزة في الصيد، "فاذا سار التركي في غير عساكر الترك، فسار القوم عشرة اميالٍ سار عشرين ميلاً، لانه ينقطع عن العسكر- يمنةً ويسرة، ويسرع في ذرى الجبال، ويستبطن قعور الاودية في طلب الصيد، وهو في ذلك يرمي كل مادب ودرج، وطار ووقع"[5].

---

(1) الجاحظ، الرسائل، مناقب الترك، جـ1، ص(24-23).
(2) م.ن، جـ1، ص9.
(3) م.ن، جـ1، ص63.
(4) م.ن، جـ1، ص63.
(5) م.ن، جـ1، ص49.

ثانياً / الديانات

أ - النصـــارى:

تحـدثت مؤلفـات الجـاحظ عـن الـبعض مـن الـديانات الاخـرى غيـر الاسـلام، عارضـاً باسـلوبه الشـيق تلـك الـديانات مـع اسـتمتاعنا فـي بعـض صـفحاته باسـلوبه النقـدي لتلـك الـديانات، وقـد اسـتفدنا مـن ذلـك فـي تـأثير تلـك الـديانات علـى اهلهـا، وبالتـالي علـى النـواحي الاجتماعية للمجتمع العربي الاسلامي.

ومـن هـذه الـديانات، النصـرانية، ولـم يكـن العـرب عـدائيين للمسـيحية[1]، وقـد اشـار اليهـا الجـاحظ، وقبـل الاسـلام "ان العـرب كانـت النصـرانية فيهـا فاشـية، وعليهـا غالبـة، الا مُضِـر، فلـم تغلـب عليهـا يهوديـة ولامجوسـية، ولـم تفـش فيهـا النصـرانية، الا ماكـان مـن

(1) Tritton, A.S., The Caliphs and Their Non-Muslem Subjects, Oxford University, Press, England, 1939, p.139.

قومٍ منهم نزلوا الحيرة يسمون: العباد، فانهم كانوا نصارى، وهم مغمورون مع نبذٍ يسير في بعض القبائل. ولم تعرف مُضر الا دين العرب، ثم الاسلام"[2].

واكثر القبائل العربية انتشاراً للنصرانية قبل الاسلام هي "ربيعة وغسان وبعض قضاعه"[3].

ويذكر اهم الفرق النصرانية في المجتمع العربي، وهي الملكانية[1]، والنسطورية[2]، "ومقام الملكاني في الصوامع[3]. ومقام النسطوري في المطامير[4]"[5].

وعاش النصرانيون في ظل الدولة العربية الاسلامية، بالاستقرار والامان في ظل التسامح الديني الذي عبر عنه الدين الاسلامي، وبذلك انتشرت الاديرة[6] والكنائس في ربوع العالم الاسلامي.

ثم يشير الجاحظ بأن تسميات الاشخاص معروف عند النصرانيين، واذا ماتم التعرف على اسم ذلك الشخص، عُرف انه نصراني مثل اسماء: "يوشع وشمعون واشباه ذلك"[7].

ثم يعرض علينا بعض العادات النصرانية ومنها "زرايتهم على كل من اكل اللحمان، ورغبتهم في اكل الحبوب، وترك الحيوان، وتزهيدهم في النكاح، وتركهم لطلب الولد .. بترك النكاح وطلب النسل"[8].

ومن عاداتهم الاخرى السياحة، "ولايسيحون الا ازواجا. ومتى رأيت منهم واحداً فألتفت رأيت صاحبه. والسياحة عندهم الا يبيت احدهم في منزلٍ ليلتين ... ويسيحون على اربع خصال: على القدس، والطهر، والصدق، والمسكنة. فأما المسكنة،

---

(2) الجاحظ، الرسائل، الرد على النصارى، جـ3، ص313.

(3) الابشيهي، شهاب الدين محمد بن احمد (ت850هـ/1446م)، المستطرف في كل من مستظرف، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1989، جـ2، ص82.

(1) الملكانية: مذهب جميع ملوك النصارى، وقالوا: ان الله تعالى، عبارة عن قولهم ثلاثة اشياء: أب وابن، وروح القدس. كلها لم تزل، وان عيسى عليه السلام: اله تام كله، وانسان تام كله، وان الانسان منه هو الذي صلب وقتل / ينظر: ابن حزم الاندلسي، ابو محمد بن احمد الظاهري (ت456هـ/1063م)، الفصل في الملل والاهواء والنحل، تحقيق د.محمد ابراهيم النصر، دار الجيل، بيروت، بدون سنة، جـ1، ص(110-111).

(2) النسطورية: هذه الفرقة غالبة على الموصل والعراق وفارس وخراسان، وهم منسوبون الى نسطور، وقالوا ان مريم لم تلد الاله وانما ولدت الانسان / ينظر: م.ن، جـ1، ص111.

(3) الصومعة: منار الراهب، وصومعة النصارى دقيقة الرأس / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ8، ص208.

(4) المطامير: حفر تحفر في الارض توسع اسافلها / ينظر: م.ن، جـ4، ص502.

(5) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص(459-458).

(6) أهم اديرة العراق في العصر العباسي: درمالس، سمالو، أشموني .. الخ / ينظر: الشابشتي، ابو الحسن علي بن محمد (ت388هـ/998م)، الديارات، تحقيق كوركيس عواد، ط3، دار الرائد العربي، بيروت، 1968، ص(46،14،3).

(7) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص339.

(8) الجاحظ، الرسائل، الرد على النصارى، جـ3، ص321.

فأن لايأكل .. مما طابت به انفس الناس .. واما الطهر فترك الجماع. واما الصدق فعلى الا يكذب. واما القدس فعلى ان يكتم ذنبه، وان سئل عنه"[1].

ويتطرق الى مسألة اثارت فكره بخصوص امتناع رجال الدين النصارى من الزواج وطلب الاولاد، وكذلك "كل راهبٍ في الارض وراهبةٍ، مع كثرة الرهبان والرواهب. ومع تشبه اكثر القسيسين بهم في ذلك، ومع مافيهم من كثرة الغزاة، ومايكون فيهم مما يكون في الناس، من المرأة العاقر، والرجل العقيم. على ان من تزوج منهم امرأةً لم يقدر على الاستبدال بها، ولا على ان يتزوج اخرى معها، ولا على التسري عليها. وهم مع هذا قد طبقوا الارض، وملئوا الآفاق، وغلبوا الامم بالعدد، وبكثرة الولد"[2]، ويبدو لنا ان الجاحظ قد اهمل الاغلبية من النصارى في العالم، وهم يمثلون عامة الناس الذين يمارسون طقوس الزواج وانجاب الاولاد بصورة اعتيادية، وان الديانة المسيحية واسعة الانتشار في بقاع الارض، وبذلك يكون عددهم كبير، ثم يعود ليؤكد حقيقة اخرى لها السبب في زيادة عددهم مبيناً بأنهم "يأخذون من سائر الامم، ولايعطونهم"[3].

ويبين حقيقة الرهبنة في النصرانية واثرها في النفس الانسانية، قائلاً: "نجد العمر الطويل امراً خاصاً في الرهبان، فنظن ايضاً ان تركها الجماع من اسباب ذلك"[4].

وكان كبار رجال الدين النصارى لهم صلاحيات محددة في المجتمع العربي الاسلامي، فلا يسمح للجاثليق وهو من كبار رجال الكنيسة في دار الاسلام حبس ولاضرب، فليس عنده الا ان يغرم المال، ويحرم الكلام. على انه كثيراً مايتغافل عن الرجل العظيم القدر، الذي له من السلطان ناحية،[5]وقد نصت الشريعة الاسلامية "بأن الجزية واجبة على جميع اهل الذمة .. من اليهود والنصارى والمجوس والصابئيين"[1]، وبذلك اصبح لاهل الذمة ومنهم النصارى حقوق في الدولة العربية الاسلامية اكثر من غيرهم، لانهم اهل كتاب[2]، ويتمتعون بحقوقهم الدينية المختلفة، التي لاتمس وحدة الناس وتعاونها.

ويتطرق الجاحظ الى ظاهرة مهمة عند النصارى "في رفض الذبائح، والبغض لاراقة الدماء، والزهد في اكل اللحمان"[3].

ويبين لنا عقيدتهم في ذلك، بأن "أكل لحيوان كل يوم، من الذبائح، مكروه عند الله، انكم لم تروا قط ذباحي الحيوان ولاقتالي الانسان. ولاالذين لايقتاتون الا اللحمان يفلحون ابداً. ويستغنون، كنحو صيادي السمك وصيادي الوحش واصناف الجزارين والقصابين .. لاترى احداً منهم صار الى غنىً ويسر ولاتراه ابداً الا فقيراً"[4]. ثم انهم اذا افلحوا واستغنوا في الحياة، وعلى الرغم "من قلة هؤلاء على حسب تعبيرهم، فنراه اما ان يُقتل، واما يغتصب نفسه بميتةٍ عاجلة، عند سروره بالثروة، او يبعث الله عليه المحق فلاينمو له شيء، واما لايجعل من نسلهم عقباً مذكوراً ... ومع كثرة الانسال، قد

---

(1) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص459.
(2) الجاحظ، الرسائل، الرد على النصارى، جـ3، ص322.
(3) م.ن، جـ3، ص322.
(4) الجاحظ، الحيوان، جـ7، ص221.
(5) ينظر: م.ن، جـ4، ص(28-27).
(1) ابو يوسف القاضي، يعقوب بن ابراهيم (ت182هـ/797م)، الخراج، بدون سنة، ص(132-131).
(2) Renben, Levy, Sociology of Islam, London, 1931, p.95.
(3) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص428.
(4) م.ن، جـ4، ص(430-429).

قبح الله امرهم، واخمل اولادهم. فهم بين من لم يعقب، او بين من هو في معنى من لم يعقب"[5].

ويقوم الجاحظ بتفنيد هذا الادعاء، ويرى بانه هنالك ازدواجية في تحريم اكل اللحوم عند النصارى، قائلاً في ذلك "وانتم في كثير من حالاتكم تُغلون علينا السمك، حتى نتوخى اياماً بأعيانها، فلا نشتري السمك الا فيها، طلباً للامكان والاسترخاص، وهي يوم الخميس، ويوم السبت، ويوم الثلاثاء، لان شراءكم في ذلك اليوم يقل. على انكم تكثرون من الذبائح في ايام الفصح[6] وهل تدعون اكل الحيوان الا اياماً معدودة، وساعات معلومة"[7].

ونعتقد ان ردود الجاحظ هذه في مسألة المنع من اكل اللحوم هي ردود شكلية وليست حقيقية عنده، وهو المضطلع بعلم الكلام والعقائد والاخلاق ومذاهب التصوف، لان المنع عن تناول اكل اللحوم عند البعض من الفرق والمذاهب الانسانية متآتية من مفهوم ترويض النفس على الكمالات، وان الشراهة في الطعام واكل اللحوم تبعد النفس عن الوصول الى هذه الرتب العالية، ولذلك فعندما سئل احد الرهبان عن تركه اكل اللحوم، قال: "الا ترى ان اكلة اللحم من السباع هي اشد ضرراً من اكلة الحشيش"[1].

وكان النصارى قبل الاسلام قد عملوا في الكنائس، وبيوت العبادات بإيقاد النار، "ليلاً .. ونهاراً، حتى اتخذت للنيران البيوت والسدنة، ووقفوا عليها الغلات الكثيرة"[2]، حتى جاء الاسلام ففسخ ذلك، وامر باطفاء النيران الا بقدر الحاجة[3]، حتى ان عجايز النصارى يفتتون بتلك المصابيح في الكنيسة[4].

ويظهر احتيال السدنة في ايقاد هذه النار بأنواع الحيل، "كاحتيال رهبان كنيسة القيامة ببيت المقدس بمصابيحها، وان زيت قناديلها يستوقد لهم من غير نارٍ، في بعض ليالي اعيادهم"[5].

ويحدثنا الجاحظ بانه رأى عوداً من الخشب لايحترق يؤتى به من ناحية كرمان[6]، وكان هنالك قسيساً نصرانياً يقول لضعفاء الناس: "هذا العود من الخشبة التي

---

(5) م.ن، جـ4، ص(430-431).
(6) وهو العيد الكبير عندهم يقولون ان المسيح قام فيه بعد الصلبوت بثلاثة ايام / ينظر: النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت733هـ/1332م)، نهاية الارب في فنون الادب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، بدون سنة، جـ1، ص191.
(7) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص(431-432).
(1) الاصبهاني، محاضرات الادباء، جـ2، ص610.
(2) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص479.
(3) ينظر: م.ن، جـ5، ص120.
(4) ينظر: م.ن، ج6، ص(201-202).
(5) م.ن، جـ4، ص483.
(6) ناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجشان وخراسان / ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ4، ص454.

صُلب عليها المسيح، والنار لاتعمل فيها. فكان يكتسب بذلك. حتى فُطن له وعورض بهذا العود"[7].

ويشير الجاحظ الى ان النصارى، ومع مرور الايام قد تطبعوا بالتقاليد العربية في ظل المجتمع العربي الاسلامي، فاتخذوا الخيل والفروسية، وضربوا بالصوالجة، ولبسوا الثياب العربية، وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي[1].

ويذهب مؤيداً الى رأي عامة الناس، قائلاً "لم نخالف العوام في كثرة اموال النصارى، وان فيهم ملكاً قائماً، وان ثيابهم انظف،وان صناعتهم احسن"[2].

وبذلك اصبح النصارى "احب الى العوام من المجوس، واسلم صدوراً عندهم من اليهود، واقرب مودة، واقل غائلة، واصغر كفراً، واهون عذاباً"[3].

ب - اليهود:

يتبين لنا ان اليهودية لم تكن غالبة على قبيلةٍ بمجيء الاسلام، "الا ماكان من ناسٍ من اليمانية، ونبذٍ يسير من جميع ايادٍ وربيعة. ومعظم اليهودية انما كانت بيثرب وحمير وشيماء ووادي القرى"[4].

ويبدو ان هنالك عداءً واضحاً بين المسلمين واليهود، ويعزو الجاحظ سبب ذلك "بأن اليهود كانوا جيران المسلمين بيثرب وغيرها، وعداوة الجيران شبيهة بعداوة الاقارب في شدة التمكن وثبات الحقد، وانما يعادي الانسان من يعرف، ويميل على من يرى، ويناقض من يشاكل، ويبدو له عيوب من يخالط .. فلما صار المهاجرون لليهود جيراناً، وقد كانت الانصار متقدمة الجوار، مشاركة في الدار، حسدتهم اليهود على النعمة في الدين، والاجتماع بعد الافتراق"[5].

ثم يبين ان هذا العداء لم يكن واضحاً ومتميزاً بين المسلمين والنصارى كما كان مع اليهود، ويعزى ذلك "بأن النصارى لبعد ديارهم، من مبعث النبي صلى الله عليه

(7) الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص435.
(1) الجاحظ، الرسائل، الرد على النصارى، جـ3، ص317.
(2) م.ن، جـ3، ص316.
(3) م.ن، جـ3، ص308.
(4) م.ن، جـ3، ص313.
(5) م.ن، جـ3، ص309.

وسلم ومهاجروه، لايتكلفون طعناً، ولايثيرون كيداً، ولايجمعون على حرب. فكان هذا اول اسباب ماغلظ القلوب على اليهود، ولينها على النصارى"[1].

ويبدو لنا ان هذا السبب هو ثانوي وليس سبباً رئيساً، فمشكلة ذلك العداء اعمق واوسع في ظاهرة البعد والقرب التي اشار اليها الجاحظ.

ومن التقاليد الاجتماعية عند اليهود، بأن اليهودي لايزوج الا يهودي، "وكل مناكحهم مردودة فيهم، ومقصورة عليهم، وكانت الغالب لاتشوبهم، وفحولة الاجناس لاتُضرب ولاتضرب فيهم"[2]، ومن هذا يتضح مدى تعصبهم وشعورهم بالتفوق العرقي والجنسي على الامم الاخرى.

وعندهم آلة موسيقية يطلق عليها الشبور، وهو شيء مثل البوق، واذا أُريد ان يحرم كلام رجلٍ منهم نفخوا عليهم بالشبور[3].

وللعرب كراهية من اليهود لافعالهم السيئة عبر التاريخ، "فالصبيان يصيحون بالفهد اذا رأوه: يايهودي .. والعامة تزعم ان الفأرة يهودية سحارة. والارضة يهودية ايضاً عندهم، ولذلك يلطخون الاجذاع بشحم الجزور. والضب يهودي، ولذلك قال بعض القصّاص لرجل اكل ضباً: اعلم انك اكلت شيخاً من بني اسرائيل"[4].

جـ ـ الصابئة:

يتطرق الجاحظ الى ذكر الخصاء، ويذكر بمحاسن الصابئة في هذا الميدان، لان العابد من الصائبة "ربما خصى نفسه، ولايستحل خصاء ابنه. فلو تمت ارادتهم في اخصاء اولادهم في ترك النكاح وطلب النسل .. لانقطع النسل، وذهب الدين، وفُتن الخلق"[5].

ويضيف في هذا الصدد، بأن كل خصاء في الدنيا انما اصله من قبل الروم، وعليه فان العابد من الصائبة "قد تقدم الرومي، فيما اظهر من حسن النية، وانتحل من الديانة والعبادة"[1].

د ـ المجوس:

لقد اورد الجاحظ اشارات قليلة عن المجوس، وعنده من عقائدهم، "بتقدم النار في التعظيم على الماء، وتقدم الماء في التعظيم على الارض، ولاتكاد تذكر الهواء"، ومن هذا يظهر سبب تقديسهم للنار وتعظيمها[2].

ومن تقاليدهم، بأنهم يقربون "الميت من انف الكلب، ويستدلون بذلك على امره"[3].

---

(1) الجاحظ، الرسائل، الرد على النصارى، جـ3، ص(309-310).
(2) م.ن، جـ3، ص316.
(3) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص27.
(4) م.ن، جـ6، ص(476-477).
(5) الجاحظ، الرسائل، الرد على النصارى، جـ3، ص323.
(1) الجاحظ، الحيوان، ص(124-125).
(2) م.ن، جـ4، ص481.
(3) م.ن، جـ3، ص351.

ثالثاً / الفئات الاجتماعية

الطفيليون:

ومن المواضيع الاجتماعية التي اثارت الباحثين والمؤلفين في تراثنا العربي الاسلامي هي ظاهرة الطفيليين في المجتمع، واعتبروها من الظواهر السلبية الاجتماعية.

ويبدو ان هذه الظاهرة اكثر انتشاراً مع ظهور الفوارق الطبقية بين الناس.

واشهر من ارتبط به هذا اللقب، وكثرت عنه الحكايات هو بنان الطفيلي[1].

وقد اطلق هذا اللقب "للداخل على القوم من غير ان يدعا مأخوذ من الطفل وهو اقبال الليل على النهار بظلمته وارادوا ان امره يظلم على القوم فلا يدرون من دعاه ولاكيف دخل عليهم"[2].

ويقسم الجاحظ الطفيليين الى نوعين رئيسين، وهما الواغل[3]، والراشن[4]، وعنده ان الواغل اهون من الراشن، لان طفيلي الشراب اهون عليه من طفيلي الطعام. وقول الناس: فلان طفيلي ليس من اصول كلام العرب[5]، وكان هنالك طفيلي "اذا بلغه وليمة طعام لبسَ لبس القضاة، واخذ ابنيه معه"[6]، وذلك لكي يحظى بمائدة الطعام بشكل لايثير استغراب الآخرين، ومن طرائف الطفيلين وانشغالهم بالتطفل على موائد الناس، "قيل الطفيل العرائس[1]: كم اثنان في اثنين. قال اربعة ارغفة"[2].

ويذكر الجاحظ رجلاً كان بالكوفة من بني عبد الله بن غطفان، وهو اول من سُمي طفيل العرائس، لانه اكثر الناس طلباً للولائم والاعراس[3].

ويرى ان البعض من البخلاء قد يحتمل مجيء الضيف له، ولكنه لايتحمل المتطفل النهم، او الذي يضع شماله على شيء يكون على الخوان كي لايتناوله غيره[4]،

---

(1) هو عبد الله بن عثمان، ويكنى ابا الحسن، ولقبه بنان، واصله مروزي واقام ببغداد، كان نقش خاتمه، (مالكم لاتأكلون) / ينظر: النويري، نهاية الأرب، جـ3، ص324.

(2) ابن الجواري، ابو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت597هـ/1200م)، الاذكياء، المطبعة الحيدرية، النجف، 1969، ص185.

(3) يقال ذلك للداخل على القوم، وهم يشربون ولم يدع لذلك / ينظر: الخطيب البغدادي، التطفيل وحكايات الطفيلين واخبارهم ونوادر كلامهم واشعارهم، تعليق كاظم المظفر، المكتبة الحيدرية، النجف، 1966، ص5.

(4) يقال ذلك للداخل على القوم وهم يأكلون ولم يدع لذلك / ينظر: م.ن، ص5.

(5) ينظر: الجاحظ، البخلاء، ص113.

(6) الاصبهاني، ابو الفرج (ت356هـ/967م)، الاغاني، تحقيق لجنة من الادباء، دار الثقافة، بيروت، 1983، جـ13، ص233.

(1) نسبوا ذلك الى الطفيلي الذي يحضر ولائم الاعراس من غير ان يدعى اليها / ينظر: الخطيب البغدادي، التطفيل، ص5.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين، جـ3، ص221.

(3) ينظر: الجاحظ، البخلاء، ص113.

(4) ينظر: م.ن، ص98.

وهنا يظهر سلوك البعض من هؤلاء الطفيليين وممارساتهم السيئة على موائد الطعام، من اجل الحصول على المزيد من ذلك الطعام.

البخـــلاء:

ضمن اهتمامات الجاحظ بالقيم الاجتماعية العليا، فانه ينتصر للكرم على البخل، ويبدو ان هذا الاتجاه يتماشى مع رده على الشعوبية انذاك، حيث يعتبر الكرم احد السمات المميزة للانسان العربي، وفي ضوء هذا الاهتمام جاء كتابه (البخلاء)، ليؤكد تلك الحقائق.

ورؤيته الاجتماعية في مناصرة الكرم على البخل، بأننا "لم نرِ الامة ابغضت جواداً قط ولاحقرته، بل احبته وأعظمته. بل احبت عقبه، وأعظمت، من اجله .. ثم وجدنا هؤلاء بأعيانهم، للبخيل على ضد هذه الصفة، وعلى خلاف هذا المذهب. وجدناهم يبغضونه مرة، ويحقرونه مرة"[5].

ويرى ان الناس لاتطلق اسم البخيل على من بخل على نفسه فقط، بل كذلك "من لايدع لنفسه هوى الا ركبه، ولاحاجة الا قضاها، ولاشهوة الا ركبها وبلغ فيها غايته. وانما يقع عليه اسم البخيل اذا كان زاهداً في كل ماأوجب الشكر ونوه بالذكر وأذخر الاجر"[6].

ويطلق اسم البخيل على من له مال، ولاينفقه على نفسه وعلى الآخرين، ومن الطريف في ذلك، ان الجاحظ تحدث مع احدهم، قائلاً: "قد رضيت بقول الناس: عبد الله بخيل، قال: لاعدمني الله هذا الاسم، قلت كيف؟ قال: لانه لايقال فلان بخيلاً الا وهو ذو مال، فسلم لي المال وادعني بأي اسم"[1].

ويذهب في ملاحظته عن البخلاء، بأن البعض منهم، ذهب في بخله الى الحد الذي يجعله حريصاً على "الجرادق[2] التي ترفع عن مائدته، فمن كان منها ملطخاً دلك ذلك دلكاً شديداً، وما كان منها قد ذهب جانب منه، قطع بسكين من ترابيع الرغيف مثل ذلك، لئلا يشك من رآه انهم قد تعمدوا ذلك، وماكان من الانصاف والارباع جُعل بعضه للثريد، وقطع بعضه كالاصابع، وجعل مع بعض القلايا"[3].

ولما يمتاز به البخلاء من سمات غير حميدة في المجتمع، الا ان الجاحظ يصنع استثناءً لبعضهم في ذلك، فيرى ان ابا سعيد المدائني، وهو امام البخلاء في البصرة ايام عصره، وهو احد الذين يتعاطون في ضرب من المعاملات المالية وحالته ميسورة الحال، ولكن بالرغم من بخله فهو "شديد العقل، شديد العارضة، حاضر الحجة، بعيد الروية[4]، وتلك ميزة لاتتوفر عند الاغلبية من البخلاء.

ومن المميزات السيئة للبخلاء في حرصهم على جمع الاموال، الا ان البعض يكون متهوراً في صرف امواله، "فربما غلب عليه حب القيان .. وربما افرط في حب

---

(5) م.ن، ص(227-226).
(6) م.ن، ص227.
(1) ابن قتيبة، عيون الاخبار، نقلاً عن الجاحظ، جـ2، ص41.
(2) الجردق: الرغيف / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ10، ص35.
(3) الجاحظ، البخلاء، ص84.
(4) م.ن، ص194.

الصيد، واستولى عليه حب المراكب. وربما كان اتلافه في العرس .. والوليمة .. فينفق امواله ويتلف خزائنه"[5].

ثم يتعرض الجاحظ الى ناحية فكرية، يستنتج فيها بطلان ادعاءات البخلاء في حرصهم وجمعهم للاموال، من اجل استفادة اولادهم منها، معلقاً على ذلك قائلاً: "لو كانوا لاولادهم يمهدون، ولهم يجمعون، لما جمع الخصيان الاموال، ولما كنز الرهبان الكنوز، ولاستراح العاقر من ذل الرغبة، ولسلم العقيم من كد الحرص. وكيف ونحن نجد بعد ان يموت ابنه الذي كان يعتل به، والذي من اجله كان يجمع، على حاله في الطلب والحرص، وعلى مثل ماكان عليه من الجمع والمنع"[1]، وبذلك فانه يدعو الى الابتعاد عن البخل، لعدم مشروعيته في العقل.

الخصيان:

الخصاء ظاهرة اجتماعية موجودة في المجتمعات المختلفة في تلك العصور، ويعتقد احد المستشرقين بأن الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك هو الذي اتخذ الخصيان بصورة رسمية كأمناء في قصره[2].

وعند الجاحظ فان الخصي "ليس برجل ولاامرأة، واخلاقه مقسمة بين اخلاق النساء واخلاق الصبيان"[3]، وانهم لم يتمتعوا بالمقومات الانسانية الصحيحة، فمع "جودة الاتهم .. في معرفة ابواب الخدمة .. لم ترَ احداً منهم قط نفذ في صناعةٍ تنسب الى بعض المشقة. وتضاف الى شيء من الحكمة، مما يعرف ببعد الروية، والغوص بادامة الفكرة"[4].

ويخرج الخصاء الرجال من طبائعهم الى طبائع النساء، ولكنه يرى ان ذلك لايعرضهم للتخنث، قائلاً في ذلك: "وقد رأيت غير واحد من الاعراب مخنثاً متفككاً، ومؤنثاً يسيل سيلاً، ورأيت عدة مجانين مخنثين، ورأيت ذلك في الزنج الاقحاح"[5]، وعلى الرغم ان هؤلاء المذكورين ليسوا بخصيان.

ولذلك فان خروج الخصيان من طبائع الرجال الى طبائع النساء، قد جعل المرأة تميل اليه "لان امره استر وعاقبته اسلم وتحرص عليه لانه ممنوع عنها وترغب في السلامة من الولد"[6].

ومن مساوئ الخصيان، بانهم شديدي الاستخفاف، "بمن لم يكن ذا سلطان عظيم او مالٍ كثير او جاه عريض"[7]، ولذلك تراه "سيء الخلق، احمق، شره، مقهور .. ومن لم تنبت له لحية فهو اشر واخبث"[8].

ويضيف الجاحظ الى اخلاقهم الذميمة "سرعة الدمعة والغضب .. وحب النميمة وضيق الصدر بما اودع من السر .. والبول في الفراش ولاسيما اذا بات احدهم ممتلئاً من النبيذ"[1]، ويبدو لنا ان هذه الصفة الذميمة التي تعرض للخصيان هي مسألة طبيعية

---

(5) م.ن، ص(228-227).
(1) الجاحظ، البخلاء، ص(232-231).
(2) Kremer, Alfred, Orient under the Caliphs, Calculta, vol.2, p.171.
(3) الجاحظ، الرسائل، مفاخرة الجواري والغلمان، جـ2، ص123.
(4) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص117.
(5) م.ن، جـ1، ص136.
(6) البيهقي، ابراهيم بن محمد (ت قبل 320هـ/933م)، المحاسن والمساوئ، اشراف فريدريك شوالي، ليسك، 1901، جـ2، ص609.
(7) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص159.
(8) الرازي، المنصوري في الطب، ص107.
(1) الجاحظ، الرسائل، مفاخرة الجواري والغلمان، جـ2، ص124.

لناس انحرفوا عن الحياة الطبيعية قهراً، وبذلك فهم يحاولون تعويض هذا النقص بالتأثير السلبي على حياتهم اليومية، فضلاً عن المخلفات التي يتركها الخصاء على النواحي الجسمية والوظيفية للانسان.

ويذهب عارضاً مساوئ الخصي النفسية والاجتماعية والطبية، بأن "الخصي مع الرجال امرأة، ومع النساء رجل .. وهو من النمائم والتحريش والافساد بين المرء وزوجه، على ماليس عليه احد .. ويعتريه اذا طعن في السن اعوجاج في اصابع اليد، والتواء في اصابع الرجل"[2]، وكذلك فان "الخصي يكون انتن، وصنانه احدّ، ويعم ايضاً خبث العرق سائر جسده، حتى لتوجد لاجسامهم رائحة لاتكون لغيرهم ... وتعرض لهم التكرش والكمود"[3].

ومن الصفات الجسمية التي يؤثره الخصاء، بان "الخصي لاتصلح كما تصلع المرأة"[4]، ومتى خصي "قبل الانبات لم ينبت"[5].

ومن صفاته الاخرى، "ان يشتد وقع رجله على ارض السطح، حتى لو تفقدت وقع قدمه وقدم اخيه الفحل .. لوجدت لوقعه ووطئه شيئاً لاتجده لصاحبه"[6].

ومن سمات الخصي في سلوكه "العبث واللعب بالطير .. ويعرض له الشره عند الطعام، والبخل عليه .. ويعرض له القوة على كثرة الركض حتى يجاوز في ذلك رجال الاتراك وفرسان الخوارج"[7].

ويتضح من خلال مشاهدات الجاحظ الاجتماعية ومن خلال تجربته ومن الشيوخ المعمرين "انهم اعتبروا اعمار ضروب الناس فوجدوا اطول اعمار الخصيان، اعم من جميع اجناس الرجال، وانهم لم يجدوا لذلك علةٍ الا عدم النكاح"[8].

واما عملية الخصاء، "فان للخاصي حديدة مرهفةً محماة، وهي الحاسمة، وهي القاطعة"[1]،ويصحب بعد القطع "تغير الصوت، حتى لايخفى على من سمعه من غير ان يرى صاحبه انه خصي"[2].

وتعد منطقة الصين، من اهم المناطق التي تورد الخصيان الى المناطق العربية الاسلامية[3].

الرقيق والجواري:

يرى الجاحظ ان التعامل في بيع وشراء الرقيق هي معاملة تجارية متعارف عليها يومذاك في المجتمعات الانسانية، فالرقيق "تجارة من التجارات تقع عليه المساومات والمشاراة بالثمن، ويحتاج البائع والمبتاع .. فيه خيار الرؤية المشترط في جميع البياعات. وان كان لايعرف مبلغه بكيل ولاوزنٍ ولاعددٍ ولامساحة، فقد يعرف

---

(2) م.ن، جـ2، ص124.
(3) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص106.
(4) م.ن، جـ1، ص108.
(5) البيهقي، المحاسن والمساوئ، جـ2، ص609.
(6) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص116.
(7) م.ن، جـ1، ص(136-135).
(8) الجاحظ، الرسائل، مفاخرة الجواري والغلمان، جـ2، ص124.
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص130.
(2) م.ن، جـ1، ص113.
(3) الجاحظ، التبصر بالتجارة، نشر حسن حسني عبد الوهاب، دمشق، 1932، ص34.

بالحسن والقبح. ولايقف على ذلك ايضاً الا الثاقب في نظره، الماهر في بصره، الطب بصناعته، فان امر الحسن ادق وارق من ان يدركه كل من ابصره"[4].

ويجب التأكيد على سلامة العبد عند شرائه، لانه قيل ان العبد اذا "شبع فسق وان جاع سرق"[5]، ويؤكد هذا الموقف من خلال قول الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، "فاذا اشترى رقيقاً قال: اللهم ارزقني انصحهم جيباً، واطولهم عمراً"[6].

وقد كتب الجاحظ كتاباً سماه (القيان)، يضع فيه جملة افكاره في هذا الموضوع، في محاولة منه للانتصار لفكره ضد خصمائه، قائلاً في ذلك: "ورجونا النصر اذ قد بُدينا والبادئ اظلم، وكاتب الحق فصيح ... فبينا الحجة في اطراح الغيرة في غير محرم ولاريبة، ثم وصفنا فضل النعمة علينا، ونقضنا اقوال خصمائنا بقولٍ موجز جامع لما قصدنا"[7].

وكانت للجواري ألقاب جميلة تدل على محاسنهن، ولذلك سموا الجارية "غزالاً ... مهرةً، وفاختةً، وحمامةً، وزهرةً، وقضيباً، وخيزراناً، على ذلك المعنى"[1]، وربما شبهوا الجارية المجدولة الخميصة الخواطر في مشيها بالأيم، والأيم هي الحية الذكر[2].

ويبدو ان الاقبال على الجواري له اسبابه، "فريح الجارية أطيب، وثيابها أعطر، ومشيتها احسن، ونغمتها ارق، والقلوب اليها أميل"[3].

ويكون ثمن الجارية تبعاً الى ميول الرجل اليها، "ولو اشترى على مثل شري الرقيق لم تجاوز الواحدة منهن ثمن الرأس الساذج. فأكثر من بالغ في ثمن جاريةٍ فبالعشق"[4].

ويلاحظ ان القينة لاتتخلص في العشق، "ولاتتناصح في ودها، لانها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربطين، ليقتحموا في انشوطتها، فاذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ، وداعبته بالتبسم، وغازلته في اشعار الغناء .. فاذا احست بان سحرها قد نفذ فيه، وانه قد تعقل في الشرك، تزيدت فيما كانت قد شرعت منه، واوهمته

(4) الجاحظ، الرسائل، كتاب القبان، جـ2، ص(162-161).
(5) الأبشيهي، المستطرف، جـ2، ص102.
(6) الجاحظ، البيان، جـ2، ص321.
(7) الجاحظ، الرسائل، كتاب القيان، جـ2، ص146.
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص211.
(2) ينظر: م.ن، جـ4، ص241.
(3) الجاحظ، الرسائل، مفاخرة الجواري والغلمان، جـ2، ص97.
(4) م.ن، القيان، جـ2، ص165.

ان الـذي بهـا اكثـر ممـا بـه منهـا"[5]، ولـذلك "فـان محبـتهن تظهـر مـاظهرت علامـات اليسـار والمال، وتنتقل عند الافلاس والاقلال"[6].

وظهـرت مـنهن اسـاليب متعـددة فـي كسـب ود الرجـال، فقـد تكـون زودتـه عنـد انصـرافه خصـلةً مـن شـعرها، واهـدت اليـه فـي الاعيـاد السـكر او خـاتم وتفاحـة، ونقشـت على خاتمها اسمه، وابدت عند العثرة اسمه، وغنته اذا رأته[7].

ويكـون اللحـن فـي الكـلام عنـد الجاريـة املـح وافضـل عنـد النـاس، "مـالم تكـن الجاريـة صـاحبة تكلـف، ولكـن اذا كـان اللحـن علـى سـجية سـكان البلـد. وكمـا يسـتملحون اللثغاء[8] اذا كانت حديثة السن ... فاذا اسنت واكتهلت تغير ذلك الاستملاح"[9].

والنخـاس يقـوم بامتحـان لسـان الجاريـة اذا ظـن انهـا روميـة، واهلهـا يزعمـون غيـر ذلـك بـان تقـول: (شـمس)، ثـلاث مـراتٍ متواليـات، فسـيظهر للنحـاس جنسـية تلـك الجاريـة[1]، كمـا ينبغـي للنخـاس "الا يبيـع جاريـة .. حتـى يعـرف البـائع .. ومـن اراد شـراء جاريـة، جـاز له ان ينظر الى وجهها وكفيها"[2].

ولـذلك يـرى الجـاحظ ان "مكالمـة القيـان ومفـاكهتهن، ومغـازلتهن ومصـافحتهن للسـلام، ووضـع اليـد علـيهن للتقليـب والنظـر، حـلال مـالم يشـب ذلـك مـايحرم"[3]، ولكنـه لايقـدم لنـا الـدليل الشـرعي الاسـلامي فـي هـذه المسـألة، ولـذلك فيعـود مـرة اخـرى ليؤكـد مخـاطر القيـان، وان "الجمـع بـين الرجـال والقيـان مادعـا الـى الفسـق والارتبـاط والعشـق، مـع ماينزل بصاحبه من الغُلمة التي تفطر الى الفجور وتحمل على الفاحشة"[4].

والـبعض مـن هـؤلاء الجـواري لهـن مواقـع متميـزة فـي المجتمـع آنـذاك[5]، ومـن المعلومـات التاريخيـة الاحصـائية اللاحقـة لعصـر الجـاحظ، بأنـه فـي سـنة سـت وثلثمائـة هجريـة فقـد احصـيت عـدد الجـواري فـي بغـداد وفـي منطقـة الكـرخ فقـط فكانـت "اربعمايـة وستين جارية"[6].

---

(5) م.ن، جـ2، ص(172-171).
(6) الوشاء، الموشى، ص134.
(7) ينظر: الجاحظ، الرسائل، القيان، جـ2، ص173.
(8) اللثغة: ان تعدل الحرف الى حرف غيره / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ8، ص448.
(9) الجاحظ، البيان، جـ1، ص146.
(1) ينظر: الجاحظ، البيان، جـ1، ص71
(2) الشيزري، عبد الرحمن بن نصر (ت774هـــ/1372م)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق د. السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، بدون سنة، ص84.
(3) الجاحظ، الرسائل، القيان، جـ2، ص163.
(4) م.ن، جـ2، ص164.
(5) أمثال: خالصـــة جارية الخيزران، وعتبة جارية ريطة ابنة ابي العباس، وسُـــكر وتركية جاريتي ام جعفر، ودقاق جارية العباسة، وحمدونة امة نصر بن السندي بن شاهك .. الخ / ينظر: م.ن، جـ2، ص157.
(6) الازدي، محمد بن احمد ابي المطهر (ت منتصف القرن الرابع الهجري)، حكاية ابي القاسم البغدادي، مكتبة المثنى، بغداد، 1902، ص87.

اللصـوص والشـطار والعيـارين:

يضـع الجـاحظ فـي مؤلفاتـه اللصـوص والشـطار والعيـارين فـي مكانـة واحـدة، وعلـى الـرغم مـن تفـاوت المفـاهيم الخاصـة لهـذه الفئـات التـي تمثـل الخـروج علـى القـانون، وهـم منتشـرون كصـعاليك الجبـال، ولصـوص الشـام، والـزط والـبعض مـن الاعـراب، ومـنهم في بعض المدن الفارسية[1]، والعيارون "اذا تحركوا ببغداد هلكوا والفساد كثير"[2].

وهنالـك صـفات للشـطار، ومـن وصـاياهم ان "اجعـل لهـوك الحمـام، وهـارش الكـلاب وايـاك والكبـائش واللعـب بالصـقورة والشـواهين، وايـاكم والفهـود .. وعلـيكم بـالنرد ودعـوا الشـطرنج لأهلهـا .. والـودع رأس مـالٍ كبيـر ... ودعـوا لـبس العمـائم وعلـيكم بالقنـاع، والقلنسوة[3] كفر، والخف شرك"[4].

ومـن وصـاياهم الاخـرى بالحـذر مـن حـب النسـاء وسـماع ضـرب العـود، وشـرب الزبيـب المطبـوخ، وبإتخـاذ الغلمـان لان الغـلام انفـع مـن الاخ، واعـون مـن ابـن العـم، واتخـاذ نبيذ التمر[5].

وقـد تعـددت حيـل اللصـوص وطـرقهم فـي الاحتيـال علـى النـاس، فمـنهم مـن يعمـل بالكف، ومن يحتال في الصف، ومن يخنق بالدف[6].

ويـروي لنـا الجـاحظ بعـض الطـرق المسـتخدمة فـي السـرقة مـن قبـل اللصـوص، ومنهـا بانـه "كـان بالمـدائن تمّـار، وكـان غلامـه اذا دخـل الحـانوت يحتـال فربمـا احتـبس فاتهمـه بأكـل التمـر. فسـأله يومـاً فـأنكر، فـدعا بقطنـةٍ بيضـاء، ثـم قـال: امضـغها، فمضـغها، فلمـا اخرجهـا وجـد فيهـا حـلاوةً وصـفرةً. قـال: هـذا دأبـك كـل يـومٍ، وانـا لااعلـم. اخـرج مـن داري"[7].

ومـن طـرق الاحتيـال الاخـرى، بأننـا نـرى "كـل مـن كـان فـي يـده كـيس او درهـم او حبـل، او عصـا فانـه متـى خـالط عينيـه النـوم اسـترخت يـده وانفتحـت اصـابعه. ولـذلك يتثـاءب المحتـال للعبـد الـذي فـي يـده عنـان دابـة مـولاه، ويتنـادم وهـو جـالس، لان مـن عـادة الانسـان اذا لـم يكـن بحضـرته مـن يشـغله ورأى انسـاناً قبالتـه يتثـاءب او يـنعس، ان يتثـاءب ويـنعس مثلـه. فمتـى اسـترخت يـده او قبضـته عـن طـرف العنـان، وقـد خـامره سـكر النـوم .. ركـب المحتال الدابة ومرّ بها"[1].

الخنـــاقـــون:

تطرقـت مؤلفـات الجـاحظ الـى بعـض الفئـات الاجراميـة فـي تلـك العصـور، ومنهـا الخنـاقون، والخنـاقون "يظـاهر بعضـهم بعضـاً، فـلا يكونـون فـي البلـد الا معـاً، ولايسـافرون

(1) ينظر: الجاحظ، البخلاء، ص70.

(2) المقدسي، شمس الدين ابي عبد الله محمد بن احمد بن ابي بكر (ت380هـــ/990م)، احسن التقاسيم في في معرفة الاقاليم، ط2، طبع ليدن، 1909، ص130.

(3) مـايلاث على الرأس تكويرا / ينظر: ابن سـيده، ابو الحسـن علي بن اسـماعيل النحوي الاندلسـي (ت458هـ/1065م)، المخصص، دار الفكر، بيروت، بدون سنة، جـ1، ص82.

(4) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص367.

(5) ينظر، م.ن، جـ2، ص(367-366).

(6) ينظر: الهمذاني، ابو الفضل احمد بن الحسين (ت398هــ/1007م)، مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح د. علي بو ملحم، ط1، مكتبة الهلال، بيروت، 1993، ص(130-129).

(7) الجاحظ، البخلاء، ص189.

(1) الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص409.

الا معاً، فربما استولوا على دربٍ بأسره، او على طريق بأسره. ولاينزلون الا في طريق نافذ، ويكون خلف دورهم: اما صحارى واما بساتين، واما مزابل واشباه ذلك. وفي كل دار كلاب مربوطة، ودفوف وطبول. ولايزالون يجعلون على ابوابهم معلم كتابٍ منهم. فاذا خنق اهل دارٍ منهم انساناً ضرب النساء بالدفوف، وضرب بعضهم الكلاب فسمع المعلم فصاح بالصبيان: انبحوا، واجابهم اهل كل دارٍ بالدفوف والصنوج كما يفعل نساء اهل القرى وهيجوا الكلاب"[2].

وفي بعض الاحيان يقوم المعلم في الدرب عند سماعه الاصوات ان يأمر الصبيان "برفع الهجاء والقراءة والحساب"[3].

وتطلق تسمية بعض الخناقين بالجامع، "اذا جمع الخنق والتشميم، وحمل معه في سفره حجرين مستديرين .. فاذا خلا برجلٍ من اهل الرفقة فرمى باحدهما ..، وكذلك ان كان ساجداً. فان دفعه الاول سلبه، وان هو رفع رأسه طبق بالآخر وجهه. وكذلك ان الفاه نائماً او غافلاً"[4]، ومن طرقهم في القتل عند "بعض الخناقين من يحمل الرجل الى داره بحيلته، فاذا القى الوتر في عنقه ضرب اصحابه الطبل والصنج"[1]، ومنهم من "يستعمل بكرة فيها حبل الخنق"[2].

ويحدثنا الجاحظ عن رجل يتبعه الخناقون، فلما رأوه قد قرب من مفرق الطريقين، ورأوا احتراسه، وهم نزول اما في صحراء واما في بعض سطوح الخانات، فلم يشعر ذلك الرجل الا والحبل في عنقه، وطرحه الآخر حين القاه في عنقه، ووثب اليه وجلس على صدره، ومد الآخر برجليه والقى عليه ثوباً، ثم اخذوا ماأحبوا وتركوا ماأحبوا، ثم حملوه على ايديهم ورموه في بعض الاودية"[3].

ومن ابرز الخناقين "في المدينة عَدّية .. وبالبصرة رادوية"[4].

ويبين لنا الجاحظ بأن فئة الخناقين، لم تكن على مستوى الافراد فقط، بل شمل كذلك بعض "القبائل واصحاب النحل والتأويلات،..

اذا اعتزموا يوماً على قتل زائر
تداعوا عليه بالنباح وبالعزف"[5].

---

(2) م.ن، جـ2، ص(264-265).
(3) م.ن، جـ6، ص390.
(4) م.ن، جـ2، ص270.
(1) الاصبهاني، محاضرات الادباء، جـ3، ص189.
(2) التنوخي، النشوار، جـ2، ص(82-80).
(3) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص(271-270).
(4) م.ن، جـ6، ص389.
(5) م.ن، جـ6، ص390.

المتسـولـون:

المتسـولون احـدى الفئـات التـي اشـار اليهـا الجـاحظ فـي مؤلفاتـه، وقـد اشـار الـى طـرقهم ومكائـدهم فـي الاحتيـال، ونلاحـظ مـن خـلال استعراضـه لتلـك الطـرق فـي التسـول، ان هنالك قاسماً مشتركاً بين هؤلاء على مر العصور المختلفة.

واهـم اصـناف المتسـولين عنـده هـم: المخطرانـي[1]، الكاغـاني[2]، البـانوان[3]، القرسـي[4]، المُشـعب[5]، الفلـوّر[6]، الكاغـان[7]، العـواء[8]، الاسـطيل[9]، المزيـدي[10]، المستعرض[11]، المقدس[12]، المكدي[13].

ويبـدو ان التسـول مـن الامـور الرابحـة عنـد بعـض النـاس، ولـذلك كـان هنالـك احـد المتسـولين الـذي اسـتغنى، فتـرك الشـحاذة واخـذ يعلـم الآخـرين طـرق الشـحاذة[14]، بينمـا يعـيش المعـدم والمكـدي فـي الحقيقـة علـى الصـدقة فـي المسـجد[1] فقـط دون اسـتخدام تلـك الاساليب الملتوية في التسول.

ويؤكـد الجـاحظ علـى ذلـك، عنـدما يشـير بـأن اولاد المكـدين يصـبحوا عميانـاً وعرجانـاً، وعُشـماً وحُـدباً بفضـل (المشـعب)، ويعلـق علـى ذلـك قـائلاً: فـلا ادري ايهـم اعظـم كفـراً واقسـى قلبـاً: "الآبـاء او الامهـات الـذين يُسـلمون اولادهـم الـى المشـعِّب حتـى يعمـي

---

(1) الذي يأتيك في زي ناسك .. ثم يفتح فاه كما يصنع من يتثائب، فلا ترى له لساناً البتة، ولسانه في الحقيقة كلسان الثور / ينظر: الجاحظ، البخلاء، ص76.

(2) الذي يتجنن ويتصارع ويزبد، حتى لايشك انه مجنون لادواء له / ينظر: م.ن، ص76.

(3) الذي يقف على الباب / ينظر: م.ن، ص76.

(4) الذي يعصب ساقه وذراعه عصباً شديداً، ويبيت على ذلك ليلة. فاذا تورم واختنق الدم، مسحه بشيء من صابون .. وقطر عليه شيء من سمن، واطبق عليه خرقه، وكشف بعضه. فلا يشك من رآه ان به الآكلة / ينظر: م.ن، ص76.

(5) الذي يحتال للصبي حين يولد، بأن يعميه او يجعله اعسم او أعضد، ليسأل الناس به اهله / ينظر: م.ن، ص(77-76).

(6) الذي يحتال لخصيته، حتى يريك ان بها سرطاناً او خراجاً / ينظر: م.ن، ص77.

(7) الغلام المكدي، وكان عليه مسحة جمال / ينظر: م.ن، ص77.

(8) الذي يسأل بين المغرب والعشاء، وربما طرّب، ان كان له صوت حسن وحلق شجي / ينظر: م.ن، ص77.

(9) هو المتعامي، ان شاء اراك انه منخسف العينين، وان شاء اراك ان بهما ماء، وان شاء اراك انه لايبصر / ينظر: م.ن، ص77.

(10) الذي يدور ومعه الدريهمات، ويقول: هذه دراهم قد جمعت لي في ثمن قطيفة، فزيدوني فيها رحمكم الله. وربما احتمل صبياً على انه لقيط. وربما طلب الكفن / ينظر: م.ن، ص78.

(11) الذي يعارضك وهو ذو هيئة، وفي ثياب صالحة. وكأنه قد مات من الحياء، ويخاف ان يراه معرفة. ثم يعترضك اعتراضاً، ويكلمك خفيّاً / ينظر: م.ن، 78.

(12) الذي يقف على الميت يسأل في كفنه / ينظر: م.ن، ص78.

(13) صاحب الكداء / ينظر: م.ن، ص78.

(14) ينظر: التنوخي، النشوار، جـ8، ص272.

(1) الدوري، د. عبد العزيز، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ط3، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1995، ص260.

ابصارهم، ويعرج ارجلهم، ويزمنهم ويشوه بهم، او المشعب نفسه الذي ترك كل صناعة في الارض وتعلم هذه الصناعة فجعلها مكسبته التي لايفارقها"[2].

وفي الحقيقة ان الحلقات الاجتماعية جميعها هي المسؤولة عن تلك الانحرافات والتشوهات لدى الاطفال الذين لاذنب لهم.

الفتـــوة:

تمتاز حركة العيارين بوجود جماعات فيما بينهم، قد نادت بإتخاذ القيم الانسانية العليا في عملها تحت شعار الفتوة، وهي جزء من الصفات الايجابية في الشخصية العربية الاسلامية، "وان كثيراً من اهل الحرف والباعة انضموا الى هذه الحركة. وفي تنظيماتهم مايشير الى تمسكهم بالفتوة ايضاً، فكانوا يسمون انفسهم بالفتيان"[3].

ويبين الجاحظ بعض السمات العامة التي يجب ان تتوافر في الفتوة، ومنها "الفتى لايكون نشالاً .. ولامراسلاً، ولالكاماً، ولامصاصاً .. ولادلاكاً،.. ولامغربلاً"[4]. وتصح فتوة "كل ذكر بالغ عاقل مسلم، يمكنه التنزه عن الادناس"[5].

ومن سماتهم الاخرى، ان يقوم الفتى من الشطار بصداقة الفتية الآخرين لغرض ضمهم الى حركتهم، وليحصلوا على لقب الفتوة والتي كانت تستهوي الفتية والشباب للانضمام اليها، لان" الشطار ليخلو احدهم بالغلام الغرير فيقول له: لايكون الغلام فتىً ابداً حتى يصادق فتىً [الا فهو تكش، والتكش عندهم الذي لم يؤدبه فتىً ولم يخرجه]، فما الماء العذب البارد، بأسرع من طباع العطشان، من كلمته، اذا كان للغلام أدنى هوى في الفتوة"[1].

ويتطرق الجاحظ الى الفتية في عصره، قائلاً: "وخصصنا في ايامنا وزماننا بفتيةٍ اشراف، وخُلانٍ نظاف، انتظم لهم من الآت الفتوة واسباب المروءة ماكان محجوباً عن غيرهم، معدوماً من سواهم"[2].

الـزنـادقـة

تطرق الجاحظ في مؤلفاته الى الزنادقة مع بيان مذاهبهم واساليبهم، عندما تغلغل البعض منهم في المجتمع العربي الاسلامي، داحضاً فيه تلك الافكار والاساليب، وبما ان الزنادقة ليسوا من اهل الديانات فقد ارتأينا ان نضعهم مع الفئات الاجتماعية المختلفة.

ويبين بعض مظاهر عقائدهم مع رفض جمهور الامة لهذه العقائد المرفوضة، "فصار حظ الزنادقة من الالفاظ التي سبقت الى قلوبهم، واتصلت بطبائعهم، وجرت

---

(2) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص(382-381).

(3) الشيخلي، د. صباح ابراهيم، الاصناف في العصر العباسي، نشأتها وتطورها، بحث في التنظيمات الحرفية في المجتمع العربي الاسلامي، بغداد، 1976، ص173.

(4) الجاحظ، البخلاء، ص98.

(5) ابن المعمار البغدادي، ابو عبد الله محمد بن ابي المكارم الحنبلي (ت 642هـــ/1244م)، الفتوة، تحقيق د. مصطفى جواد، ط1، مطبعة المثنى، بغداد، 1958، ص172.

(1) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص(169-168).

(2) الجاحظ، الرسائل، طبقات المغنين، جـ3، ص133.

علـى ألسـنتهم التنـاكح، والنتـائج، والمـزاج، والنـور والظلمـة، والـدفاع والمنـاع .. والمنحـل، والـبطلان، والوجـدان، والاثيـر والصـديق .. واشـكالاً مـن هـذا الكـلام .. وكـان غريبـاً مرفوضاً، مهجوراً عند اهل ملتنا ودعوتنا، وكذلك عند عوامنا وجمهورنا"[3].

ويحـذرنا الجـاحظ مـن الاعيـب الزنادقـة، وانهـم يتوجهـون بعقائـدهم الهدامـة نحـو السذج مـن النـاس لغـرض نشـر افكـارهم، قـائلاً فـي ذلـك: "ربمـا سـمع احـدهم ممـن لامعرفـة عنـده ولاتحصـيل لـه، ان الزنادقـة ظرفـاء، وانهـم عقـلاء وادبـاء، وانهـم عبـاد واصـحاب اجتهـاد، وان لهـم البصـائر فـي ديـنهم، والبـذل لمهجهـم، وان هنـاك علمـاً وتمييـزاً، وانصـافاً وتحصـيلاً، فيسـري الـيهم .. ويحـن الـيهم حنـين الوالـه العجـول، ويتصـبب فـيهم صـبابة العاشـق المتـيم .. فلايـزال كـذلك حتـى يسـهل فـي طباعـه، ويـرجح عنـده انـه يـزعم انـه زنديق"[1].

ويـذكر طريفـة تـدل علـى بطـلان وتهافـت عقيـدتهم، فعنـدهم "ان كبـر اذن الانسـان دليـل علـى طـول عمـره، حتـى زعمـوا ان شـيخاً مـن الزنادقـة، لعـنهم الله تعـالى، قـدموه لتضـرب عنقـه فعـدا اليـه غـلام .. كـان لـه، فقـال: ألـيس قـد زعمـت يـامولاي ان مـن طالـت اذنه طال عمره؟ قال: بلى، قال: فهاهم يقتلونك"[2].

ثـم يـذكر اسـماء بعـض الزنادقـة، واصـفاً ايـاهم، بـأنهم يتواصـلون، وكـأنهم نفـس واحدة، يذهبون في كتاباتهم عن مثالب العرب، وعيوب الاسلام، على حد زعمهم[3].

---

(3) الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص(367-366).

(1) الثعالبي، ثمار القلوب، نقلاً عن الجاحظ، ص177.

(2) الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص355.

(3) ومن هؤلاء الزنادقة: حماد عجرد، وحماد الراوية، وحماد بن الزبرقان، ويونس بن هرون، وعلي بن الخليل، ويزيد بن الفيض، وعبادة وجميل بن محفوظ، وقاسـم، ومطيع، ووالبة بن الحباب، وأبان ابن عبد الحميد، وعمارة بن حربية / ينظر: م.ن، جـ4، ص(448-447).

الزهـاد والنساك:

ظهـر فـي الأسـلام فئـة مـن الزهـاد والنسـاك الـذين إتبعـوا منهجـاً إسـلامياً عـدوه هـو الأفضـل للتقـرب الـى الله تعـالى مقابـل الإبتعـاد عـن مغريـات الـدنيا وملـذاتها، وقـد إنتبـه الجاحظ الى هذه الفئة وأشار إليهم في مؤلفاته.

ويبـين لنـا أن هـذه الفئـة مـن النـاس لهـا القـدرة علـى الصـبر وتحمـل الأذى، ومـن خـلال إحـدى الروايـات، حيـث "كـان لرجـل مـن النسـاك شـاة، وكـان معجبـاً بهـا، فجـاء يومـاً فوجـدها علـى ثـلاث قـوائم فقـال: مـن صـنع هـذا بالشـاة ؟ قـال غلامـه: أنـا. قـال: ولـم؟ قـال: أردت أن أغمك. قال لا جرم لا غمن الذي أمرك بغمي، إذهب فأنت حر"[1].

ويهـتم بعـض النسـاك بـالعلم والمعرفـة، "وكـان أحـدهم يجتمـع إليـه القـراء والعلمـاء يوم الخميس"[2].

وكـذلك دخـل أحـد الزهـاد مـع الخليفـة "هشـام بـن عبـد الملـك البيـت، فقـال لـه هشـام: سـلني حاجتك. فقال أكره أن أسأل في بيت الله غير الله"[3].

ويعتـز هـؤلاء بالعمـل وقيمتـه الدينيـة والإجتماعيـة، فقيـل لأحـدى الزاهـدات: "لـو أذنـت لنـا كلمنـا قومـك فجمعـوا لـك ثمـن خـادمٍ، وكـان لـك فـي ذلـك مرفـق وكفتـك الخدمـة وتفرغـت للعبـادة. فقالـت: والله أنـي لأسـتحي أن أسـأل الـدنيا مـن يملـك الـدنيا، فكيـف: أسـأل الدنيا من لا يملكها"[4].

وقـد تعـرض الجـاحظ الـى هـذا الموضـوع، مبينـاً أثـر العمـل علـى النسـاك، فعنـده أن النسـاك مـن المسـلمين، إذا كـان "يـبغض العمـل تطـرف وأظهـر تحـريم المكاسـب، وعـاد سـائلاً، وجعـل مسـألته وسـيلة الـى تعظـيم النـاس لـه. وإذا كـان النصـراني .. مبغضـاً للعمـل، ترهـب ولـبس الصـوف لأنـه واثـق أنـه متـى لـبس وتزيـا بـذلك الـزي وتحلـى بـذلك اللبـاس، وأظهـر تلـك السـيما، أنـه قـد وجـب علـى أهـل اليسـر والثـروة مـنهم أن يعولـوه ويكفـوه"[5]، وهنـا يظهـر إهتمـام الجـاحظ بالعمـل، وفـي الوقـت نفسـه يحـذر مـن ألاعيـب بعـض النـاس ليتخـذ مـن الـدين وسـيلة الـى الكسـب لا وسـيلة للتقـرب الـى الله تعـالى ثـم يبـين لنـا رداءة التفكيـر عنـد بعـض النسـاك وأغبيـاء العبـاد، لأنهـم "يزعمـون أن لهـم خاصـة شـيطاناً قـد وكـل بهـم، ويقـال لـه (المـذهب) يسـرج لهـم النيـران، ويضـيء لهـم الظلمـة .. ليـريهم العجـب إذا ظنوا أن ذلك من قبل الله تعالى"[1].

ولكنـه يؤكـد فـي جانـب أخـر علـى المـنهج السـليم الـذي يتبعـه الزهـاد والنسـاك، فيقـدم لنـا أسـماء لأشـهر النسـاك فـي البصـرة[2]، وفـي الكوفـة[3]، وكـذلك أسـماء بعـض الناسـكات المتزهدات[4].

الجهلة:

---

(1) الجاحظ، البيان، جـ3، ص(142-141).
(2) هو ابو سعيد عمرو بن سعيد العاص / ينظر: م.ن، جـ3، ص173.
(3) م.ن، جـ3، ص127.
(4) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص589.
(5) م.ن، جـ1، ص220.
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص194.
(2) وهم عامر بن عبد قيس، وبجالة بن عبدة العنبريان، وعثمان بن الادهم، والاسود بن كلثوم، وصلة بن اشيم، ومذعور بن الطفيل / ينظر: الجاحظ، البيان، جـ3، ص193.
(3) وهم: عمرو بن عتبة، وهمام بن الحارث، والربيع بن خثيم، وأديس القرني / ينظر: م.ن، جـ3، ص193.
(4) وهم: ام الدرداء، ومعاذة العدوية، ورابعة القيسية / ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص589.

يمثل الجاحظ مدرسة فكرية وثقافية في عصره، وبهذا فهو ميال الى فئة العلماء والمثقفين، ناقداً للجهل والجهلة اينما وجدوا، ونلاحظه عنيفاً في وصفهم، مبيناً في الوقت نفسه وبطريقته الخاصة في الكتابة الآثار السلبية التي يخلفوها على حركة المجتمع.

ويضع في جانب أخر بعض الفئات الإجتماعية في إتساق واحد في الجهالة، معتبراً أن "العامة والباعة والأغنياء والسفلة .. هم في باطنهم أشد تشابهاً من التوأمين في ظاهرهما، وكذلك في مقادير العقول وفي الإعتراض والتسرع وان إختلفت الصور والنغم"(5).

ويعود مرة أخرى ليصف البعض منهم بالهمج، وهم "رعاع منتشر، لا نظام لهم، ولا إختيار عندهم، وأعراب أجلاف، وأشباه الأعراب، يفترقون من حيث يجتمعون، ويجتمعون من حيث يفترقون، لا تدفع صولتهم إذا هاجوا ، ولا يؤمن تهيجهم إذا أسكنوا. إن أخصبوا طغوا في البلاد وإن أجدبوا أثروا العناد. هم موكولون ببغض القادة، وأهل الثراء والنعمة، يتمنون له النكبة، ويشمتون بالعشيرة .. ويترقبون الدائرة"(6).

وفي ضوء منهجه العلمي، فأنه يحذرنا من هؤلاء الجهلة في إستخدام الدين في حياتهم اليومية،" فهولاء الجفاة والأعراب المحرمون، وأصحاب العجرفية، ومن قل فقهه في الدين، إذا خطبوا على المنابر فكأنهم في طباع أولئك المجانين"(1).

ويمكن معرفة الجاهل في خصلتين وهما كثرة الألتفات وسرعة الجواب"(2)، ويبقى الجاهل صغيراً في أعين الناس، ولذلك قالت إعرابية لأبنها من الخاملين الجهلة: "إذا جلست مع الناس فأن أحسنت أن تقول كما يقولون فقل، وإلا فخالف تذكر"(3).

ويبين لنا عبثهم وإستهزاءهم بالناس، "وقد جن إعرابي من أعراب المربد، ورماه الصبيان، فرجم، فقالوا له: أما كنت وقوراً حليماً ؟ فقال: بلى بأبي أنتم وأمي، والله ما أستحمقت إلا قريباً. وكان أول جنونه من عبث الناس به"(4).

الهيئات الجسمية:

إهتمت مؤلفات الجاحظ بالأنسان ودوره في بناء المجتمع، وتعددت تلك الإهتمامات بكافة أنواعها ومنها الهيئات الجسمية للأنسان ودورها في التكوين النفسي للشخصية وبالتالي أثرها على المجتمع الإنساني.

ولقد كان المجتمع العربي دقيق الملاحظة لهيئة الفرد وشخصيته، وقد أطلقوا النعوت المختلفة عليها، وعندهم "إذا عظمت عين الإنسان لقبوه أبا عُيينة وأبا عيناء"(5).

وكانت العامة تهتم بالعوق والتشوه الخلقي للأنسان ودور ذلك على نفسيته، فعندهم أن "من إعتراه الحدب .. أحدث له ذلك ظرفاً وخبثاً"(6).

---

(5) م.ن، جـ2، ص(105-104).
(6) الجاحظ، الرسائل، استحقاق الامامة، جـ4، ص212.
(1) الجاحظ، البيان، جـ2، ص236.
(2) ابن قتيبة، عيون الاخبار، جـ2، ص47.
(3) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص100.
(4) الجاحظ، البيان، جـ2، ص254.
(5) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص455.
(6) م.ن، ص428.

ويتطرق الى العرج، وعن شجاعة العرجان، ويحدثنا عن أحدهم "حيث كان يوتد سكة حديد في الأرض يغرقها،ثم يشد ساقه بها، ثم يضع رجله اليسرى في الركاب ويثب، فيقلع السكة ويستوي على ظهر الفرس كأنه لم يصنع شيئاً، من شدة متنه وقوة عصبه، وتوتير نساه. فأنقطعت في بعض ذلك عصبة من ساقه، فكان أسوأ حالاً من الأعرج"[1].

ويذكر بعض القادة المقاتلين العرجان، ويبين لنا بأنهم من الرؤساء المحاربين المقربين الذي كان يمنعهم من المشي، إذا كانوا على ظهور الخيل أمثال العقبان[2].

ثم يبين لنا أن العوق لا يقلل من قيمة المرء وشرفه، ويحاول الجاحظ في كتاباته الى الإنتصار لذوي العاهات الجسمية مبيناً قدرتهم على تخطي الصعاب والوصول الى مكانة مرموقة في المجتمع، ونعتقد أن ذلك قد يكون ضمن الحالة النفسية التي رافقته طيلة حياته لهيئته غير الجميلة، ولذلك فأنه يقدم لنا عدداً من الأسماء للأشراف من الناس قد أصيبوا بالعرج[3].

وعند تطرقه الى الهيئات الجسمية، فأنه يضع مقارنة بين الطويل والقصير في القامة، مؤكداً في ذلك على حكمة الإعتدال في الحياة، ولذلك فكلاهما "يحتاج الى الإعتذار، ويفتقر الى الإعتدال"[4].

الخوارج:

ومن الفئات التي تطرق في الحديث عنها هي فرقة الخوارج، ومن خلال وصفه لهم، يتضح أنه معجب بالخوارج في بعض صفاتهم، ولكنه كان متحفظاً مقتصراً على الوصف الإيجابي في ذلك فيراهم بأنهم متميزون على سائر الناس في "صدق الشدة عن أول وهلة، وهي الدفعة التي يبلغون بها ما أرادوا .. والصبر .. حتى يصبح القوم الذين مرقوا بهم غارين فيهجموا عليهم وهم بسوء .. وإن الخارجي موصوف عند الناس بأنه ان طلب أدرك، وإن طُلب فات ... وخفة الأمتعة، وإنها تجنب الخيل وتركب البغال، وإن إحتاجت أمست بأرضٍ وأصبحت بأخرى، وإنهم قوم حين خرجوا لم يخلفوا الأموال الكثيرة، والجنان الملتفة، والدور المشيدة"[5]، ويبدو لنا أن هذه سمات الخارجين على القانون، فهم مطاردون في كل زمان ومكان، ولم يبين لنا الجاحظ أسباب ذلك، كما أنه لم يذكر لنا الأمور السلبية الأخرى للخوارج التي لم ترد في مؤلفاته.

ويقدم لنا بياناً عن مواطن الخوارج المختلفة، وكذلك قومياتهم المختلفة، ففيهم "العربي، والعجمي والإعرابي، والعبيد والنساء، والحائك والفلاح، كلهم يقاتل مع إختلاف الأنساب وتباين البلدان – علمنا أن الديانة هي التي سوت بينهم، ووفقت بينهم في ذلك"[1]، وهو هنا يشير بالديانة الى العقيدة التي يعتنقها الخوارج والتي جمعتهم سواء على الرغم من إختلاف مواطنهم.

المسجديون:

---

(1) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص(321-320).

(2) وهم: هرثمة بن اعين، ونصر بن شبث / ينظر: م.ن، ص28.

(3) وهم: ابو طالب بن عبد الطلب، معاذ بن جبل، عبد الله بن جدعان، الحارث بن ابي شمر، الحوفزان بن شريك عمرو بن الحجوح الانصاري، الربيع بن مسعود الكلبي، عبد الحميد ابن عبد الرحمن بن زيد الخطاب، القعقاع بن سويد المنقري، سليمان بن كيسان الكلبي / ينظر: م.ن، ص13.

(4) الجاحظ، الرسائل، التربيع والتدوير، جـ3، ص59.

(5) م.ن، مناقب الترك، جـ1، ص(42-41).

(1) الجاحظ، الرسائل، منافب الترك، جـ1، ص51.

لقد كانت المساجد في تلك العصور، هي النواة الإجتماعية الأولى المهمة في المجتمع، وقد تطرقنا فيما سبق بأن البواكير الثقافية الأولى لدى الجاحظ هي في المسجد ومن خلال المسجديين، الذين إتخذوا المسجد للتداول والعبادة المناقشة، وأشار الى ذلك الجاحظ قائلاً: "وقد أدركت رواة المسجديين"[2].

وللمسجديين فعاليات إجتماعية فيما بينهم، قد زادت من أواصر المحبة والنقاء، "ممن ينتحل الإقتصاد في النفقة، والتثمير للمال، من أصحاب الجمع والمنع. وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب الذي يجمع على التحاب وكالحلف الذي يجمع على التناصر. وكانوا إذا إلتقوا في حلقتهم كذاكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارسوه، إلتماساً للفائدة، وإستمتاعاً بذكره"[3].

---

(2) الجاحظ، البيان، جـ4، ص23.

(3) الجاحظ، البخلاء، ص47.

رابعاً / أهل المهن والحرف

من المواضيع التي تطرق إليها الجاحظ في مؤلفاته هي المهن والحرف، والفعاليات والنشاطات لأهل المهن في المجتمع.

وإن الله تعالى عمل على إختلاف طبائع الناس ليوفق بينهم، ولذلك فأنه يرى أن وجود هذه المهن والحرف المختلفة هي مسألة جبرية على الناس يتدخل به الله تعالى لمصلحتهم، فلو إختاروا لوحدهم لأختاروا "بأجمعهم التجارة، والصناعة، ولجاز ان يطلبوا بأجمعهم الملك والسياسة. وفي هذا ذهاب العيش، وبطلان المصلحة"[1].

وبذلك أصبح صاحب المهنة أو الحرفة يرى بأن عمله هو أفضل من أعمال الأخرين، "فالحائك إذا رأى تقصيراً من صاحبه أو سوء حذقٍ أو خرقاً قال له: يا حجام. والحجام إذا رأى تقصيراً من صاحبه قال له: يا حائك ... ولولا أن الله تعالى أراد أن يجعل الأختلاف سبباً للأتفاق والأئتلاف، لما جعل واحداً قصيراً والأخر طويلاً، وواحد حسناً وأخر قبيحاً، وواحداً غنياً وأخر فقيراً[2].

وتبدو المصلحة الألهية واضحة في ذلك لأسعاد الأنسانية ورفاهيتها، "لأن الناس لو رغبوا كلهم عن عار الحياكة لبقينا عراة. ولو رغبوا بأجمعهم عن كد البناء لبقينا بالعراء. ولو رغبوا عن الفلاحة لذهبت الأقوات، ولبطل أصل المعاش. فسخرهم على غير إكراه، ورغبهم من غير دعاء"[3].

ويرى أن المجتمع العربي يدعم ويؤيد العمل وقيمته، وقد تعزز هذا الرأي بمجئ الأسلام، الذي أعطى للعمل قدسية خاصة، ومن أجل دعم رأيه في هذا الموضوع فأنه يقدم إلينا نماذج من أشرف المجتمع العربي والذين أنغمسوا في عملهم ذاكراً أنواع تلك المهن والحرف[1].

ويمكننا تقسيم المهن والحرف التي وردت في مؤلفات الجاحظ على النحو الآتي:

---

(1) الجاحظ، الرسائل، حجج النبوة، جـ3، ص242.

(2) م.ن، جـ3، ص(243-242).

(3) م.ن، حجج النبوة، جـ3، ص243.

(1) وهم من هؤلاء الاشراف: ان ابا طالب كان يعالج العطر والبز، واما ابو بكر وطلحة وعبد الرحمن بن عوف فكانوا بزازين، وكان سعد بن ابي وقاص يغدق النخل، وكان اخوه عتبة نجاراً، وكان العاص بن هشام اخو ابي جهل بن هشام جزاراً، وكان الوليد ابن المغيرة حداداً، وكان عثمان بن طلحة صاحب مفتاح البيت خياطاً، وكان ابو سفيان بن حرب يبيع الزيت، وكان امية بن خلف يبيع البرم، وكان عبد الله بن جدعان نخاساً، وكان العاص بن وائل يعالج الخيل والابل، وكان سيرين بن محمد بن سيرين حداداً، وكان المسيب ابو سعيد زياتاً، وكان مالك بن دينار وراقاً، وكان ابو حنيفة صاحب الرأي خزازاً، وكان مجمع الزاهد حائكاً / ينظر: الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص93.

أ ـ المهن والحرف الثقافية:

المعلمون:

إهتم الجاحظ بالمعلمين، وكتب في ذلك رسالة خاصة بهم، وهذا الموضوع ليس غريباً عليه وهو الذي كان يؤدب الصبيان، وطلب منه الخليفة المتوكل العباسي أن يؤدب أولاده[2]، كما بينت لنا الروايات التاريخية بأنه كان يترأس حلقة للدرس في البصرة[3]، وبالطبع فأن الجاحظ إذا لم يكن مقتنعاً بهذه المهنة فالأحرى به تركها والأمتناع عنها، وهو صاحب العلوم والمعارف الموسوعية وقارئ للكتب من الطراز الأول، وبالتأكيد فأن ذلك يدعم موقفه في طلب العلم والبحث عنه، ولكنه يقف أمام المعلم في إتجاهين متضادين، فهو بين مادحٍ مرة وبين ذامٍ وناقدٍ مرة أخرى، وفي كل حالة من هذه الحالات يعطي الجاحظ تبريراً في ذلك، ويلتمس القارئ ذلك من خلال الأطلاع على مؤلفاته المختلفة.

وحول هذا الموضوع يعلق قائلاً: "والمعلمون .... منهم رجال إرتفعوا عن تعليم أولاد العامة الى تعليم أولاد الخاصة، ومنهم رجال إرتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة الى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة. فكيف تستطسع أن تزعم أن مثل علي بن حمزة الكسائي[1]، ومحمد بن المستنير الذي يقال له قطرب[2]، وأشباه هؤلاء يقال لهم حمقى. ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم"[3].

وهنا يظهر الجاحظ مدافعاً عن المعلمين لما يتسم البعض منهم من مواصفات يعتقد بأنها الناجحة في المعلم الجيد، ولكن ليس في كل المعلمين حماقة، ويذهب أبعد من ذلك مبيناً بأن المعلمين أن ذهبوا "الى كتاتيب القرى فأن لكل قوم حاشية وسفلة، فما هم في ذلك إلا كغيرهم وكيف تقول مثل ذلك في هؤلاء وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء"[4]، إذا ما علمنا أن كتاتيب القرى تمثل أولاد العامةبنسبة غالبة، فهذا يعني أنه ينصف المعلم المتميز أينما كان موقعه في المجتمع، وفي ذلك "هو ينفي ما يشاع من أن الجاحظ كان يحط من أقدارهم ويقلل من مكانتهم، ثم أن رأي الجاحظ يحتم أن ينظر الباحث في هذا الموضوع الى أن المعلمين طوائف لا طائفة واحدة"[5].

وينظر بأن الحياة في جميع مرافقها بحاجة الى معلم، فلذلك "وجدنا للأشياء كلها معلمين"[6].

---

(2) ينظر: الوشاء، الموشى، ص94.

(3) ينظر: ياقوت الحموي، معجم الادباء، جـ16، ص105.

(1) علي بن حمزة ابو الحسن الاسدي المعروف بالكسائي النحوي. احد ائمة القراء من اهل الكوفة، مات في سنة اثنتين وثمانين ومائة، ودفنه الخليفة الرشيد بالري / ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ11، ص(403-415).

(2) ابو علي محمد بن المستنير بن احمد النحوي اللغوي البصري، المعروف بقطرب، كان من ائمة عصره، توفي سنة ست ومائتين / ينظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ4، ص(312-313).

(3) الجاحظ، البيان، جـ1، ص250.

(4) م.ن، جـ1، ص251.

(5) شلبي، احمد، تاريخ التربية الاسلامية، ط3، مكتبة النهضة المصرية، 1966، ص219.

(6) الجاحظ، الرسائل، المعلمين، جـ3، ص33.

ولدور المعلمين في المجتمع وفي العائلة بصورة خاصة[1] أثر كبير، وعليه فلو "نظرت من جهة النظر علمت أن النعمة فيهم عظيمة سابقة، والشكر عليها لازم واجب"[2].

ويتضح بأن السلوكيات الرديئة لبعض المعلمين قد أنعكست بالتالي على كتابات الجاحظ، فلو أستقصينا في عصره "عدد النحويين والعروضيين والفرضيين، والحساب، والخطاطين، لوجدت أكثرهم مؤدب كبار ومعلم صغار"[3]، وهذا لا يتلائم مع ما يعتقده من علمهم وشخصيتهم لتولي هذه الوظائف التي لا تليق بهم.

كما أنه ينتقد المعلمين الذين يتقاضون الأجرة على الصبيان ذوي الحالات المتفاوتة مبيناً بأن "خبز المعلمين يأتي مختلفاً، لأنه من بيوت صبيان مختلفي الأحوال"[4].

ومن واجبات المعلم والمؤدب "أن يعلم الصبي السور القصار من القرآن، بعد حذقه بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل. ثم يعرفه عقائد أهل السنة والجماعة، ثم أصول الحساب، وما يستحسن من المراسلات والأشعار دون سخيفها ومسترذلها"[5]، نرى أن الجاحظ يبين أن بعض المعلمين قد شذ عن هذه القاعدة فأخذوا "بتعليم أبناء الرعية الفلاحة والنجارة، والبنيان والصياغة والخياطة، والصبغ، وأنواع الحياكة. نعم حتى علموا البلابل وأصناف الطير الألحان"[6]، وهنا نرى رفضه لتعليم الصبيان مثل هذه المواضيع التي لا تستحق الدراسة، كما أنه يبين رفضه بأن يصبح التعليم ومناهجه دون قواعد وأسس صحيحة.

ويذهب بأن بعض المعلمين أصبحوا "يعلمون القرود والدببة والكلاب والظباء ... والببغاء، ... وغراب البين، الأبل والخيل، والبغال، والحمير، والفيلة، أصناف المشي، وأجناس الحضر، ويعلمون الشواهين والصقر والبوازي، والفهود والكلاب"[1]، وفي رأينا بأن هذه المواضيع التعليمية هي مواضيع متخصصة لا علاقة لها بالتعليم في المساجد والكتابيب، ولا يمكن أن تطلق صفة معلم بمعناها المعروف على مثل هذه الأعمال التي تمارس في ترويض وتعليم الحيوان.

كما إننا نراه يرفض الأجور المنخفضة التي يتقاضاها بعض المعلمين علىالرغم من متانة علومهم مبيناً بأن الرجل يكون" نحوياً عروضياً وقساماً فرضياً وحسن الكتاب جيد الحساب حافظاً للقرآن راوية للشعر، وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهماً. ولو أن رجلاً كان حسن البيان من التخريج للمعاني ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم"[2].

كما أنه ينتقد المعلمين الذين يعلمون الأطفال والبنات قائلاً:

"وكيف يرجى الرأي والعقل عند من ... يروح على أنثى ويغدو على طفل"[3]

---

(1) حكي ان المنصور بعث الى من في الحبس من بني امية يقول لهم: ما اشد ما مر بكم في هذا الحبس؟ فقالوا: مافقدنا من تأديب اولادنا / ينظر: الاصبهاني، محاضرات الادباء، جـ1، ص47.

(2) الجاحظ، الرسائل، المعلمين، جـ3، ص28.

(3) م.ن، المعلمين، جـ3، ص31.

(4) المبرد، الكامل، نقلاً عن الجاحظ، جـ1، ص302.

(5) الشيزري، نهاية الرتبة، ص103.

(6) الجاحظ، الرسائل، المعلمين، جـ3، ص32.

(1) الجاحظ، الرسائل، المعلمين، جـ3، ص33.

(2) الجاحظ، البيان، جـ1، ص403.

(3) م.ن، جـ1، ص248.

الكُتّــاب

الكاتب وظيفة من الوظائف البارزة في العصور العباسية، وقد قيل "أن المأمون ذكر أصحاب الصناعات فقال: السوقة سفل، والصناع أنذال، والتجار بخلاء، والكتّاب ملوك على الناس"[(4)].

ولكننا نرى الجاحظ يؤلف رسالة في ذم أخلاق الكتّاب في عهده، وفي ذلك أسبابه، ومنها أن الكتابة "لايتقلدها إلا تابع، ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخادم. ولم نر عظيماً قط تولى كفاية نفسه، أو شارك كاتبه في عمله"[(5)].

وفي أحدى المرات جلس الجاحظ يوماً في بعض الدواوين، فتأمل الكتاب فقال: "خِلَق حلوة، وشمائل معشوقة، وتظرف أهل الفهم، ووقار أهل العلم، فأن القيت عليهم الأخلاص وجدتهم كالزبد يذهب جفاءً، وكنبتة الربيع يحرقها الريح، وأشراهم بالثمن الخسيس لعهودهم، الويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون"[(1)].

ويرى أن الكاتب "يتحاذق عند نظرائه بالأستقصاء على مثله، ويسترجح رايه إذا بلغ في نكاية رجلٍ من أهل صناعته ... هم كالهرمة من الكلاب في مرابضها، يمر بها أصناف الناس فلا تحرك، وأن مر بها كلب مثلها نهضت إليه بأجمعها حتى تقتله"[(2)].

ويتحدث عن أحدهم قائلاً: ما رأيت قوماً نفرت طبائعهم عن قبول العلوم، وصغرت هممهم عن إحتمال لطائف التمييز، فصار العلم سبب جهلهم، والبيان علم ضلالتهم، والفحص والنظر قائد غيهم، والحكمة معدن شبههم أكثر من الكتاب"[(3)].

ويبين بأن الكتاب همهم جمع الثروة والمال، وأن" الأموال كثيراً ما تكون عند الكّتاب، وعند أصحاب الجوهر ..، وعند الصيارفة"[(4)].

وبذلك فأن الكتاب عند الجاحظ حالة رديئة ، ويعمم ذلك عليهم دون تمييز، وبرأينا بأن هذا الموضوع مبالغ فيه، وهي إحدى الأساليب الهجومية ضد خصومة ومنافسية ولا تخضع الى الأقناع السليم.

القصاصون:

في بحثنا عن القصاصين عند الجاحظ، فقد وضعناهم ضمن قائمة المهن والحرف، بعد أن أصبح عملهم مكسب يسترزقون به، والهدف الرئيس من القاص هو الحث على "إتباع الطريق القويم، بترديد القصص الديني، وأخبار السلف الصالح. غير أن القصاص لم يلبثوا أن أنحرفوا عن هذا الهدف، وصار هدفهم الأول تحقيق الكسب المادي عن طريق ترديد القصص الخرافي"[(5)].

---

(4) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص93.

(5) الجاحظ، الرسائل، ذم اخلاق الكتاب، جـ2، ص(191-190).

(1) الجاحظ، الرسائل، ذم اخلاق الكتاب، جـ2، ص199.

(2) م.ن، جـ2، ص200.

(3) م.ن، جـ2، ص195.

(4) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص(435-434).

(5) عاشور، د. سعيد عبد الفتاح، دراسات في تاريخ الحضارة الاسلامية العربية، ط2، ذات السلاسل، الكويت، 1986، ص264.

وكذلك فأننا نرى بأن فقهاء الأسلام في العصور الأسلامية اللاحقة، قد أفتوا في القاص، "فأن كان يكذب في أخباره فهو فاسق والأنكار عليه واجب، وكذا الواعظ المبتدع، يجب منعه ولا يجوز حضور مجلسه الاعلى قصد إظهار الرد عليه"(1).

وبذلك جاءت كتابات الجاحظ متوافقة وضمن هذا الأتجاه، ويرى أن القاص في عصره أن "يكون أعمى، ويكون شيخاً بعيد مدى الصوت"(2).

ويصف رداءة القصاص واصفاً ذلك بالقول "لو ذهب مالي لجلست قاصاً، أو طفت في الآفاق، كما كنت مكدياً. اللحية وافرة بيضاء، والحلق جهير ..، والسمت حسن، والقبول علي واقع"(3).

وروي بأن بعض الذبان قد تساقط في مرق أحد القصاص وعلى وجهه فقال : كثر الله بكن القبور، وسمع هذا القاص يقول في قصصه: اللهم من علينا بالشهادة، وعلى جميع المسلمين(4)، وهنا تظهر إزدواجية القاص حتى في كلامه فهو يظهر بالواعظ أمام الناس ونراه ردئ الكلام في بيته.

ولذلك أفتى بعض الفقهاء بأنه "لاينبغي أن يقص على الناس إلا العالم المتقن فنون العلوم، لأنه يسأل عن كل فن"(5).

ويذكر لنا بأن لبعض القصاص يوماً محدداً لألقاء قصصهم، فكان أحدهم يلقي قصصه في المسجد كل يوم أربعاء(6).

وهنالك من القصاص ذاماً للدنيا وراغباً في الوعظ عن الآخرة، وفي إحدى الأيام ذكر "قصر الدنيا وطول أيام الأخرة، وتصغير شأن وتعظيم شأن الدنيا الأخرة، فقال: هذا الذي عاش خمسين سنة لم يعش شيئاً، وعليه فضل سنتين. قالوا: وكيف ذاك؟ قال: خمس وعشرون سنة ليل، هو فيها لا يعقل قليلاً ولا كثيراً، وخمس سنين قائلة، وعشرون سنة أما أن يكون صبياً، وأما أن يكون معه سكر الشباب فهو لا يعقل. ولابد .. من نعسة بين المغرب والعشاء .. وغير ذلك من الآفات. فأذا حصلنا ذلك فقد صح أن الذي عاش خمسين سنة لم يعش شيئاً، وعليه فضل سنتين"(1)، ولم نلاحظ الجاحظ معلقاً على حديث هذا القاص، ولكننا نرى أن الحكمة الألهية في خلق الأنسان ليست بهذه العجالة في حساب عدد السنوات بشكل مهدور، فالأنسان قد خلق لغاية عظيمة ونبيلة، وعدد السنوات الحقيقية لحياة الأنسان هو مقدار العطاء الذي يقدمه، وهذا ليس غريباً على أمتنا المجيدة عبر تاريخها فهي زاخرة بالعطاء والعمل والقدرة على الإبداع لتثبيت هويتها.

المهن التجارية:

(1) الغزالي، ابو حامد (ت 505هـ/1111م)، أحياء علوم الدين، مؤسسة الحلبي للنشر، القاهرة، 1967، جـ2، ص430.

(2) الجاحظ، البيان، جـ1، ص93.

(3) الجاحظ، البخلاء، ص73.

(4) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص324.

(5) ابن الجوزي، القصاص والمذكرين، تحقيق د. محمد بن لطفي الصباغ، ط2، المكتب الاسلامي، بيروت، 1988، ص181.

(6) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص25.

(1) الجاحظ، البيان، جـ4، ص26.

بعد تتبعها لكتابات الجاحظ، لا حظنا بأنه ميال الى التجار، وهذه ملاحظة تثير الإستغراب، لأنه يعد مثقف عصره، وهو ناقد الى بعض المعلمين والكّتاب، لكننا نراه مادحاً للتجار دوماً، ويرى أحد الباحثين أن ذلك عائد الى "تأمين رزقه. فهو لو كان ميسوراً متحرراً لما أندفع هذا الدفاع في إعجابه"[2]، ونرى أن القلم الحقيقي والأصيل لا يهاون ولا يمل في سبيل نشر الحق والكلمة الواعية الأصيلة.

ولكن الجاحظ يجد بعض المبررات في ذلك حسب إعتقاده، لأن قريش وهي موطن الإسلام كانت تمتهن التجارة، فلذلك "علم المسلمون أن خيرة الله تعالى من خلقه، وصفيه من عباده، والمؤتمن على وحيه، من أهل بيت التجارة، وهي معولهم وعليها معتمدهم"[3].

ويرى أن التجار لهم "السلامة في الدين، وطيب الطعمة، .. وأنهم أودع الناس بدناً وأهنؤهم عيشاً، لأنهم في أفنيتهم كالملوك على أسرتهم، يرغب إليهم أهل الحاجات، وينزع إليهم ملتمسوا البياعات، لا تلحقهم الذلة في مكاسبهم"[4]، ونرى أن جميع الناس هم في حاجة الواحد الآخر، وهو المتحدث بذلك في أكثر من مرة بأن الله تعالى خلق تفاوتاً في المهن والحالات من أجل التوفيق فيما بينهم، كما أن الذلة لها مدلولات مختلفة عند الناس، فقد يصاب التاجر بالذلة كغيره من بقية الناس، ولذلك فأن الأسلام بالنسبة للمسلمين هو أكثر من دين، أنه تجسيد لنظام متكامل للحياة[1].

ويذهب بأن التجارة لا تقلل صاحبها من العلم والأدب، وأي "صنف من العلم لم يبلغ التجار فيه غاية"، أو يأخذوا منه بنصيب، أو يكونوا رؤوساء أهله .. هل كان من التابعين أعلم من سعيد بن المسيب[2] او انبل؟ وقد كان تاجراً يبيع ويشتري، وهو الذي يقول ماقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله، ولا أبوبكر، ولا عمر، ولا عثمان، ولا علي، رضوان الله عليهم ـ قضاءاً إلا وقد علمته"[3]، وفي رأينا أن سعيد بن المسيب أصبح عالماً وفاضلاً بفضل الأسلام، وهذا يدل على عدم منافرة العلم للتجارة.

ولفضل التجارة فأن النبي (صلى الله عليه وسلم)، كان "البرهة من دهره تاجراً، وشخص فيه مسافراً، وباع وأشترى حاضراً"[4].

وعلى الرغم من دعمه وتأييده للتجار ومهنتهم، إلا أنه يورد خبراً عن رأي بعض اللصوص بالتجار وبغضهم لهم في كتابه المفقود و (اللصوص) الذي نقل نصاً منه التنوخي في كتابه الفرج بعد الشدة، بأن هذا اللص قال للص آخر: " أن هولاء التجار خانوا أماناتهم، ومنعوا زكاة أموالهم، فصارت أموالهم مستهلكة بها، واللصوص فقراء إليها، فأذا أخذوا أموالهم، وأن كرهوا أخذها ـ كان ذلك مباحاً لهم، لأن عين المال مستهلكة بالزكاة، وهؤلاء يستحقون أخذ الزكاة، بالفقر، شاء أرباب الأموال أم كرهوا"[5].

ومن المهن التجارية الأخرى هي الصيرفة، والتي عند أحد الأعراب بأن هذه المهنة هي "قرارة اللؤم"[6].

---

(2) جبر، د. جميل، الجاحظ، ص54.
(3) الجاحظ، الرسائل، مدح التجار وذم السلطان، جـ4، ص(256-255).
(4) م.ن، جـ4، ص254.
(1) Khadduri, M., Law of War and Peace in Islam, London, 1940, p.3.
(2) كان يفتي واصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أحياء، وكان رأس من بالمدينة، في دهره والمقدم عليهم في الفتوى، ويقال فقيه الفقهاء / ينظر: ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت 230هـ/843م)، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، بدون سنة، جـ2، ص379.
(3) الجاحظ، الرسائل، مدح التجار، جـ4، ص(258-257).
(4) م.ن، جـ4، ص256.
(5) م.ن، جـ4، ص(232-231).
(6) الجاحظ، البيان، جـ2، ص96.

المهـن والحـرف الصنـاعيـة:

شـهدت العصـور العباسـية حركـة صـناعية بـارزة، ومـا يسـتدعي تلـك الصـنائع "لضـرورة المعـاش، فيوجـد فـي كـل مصـر، كالخيـاط والحـداد والنجـار وأمثالهـا. ومـا يسـتدعي لعوائـد التـرف وأحوالـه"[(1)]، والصـناع"هم الـذين يعملـون بأبـدانهم وأدواتهـم فـي مصـنوعاتهم الصـور والنقـوش والأصـباغ والأشـكال، وغرضـهم طلـب العـوض عـن مصنوعاتهم، لصلاح معيشة الحياة الدنيا"[(2)].

وقد تطرق الجاحظ الى عدد من المهن والحرف الصناعية ومنها:

الحـاكـة:

نـرى الجـاحظ يشـن حملـة هجوميـة علـى هـذه المهنـة، فيـرى أن "عمـوم السـخف والجهـل والكـذب فـي المواعيـد، والغـش فـي الصـناعة، فـي الحاكـة، فـدل إسـتواء حـالاتهم فـي ذلـك علـى إسـتواء عللهـم .. لأن الحاكـة فـي كـل بلـد شـيء واحـد"[(3)]، كمـا أنـه يلـزم أعسـر اليـد بالحائك قائلاً: "لم نر أعسر إلا حائكاً أو ساقطاً"[(4)].

وعنـده أن الحاكـة هـم أحمـق النـاس، بـل يـذهب أكثـر مـن هـذا بـأن" الحاكـة أقـل وأسـقط مـن أن يقـال لهـا حمقـى .. لأن الأحمـق هـو الـذي يـتكلم بالصـواب الجيـد ثـم يجـيء بخطـأ فـاحش، والحائـك لـيس عنـده صـواب جيـد فـي فعـالٍ ولا مقـال، إلا أن يجعـل جـودة الحياكة من هذا الباب، وليس هو من هذا في شيء"[(5)].

كمـا وأن الحاكـة عنـده تقـوم علـى "خلـف المواعيـد وعلـى إبـدال الغـزول، وعلـى تشـقيق العمـل دون الأحكـام والصـدق وأداء الأمانـة"[(1)]، وكـذلك يتفـق الحاكـة علـى "السـخط .. والغباوة والظلم"[(2)].

ويسـتمر الجـاحظ بسـرد الصـفات الرديئـة للحاكـة ويصـمت عـن محاسـنهم، بـل يؤكـد حماقـة الـبعض مـنهم، بـأن حائكـاً "فـي زمـن المـأمون كـان يعمـل عامـة وقتـه أجمـع ... لا يسـتريح لـيلاً ولا نهـاراً .. ولا يتـرك عملـه فـي الجمعـات والأعيـاد ولا يفتـر عـن شـغله

(1) ابن خلدون، ابو يزيد عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/1405م)، المقدمة، الدار التونسية للنشر، 1984، جـ2، ص455.
(2) اخوان الصفا (عاشوا في القرن الرابع الهجري)، رسائل اخوان الصفا، دار صادر، بيروت، 1957، جـ1، ص(286-285).
(3) الجاحظ، الرسائل، الاوطان والبلدان، جـ4، ص128.
(4) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص586.
(5) الجاحظ، البيان، جـ1، ص249.
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص(142-141).
(2) م.ن، جـ2، ص105.

بالنوائب والمصائب فأذا جاء زمن الورد .. أنشد شعراً وأشتغل بالشرب أربعين يوماً"[3].

ويصف لنا جوانب من هذه المهنة، فأن أدوات الحاكة يشبهها بشوك القنفذ[5]، وكذلك إذا قيل: "فلان أخضر البطن، فأنما يريدون أنه حائك، لأن الحائك بطنه لطول التزاقه بالخشبة التي يطوي عليها الثوب يسود"[4].

الحواءون وصناعة الترياق:

صناعة الترياق: صناعة الترياق أو الدواء، من الصناعات المعروفة في العصور الإسلامية، وقد لاحظ الجاحظ بأنه وفي إحدى المجالس دخل عليهم رجل "يجلب الأفاعي من سجستان[5]، ويعمل الترياقات، ويبيعها أحياء ومقتولة"[6]، وسم الثعبان له الدور الرئيس في صناعة الترياق، وكذلك تجلب الثعابين من مصر[7]، وأن بعض الحوائين أخبره بأن "للحيات نتناً .. وأن ريح الأفعى معروفة"[8].

المهن الصناعية الأخرى:

تطرقت مؤلفات الجاحظ الى إشارات لبعض المهن والحرف الصناعية، ومنها (الصفارون)، مبيناً بأنهم يتخذون من الحجارة سندان لهم دون الحديد، لأنه "أصبر على دق عظام المطارق"[1]، وفي صناعة الدباغة فأن "درق الحمام يصلح في بعض وجوه الدبغ"[2].

وعندما يتطرق الى النجارة، فأن العرب تقول للرجل الصانع نجاراً، وأن "كان لا يعمل بالمثقب والمنشار ونحوه"[3]، وعند العرب وكل"صانع فهو (أسكاف) .. أي نجار"[4].

ويخبرنا بأنه جاء بأحد النجارين الى بيته، ويبين لنا كيفية إتقان تلك الصنعة، وكان عنده باب ثمين أراد تعليقها فقال للنجار: إن إحكام تعليق الباب شديد ولا يحسنه من مائة نجار نجار واحد، فقال له النجار: قد أحسنت حين أعلمتني أنك تبصر العمل، فعلقه فأحكم تعليقه، ثم طلب من النجار عمل ثقب في الباب، فيقول الجاحظ: فلما ثقبه وأخذ حقه ولآني ظهره للأنصراف، والتفت إلي فقال: قد جودت الثقب، ولكن أنظر أي نجار يدق فيه الزرة، فأنه أن أخطأ بضربة واحدة شق الباب ـ والشق عيب ـ فعلمت أنه يفهم صناعته فهماً تاماً[5].

---

(3) الجاحظ، سلوة الحريف بمناظره الربيع والخريف، دار الرائد العربي، بيروت، 1982، ص38.
(5) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص464.
(4) م.ن، جـ3، ص248.
(5) ناحية كبيرة، وبينها وبين هراة ثمانون فرسخاً، وهي جنوبي هراة / ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ3، ص190.
(6) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص116.
(7) الثعالبي، ثمار القلوب، نقلاً عن الجاحظ، ص425.
(8) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص191.
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص311.
(2) م.ن، جـ3، ص253.
(3) م.ن، جـ4، ص76.
(4) ابن قتيبة، ادب الكاتب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط4، مطبعة السعادة، مصر، 1963، ص158.
(5) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص(276-277).

ويظهر لنا بأن للبردي وأشباهه يدخل في عدة صناعات وفيه صناعة الورق والحصر والغلف، "وفيه ضروب من المنافع فقد يتخذ منه القرطاس الذي يحتاج إليه الملوك والسوقة والحصر التي يستعملها كل صنف من الناس ويعمل منها الغلف التي توقي بها الأواني يجعل حشواً بين الظروف في الأسفار كيلا يعيب ولا ينكسر"[6].

وفي صناعة الزجاج، فأن الرمل هو من المواد المستخدمة في تلك الصناعة[1].

ويتطرق الجاحظ في مؤلفاته بصورة واسعة عن المعادن والصناعات التي تدخل فيها، وللمعادن أهمية خاصة في الحياة اليومية، وأن غالبية ما يستخرج من ظاهر وباطن الأرض عنده هي معادن ومنها "الجواهر المختلفة الألوان كمثل الجص والكلس والجير والزرنيخ والزاج .. والفضة والذهب والزبرجد والياقوت والزئبق والنحاس والرصاص والخرز والحجارة وكذلك ما يخرج منها من القار والزفت .. والكبريت والنفط"[2].

ومن الذخائر النفيسة والكنوز العادية والجواهر الثمينة، "الدر الأصفر، والياقوت الأحمر، والزمرد الأخضر"[3].

ومن أهم المعادن وأنفسها عند الناس الذهب والفضة، وقد حاول الناس عبر التأريخ بمحاولات كيميائية لصناعة الذهب بدلاً من الذهب الأصلي، ولكن دون جدوى، "فأنهم لو ظفروا بما حاولوا من هذا العلم لكان لا محالة يستظهر ويستفيض في العالم حتى يكثر الذهب والفضة ويسقط عند الناس فلا تكون له قيمة ويبطل الأنتفاع بهما في الشراء والبيع والمعاملات والأتاوة"[4].

ويستخدم العاملون في المناجم النار في التنقيب عن الذهب، "فأذا هجموا على فتق في بطن الأرض أو مغارة في أعماقها، قدموا شمعةً في طرفها أو في رأسها نار، فأن ثبتت النار وعاشت دخلوا في طلب الجواهر من الذهب .. وإلا لم يتعرضوا له. وأنما يكون دخولهم بحياة النار، وإمتناعهم بموت النار"[5].

☜ المهن الخدمية:

تطرقت مؤلفات الجاحظ الى بعض النواحي الإجتماعية للمهن الخدمية، والتي تقدم خدماتها الى الناس والمجتمع.

---

(6) الجاحظ، الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير، ط1، حلب، 1928، ص25.

(1) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص374.

(2) الجاحظ، الدلائل والاعتبار، ص14.

(3) الجاحظ، الرسائل، تفضيل البطن على الظهر، جـ4، ص161.

(4) الجاحظ، الدلائل والاعتبار، ص(14-15).

(5) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص110.

وفـي مجـال الأسـواق، فأنـه يؤكـد أهميـة حـرس الأسـواق لحمايـة ممتلكـات النـاس وضـمان الأمـن، ولـذلك فلـو إننـا "حلنـا بـين حـرس الأسـواق، ومـا تشـتمل عليـه مـن حرائـب النـاس، وبـين إتخـاذ الكـلاب لأمتنعـوا مـن ضـمان الحراسـة، ولأمتنـع كـل محـروس مـن إعطـائهم تلـك الأجـرة ولـو وجـد اللصـوص ذلـك مـن أعظـم الغـنم وأجـود الفـرص"[1]، ومـن تمام آلة صاحب الحرس أن يكون .."قطوباً أبيض اللحية"[2].

وفـي السـوق، فـأن القصـابين يـذبحون يـوم الجمعـة أكثـر، فتكثـر الـرؤوس يـوم السـبت علـى قـدر الفضـل فيمـا يـذبحون"[3]، وهنالـك مضـرب للأمثـال بـين النـاس فـي القصاب لأنه"لا يخطئ اللبة"[4].

ومـن السـجايا اللطيفـة والطيبـة، والتـي يخبرنـا بهـا الجـاحظ، بـأن هنـاك تكـاتف إجتمـاعي بـين القصـابين، وقد بلغـه "أن رجـلاً مـن القصـابين يكـون فـي سـوقه، فيتلـف مـا فـي يديـه، فيخلـى لـه القصـابون سـوقهم يومـاً، ويجعلـون لـه أربـاحهم، فيكـون بربحهـا منفـرداً، والبيع مفرداً، فيسدون بذلك خلته، ويجبرون منه كسره"[5].

وهنالـك النخـاس الـذي يبيـع الحيوانـات فـي الأسـواق، وفـي هـذه المهنـة هنالـك مـن إشترى حماراً "فوجده على خلاف ما وصفه به النخاس"[6].

ومـن المهـن الخدميـة المعروفـة فـي عصـره، مهنـة الصـعود الـى النخـل، ويحـدثنا بـأن أحد هـؤلاء طلـب للصـعود الـى النخلـة، فطلـب الحـزام الـذي يربطـه المتسـلق علـى وسطه الى النخلة، فمكث في أعالي النخلة، ثم عاد[7].

وهنالـك مهنـة (الشـاكري)، وهـو الأجيـر المسـتخدم، وهـؤلاء أكثـرهم فـي العمـل لطاعة الخلفاء وكبار رجال الدولة[1].

وفـي مجـال الزراعـة، فـأن الأكـرة وهـم حـراث وزراع الأرض،لهـم وصـفهم عنـد الجاحظ، قائلاً في ذلك: "لا تعلم قوماً الشر فيهم أعم ولا الغش فيهم أكثر من الأكرة"[2].

ولوجـود الخضـرة والـزرع أثـر فـي صـحة الإنسـان، فلـذلك نـرى الأكـرة، وسـكان البسـاتين، مـع أكلهـم الكـراث والتمـر، وشـربهم مـاء السـواقي .. أقـل النـاس خفشـاناً وعميانـاً، وعمشـاناً وعـوراً، وعنـد أحـدهم بـأن ذلـك عائـداً الـى طـول وقـوع أبصـارهم علـى الخضرة[3]، وبالطبع فأن هذا الرأي لا يتوافق مع المباحث العلمية في هذا الخصوص.

وعنـده أن السـقاء للمـاء هـي مـن المهـن الشـريفة ولـذلك أحـل الكسـب كلـه وأطيبـه عنـد جميـع النـاس سـقي المـاء، أمـا علـى الظهـر، وأمـا علـى دابـة، ولكـن يعـود الجـاحظ الـى هـذا الموضـوع ليـدلو برأيـه بـالقول: لـم أر سـقاءاً قـط بلـغ حـال اليسـار والثـروة، وكـذلك ضراب اللبن، والطيان، والحراث. وكذلك ما صغر من التجارات والصناعات[4].

ومـن المهـن الأخـرى بـائع الخمـور، ويجـب ان يكـون "ذميـاً، ويكـون أسـمه أذيـن، أو شلوما، أو مازيا، أو ميثا، و يكون أرقط الثياب، مختوم العنق"[5].

(1) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص203.
(2) الجاحظ، البيان، جـ1، 95.
(3) الجاحظ، البخلاء، ص158.
(4) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص234.
(5) الجاحظ، الرسائل، ذم اخلاق الكتاب، جـ2، ص(200-201).
(6) الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص380.
(7) ينظر: الجاحظ، البخلاء، ص295.
(1) ينظر: الجاحظ، الرسائل، مناقب الترك، جـ3، ص190.
(2) م.ن، الوكلاء، جـ4، ص102.
(3) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص323.
(4) ينظر: م.ن، جـ4، 434.
(5) الجاحظ، البيان، جـ1، ص94.

وفي مهن بيع الحيوانات، هنالك مهنة بيع التياس، "وأنا لندخل السكة، وفي أقصاها تياس، فنجد نتنها من أدناها، حتى لا يكاد أحد يقطع تلك السكة إلا وهو مخمر الأنف .. وإذا قال الناس: تياس، عرف معناه ، وأستقذرت صناعته"[6].

ومن المهن الأخرى، هي مهنة صاحب الطيور، حيث أن بيع وشراء الطيور من الأمور التي كانت شائعة أنذاك، لما في هذه الحيوانات الداجنة من جمال، وتحتاج هذه الطيور "الى شمس والى ماء تغتسل فيه بعض الأحايين، والى أن تكون بيوتها مكنوسة في بعض الأوقات ومرشوشة، وإلا لم يكن كبير بيض. على أنه إذا كان لها في الصميمين الدفء في الشتاء وايكنُ في الصيف، لم تغادر الدهر كله أن تبيض"[1].

ويحدثنا الجاحظ بأنه رأى طائراً له صوت غير حسن، فقال له صاحب الطيور: "أنه من نتاج ما بين القمري والفاختة. وقناص الطير، ومن يأتي .. في التماس الصيد ويزعمون أن أجناساً من الطير ..، تلتقي على المياه فتتسافد[2]، وأنهم لا يزالون يرون أشكالاً لم يروها قط، فيقدرون أنها من تلاقح تلك المختلفة"[3].

ويتطرق الى صاحب الحمام الزاجل، بأنه يجب أن تتوفر فبه عدة شروط، ومنها، "كيف يختارون لصاحب العلامات، وكيف يتخيرون الثقة وموضع الصدق والأمانة، والبعد من الكذب والرشوة، وكيف يتوخون ذا التجربة والمعرفة اللطيفة، ... وكيف يختارون لحملها من رجال الأمانة والجلد والشفقة والبصر وحسن المعرفة"[4].

كما يظهر لنا كراهية إستعمال الحمام في البيوت لغرض الطيران، ويخبرنا أن " عثمان بن عفان - رضي الله عنه - أراد أن يذبح الحمام ثم قال: (لولا إنها أمة من الأمم لأمرت بذبحهن، ولكن قصوهن). فدل بقوله: قصوهن على أنها أنما تذبح لرغبة من يتخذهن، ويلعب بهن من الفتيان والأحداث والشطار، وأصحاب المراهنة والقمار، والذين يتشرفون على حرم الناس والجيران، ويختدعون بفراخ الحمام أولاد الناس، ويرمون بالحجارة وما أكثر من قد فقأ عيناً وهشم أنفاً، وهو لا يدري ما يصنع"[5].

ومن المهن الأخرى، هي مهنة صيد الحيوانات، ويرى الجاحظ بأن هناك من رجال الإسلام من يتقذر هذه المهنة، والسبب في ذلك، أنهم يرون في ذلك من "القسوة، وإن أصحاب الصيد لتؤديهم الضراوة التي إعترتهم من طروق الطير في الأوكار، ونصب الحبائل للظباء، .. حتى تموت هزلاً وجوعاً، وأشلاء السباع على بهائم الوحش، وستسلم أهلها الى القسوة، والى التهاون بدماء الناس"[6].

وقد رأى الجاحظ صياداً إصطاد في يوم مائة طير من طير الماء، فقال له: كيف تصنعون؟ فقال له الصياد: "إن هذا الذي تراه ليس من صيد يوم واحد، وأن كله صيد في ساعة واحدة .. وذلك أنا نأتي مناقع الماء ومواضع الطير، فنأخذ قرعةً يابسة صحيحة، فنرمي بها في ذلك الماء، فأذا أبصرها الطير تدنو منه بدفع الريح لها في جهته، مرة أو مرتين فزع ..، حتى ربما سقط الطائر عليها .. وكلما دنا من طائر قبض على رجليه ثم غمسه في الماء، ودق جناحه .. فبقى طافياً فوق الماء، يسبح برجليه، ولا يطيق الطيران، وسائر الطير لا ينكر إنغماسه، ولا يزال كذلك حتى يأتي على أخر الطير. فأذا لم يبق منها شيء رمى بالقرعة عن رأسه، ثم نلقطها ونجمعها ونحملها"[1].

---

(6) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص(466-473).
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص335.
(2) السفاد: نزو الذكر على الانثى / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ3، ص218.
(3) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص144.
(4) م.ن، جـ3، ص214.
(5) م.ن، جـ3، ص(190-191).
(6) م.ن، جـ4، ص428.
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص(539-540).

ويخبرنا بأن صيد العصافير يكون بأهون حيلة، وذلك أنهم يعملون لها مصيدة، "ويجعلون لها سلة في صورة المحبرة التي يقال لها: اليهودية، المنكوسة الأنبوبة، ثم ينزل في جوفها عصفور واحد، فتنقض عليه العصافير ويدخلن عليه، وما دخل منها فأنه لا يجد سبيلاً الى الخروج منها. فيصيد الرجل منها في اليوم الواحد المئتين وهو وادع"[2].

أما في صيد السمك، فأن بعض الصيادين قد أخبروه، " بأن الشبوطة تنتهي في النهر الى الشبكة فلا تستطيع النفوذ منها، فتعلم إنها لا ينجيها إلا الوثوب،فتتأخر قدر قاب رمح، ثم تتأخر .. حتى تثب، فربما كان إرتفاع وثبتها في الهواء أكثر من عشر أذرع"[3].

وعنده أن السماكين، في" كل بلد من كل جنس، شرار خلق الله في المبايعة والمعاملة"[4].

أما مهنة الحجامة، فأنه يرى "أن كل حجام في الأرض من أي جنس كان، ومن أي بلد كان، فهو يحب النبيذ"[5]، ولا يبين لنا الجاحظ علة ذلك، ولكن يبدو لنا أنها إشارة غير مباشرة الى دناءة ذوي هذه المهنة في أخلاقهم وسلوكهم، ولذلك وفي موضع أخر من مؤلفاته يشير الى أنصاف أحد الحجامين وهي محاولة لتمييزه عن البقية، وأسمه فرج الحجام، "لأنه كان لا يلتفت الى من أعطاه الكثير دون من أعطاه القليل، ويقدم الأول ثم الثاني ثم الثالث أبداً حتى يأتي على أخرهم، على ذلك يأتيه من يأتيه ، فكان المؤخر لا يغضب ولا يشكو"[1].

وفي مجال الخدمات العامة، فهنالك مهنة الكناسين في نظافة المدينة، ويترأس هؤلاء الكناسين شخص يدعى (عريف الكناسين)، وكان هنالك (نوفل) وهو العريف، وعنده كل كناس بالكرخ[2].

وفي مجال الخدمات العامة، كان هنالك أيضاً مهنة الكساحين، ويقومون بصب المياه الثقيلة من البيوت الى الطريق، وفي بعض الأحيان هنالك مسافة بعيدة بين بالوعة البيت والمصب، وهذا يتطلب جهداً إستثنائياً من قبل الكساحين، ويحدثنا الجاحظ عن أحد البخلاء والذي كان "يؤخر تنقية بالوعته الى يوم المطر الشديد .. ليكتري رجلاً واحداً فقط، يخرج ما فيها، ويصبه في الطريق، فيجترفه السيل، ويؤديه الى القناة. وكان بين موضع بئره والصب قدر مائتي ذراع"[3].

---

(2) م.ن، جـ5، ص(244-245).
(3) م.ن، جـ7، ص40.
(4) الجاحظ، الرسائل، مناقب الترك، جـ1، ص52.
(5) م.ن، جـ1، ص(51-52).
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ7، ص262.
(2) ينظر: م.ن، جـ3، ص13.
(3) الجاحظ، البخلاء، ص161.

مدخل

من المواضيع التي اخذت جانباً واسعاً في مؤلفات الجاحظ، هي مسألة الاخلاق الاجتماعية، وهذه مهمة شاقة عند المؤلف للخوض فيه، لانه يحتاج الى صورة تفصيلية عن سلوك الاشخاص والمجتمعات الانسانية، والمؤثرات الخارجية والداخلية المؤثرة في ذلك، مع مناقشة آراءه في هذا الصدد.

ويذهب الجاحظ في مؤلفاته الى مناصرة الاخلاق المحمودة والدفاع والحث عليها، وعنده ان هذه الاخلاق لابد من الوصول اليها من خلال ترويض النفس على حب الكمالات، لأن "الاخلاق المحمودة وان كانت في بعض الناس غريزة. فليست في جميعهم. وان الباقين قد يمكن ان يصيروا اليها بالتدريب والرياضة ويترقوا اليها بالاعتياد .. ومع هذه الحال فقد يكون في الناس من لايقبل طبعه العادات الحسنة .. وذلك يكون لرداءة جوهره. وخبث عنصره"[(1)]، وعلى الانسان ان يرتقي بخلقه الى رضا الآخرين عنه بما يجعل افعاله "ماتحمده العوام ولاتذمه الجماعات"[(2)].

وكذلك فان الاخلاق الحسنة، تكتسب هي محيط الفرد وبيئته ولهما الدور الكبير في التأثير على اخلاق وسلوك الفرد، فان "الحدث والناشئ يكتسب الاخلاق ممن يكثر ملابسته ومخالطته من ابويه واهله وعشيرته. فاذا كان هؤلاء سيئي الاخلاق فدمومي الطريقة كان الحدث والناشئ بينهم أيضاً سئ الأخلاق مكروه العادات"[(3)].

وان معادن الناس واخلاقهم، تظهر في الشدائد والنوائب، فهنالك من الناس الذي "يلقاك بالبشر مقروناً بلطيف من الخطاب في بسط وجه .. فلما كشفه الامتحان بيسير الحاجة كان كالتابوت المطلى عليه بالذهب المملوء بالعذرة[(4)]"[(5)].

ولذلك فان الاخلاق المحمودة ثابتة ولاتتغير، وهي في الشدائد اكثر وضوحاً، بعيدة عن التلوث في طباع الناس بان "يكون سرعة رجوع المرء عن الصواب كسرعة رجوعه عن الخطأ"[(1)].

وصاحب الاخلاق المحمودة معروف لدى الناس ويشار اليه، ويعطينا الجاحظ نموذجاً من ذلك بأنه هنالك شيخاً يتصف بهذه الاخلاق لانه "بعيداً من الفساد ومن الرشى ومن الحكم بالهوى"[(2)]، وهي ثلاثة عناصر لديه اساسية في تمييز اخلاق الشخص وسلوكه.

اما على وجه التعميم فان صاحب الاخلاق المحمودة يتمتع "بشدة العقل، وجودة الرأي، وكثرة الفضل، وسعة الخُلق، والمغرس الطيب والنصاب الكريم، والظرف الناصع، واللسان الفخم، والمخرج السهل والحديث المونق، مع الاشارة الحسنة والنبل في الجلسة، والحركة الرشيقة .. والتمهل في المحاورة"[(3)].

---

(1) الجاحظ، تهذيب الاخلاق، نشر محمد كرد علي، المطبعة الارثودكسية، دمشق، 1924، ص11.

(2) الجاحظ، الرسائل، المعاد والمعاش، جـ1، ص103.

(4) العذرة: الغائط / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ4، ص554.

(5) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص37.

(1) الاصبهاني، محاضرات الادباء، نقلاً عن الجاحظ، جـ1، ص280.

(2) الجاحظ، البخلاء، ص40.

(3) الجاحظ، الرسائل، مدح النبيذ، جـ3، ص125.

ونرى ان صاحب الاخلاق الحسنة والمحمودة ليس بالضروري حتماً ان يكون ذو عقل شديد وراجح ونحكم بالمطلق في ذلك، ولكن وضمن منهج الجاحظ في الكتابة فانه يناصر الاخلاق الحسنة ويدعمها اينما كانت.

ويحثنا على اكتساب هذه الاخلاق من خلال العقل، فهو القادر على التمييز في الطباع وقدرته على افراز "الغث والفاسد والصحيح"[4]، وعند ذلك يمكن التمييز في اخلاق الرجال "فقيل: رجل يساوي الف رجل، ورجل لايساوي رجلاً"[5].

كما ان الاخلاق العربية قد اكدت على ذلك "لان العرب اذا وجدت رجلاً من القبيلة قد اتى قبيحاً الزمت ذلك القبيلة كلها، كما تمدح القبيلة بفعلٍ جميل، وان لم يكن ذلك الا بواحد منها"[6].

وهنا تظهر ميوله وتعاطفه مع الخاصة من الناس، وهو المبدأ الذي يؤمن به ويعتبر هؤلاء الخاصة هم القدوة الحسنة الى عوام الناس للاقتداء بهم للوصول الى الاخلاق المحمودة، لان العامة لديه "موكلون باجتناب المؤمن اذا اختلّ وتعظيم المنافق اذا استغنى الا قليلاً منهم"[1].

بل يذهب في رأيه بأن يحذرنا من رأي وقول العامة لانهم ليسوا بقدوة[2]، لانه لو كانت العامة "تعرف من الدين والدنيا ماتعرف الخاصة، كانت العامة خاصةً، وذهب التفاضل في المعرفة، والتباين في البنية"[3].

ثم انه يربط اتجاهات العوام من الناس مع الجهل في التمييز والرؤية، فانها تفضل "السمين على النحيف .. وان كان النحيف ذا فضائل، وتفضل الطويل على القصير .. وتفضل راكب الدابة على راكب البغل"[4].

ونرى ان ذلك تعصباً منه للخاصة على حساب عامة الناس واتجاهاتهم الاجتماعية، كما انه لايعطي تحديداً واضحاً عن مكونات الخاصة من الناس، فهم في نظره اهل العلم والادب، وتارة اخرى كبار رجال الدولة، او كبار التجار، وهذه المكونات الاجتماعية ليست لها قاعدة اجتماعية وثقافية موحدة لكي يتم تطبيق الاحكام عليها بالتساوي.

كما ان الاتجاهات الاجتماعية للمجتمع عامة تحددها عدة عناصر، وهذه العناصر اجمعها مسؤولة عن هذه الاتجاهات، ولذلك قال احدهم "المعلم ولده: ليكن اول اصلاحك لولدي اصلاحك لنفسك، فان عيونهم معقودة بعينيك، فالحسن عندهم ماصنعت، والقبيح عندهم ماتركت"[5].

---

(4) م.ن، التربيع والتدوير، جـ3، ص104.
(5) م.ن، كتمان السر، جـ1، ص151.
(6) الجاحظ، البخلاء، ص(327-326).
(1) الجاحظ، امل الامل، تحقيق رمضان ششن، ط1، دار الكتاب الجديد، 1968، ص(19-18).
(2) ينظر: الجاحظ، البخلاء، ص244.
(3) الجاحظ، الرسائل، مقالة العثمانية، جـ4، ص43.
(4) الجاحظ، التاج، ص(146-145).
(5) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ2، ص(273-272).

كما ان رجال الاخلاق قد حثوا البحث على الخيرات والاعمال الصالحة التي تجتمع تحت عنوان الاخلاق المحمودة، "والتي هي كما لنا والتي من اجلها خلقنا ونجتهد في الوصول اليها ونتجنب الشرور"[1]، لمعرفة "الفضايل وكيفية انشائها ... ومعرفة الرذايل وكيفية توقها لنطهر عنها نفسنا"[2].

ومن اجل دراسة هذا الموضوع بصورة تفصيلية، فقد ارتأينا ان نقسم الفصل الى مبحثين الاول عن الاخلاق المحمودة والثاني عن الاخلاق المذمومة.

(1) مسكويه، ابو علي احمد بن محمد (ت 421هـ/1030م)، تهذيب الاخلاق، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1981، ص12.

(2) ابن سينا، ابو علي الحسين بن علي (ت 428هـ/1037م)، رسائل ابن سينا، رسالة في الاخلاق، مخطوطة مصورة في المجمع العلمي العراقي برقم (529)، ورقة رقم (15).

آداب المعـاشـرة

ويشـمل هـذا الموضـوع دراسـة شـاملة فـي علاقـات النـاس فيمـا بيـنهم، والأثـر الإجتمـاعي الـذي تتركـه آداب المعاشـرة فـي الحيـاة الإجتماعيـة بصـورة عامـة، وبـالطبع فـأن دراسـة الجـاحظ لهـذا الموضـوع الإجتمـاعي هـو إشـارة تاريخيـة عـن الفعاليـات الإجتماعيـة قبل عصره وفي حياته.

وفـي هـذا الصـدد فأنـه يـرى بـأن الأنسـان خلـق مـن أجـل أن يتعـاون مـع أخيـه الأنسـان فـي بنـاء المجتمـع السـعيد، "فلـم يخلـق الله تعـالى أحـداً يسـتطيع بلـوغ حاجتـه بنفسـه دون الإسـتعانة بـبعض مـن سـخرله، فأدنـاهم مسـخر لأقصـاهم ... وعلـى ذلـك أحـوج الملـوك الـى السـوقة فـي بـاب، وأحـوج السـوقة الـى الملـوك فـي بـاب، وكـذلك الغنـي والفقيـر، والعبـد وسيده"[1].

ومـن أجـل هـذا المقصـد فقـد أكـد الإسـلام علـى ضـرورة التكـاتف بـين النـاس ومسـاعدة بعضـهم الـبعض الأخـر، وكـان النبـي صـلى الله عليـه وسـلم، يحـث علـى هـذا الموضـوع ولـذلك قـال عليـه الصـلاة والسـلام فـي إحـدى المـرات لأزواجـه: "أسـرعن بـي لحاقـاً أطـولكن يـداً. فكانـت عائشـة تقـول: أنـا تلـك، أنـا أطـولكن يـداً. فكانـت زينـب بنـت جحـش[2]، وذلـك إنهـا كانـت إمـرأة كثيـرة الصـدقة، وكانـت صـناعاً تصـنع بيـديها وتبيعـه وتتصدق به"[3].

وفـي الوقـت نفسـه، فأنـه علـى الإنسـان متابعـة الكمـالات أينمـا وجـدت مـن أجـل تقـويم نفسـه، "وإن يعتقـد أنـه لـيس شـيء مـن العيـوب والقبـائح خافيـاً علـى النـاس، وإن إجتهـد صـاحبها فـي سـترها .. ويجـب أن يعلـم أن النـاس بـالطبع موكولـون بتتبـع عيـوب النـاس وتعييـرهم بهـا، وذلـك فـي النـاس غريـزة، والسـبب فيـه أن الأنسـان مـالم يبلـغ التمـام، فلـيس يخلو من تقصير يعاب به"[4].

وإن هـذه المتطلبـات هـي ضـرورية فـي آداب المعاشـرة بـين النـاس، ولـذلك فأنـه يحـدرنا مـن "معاشـرة سخيفٍ، أو مخاطبـة وضـيع، لأنـه كمـا أن الـنفس تصـلح علـى مخاطبـة الشـريف الأديـب الحسـيب، كـذلك تفسـد بمعاشـرة الـدنئ الخسـيس، حتـى يقـدح ذلـك فيهـا، ويزيلهـا عـن فضـيلتها"[1]، لأن هـذه المعاشـرة "سـبب التـألف، والتـألف سـببب القـوة، والقـوة سبب التقوى، والتقوى حصن منيع، وركن شديد"[2].

وفـي الطبيعـة الإنسـانية ميـول نحـو التعاشـر مـع الأخـرين والإسـتئناس معهـم، ويعطينـا الجـاحظ نموذجـاً فـي ذلـك فلقـد، "كـان الأعمـش[3] سـيء الخلـق .. وكـان أصـحاب

---

(1) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص44.

(2) هي زينب بن جحش بن دياب بن يعمر بن صـبرة، وامها اميمة بن عبد المطلب بن هاشـم بن عبد مناف، تزوجها الرسـول (صـلى الله عليه وسـلم) وهي يومئذٍ بنت خمس وثلاثين سـنة وفي سـنة خمس من الهجرة، وتوفيت وهي ابنة ثلاث وخمسين سنة / ينظر: ابن سعد، الطبقات، جـ8، ص(115-101).

(3) الجاحظ، البيان، جـ3، ص145.

(4) الجاحظ، تهذيب الاخلاق، ص55.

(1) الجاحظ، التاج، ص32.

(2) الابشيهي، المستطرف، جـ1، ص182.

(3) ابو محمد سـليمان بن مهران مولى بني كاهل من ولد اسد، المعروف بالاعمش الكوفي الامام المشـهور، كان ثقة عالماً فاضلاً، توفي في سنة ثمان واربعين ومائة / ينظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان، جـ2، ص(400-403).

الحديث يضجرونه ويسومونه نشر ما يجب طيه عنهم وتكرار ما يحدثهم به و يعتنقونه، فيحلف لا يحدثهم الشهر والأكثر والأقل. فأذا فعل ذلك ضاق صدره بما فيه وتطلعت الاخبار الى الخروج منه، فيقبل على شاة كانت له في منزله، فيحدثها بالأخبار والفقه، حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول: ليت أني كنت شاة الأعمش"[4].

ولكنه يحذرنا من بعض الناس في المعاشرة، فهنالك "من يغلبه إفراط الحرص وحمياً الشره ... فتلقاه بما تصنع به مستقلاً ولمعروفك مستصغراً ... فأعرف طرائقهم وشيمهم، وداو كل من لا بد لك من معاشرته بالدواء الذي أنجح فيه: أن ليناً فليناً، وإن شدة فشدة"[5].

وتظهر أداب المعاشرة، وخلقها في المحافل والمجالس والإجتماعات، ويبين لنا ذلك بالقول: "أن تأتي محفلاً فيه جمع من الناس، فتجلس منه دون الموضع الذي تستحقه حتى يكون أهله الذين يرفعونك، فتظهر جلالتك وعظيم قدرك"[6]، وقد زخرت كتب التراث العربي الإسلامي بمفردات كثيرة عن أدب المحافل وسماتها، ولهم في ذلك روايات عديدة يظهر فيها الذوق العربي السليم في هذا الجانب[1].

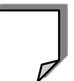
كما أنه يبين لنا صفات من نعاشرهم من الناس لكي نحظى بالعشرة الحسنة والسليمة معهم، "لأن حاجة بعض الناس الى بعض، صفة لازمة في طبائعهم، وخلقة قائمة في جواهرهم .. ومشتملة على أدناهم وأقصاهم"[2]، ومن هذه الصفات "بأنك ستجد في الناس من قد جربته الرجال قبلك ومحضه إختبارهم لك فمن كان معروفاً بالوفاء في أوقات الشدة وحالات الضرورة فنافس فيه وأسبق إليه .. ومن بلاه غيرك فكشف عن كفر النعمة والغدر عند الشدة، فقد حذرك نفسه وأن أنسك، وكما غدر بغيرك يغدر بك"[3].

ثم يبين لنا الصفات الحسنة الشاملة عند إختيار المعاشرة من الناس، فيصف أحدهم بأنه "جمع أريحية الشباب ، ونجابة الكهول، ومحبة السادة، وبهاء القادة وأخلاق الأدباء، ورشاقة عقول الكتاب، والتغلغل الى دقائق الصواب، والحلاوة في الصدور، والمهابة في العيون، والتقدم في الصناعة، والسبق عن المحاورة، شقيق أبيه وشبه جده"[4]، ويبدو لنا بأن الجاحظ كان دقيقاًوشاملاً في وصف الأخلاق المحمودة لدى الناس عند المعاشرة، ولم يشر بذلك الى تفاصيل أدق كالأمانة والكرم والشجاعة .. ألخ، لأن هذه التفاصيل ستؤثر حتماً فيما بعد على جوانب متعددة في شخصية الانسان الجيدة.

ومن أجل إقامة علاقات المعاشرة الإنسانية بالصورة الصحيحة السليمة، فأنه يضع مسؤولية ذلك على الطرفين في آن واحد، ففي مؤلفاته المختلفة، نراه بين الحين والأخر يصف لنا صفات الانسان المحمود لغرض التعرف عليه ومعاشرته وصداقته، ولكنه في الوقت نفسه يضع علينا شروطاً من أجل تكامل تلك العلاقة، وليس أن ننظر الى الأخرين ليعطونا فقط، دون أن نعطي لهم أيضاً، معلقاً على ذلك: بأنه "سيمر بك في معاملات الناس حالات تحتاج فيها الى مداراة أصناف الناس وطبقاتهم، يبلغ بك غاية الفضيلة فيها، وكمال العقل والأدب منها، أن تسالم أهلها وتملك نفسك عن هواها، وتكف

---

(4) الجاحظ، الرسائل، رسالة كتمان السر، جـ1، ص145.
(5) م.ن، المعاش والمعاد، جـ1، ص109.
(6) م.ن، ص118.
(1) قال احدهم: لجليسي عليّ ثلاث: اذا دنا رحبت به، واذا جلس وسعت له، واذا حدث اقبلت عليه / ينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ2، ص266.
(2) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص(43-42).
(3) الجاحظ، الرسائل، المعاش والمعاد، جـ1، ص123.
(4) م.ن، المودة والخلطة، جـ4، ص202.



مــن جماحهــا، بــالأمر الــذي لا يحرجــك فــي دينــك ولا عرضــك ولا بــدنك، بــل يفيــدك عــز الحلم، وهيبة الوقار"[1].
كمـا أنـه يـذهب الـى الحـد الـذي يـدعم فيـه المعاشـرة بـين النـاس فـي ضـرورة إكثـار الأصـدقاء والحــث علــى ذلــك، قــائلاً: "ثــم لا يمنعــك ذلــك مــن الإســتكثار مــن الأصــدقاء، فــأنهم جنــد معدون لك ينشرون محاسنك ويحاجون عنك.

ولا يحملنــك إســتطراف صــديق ثــان علــى ملالــة الصــديق الاول، فــان ذلــك ســبيل اهل الجهالة، مع مافيها من الدناءة وسوء التدبير، وزهد الاصدقاء جميعاً في أخائك"[2].

ولـذلك شـكا هشـام بـن عبـد الملـك قـائلاً: أكلـت الحـامض والحلـو حتـى مـا أجـد لهمـا طعمــاً .. فمــا بقيــت لــي لــذة إلا وجــود أخٍ أضــع بينــي وبينــه مؤونــة الــتحفظ"[3]، أي بوجــود صــديق بمنزلــة الأخ، بحيــث يــتمكن الشــخص مــن إحتــواء أســراره لديــه لمتطلبــات الضــرورة فــي ذلــك، وهــي إحــدى حســنات الصــداقة والمعاشــرة بــين النــاس، مؤكــداً ذلــك وفــي مكــان أخــر مــن مؤلفاتــه عــن أحــد الادبــاء قــائلاً: "لا تعــرف الأخ حتــى ترافقــه فــي الحضــر، وتزاملــه فــي السفر"[4].

ويبــدو بأنــه مــن الآفــات الإنســانية فــي المجتمعــات المختلفــة، "أن تظهــر الخلــة، وتطـول المـدة، وتعجـز الحيلـة، فـلا تجـد صـديقاً مؤنسـاً"[5]، وإن هـذه الآفـة متأتيـة مـن فقـدان الصــداقة، لأنهــا محبــة صــادقة يهــتم معهــا بجميــع أســباب الصــديق وإيثــار فعــل الخيــرات التــي يمكن فعلها به"[6].

ويشـير فـي جانـب أخـر الـى نقطـة مفيـدة فـي هـذا الموضـوع، والمتمثـل بـأن المجتمـع العربــي ميــال الــى التعاشــر والتحابــب بــين النــاس، وإن أفضــل أنــواع العشــرة هــي المــؤازرة والمناصـرة بـين الأقربـاء والمتمثلـة ببنـي الأعمـام والعشـائر، وإن ذلـك عائـد الـى الخـوف مـن "التخــاذل ولحــب التناصــر، والحاجــة الــى التعــاون، إنضــم بعــض القبائــل فــي البــوادي الــى بعضٍ، ينزلون معاً .. ومن فارق أصحابه أقلّ، ومن نصر إبن عمه أكثر"[1].

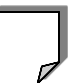
ولكنــه فــي مكــان أخــر يســتعرض آراء النــاس فــي ذلــك، وذلــك الــرأي هــو بــالعكس ممـا سـبق، وهـذا الـرأي مفـاده، لا يـزال النـا س بخيـر مـا تفـاوتوا، فـأذا تقـاربوا هلكـوا. وكـان يقـال ثلاثـة توجـب الضـغن وتكثـر مـن الغـل: المجـاورة فـي المنـزل، والإسـتواء فـي النسـب، والمشـاكلة فـي الصـناعة، ولـذلك قـال أحـدهم لرجـلٍ أدعـى محبتـه ونصـيحته: وكيـف لا يكـون كما وصفت وكما ذكرت، ولست بخطيب، ولا جار قريب، ولا إبن عم نسيب[2].

ويــرى بــأن آداب المعاشــرة تتطلــب الأريحيــة وطلاقــة الوجــه مــع الاخــرين، ولكــن هـذه الدماثـة فـي الأخـلاق يجـب أن تكـون متوازنـة مـع الجـد، وعليـه فلـو" إسـتعمل النـاس الدماثـة فـي كـل حـال، والجـد فـي كـل مقـال، وتركـوا التسـمح والتسـهل وعقـدوا فـي كـل دقيـق وجليــل، لكــان الشــر .. خيــراً لهــم، والباطــل .. أرد علــيهم .. فالضــحك فــي موضــعه كالبكــاء في موضعه، والتبسم في موضعه كالقطوب في موضعه"[3].

وهـو الـى المـزاح أميـل، قـائلاً فـي ذلـك:" فمـن حـرم المـزاح وهـو شـعبة مـن شـعب السـهولة، وفـرع مـن فـروع الطلاقـة. وقـد أتانـا رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم بالحنيفيـة

---

(1) الجاحظ، الرسائل، المعاش والمعاد، جـ1، ص117.
(2) م.ن، جـ1، ص(123-122).
(3) م.ن، كتمان السر، جـ1، ص146.
(4) م.ن، مفاخر السودان، جـ1، ص180.
(5) الثعالبي، ثمار القلوب، نقلاً عن الجاحظ، ص669.
(6) مسكويه، تهذيب الاخلاق، ص20.
(1) الجاحظ، الرسائل، مناقب الترك، جـ1، ص(35-34).
(2) ينظر: م.ن ، نفي التشبيه، جـ1، ص(293-292).
(3) م.ن، التربيع والتدوير، جـ3، ص(80-79).



السـمحة، ولـم يأتنـا بالأنقبـاض والقسـوة، وأمرنـا بأفشـاء السـلام، والبشـر عنـد الملاقـاة، وأمرنا بالتوادد، والتصافح، والتهادي"[4].

ولـذلك فـالمزاح وطلاقـة الوجـه أمـر مهـم فـي بنـاء علاقـات إجتماعيـة سـليمة مـع الأخرين، وإن هذه الأفعال هي البوابة الرئيسة لأمتلاك قلوب الناس[5].

وإن هـذه الطلاقـة فـي الوجـه تعمـل علـى تحسـين الشـخص، وقـد "سـهل فـي العيـون تسـهيلاً، وحبـب الـى القلـوب تحبيبـاً، وقـرب الـى النفـوس تقريبـاً، حتـى أمتـزج بـالأرواح وخالط الدماء، وجرى في العروق، وتمشى في العظم"[6].

وإن طلاقـة الوجـه، هـي سـمة مـن سـمات العربـي، لأن العـرب تلقـى ضـيوفها بالبشر،" وقالوا: من تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة"[1].

ومـن أبـرز الأمـور فـي المعاشـرة هـو الكـلام والحـديث بـين النـاس، لأن الكـلام هوالواسـطة فـي التفـاهم، وتعبيـر عـن قـدرات العقـل وفعالياتـه، "وكـلام النـاس فـي طبقـاتٍ كمـا أن النـاس أنفسـهم فـي طبقـات فمـن الكـلام الجـزل والسـخيف، والملـيح والحسـن، والقبـيح والسمج والخفيف والثقيل، وكله عربي، وبكلٍ قد تكلموا، وبكلٍ قد تمادحوا وتعايبوا"[2].

ويؤكـد الجـاحظ علـى أهميـة الكـلام ومعانيـه، فـلا "ينبغـي أن يكـون اللفـظ عاميـاً، ولا سـاقطاً ..، فكـذلك لا ينبغـي أن يكـون وحشـياً، إلا أن يكـون المـتكلم بـه بـدوياً إعرابيـاً، فـأن الوحشي من الكلام يفهمه الوحش من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي"[3].

ومـن سـماة الضـيافة العربيـة ودماثتهـا، أن يطيـل صـاحب الضـيافة بالحـديث، وخاصة عند المواكلة[4].

ولـذلك فأنـه يميـل مـع الكـلام فـي آداب المعاشـرة، معلقـاً علـى ذلـك بـالقول: "ولـم أر الصـمت فضـيلة فـي معنـى ولا السـكوت منقبـة فـي شـيء إلا وفضـيلة الكـلام فيهـا أكثـر .. وكفـى بـالكلام فضـلاً .. أن جعـل الله الكـلام سـبيل تهليلـه وتحميـده، والـدال علـى معـالم دينـه وشـرائع إيمانـه .. ولـم يـرض مـن أحـد مـن خلقـه إيمانـاً إلا بـالأقرار، وجعـل مسـلكه اللسـان، ومجـراه فيـه البيـان، وصـيره المعبـر عمـا يضـمره .. وهـو ترجمـان القلـب. والقلـب وعـاء واعٍ"[5].

ويؤكـد علـى قولـه هـذا "بـأن النـاس إذا خطبـوا فـي صـلح بـين العشـائر أطـالوا، وإذا أنشدوا الشعر بين السماطين في مديح الملوك أطالوا"[6].

---

(4) م.ن، جـ3، ص97.

(5) يقال: اول المروءة طلاقة الوجه، والثانية التودد الى الناس، والثالثة قضـاء حوائج الناس / ينظر: الوشـاء، الموشى، ص39.

(6) الجاحظ، الرسائل، التربيع والتدوير، جـ3، ص84.

(1) الجاحظ، البيان، جـ1، ص10.

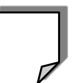
(2) م.ن، جـ1، ص144.

(3) ابن رشيق، العمدة، نقلاً عن الجاحظ، جـ1، ص133.

(4) ينظر: الجاحظ، البيان، جـ1، ص10.

(5) الجاحظ، الرسائل، تفضيل النطق على الصمت، جـ4، ص235.

(6) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص(93-92).



ولكـن هـذا الكـلام يجـب أن يكـون مـؤثراً علـى النفـوس، ولـذلك "قـال الحسـن رحمـه الله، وسـمع رجـلاً يغـط، فلـم تقـع موعظتـه بموضـع مـن قلبـه، ولـم يـرق عنـدها، فقـال لـه: يـا هذا أن بقلبك لشراً أو بقلبي"[1].

وللكــلام ومخارجـــه مـــن فـــم الأنســـان دلالات ومعـــاني، ويجـــب أن يكـــون جامعـــاً للمحاسـن فـي المعاشـرة، ويعطينـا نموذجـاً عـن أحـد المعجبـين بـه فـي كلامـه وحديثـه، قـائلاً عنـه: "أمـا أنـا فلـم أراه ذامـاً ولاشـانئاً ولا عائبـاً ولا هاجيـاً، بـل لـم أجـد مادحـاً قـط إلا ومـن سـمع تسـابق الـى تلـك المعـاني، ولا رأيـت واصـفاً لـه قـط إلا وكـل مـن حضـر يهـش لـه ويرتاح لقوله"[2].

ويؤكـد لنـا بضـرورة الإهتمـام بفـن الحـديث والكـلام، وضـرورة الإنتبـاه الـى البـدء فـي الحـديث مـع النـاس آخـذين بنظـر الحسـبان نوعيـة الحـديث، ونوعيـة المتكلمـين، وهـو أمـر ضـروري يحـذرنا فيـه لـئلا نتـورط مـع الأخـرين، ونسـئ الـى أداب المعاشـرة، فـإذا فـاض "القـوم فـي حـديث، عنـدك منـه مثـل مـا عنـدهم أو أفضـل، فيتنافسـون فـي إظهـار مـا عنـدهم، فـأن نافسـتهم كنـت واحـداً مـنهم، وإن أمسـكت أقتضـوك ذلـك، فصـرت كأنـك ممـتن علـيهم بحديثك، وأنصتوا لك مالم ينصتوا لغيرك"[3].

ولـذلك فكمـا للكـلام فضـائله، فللصـمت فضـائله أيضـاً، عنـدما تقتضـي الضـرورة، لأنه "أمان من تحريف اللفظ، وعصمة من زيغ المنطق، وسلامة من فضول القول"[4].

وعنـد الجـاحظ، فـأن لكـلام الرجـال تـأثيراً كبيـراً علـى مشـاعر وعواطـف النسـاء، فلـو "أن أقـبح النـاس وجهـاً، وأنتـنهم ريحـاً، وأظهـرهم فقـراً وأسـقطهم نفسـاً، وأوضـعهم حسـباً، قـال لأمـرأة قـد تمكـن مـن كلامهـا، ومكنتـه مـن سـمعها: والله يـا مـولاي وسـيدتي، لقـد أسـهرت ليلـي، وأرقـت عينـي.. فمـا أعقـل أهـلاً، ولا مـالاً، ولا ولـداً، لـنقض طباعهـا، ولفسـخ عقـدها، ولـو كانـت أبـرع الخلـق جمـالاً، وأكملهـم كمـالاً، وأملحهـم ملحـاً. فـأن تهيـأ مـع ذلـك مـن هـذا المتعشـق، أن تـدمع عينـه، إحتاجـت هـذه المـرأة أن يكـون معهـا ورع"[5]. أمـام هـذه العواطف.

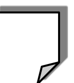
وإن أداب المعاشـرة فـي الكـلام، لا تقتصـر علـى العلاقـات العائليـة، أو المهنيـة، بـل إن هــذه الأداب تشــمل الســوق والشــارع، وكــان الــبعض مــن النــاس يجلــس علــى ظهــر الطريـق فـي الكوفـة، وهـم فـي حـديث وكـلام، فمنعهم علـي بـن أبـي طالـب (رضـي الله عنـه)، "فكلمـوه فـي ذلـك فقـال: أدعكـم علـى شـريطة قـالوا: ومـا هـي يـا أميـر المـؤمنين؟ قـال: غـض الأبصــار، ورد الســلام، وإرشــاد الضــال، قــالوا: قــد قبلنــا فتــركهم"[1]، وهــذا تأكيــد علــى إهتمام الخلافة العربية الإسلامية بتعميق الأداب والأخلاق لدى المجتمع الإسلامي.

ومــن أداب الكــلام أن لا يســأل الشــخص عمــا لا يعنيــه، وعلــى المجيــب أن يجيــب بعـد السـؤال وحسـب مـا يتكلـف بـه مـن معرفـه[2]، وإن لا تكـون هنالـك معانـدة ضـد الحـق فـي الكلام[3]، لأنها مفسدة في الأدب والمعاشرة.

فضـلاً عـن أداب المعاشـرة، وممـا تتصـف بـه تلـك الأداب مـن مكـارم الأخـلاق السـامية، فـأن للجاحظ آراء أخرى في مواضيع أخلاقية وإجتماعية، ومنها ما يأتي:

---

(1) الجاحظ، البيان، جـ1، ص84.
(2) الجاحظ، الرسائل، المودة والخلطة، جـ4، ص(204-203).
(3) م.ن، المعاش والمعاد، جـ1، ص118.
(4) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص18.
(5) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص(170-169).
(1) الجاحظ، البيان، جـ2، ص106.
(2) ينظر: الجاحظ، الرسائل، كتمان السر، جـ1، ص163.
(3) ينظر: م.ن، التربيع والتدوير، جـ3، ص107.



الإيثـــار

يعتبر الإيثار من المواضيع الأخلاقية المحمودة المهمة، فالتطور الأنساني لا يتم الا من خلال المآثر الإنسانية ودورها في رفد المجتمعات بمستلزمات النهوض والإبداع، ويتجلى هذا الإيثار بتقديم الصالح العام على كل ما هو شخصي وفردي، لأن المصلحة العليا للمجتمعات تذهب مع إتجاه الصالح العام وليس للفردية والشخصية في ذلك.

واشـرف وأفضـل حـالات الإيثـار هـي المواطنـة الصـالحة، والمتمثلـة بحـب الـوطن، والعربـي معـروف بتعلقـه بوطنـه وأهلـه، "وكانـت العـرب إذا غـزت وسـافرت حملـت معهـا من تربة بلدها رملاً ... تستنشقه عند نزلةٍ أو زكام أو صداع"[4].

والـبعض الأخـر، وفـي زمـن الخليفـة الرشـيد، " كـان النفـر .. إذا سـافر أحـدهم أخـذ تربـة أرضـه فـي جـراب يتـداوى بـه"[1]، ولـذلك فـأن حـب الـوطن هـو علامـة مـن علامـات وفـاء المـرء ودوام حنينـه، "وإن مـن علامـة الرشـد أن تكـون النفـوس الـى مولـدها مشـتاقة، والى مسقط رأسها تواقة"[2].

ويـرى الجـاحظ بـأن الحضـري مـن النـاس ولـد بـأرض ينعـدم فيهـا متعـة الخضـرة والمـاء وقلـة خصـب، فـأذا وقـع بـبلاد أريـف مـن بـلاده، وأرض أخصـب مـن أرضـه، واسـتفاد غنـىً، يظـل يحـن الـى وطنـه ومسـتقره[3]، وهـذا يعنـي أن حـب الـوطن غريـزة عنـد الإنسـان لا يزعزعها جاه أو مال، لأ ن الوطن أكبر وأوسع من ذلك.

ثـم أن الإيثـار عمليـة متبادلـة بـين النـاس لحاجـات الـبعض للـبعض الأخـر، فمـا تقدمـه الى الأخرين، تأخذه منهم بصورة متعددة أخرى، وهو المعين في الحياة اليومية.

ويعلـق الجـاحظ علـى ذلـك بـأن النـاس "مجتمعـون علـى نصـيحتك والشـفقة عليـك فمـنهم مـن تريـد منـه الـرأي والمشـورة ومـنهم مـن تريـده للحفـظ والأمانـة ومـنهم مـن تريـده للشدة والغلظة ومنهم من تريده للمهنة، وكل يسد مسده على حيا له"[4].

ويـرى بـأن الإيثـار والتضـحية مـن أجـل الأخـرين، لا تكـون إلا مـن إنسـان يـؤمن بالقناعـة بمـا أخـذه مـن الـدنيا، وأن هـذه القناعـة هـي البوابـة الرئيسـة للأيثـار، فعـن علـي بـن عبيـدة[5] قـال: "القناعـة نعمـة جسيمة، ورزق واسـع، وحصـن حصـين، وألفـة دائمـة، وراحـة عظيمـة، وعـيش صـاف، ودعـة للبـدن، وعـزة للـنفس، وصـيانة للعـرض، وحيـاة طيبـة، وسـلامة و عافيـة، فـان وفـق صـاحبها للصـواب فـي التمييـز، وإختيـار مـا يسـتحق بـه الإصـطفاء صـفاً مـن الشـكوك وعصـمه الله"[6]، وعنـده أن "القناعـة هـي الإختصـار علـى مـا

(4) م.ن، رسالة في الحنين، جـ2، ص392.
(1) الابشيهي، المستطرف، نقلاً عن الجاحظ، جـ2، ص26.
(2) المسعودي، مروج الذهب، جـ1، ص383.
(3) ينظر: الجاحظ، الرسائل، رسالة في الحنين، جـ2، ص388.
(4) م.ن، المعاش والمعاد، جـ1، ص117.
(5) علي بن عبيدة، ابو الحسن الكاتب المعروف بالريحاني. كان احد البلغاء الفصحاء، وكان له اختصاص بالمأمون / ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ12، ص18.
(6) الجاحظ، امل الامل، ص13.

سـنح مـن العـيش والرضـا بمـا تسـهل مـن المعـاش وتـرك الحـرص علـى إكتسـاب الأمـوال وطلب المراتب العالية"[1].

ويـذهب بـالرأي بـأن الإيثـار مقترنـاً بـالمروءة، فمـن لا مـروءة لـه لا إيثـار لـه، ولا قـدرة علـى البـذل والعطـاء للنـاس، وإن هـذه المـروءة هـي إحـدى صـفات التفكـر عنـد الإنسـان، "وأنـك لـو أسـمنت بهيمـة ورجـلاً ذا مـروءة ... لكـان الشـحم الـى البهيمـة أسـرع وعـن ذات العقـل والهمـة أبطـأ، ولأن العقـل مقـرون بالحـذر والإهتمـام ولأن الغبـاء مقـرون بفـراغ البـال والأمـن"[2]، وقـد أشـار الـى ذلـك "الخليفـة عمـر بـن الخطـاب (رضـي الله عنـه): المــروءة مروءتــان: مــروءة ظــاهرة، ومــروءة باطنــة، فــالمروءة الظــاهرة الريــاش، والمروءة الباطنة العفاف"[3].

ويـرى أن أبسـط أنـواع الإيثـار حتـى ولـو فـي البشـر وطلاقـة الوجـه للأخـرين، فيحـذرنا مـن ذلـك بـالقول: "أجهـد الجهـد كلـه أن تكـون مخـارج الحقـوق اللازمـة لـك مـن عنـدك سـهلةً، موصـولة لأصـحابها ببشـرك وطلاقـة وجهـك ... فـأن القليـل مـع طلاقـة الوجـه أوقع بقلوب ذوي المروءات من الكثير مع العبوس والإنقباض"[4].

وإن التـاريخ العربـي الإسـلامي، لحافـل بالمـآثر العظيمـة لرجـال هـذه الأمـة، وحتـى فـي نسـائها، ويـروي لنـا الجـاحظ روايـة مـن مـآثر إحـدى النسـاء العربيـات، وهـي نائلـة بنـت القرافصـة[5]، حيـث نظـرت الـى المـرآة فـرأت حسـن ثناياهـا فتناولـت فهـراً[6] فـدقت بـه ثناياهـا، فقيـل لهـا فـي ذلـك فقالـت: إنـي أرى الحـزن يبلـي كمـا يبلـى الثـوب، فخفـت أن يبلـى حزني على عثمان فأتزوج بعده"[7].

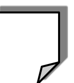
ويـرى الجـاحظ ، صـاحب الإيثـار يتصـف بصـفات عديـدة، فضـلاً عـن القناعـة والمـروءة، كـذلك هـي الشـجاعة، لأنهـا العامـل المهـم للتضـحية، "والشـجاعة وهـو الإقـدام علـى المكـاره والمهالـك عنـد الحاجـة الـى ذلـك، وثبـات الجـأش عنـد المخـاوف، والإسـتهانة بـالموت"[1]، ولـذلك قالـت العـرب: "الشـجاعة وقايـة، والجـبن مقتلـة .. وإن مـن يقتـل مـدبراً، أكثر ممن يقتل مقبلاً"[2].

ويـرى الجـاحظ أن الأسـباب المشـجعة قـد تكـون "عنـد الغضـب والشـراب والهـوج والغيـرة والحميـة .. وربمـا كـان طبعـاً كطبـع الـرحيم والسـخي والبخيـل والجـزوع والصبور"[3].

ومـن السـمات الأخـرى لأهـل الإيثـار، النبـل، والنبـل مـن الأخـلاق الرفيعـة لـدى النـاس، "والنبيـل لا يتنبـل كمـا أن الفصـيح لا يتفصـح، لأن النبيـل يكفيـه نبلـه عـن التنبـل،

---

(1) الجاحظ، تهذيب الاخلاق، ص18.
(2) الجاحظ، البخلاء، ص16.
(3) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ2، ص150.
(4) الجاحظ، الرسائل، المعاش والمعاد، جـ1، ص130.
(5) نائلة بنت الفرافصة الكلبية، امرأة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) / ينظر: ابن حبيب، المحبر، ص396.
(6) الفهر: حجر / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ5، ص66.
(7) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص198.
(1) الجاحظ، تهذيب الاخلاق، ص23.
(2) النويري، نهاية الارب، جـ3، ص224.
(3) الاصبهاني، محاضرات الادباء، نقلاً عن الجاحظ، جـ3، ص134.



والفصـيح تغنيـه فصـاحته عـن التصـفح. ولـم يتزيـد أحـد قـط إلا لـنقص يجـده فـي نفسـه، ولا تطاول متطاول إلا لوهنٍ قد أحس به في قوته"[4].

ومـن صـفات النبيل، أن يكـون" نبيـل الـرأي، نبيـل اللفـظ، نبيـل العقـل، نبيـل المنظـر، بعيـد المـذهب فـي التنـزه، طـاهر الثـوب مـن الفحـش، إن وافـق ذلـك عرقـاً صـالحاً، ومجـداً تالـداً"[5]، وإن هـذه الصـفات الرفيعـة لـدى أهـل الإيثـار متفاوتـة بـين النـاس، "وإذا كـان الرجـل أبـرع النـاس براعـةً، وأظهـرهم فضـلاً، وأجمعهـم لخصـال الشـرف، ثـم كانـت كـل خصـلة مسـاوية لأختهـا فـي التمـام، ولـم تغلـب عليـه خصـلة واحـدة، فـان هـذا الرجـل لا يكـاد يوصف إلا بالسيادة والرياسة"[6].

ومـن يتصـف بالإيثـار، أن يكـون زاهـداً فـي الـدنيا معرضـاً عـن مغرياتهـا، فالزهـد عند الجاحظ "هو قلة الرغبة في الأموال والأعراض والإدخار ..

وإيثـار القناعــة بمــا يقـيم الرمــق، والأســتخفاف بالــدنيا ومحاســنها ولــذاتها"[1]، وهنالـك مـن يـرى بـأن الزهـد ممـن " زهـد فـي نصـيبه وملكـه مـن هـواه المـذموم"[2]، بـل ويـرى الجـاحظ بـأن البكـاء عنـد الزهـاد فضـيلة إذا وافـق الموضـع ولـم يجـاوز المقـدار ودليـل علـى الرقـة والبعـد مـن القسـوة، وربمـا عـد مـن الوفـاء والإيثـار عنـد النـاس وهـو أعظـم مـا تقرب به العابدون وأسترحم به الخائفون[3].

المــزاح

يتميـز الانسـان بصـفات محمـودة عديـدة، ومـن هـذه الصـفات مـا يعكسـه علـى الأخـرين مـن سـلوك فـي البسـاطة والأريحيـة، لكـي يكـون مقبـولاً لـديهم، ومنهـا القـدرة علـى المـزاح مـع النـاس وتـرك الغلظـة والعبـوس، ويؤكـد الجـاحظ علـى ذلـك بـأن "خيـر النـاس السـهل الطلـق الوجـه المتواضـع، وفراسـة الرجـل السـوء أن يكـون منقبضـاً غيـر منشـرح .. وأن يكـون للدعابـة والمـزاح كارهـاً لهـا عائبـاً، وأن تـراه غلـيظ اللفـظ عنـد المحـاورة . ومـن فراسـة الرجـل الصـالح أن تـراه سـهلاً طلقـاً ذا منظـر بهـي وكـلام شـهي .. غيـر كـاره للدعابـة والمزاح، يذكر بخير، لين المحاورة متواضعاً"[4].

وفـي تراثنـا العربـي الإسـلامي، أن أحسـن النـاس مـا تـألف بـه النـاس قلـوب أخلائهـم .. والبشـر بهـم عنـد حضـورهم، والتفقـد لأمـورهم، وحسـن البشاشـة، فـذلك يثبـت المحبـة والأخاء"[5].

(4) الجاحظ، الرسائل، النبل والتنبيل، جـ4، ص175.
(5) م.ن، جـ4، ص173.
(6) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص91.
(1) الجاحظ، تهذيب الاخلاق، ص32.
(2) المكي، ابو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي (ت 386هــ/996م)، قوت القلوب في معاملة المحبوب، ط1، مكتبة البابي الحلبي، مصر، 1961، جـ1، ص537.
(3) الجاحظ، البخلاء، ص17.
(4) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص48.
(5) الوشاء، الموشى، ص37.

ولفضل البشاشة والإبتسامة والضحك كبير،" فالضحك أول خير يظهر من الصبي، وبه تطيب نفسه وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علة سروره ومادة قوته"[(6)].

وكان المجتمع العربي عبر مراحله التأريخية، مشجعاً على البشاشة والضحك في مجالسهم ومحافلهم، "ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادهم بالضحاك وببسام وبطلق وبطليق"[(1)].

ومن الطريف في هذا الميدان، أن الجاحظ يعزي الضحك الى طبيعة المدن وبيئتها، ويبدو أن ذلك عائداً الى الأتجاهات الإجتماعية والثقافية لتلك المدن، وهذه الفكرة عند الجاحظ لها السبق في إكتشافه لدور البيئة على سلوك الفرد والمجتمع، وبذلك يزعمون أن من دخل أرض تبت[(2)] لم يزل ضاحكاً مسروراً من غير عجب حتى يخرج منها"[(3)].

وعند الجاحظ، بأن للضحك عند الناس تابعاً الى عوامل عديدة، ومنها ما يتعلق بعمر الأنسان وأثر الوقت والمناخ عليه،" لأن الدم ينبوع الحياة ومطلع السرور بزيادة الحرارة الغريزية ولهذا يكثر الفرح والضحك في الصبيان[(4)] ولمن يغلب عليه الدم وبهذا السبب بعينة يستولي الطرب على الناس في الربيع لأنه فصل معتدل والغالب عليه الحرارة والرطوبة وهما طبع الدم الذي هو ينبوع الروح"[(5)].

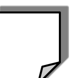
وأكدت الشريعة الأسلامية على أهمية البشاشة والمزاح مع الناس، "وقد مزح رسول لله صلى الله عليه وسلم، ولا يقال: كان فيه مُزاح، ولا يقال مَزاح"[(6)]، وحدثت عائشة (رضي الله عنها)عن أخلاق الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، فقالت: "كان ألين الناس وأكرم الناس، وكان رجلاً من رجالكم إلا أنه كان ضحاكاً بساماً"[(7)].

"ونرى الجاحظ يقيم الدليل الشرعي على تحليل المزاح في الدين الإسلامي، ويقف معارضاً بشدة من يحرم ذلك قائلاً: "وبعد فمن حرم المزاح وهو شعبة من شعب السهولة، وفرع من فروع الطلاقة. وقد آتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة، ولم يأتنا بالأنقباض والقسوة، وأمرنا بأفشاء السلام، والبشر عند الملاقاة، وأمرنا بالتوادد والتصافح والتهادي"[(1)].

وفي ضوء فلسفة الجاحظ في الإعتدال، فأنه وفي أكثر من مناسبة يؤكد على ضرورة الإعتدال في الأمور، والتوسط في الأشياء، لأنها تمثل الحل الأمثل للظواهر الطبيعية والإجتماعية، ولذلك فأنه يحذرنا بشدة من التطرف في المزاح وضرورة الأعتدال فيه، لأن المزاح "باب مكر .. وخدع يتكل المرء في أساءته الى جليسه،

---

(6) الجاحظ، البخلاء، ص18.
(1) الجاحظ، البخلاء، ص18.
(2) بلد بأرض الترك، وفي هوائها ومائها وسهلها وجبلها لايزال الانسان بها ضاحكاً مستبشراً لاتعرض له الاحزان والاخطار والهموم والغموم / ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ2، ص10.
(3) ابن قتيبة، عيون الاخبار، نقلاً عن الجاحظ، جـ1، ص319.
(4) عن احدهم يقول: قالت لي امي لاتمازح الصبيان تهن عندهم / ينظر: الابشيهي، المستطرف، جـ2، ص310.
(5) الجاحظ، سلوة الحريف، ص38.
(6) الجاحظ، الرسائل، التربيع والتدوير، جـ3، ص96.
(7) ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ1، ص365.
(1) الجاحظ، الرسائل، التربيع والتدوير، جـ3، ص97.



وإستماعه لصديقه"[2]، وهو "باب متى فتحه فاتح، وطرق له مطرق، ولم يملك من سره مثل الذي يملك من فتحه، ولم يخرج بقدر ما كان قدم من نفسه، لأنه باب أصل بنائه على الخطأ، ولايخالطه من الأخلاق إلا ما سخف ومن شانه التزيد، وأن يكون صاحبه قليل التحفظ. ولم نر شيئاً أبعد من شيءٍ ولا أطول له صحبة ولا أشد خلافاً ولا أكثر له خلطةً، من الجد والمزاح، والمناظرة"[3]، ولكن الأعتدال في الأشياء ليس بالأمر السهل، وأكثر الناس يبتدئ في الأشياء "ولايدري أن يقف منه فيخرج عن حده ويروم الزيادة فيه على صاحبه حتى يصير سبباً للوحشة فيثير غضباً كامناً ويزرع حقداً باقياً"[4].

ويؤكد الجاحظ على ضرورة أن يكون المزاح في موضعه كالجد في موضعه، والمزاح وأن "صار قبيحاً لأن الذي يكون بعده جدّ، ولم يصر الجد قبيحاً لأن الذي يكون بعده مزح، وكان الجد في هذا الوزن أقبح، وكان المزح على هذا التقدير أحسن، لأن ما جعل الشيء أقبح من الشيء، كما أن ما جعل الشيء حسناً أحسن من الشيء"[5].

وإن الأسراف في المزاح يعرض صاحبه الى جملة من المخاطر والمشاكل مع الأخرين في المجتمع، ولكي يسود الوفاق بين أفراد المجتمع، فلا بد من ضرورة الأنتباه الى هذا المزاح وذاك ومدى تأثيره على الأشخاص، لأن المزاح" إنما صار معيباً، والهزل مذموماً، لأن صاحبه لا يكون إلا معرضاً لمجاوزة الحد، ومخاطراً بمودة الصديق، فالجد داعية الى الأفراط، كما أن المزاح داعيته الى مجاوزة القدر والتجاوز للجد قاطع بين الفريقين في جميع النوعين"[1].

وفي سبيل إيجاد حل أو مخرج بين جدلية المزاح والجد، فأن الجاحظ يرى بأن بعض المزح خير من بعض الجد، ويرى أن هذا المخرج في هذه الجدلية يكمن في إيجاد نضج حقيقي للمزاح، وفي الوقت نفسه الأحتجاج لجمهور الجد في ذلك، وهي محاولة ذكية منه في حيرته وتساؤلاته لهذين النقيضين في السلوك الأجتماعي[2].

كتمـان السـر

ومن المواضيع الأخلاقية الأجتماعية المحمودة، هي كتمان السر، وتتبع أهميتة هذا المضوع من الأضرار الفادحة الإجتماعية التي تسببها ظاهرة عدم الأئتمان على أسرار الناس، مما يسهم ذلك في تعميق العداوات والأحقاد في المجتمع، ولأهمية هذا الموضوع، فقد أشار الله تعالى في القرآن الكريم على أهمية صيانة ورقابة الكلام، بقوله تعالى: (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)[3].

ويُعرف الجاحظ كتمان السر،" بأنه الخلق مركب من الوقار وأداء الأمانةفأن أخراج السر من فضول الكلام فكما أنه أستودع مالاً فأخرجهُ الى غير مودعه، فقد خفر

---

[2] م.ن، جـ3، ص74.
[3] م.ن، جـ3، ص73.
[4] مسكويه، تهذيب الاخلاق، ص164.
[5] الجاحظ، الرسائل، التربيع والتدوير، جـ3، ص94.
[1] الجاحظ، الرسائل، التربيع والتدوير، جـ3، ص94.
[2] ينظر: م.ن، جـ3، ص96.
[3] القرآن الكريم، سورة ق، آية 18.

الأمانـة كـذلك مـن أسـتودع سـراً فأخرجـه الـى غيـر صـاحبه فقـد خفـر الأمانـة، وكتمـان السـر محمود من جميع الناس"[4].

ولأفشـاء الأسـرار، مضـار كبيـرة، فـأن "إشـاعة الأسـرار فسـاد فـي كـل وجـه مـن الوجـوه، مـن العـدو والصـديق .. وإذا أفشـيت سـرك فجـاءت الأمـور علـى غيـر مـا تقـدر كـان ذلك منك فضلاً من قولك على فعلك"[1].

ويـرى الجـاحظ أن لأفشـاء أسـرار النـاس تكـون مـن قبـل المقـربين مـن صـاحب ذلـك السـر، "فـأكثر مـا يـذيع أسـرار النـاس أهلـوهم وعبيـدهم، وحاشـيتهم وصـبيانهم، ومـن علـيهم اليـد والسـلطان. فالسـر الـذي يودعـه خليفـة فـي عامـل لـه يلحقـه زينـه وشـينه"[2]، ولـذلك قيـل "الرجل: كيف كتمانك السر؟ قال: قلبي قبره وصدري حبسه"[3].

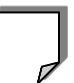
ويـرى فـي ضـوء فلسـفته الإعتداليـة فـي الأشـياء، بـأن نكـون حـذرين مـن كشـف الأسـرار لمـن لايسـتحقها، وكـذلك عـدم الأفـراط فـي الحـذر مـن الأخـرين،" فآفـة الأمانـة إئتمان الخانة .. والأفراط في الحذر يدعو الى ألا يوثق بأحد"[4].

وينبهنـا الـى خاصـتنا مـن النـاس، لأنهـم يشـاركوننا فـي الكثيـر مـن مفـردات الحيـاة ومنهـا أسـرارنا الشخصـية، معلقـاً علـى ذلـك: "فـأن أهـل خاصـتك والمـؤتمنين علـى أسـرارك، هـم شـركاؤك فـي العـيش، فـلا تسـتهين بشـيء مـن أمـورهم، فـأن الرجـل قـد يتـرك الشـيء مـن ذلـك إتكـالاً علـى حسـن رأي أخيـه، فـلا يـزال ذلـك يجـرح فـي القلـب وينمـو، حتـى يولـد ضـغناً ويحول عداوة"[5].

ولابـد مـن الأنتبـاه الـى مسـتودعي أسـرارنا ومـدى الثقـة بهـم فـي ذلـك، ويـروي لنـا الجـاحظ فـي ذلـك بـأن الخليفـة عمـر بـن الخطـاب (رضـي الله عنـه) "حـين أحـب أن يشـيع إسـلامه فقـال: مـن أنـم أهـل مكـة؟ فقيـل لـه: جميـل بـن النحيـت فأتـاه فـأخبره بأسـلامه وسـأله أن يكتمـه عليـه، فلـم يمـس وبمكـة أحـد لـم يعلـم بأسـلام عمـر"[6]، لأن صـاحب السـر هـو المسـؤول الوحيـد عـن كيفيـة الحفـاظ علـى أسـراره، ولـذلك قـال عمـرو بـن العـاص: "إذا أنـا أفشـيت سـري إلـى صـديقي فأذاعـه فهـو فـي حـل فقيـل لـه: وكيـف ذاك؟ قـال أنـا كنـت أحـق بصيانته"[7].

ويناقش الجـاحظ هـذا الموضـوع بصـراحته المعروفـة، حـول قـدرتنا فـي إختيـار مـن يحفـظ أسـرارنا، معلقـاً علـى ذلـك: "وهـذه صـفات موجـودة بـالأقوال معدومـة بالأفعـال، والمغـرور مـن إغتـر بمـا يعـده الواعـد منهـا دون أن يبلـو الخبـر والـذي جربنـاه ووجـدناه أن أكثـر مـن يفضـي إليـه بالشـيء يبلـغ مـن إذاعتـه ونشـره مـا لايبلغـه الرسـول المسـتحفظ المعنـى بتبليـغ الرسـالة .. فيوهمـه أن قـد إسـتحفظه السـر فيشـيع علـى لسـانه كمـا يشـيع الضـوء فـي الظلمـة"[1]، ولكننـا نلاحـظ وكمـا عهـدنا فـي الجـاحظ صـيغة التعمـيم علـى الظـواهر الإجتماعيـة فـي عصـره، فبالتأكيد أن هنالـك فئـة مـن النـاس لهـا القـدرة للأحتفـاظ علـى أسـرار

(4) الجاحظ، تهذيب الاخلاق، ص21.
(1) الجاحظ، الرسائل، المعاش والمعاد، جـ1، ص116.
(2) م.ن، كتمان السر، جـ1، ص151.
(3) الاصبهاني، محاضرات الادباء، جـ1، ص126.
(4) الجاحظ، الرسائل، المعاش والمعاد، جـ1، ص111.
(5) م.ن، جـ1، ص108.
(6) م.ن، كتمان السر، جـ1، ص153.
(7) المبرد، الكامل، جـ2، ص17.
(1) الجاحظ، الرسائل، كتمان السر، جـ1، ص(153-152).



الأخـرين، حتـى وإن كـانوا القلـة مـنهم، ولكـن نحـن مـع الجـاحظ فـي أن الأغلبيـة مـن النـاس ليسـت لهـا قـدرة الصـبر فـي الإحتفـاظ بأسـرار الأخـرين، لأن إشـاعة هـذه الأسـرار سـتدهش الأخرين وتثيرهم، ولولا ذلك لما أصبح هذا الأمر سراً.

وهنالـك مـن النـاس، مـن يفضـل السـكوت علـى الكـلام، لكـي لا يـنمُّ فـي الغيبـة، أو الوقـوع فـي مشـاكل مـع الأخـرين ومنهـا أفشـاء أسـرارهم، وأتخـاذ هـذا الصـمت مسـلكاً لـه فـي حياتـه، "ويوصـف لـه مـن المنقبـة أن يقـال يسـكت ليتـوقى بـه عـن الأثـم، وذلـك فضـل خـاص دون عام"[2].

ونـرى الجـاحظ يـدافع بقـوة للكـلام ضـد الصـمت، قـائلاً:"كيف يكـون الصـمت أنفـع مـن الكـلام، ونفعـه لا يكـاد يجـاوز صـاحبه، ونفـع الكـلام يعـم ويخـص، والـرواة لـم تـرو سـكوت الصـامتين، كمـا ردت كـلام النـاطقين، فبـالكلام أرسـل الله تعـالى أنبيـاءه لا بالصـمت، ومواضع الصمت المحمودة قليلة، ومواطن الكلام المحمود كثيرة"[3].

ويعـد أن الكـلام هـو المفتـاح لبيـان إخـتلاف النـاس وتمييـزهم، لأنـه لـولاه "لـم يمكـن أن يميـز بيـنهم وبـين الأصـنام المنصـوبة والأوثـان المنحوتـه، وكـان كـل قـائم وقاعـد، ومتحـرك وسـاكن، ومنصـوب وثابـت، فـي شـرع سـواء ومنزلـة واحـدة، وقسـمة مشـاكلة، إذا كـانوا فـي معنـى الصـمت بالجثـة واحـداً، .. ولـذلك صـارت الأشـياء مختلفـة فـي المعـاني، مؤتلفة الأشكال"[4].

ويـرى أن تفضـيل السـكوت علـى الكـلام، هـو عجـز بالقـدرة والمثـابرة فـي إجتيـاز المحـن والإختبـارات، "فلـم يحمـد الصـمت مـن أحـدٍ إلا توقيـاً لعجـزه عـن إدراك الحـق والصـواب فـي إصـابة المعنـى، وإنمـا قاتـل النبـي صـلى الله عليـه وسـلم المشـركين عنـد جهلهـم الله تعـالى وإنكـارهم إيـاه، ليقـروا بـه، فـأذا فعلـوه حقنـت دمـاوءهم، وحرمـت أمـوالهم، ورعيت ذمتهم. ولو أنهم سكتوا ضناً بدينهم لم يكن سبيلهم إلا العطب[1]"[2].

ويمكـن الأسـتنتاج بـأن الجـاحظ يـرى فـي الأسـرار حرمـة عنـد النـاس، ويجـب وضـعها فـي وعـاء أمـين ومحكـم لمـن هـو أهـل لـذلك، وإن الهـرب مـن ملاقـاة النـاس فـي الكـلام والحـديث لكـي لا نقـع فـي مشـاكل مـع الأخـرين، هـو مسـلك خـاطئ، بـل الكـلام والمحـاورة أفضـل مـن ذلـك الصـمت والأنـزواء عـن الأخـرين، شـريطة الأحتـراس فـي مفردات هذا الكلام وأن يوضع الكلام في محله اللائق به.

المحبـة

المحبة موضوع كبير وواسـع فـي معانيـه ودلالاتـه، ومـن يحـب فأنـه اسـقط الـبغض والحقـد مـن نفسـه، والمحبـة تشـمل معـاني كثيـرة فـي حياتنـا اليوميـة، "وأن الحـب مـن أكبـر أسباب جماع الخير، ورأينا البغض من أكبر أسباب الشر"[3].

---

(2) م.ن، تفضيل النطق، جـ4، ص233.

(3) القيرواني، زهر الآداب، نقلاً عن الجاحظ، جـ3، ص(736-735).

(4) الجاحظ، الرسائل، تفضيل النطق، جـ4، ص232.

(1) العطب: الهلاك يكون في الناس / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ1، ص610.

(2) الجاحظ، الرسائل، تفضيل النطق، جـ4، ص235.

(3) م.ن، النساء، جـ3، ص141.

وعنـد الجـاحظ أن المحبـة عنـد بعـض النـاس قـد تكـون سـلطان علـيهم، لا أرادة لهـم فـي ذلـك، "لأن مـن أول أسـباب الخلطـة، والـدواعي الـى المحبـة، مـا يوجـد علـى بعـض النـاس مـن القبـول عنـد أول وهلـة، وقلـة إنقبـاض النفـوس مـع اول لحظـة، ثـم أتفـاق الأسـباب التـي تقع بالموافقة عند أول المجالسة، وتلاقي النفوس بالمشاكلة عند أول الخلطة"[4].

ويـذكرنا الجـاحظ بواحـدة مـن مـآثر العاشـق لمعشـوقه،" بأننـا قـد رأينـا الكـرام والحلمـاء، وأهـل السؤدد والعظمـاء، ربمـا جـادوا بفضـلهم مـن لـذة شـفاء الغيظ، ويعـدون ذلـك زيـادة فـي نبـل الـنفس، وبعـد الهمـة والقـدر. ويجـودون بـالنفيس مـن الصـامت والنـاطق، وبـالثمين مـن العـروض، وربمـا خـرج مـن جميـع مالـه، وآثـر طيـب الـذكر علـى الغنـى واليسـر. ولـم نـر نفـس العاشـق تسـخو بمعشـوقه .. لوالـد ولالولـد بـارٍ ولا لـذي نعمـة سـابغة يخـاف سـلبها، وصـرف إحسـانه عنـه بسـببها"[1]، ونـرى أن ذلـك لـيس تعميمـاً علـى جميـع الناس.

ومـن يحـب لا بـد لـه مـن الصـبر والتحمـل، بـالرغم مـن أن الصـبر حالـة لايقـدر عليهـا أي فـرد، ومـن طرائفـه مـا يرويـه الجـاحظ بأنـه" إشـترى رجـل مـن رجـل داراً فقـال لصـاحبه: لوصـبرت لأشـتريت منـك الـذراع بعشـرة دنـانير. قـال: وأنـك لـو صـبرت لبعتـك الـذراع بدرهم"[2].

والمحبـة بـين النـاس مـن المراتـب السـامية والرفيعـة بـين النـاس، ويعطينـا مثـالاً تاريخيـاً لـذلك، فأنـه "كانـت الحـرب يـوم صـفين بـين العـرب محضـةً .. فكانـت محـاربتهم كـداماً وأعتناقـاً، وكـانوا إذا مـروا برجـل جـريح كـانوا يقولـون: خذلـه قومـه فأنصـروه، وألقـاه دهره بمضيعةٍ فردوه الى أهله"[3].

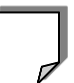
والمحبـة بـين النـاس ظـاهرة للعيـان، يتلقاهـا الأخـرون بأرتيـاح وبتحبـب، ويـرى الجـاحظ فـي ذلـك أن أولاد علـي بـن أبـي طالـب (رضـي الله عنـه)، أصـابوا محبـة النـاس إلـيهم قـائلاً فـي ذلـك: "وامـا جملـة القـول فـي ولـد علـي فـأن النـاس لا يعظمـون النـاس إلا بعـد أن يصـيبوا مـنهم، وينـالون مـن فضـلهم، وإلا بعـد أن تظهـر قـدرتهم. وهـم معظمـون قبـل الأختيار، وهم بذلك واثقون، وبه موقنون"[4].

وعنـده أن المحبـة تنقسـم الـى أقسـام وصـفات متعـددة، فضـلاً عـن المحبـة المعروفـة بالعشـق والتـي تسـمى بالصـبابة، فمـا "يتشـعب مـن أصـل الحـب مـن الرحمـة والرقـة، وحـب الأمـوال النفيسـة والمراتـب الرفيعـة، وحـب الرعيـة للأئمـة، وحـب المصـطنع لصـاحب الصـنيعة، مـع إخـتلاف مواقـع ذلـك مـن النفـوس .. وذكـر العشـق المعـروف بالصـبابة"[1]، ولـذلك جـاء فـي كتـب الأدب والتـأريخ أن العشـق"، إرتيـاح فـي الخلقـة وفـرح يجـول فـي الروح، وسرور ينساب في أجزاء القوى"[2].

والحسـن والجمـال لهـا دور كبيـر فـي الهـوى والعشـق، وقـد أطلـق العـرب تسـميات متعـددة للحسـن، ونلاحـظ الوصـف الرفيـع والجميـل لهـذه التسـميات، ومـن هـذه التسـميات:

---

(4) م,ن، المودة والخلطة، جـ4، ص195.
(1) الجاحظ، الرسائل، النساء، جـ4، ص141.
(2) الجاحظ، البيان، جـ3، ص161.
(3) الجاحظ، الرسائل، فصل مابين العداوة والحسد، جـ1، ص361.
(4) الجاحظ، رسائل الحاجري، رسالة في علي بن ابي طالب، ص58.
(1) الجاحظ، الرسائل، النساء، جـ3، ص139.
(2) الاصبهاني، محاضرات الادباء، جـ3، ص39.



"طاقـة ريحـان أو خطـوط آس، قضـيب خيـزران، غصـن بـان، رمـح رومينـي، صـفيحة يمـان، سـيف هنـدواني، جـان، ... والمشـتري، ... وجهـه دينـار هرقلـي، والبحـر، الغيـث الشمس، دارة القمر، الزهرة، درة، وكأنها غمامة"[3].

وينبهنـا الجـاحظ الـى المفهـوم الحقيقـي للجمـال وأدواتـه، وأن للجمـال الحقيقـي خفايـا لايمكـن ملاحظتهـا مـن قبـل جميـع النـاس، فـأذا "رأيـت الرجـل حسـناً جمـيلاً، وحلـواً مليحـاً، وعتيقـاً رشـيقاً، وفخمـاً نبـيلاً، ثـم لايكـون مـوزون الأعضـاء ولا معتـدل الأجـزاء ... وأن كانت هناك دقائق خفية لا يراها الغبي، ولطائف غامضة لا يعرفها إلا الذكي"[4].

ويـرى أن عوامـل النهـوض فـي المحبـة وأسـتمرارها بـين النـاس، تـرك العتـاب والملامـات والمـذمات، لأنهـا "كلهـا قبيحـة، وأقـبح الملامـة والمذمـة مـا كانتـا فـي تـرك نصـفة أو شدة منافسة في تعداد الذنوب:

منـافسـة العـدو أو الصـديق تجـر الى المذمـة والمـلامـة
إذا أعطـاك يضفـاً ذو ودادٍ وبعض النصف فأنتهز السلامة"[5].

ولـذلك قالـت كتـب التـراث العربـي، أن الصـداقة محبـة، والعشـق هـو أفـرط فـي المحبة[6].

وهنالـك نشـوة بـالظفر مـن فـوز العاشـق بمعشـوقه، وكلمـا كـان العشـق "أرسـخ، وصاحبه به أكلف، فأن موقع لذة الظفر منه أرسخ، وسروره بذلك أبهج"[7].

وعنـد الجـاحظ أن بعـض النـاس لايمكـن لـه أن يحـب أو يعشـق لأنشـغاله بـأمور الحيـاة الخاصـة لـه، وهـذا يبـين لنـا بـأن للمحبـة والعشـق لا بـد لـه مـن تفكيـر وتأمـل قبـل الخـوض فيـه، وعليـه "فـرجلان مـن النـاس لا يعشـقان: أحـدهما الفقيـر المـدقع، فـأن قلبـه يشغل عن التوغل فيه وبلوغ أقصاه.

والملـك الضـخم الشـأن، لأن فـي الرياسـة الكبـرى، وفـي جـواز الأمـر ونفـاذ النهـي، وفـي ملـك رقـاب الأمـم، مـا يشـغل شـطر قـوى العقـل عـن التوغـل فـي الحـب، والاحتـراق فـي العشق"[1].

الـوفــاء

الوفـاء مـن المواضـيع الأخلاقيـة المحمـودة والمهمـة، وهـو "الصـبر علـى مـا يبذلـه الأنسـان مـن نفسـه ويـرهن بـه لسـانه، والخـروج ممـا يضـمنه وأن كـان مجحفـاً بـه، فلـيس يعـدو مـن لـم تلحقـه بوفائـه أذيـة .. وكلمـا أضـر بـه الـدخول تحـت مـا حكـم بـه علـى نفسـه، كـان أبلغ في الوفاء"[2].

---

(3) الجاحظ، الرسائل، التربيع والتدوير، جـ3، ص64.
(4) م.ن، جـ3، ص83.
(5) م.ن، فصل مابين العداوة، جـ1، ص359.
(6) ينظر: مسكويه، تهذيب الاخلاق، ص114.
(2) الجاحظ، الرسائل، النساء، جـ3، ص141.
(1) الجاحظ، الرسائل، النساء، جـ3، ص154.
(2) الجاحظ، تهذيب الاخلاق، ص20.

والعربـي معـروف بشـهامته ووفائـه، وفـي هـذا الصـدد يؤكـد الجـاحظ بـأن الوفـاء لـه وجـوه متنوعـة ومختلفـة، فمنهـا البسـيط ومنهـا الوفـاء الكبيـر، ويحثنـا للوصـول الـى الوفـاء الكبيـر، لأنـه "لا يوجـد فـي الأنسـان فضـيلة أكبـر ولا أعظـم قـدراً، ولا أنبـل فعـلاً مـن الوفـاء. ولـيس الوفـاء شـكراً اللسـان فقـط، لأن شـكر اللسـان لـيس علـى أحـد منـه مؤونـة ... ومنهـا المواسـاة للصـاحب فـي المـال، حتـى يقاسـمه الـدرهم بالـدرهم، والنعـل بالنعـل، والثـوب بـالثوب. ومنهـا الحفـظ لـه فـي خلفـه وعيالـه، مـا كـان فـي الـدنيا، حتـى يجعلهـم أسـوة بعيـالهم في الجدب والخصب .. ومنها الشكر له باللسان والجوارح"[3].

ومـن وجـوه الوفـاء، هـو رد الأمانـات الـى أهلهـا، وهنـا يتحـدث الجـاحظ عـن آكلـي الأمانـات بشـدة قـائلاً فـي ذلـك: "وحـين أكلـت الأمانـات ... ورتـع فيهـا المعـدلون والصـرافون، وجـب حفظهـا ودفنهـا، وكـان أكـل الأرض لهـا خيـراً مـن أكـل الخـؤون الفـاجر واللئيم الغادر"[1].

وإن الجـاحظ، قـد وقـع فـي حبائـل المـاكرين والـذين لـم يفـوا بوعـودهم إذا وعـدوا، وكتـب الـى رجـل وعـده: "أمـا بعـد فـأن شـجرة وعـدك قـد أورقـت فلـيكن ثمرهـا سـالماً مـن جوائح المطل"[2].

ويبـدو أن العصـر الـذي عاشـه، فيـه متغيـرات سـريعة ومتعـددة، ومنهـا إزديـاد حـدة عـدم الوفـاء، والأسـتهانة بالأمانـات، ولـذلك فـأن الجـاحظ يعلـق علـى الموضـوع بحسـرة وألـم واضـح لتبـدل أحـوال الزمـان، قـائلاً: "تتبـدل الأفعـال ببـدل الحـال. ولكـل زمـان تـدبير ولكـل شـيء مقـدار، والله فـي كـل يـوم فـي شـأن. كـان الفقيـه يمـر باللقطـة فيتجاوزهـا ولا يتناولهـا، كـي يمـتحن بحفظهـا سـواه، إذ كـان جـل النـاس فـي ذلـك الـدهر يـؤدون الأمانـة ويحوطـون اللقطـة. فلمـا تبـدلوا وفسـدوا، وجـب علـى الفقيـه إحرازهـا والحفـظ لهـا، وأن يصـبر علـى مـا نابه من المحنة وأختبر به من الكلفة"[3].

الكـــرم

مـن المواضـيع التـي دافـع بهـا الجـاحظ عـن العـرب ضـد الشـعوبية، بـأن العـرب هـم أكثـر كرمـاً وسـخاءً، والشـعوبيون يتسـمون بالبخـل، والكـرم صـفة بـارزة ومتميـزة للأنسـان لأنهـا مـن الأخـلاق المحمـودة، والأنسـان البخيـل يأخـذ ولا يعطـي، وأنمـا الأمـم تقـوم وتـنهض بالرجـال الـذين يعطـون ولا يأخـذون، وأن أمتنـا العربيـة لزاخـرة بـالمواقف الكبيـرة لكـرم وسخاء أبناءها.

(3) الجاحظ، التاج، ص(112-111).
(1) الجاحظ، البخلاء، ص289.
(2) ابن عبد ربه، العقد الفريد، نقلاً عن الجاحظ، جـ1، ص210.
(3) الجاحظ، البخلاء، ص(288-287).

وقـريش هـي قلـب العروبـة النـابض، وتمثـل الركيـزة الأساسـية للخلـق الرفيـع ومنهـا الكـرم، والجـاحظ معجـب بكـرم قـريش[1] لأن " كسـبهم لمـا قـل مـن قبـل تـركهم الغـزو، ومـالوا الـى الإيـلاف والجهـاد، لـم يعتـروا مـن بخـل التجـار قليل ولا كثيـر، والبخـل خلقـة فـي الطبـاع، فـأعطوا الشـعراء كمـا يعطـى الملـوك، وقـروا الأضـياف، ووصـلوا الأرحـام، وقاموا بنوائب زوار البيت"[2].

ومـن عـادات العـرب فـي الكـرم والضـيافة، بـأن يقومـوا بأشـعال النـار لكـي يـتمكن مـن أسـتدلال الضـيوف الـى ديـارهم"، وكلمـا كـان موضـع النـار أشـدّ إرتفاعـاً كـان صـاحبها أجود وأمجد، لكثرة من يراها من البعد"[3].

ويتعـرض الجـاحظ الـى موضـوع مهـم فـي الكـرم عنـد العـرب، حيـث تـداولت الروايـات التاريخيـة المتـواترة، كـرم حـاتم الطـائي، وينبهنـا الـى شخصـية عربيـة أخـرى لا تقـل عـن حـاتم كرمـاً وجـوداً، ولكـن شاء قـدره أن يكـون غيـر مشـهور، وهـو كعـب بـن مامـة[4]، قـائلاً فـي ذلـك: "والعامـة تحكـم أن حاتمـاً أجـود العـرب، ولـو قدمتـه علـى هـرمٍ .. لمـا أعترضـته علـيهم. ولكـن الـذي يحـدث بـه حـاتم، لا يبلـغ مقدار مـارووه عـن كعـب بـن مامـة، لأن كعباً بـذل نفسـه في أعطية الكرم وبذل المجهود فساوى حاتماً من هذا الوجه، وباينه ببذل المهجة"[5].

وبـذلك أصـبح للكـرم أهميـة خاصـة فـي المجتمـع العربـي الأسـلامي، وعلـى وجـه الخصـوص بعـد ظهـور الأسـلام بيـنهم، حتـى أن المتصـوفة ومـا يتسـمون مـن صـفات الزهـد والتقشف، ولكنهم حثوا "على الأنفاق من غير أقتار وترك الأدخار"[1].

ويـذهب الجـاحظ بـأطلاق صـفة الكـرم والبخـل علـى المـدن وذلـك تبعـاً لأخـلاق سـكانها، ويضـع فـي ذلـك مدينـة البصـرة، وهـي مدينـة الـولادة والنشـأة لديـه صـفة الكـرم، حيـث يسـتدل علـى كـرم طيـنهم ببيـاض كيـزانهم وعذوبـة المـاء البائـت جـرارهم، وفـي لـون آجرهم كأنما تسك من مح بيض[2].

التـواضـع

(1) كان هاشم بن عبد مناف يقول لقريش: اذا حضـر الحج يامعشـر قريش انكم جيران الله واهل بيته خصـكم الله بذلك واكرمكم به ثم حفظ منكم افضـل ماحفظ جار من جاره فاكرموا ضـيافه وزوار بيته / ينظر: الازرقي، اخبار مكة، جـ1، ص(195-194).

(2) الجاحظ، الرسائل، الاوطان والبلدان، جـ4، ص(117-116).

(3) الجاحظ، البخلاء، ص338.

(4) كان كعباً اذا جاوره رجل فمات وداه، وان هلك له بعير او شـــاة اخلف عليه، فقالت العرب بذلك: كجار ابي دُواد وهو كعب، وقيل اجود من كعب بن مامة / ينظر: الميداني، ابو الفضـل احمد بن محمد النيسـابوري (ت 518هـ/1124م)، مجمع الامثال، دار القلم، بيروت، بدون سنة، جـ1، ص(183،163).

(5) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص107.

(1) السـهروردي، شـهاب الدين ابي حفص عمر بن محمد (ت 632هـــ/1234م)، عوارف المعارف، مؤسـسـة الحلبي، القاهرة، 1967، ص204.

(2) ينظر: الجاحظ، الرسائل، الاوطان والبلدان، جـ4، ص141.

مـن يبحـث عـن التواضـع، فأنـه يبحـث عـن علـو الهمـة، ونقـاء الـنفس، لأهميتـه بـين المجتمعــات الأنســانية، والتواضـــع حثــت عليـــه الـــديانات الســـماوية والعقائـــد والجماعـــات الأنســانية، وهــو "تــرك التــرؤس ... وكراهيــة التعظـيم والزيــادة فـــي الإكــرام، وأن يتجنــب الأنسـان المباهـاة بمـا فيـه مـن الفضـائل، والمفـاخر بالجـاه والمـال، وأن يتحـرز مـن الإعجـاب والكبر، وليس يكون التواضع إلا في أكابر الناس ورؤسائهم وأهل الفضل والعلم"[3].

ويـذكرنا الجـاحظ، بـأن الطبيعـة الأنسـانية مجبولـة بـبغض مـن إسـتطال عليهـا، فـلا يمكننــا مــن تجــاوز هــذه الحــدود علــى الأخــرين، وإلا ســنتعرض الــى الكراهيــة والــبغض مـنهم، بـدلاً مـن المحبـة والإشـتياق، وذلـك "أن طبـع النفـوس إذا كـان علـى حسـاب العلـو والغلبـة ـ أن فـي تركيبهـا بغـض مـن إسـتطال عليهـا. فأسـتدع محبـة العامـة بالتواضـع، ومـودة الإخلاء بالمؤانسة والأستشارة والثقة والطمأنينة"[4].

ومــن بــدائع تراثنــا العربــي الأســلامي فــي التواضــع، أنــه ســئل الحســن (رضــي الله عنــه) عـن التواضـع فقـال: "هـو أن تخـرج مـن بيتـك فـلا تلقـى أحـداً إلا رأيـت لـه الفضـل عليك"[1].

ويؤكـد الجــاحظ بــأن أمتنــا العربيــة حثــت علــى التواضـــع، ولحيويــة هــذه الأمــة وجهادهـا الكبيـر عبـر التـاريخ فأنهـا تـرفض أهـل التكبـر والغـرور، قـائلاً فـي ذلـك: "وقـد ذم الله تعــالى المتكبــرين، ولعــن المتجبــرين، وأجمعــت الأمــة علــى عيبــه، والبــراءة منــه، وحتــى سمي المتكبر تائهاً، كالذي يتخبط في التيه بلا إمارة، ويتعسف الأرض بلا علامة "[2].

ويحـدثنا عـن رجلـين أحـدهما متواضـع لا يحتقـر أحـداً، والآخـر يتكبـر ولا يتحـرك لزائـر، وأطلقـوا عليـه: ثهـلان[3] ذو الهضـبات مـا يتحلحـل، وكـان المتواضـع يـزداد علـواً، وذلك الرجل المتكبر يزداد تسفلاً[4].

ولأهميـة التواضـع، ودلالتـه علـى طهـارة نفـس صـاحبها، فـأن الجـاحظ يحثنـا علـى السـير نحـو التواضـع والأبتعـاد عـن الكبـر، لأن الكبـر يليـق "بمـن أن جـاع صـُريع، وأن شـبع طغى"[5].

---

(3) الجاحظ، تهذيب الاخلاق، ص21.

(4) الجاحظ، الرسائل، المعاش والمعاد، جـ1، ص118.

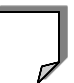
(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ2، ص202.

(2) الجاحظ، الرسائل، النبل والتنبيل، جـ4، ص174.

(3) ثهلان: جبل، واشتقاقه من الثهل، وهو الانبساط على وجه الارض / ينظر: الميداني، مجمع الامثال، جـــ1، ص155.

(4) الجاحظ، الرسائل، النبل والتنبيل، جـ4، ص174.

(5) م.ن، جـ4، ص174.



المبحث الثاني / الأخلاق المذمومة

تطرق الجاحظ في مؤلفاته الى عددٍ من مواضيع الاخلاق المذمومة في المجتمعات الانسانية، والمجتمع العربي في طبيعته محافظ على اصالته وتمسكه بالاخلاق العربية الاصيلة، ولكن لايخلو أي مجتمع من المجتمعات عبر التاريخ من الصالح والطالح، والخير والشر، وبالطبع فان هذا ديدن الطبيعة الانسانية، والتي خلقها الله تعالى وجبلها على حب الخير والصراع مع الشر، ولابد من وقفة مشرفة للخير لكي يحقق الانتصار.

وبذلك فان الجاحظ يتحدث عن تلك الاخلاق المذمومة، محذراً لنا من الانطواء تحتها، مبيناً اسبابها ونتائجها الوخيمة على المجتمع، مبيناً بان "الاخلاق المذمومة، فانها موجودة في كثير من الناس كالبخل والجبن والظلم والتشرر .. وقلما يوجد في الناس من يخلو من خلق مكروه، ويسلم من جميع العيوب، ولكنهم يتفاضلون في ذلك"[(1)].

ولكن بالرغم من شرور هذه الاخلاق، الا ان هنالك "من الناس من ينتبه على الاخلاق الرديئة. او ينبه عليها، فلا يحن الى تجنبها. ولا تسمح نفسه لفارقتها بل يؤثر الأصرار عليها، مع علمه برداءتها وقبحها"[(2)]، ونعتقد ان سبب ذلك يعود الى طبيعة الاخلاق المحمودة والمذمومة، فكل عظيم ومحمود لايأتي الا من جهد وكسب عظيمين، وكل دنئ وغيرعفيف فهو متآتي من طريق سهل وغير شاق ولكن يفقد صاحبه اصالته وانسانيته، وهنالك من يفضل الراحة والدعة على المثابرة والمشقة، ولذلك نرى الكسل والشر والرذائل تحوم عليه لتلتصق به.

كما ان اهل الخير والصلاح يعملون بصمت وهدوء وبدون مقابل، والبعض منهم لايحصدون شيئاً من مغريات الدنيا سوى العمل الصالح والفوز بالآخرة، معلقاً الجاحظ على ذلك قائلاً: "ثم نظرنا في الوفاء والامانة، والنبل والبراعة وحسن المذهب، وكمال المروءة، وسعة الصدر، وقلة الغضب، وكرم الطبيعة، والفائق في سعة علمه، والحاكم على نفسه، والغالب لهواه، فوجدنا فلان بن فلان، ثم وجدنا الزمان لن ينصفه من حقه"[(3)].

والآتي في هذا المبحث دراسة لكتابات الجاحظ في الاخلاق المذمومة، ومناقشتنا لتلك الكتابات، وجعلناها في اربعة محاور رئيسية، وهي:

(1) المعاشرة المذمومة.
(2) الحرص والانانية.
(3) الكلام المذموم.
(4) الافعال الشخصية المذمومة.

أولاً / المعاشرة المذمومة

---

(1) الجاحظ، تهذيب الاخلاق، ص9.
(2) م.ن، ص10.
(3) ابن عبد ربه، العقد الفريد، نقلاً عن الجاحظ، جـ2، ص190.

المعاشرة بين الناس من الوظائف الرئيسة والفعالة في المجتمعات الانسانية، وقد تطرقنا الى دراسة آداب المعاشرة ومحاسنها عند الجاحظ في الاخلاق المحمودة، ولكن هنالك افعال وسلوك مذموم في المعاشرة، ومنها العتاب مع الاصدقاء والمقربين، فان الجاحظ يحذرنا من شدة العقاب مع الآخرين ولكن بتحفظ، لان العتاب سبب للقطيعة، ولكنه ضروري في امرين: "عاتبه فيما تشتركان في نفعه وضره وذلك من الهينات، وتجاف له عن بعض غفلاته تسلم لك ناحيته"(1).

ويحذرنا في الوقت نفسه من الالحاح في زيارة الاصدقاء، لانه "يذهب بالبهاء، وربما اورث الملالة، وطول الهجران يعقب الجفوة، ويحل عقدة الاخاء، ويجعل صاحبه مدرجة للقطيعة"(2)، وان حذره هذا يؤكد علينا مرة اخرى، نظرته وفلسفته الوسطية في الاشياء، والتي تأخذ دورها الفعال والحقيقي في حياتنا اليومية بعيداً عن الشحة والتطرف، كما ان لهذه الآراء بيان واضح حول الشخصية الاجتماعية النشطة للجاحظ في المجتمع العربي الاسلامي آنذاك.

ويجب ان تنعم مجالسنا بالصفوة المختارة من الناس، والحذر من مجالسة اهل السوء، "فالوحدة خير من جليس السوء وجليس السوء خير من اكيل السوء، وكل اكيل جليس، وليس كل جليس اكيلاً"(1).

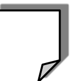
ومن مساوئ المعاشرة، استخدام القسوة مع الآخرين، لأني القاسي "ميت وان كان متحركاً، واعمى وان كان رائياً .. والقسوة رأس الخطايا .. وهي الشوهاء العاقر"(2).

والحذر في المعاشرة مع الآخرين استخدام الغضب، ويرى الجاحظ بان شدة الغضب تؤدي الى ذهاب الاعمار، "لان الغضبان اسوء اثراً على نفسه من السكران، ولولا ان نار الغضب تخبو قبل افاقة المعتوه، وضباب السكر ينكشف قبل انكشاف غروب عقل المُدله .. لكانت حال الغضبان اسوأ مغبةً .. على ان الحكم له الزم والناس ألوم"(3)، ولذلك لزم من العقلاء والحكماء اتخاذ التدابير اللازمة والكفيلة بهم لتوفي شرور الغضب(4).

ويرى الجاحظ ان للحكومة والقوانين المشرعة، لها الدور الكبير في تنظيم شؤون الناس، وان لايكون للغضب دوراً على حساب حقوق الآخرين، ولكانوا الناس "نشراً لانظام لهم، ومستكبلين لازاجرلهم .. ومن قدر قهر .. والهرج ظاهراً .. ولكانت الانعام طعاماً للسباع، وكانت عاجزة عن حماية انفسها"(5).

---

(1) الجاحظ، الرسائل، المعاش والمعاد، جـ1، ص127.
(2) م.ن، جـ1، ص128.
(1) الثعالبي، ثمار القلوب، نقلاً عن الجاحظ، ص497.
(2) الجاحظ، البيان، جـ2، ص(339-338).
(3) الجاحظ، الرسائل، الوكلاء، جـ4، ص(96-95).
(4) قام رجل الى عمر بن عبد العزيز فكلمه بكلام اغضبه فقال: اردت ان يستفزني الشيطان فاياك ومعاودة مثله، عافاك الله / ينظر: الاصبهاني، محاضرات الادباء، جـ1، ص223.
(5) الجاحظ، الرسائل، النساء، جـ3، ص(151-150).



ومـن مسـاوئ المعاشـرة، العبـوس، وهـو "التقطيـب عنـد اللقـاء وقلـة التبسـم واظهـار الكراهيـة وهـذا الخلـق مركـب مـن الكبـار وغلـط الطبـع فانـه قلـة البشاشـة هـي اسـتهانة بالنـاس .. وقلة التبسم وخاصة عند لقاء الاخوان تكون من غلظ الطبع. وهذا الخلق مستقبح"[6].

ويحـدثنا الجـاحظ، بأحاديـث لـبعض الرجـال، يحثـون فيهـا علـى عـدم المذلـة عنـد الآخـرين والاحتـراس مـن ذلـك، لان العلاقـة الصـحيحة للمعاشـرة بـين النـاس يجـب ان تبنـى علـى الاحتـرام المتبـادل والاعتـزاز بـالنفس لا العكـس مـن ذلـك، ومـن تلـك الاحاديـث ماقالـه سـعيد بـن العـاص[1]: "مـارددتُ احـداً عـن حاجـة فخـرج عنـي الا تبينـت عـز اليـأس فـي قفـاه"[2]، وقـال ابـن العـاص ايضـاً: "مـافي الارض احـد سـألني حاجـة وكلفتـه ان ينتصـب فيها انتصاب العود فرأيت شيئاً مما اعطيته عوضاً مما كلفته"[3].

ويحـدثنا بقـول لعلـي بـن ابـي طالـب (رضـي الله عنـه) قـائلاً: "احـتج الـى مـن شـئت فأنت اسيره، واستغن عمن شئت فأنت نظيره، وافضِل على من شئت فأنت اميره"[4].

وقـال احـدهم: "ارفعـوا الـيّ حـوائجكم فـي رقـاع فـاني اكـره ان ارى ذل السـؤال فـي وجوهكم"[5].

ويتطـرق الجـاحظ الـى الحـب والهـوى فـي المعاشـرة الانسـانية، فهـذا الحـب طبيعـي ومرغـوب فيـه لانـه مـن الاخـلاق المحمـودة، ولكـن ذلـك لـيس عشـقاً، فيكـون هـذا الحـب فـي "الولـد والصـديق والبلـد، والصـنف مـن اللبـاس والفـرش والـدواب، فلـم نـر احـداً مـنهم بسـقم بدنــه ولاتتلــف روحــه فــي حــب بلــده ولاولــده، وان كــان قــد يصــيبه عنــد الفــراق لوعــة واحتراق"[6].

ولكنـه يحـذرنا فـي المعاشـرة مـن داء يسـميه العشـق، وهـو "يصـب الـروح الضـعف فـي الـبطش والـوهن فـي المـرء ينهكـه. وداء العشـق وعمومـه فـي جميـع البـدن بحسـب منزلـة القلب من اعضاء الجسم. وصعوبة دوائه تأتي من قبل اختلاف علله"[7].

ويبـين ان هـذا العشـق لايكـون مسـتحكماً عنـد "اول لقيـاه حتـى يعقـد ذلـك الالـفُ، وتغرسـه المواظبـة فـي القلـب، فينبـت كمـا تنبـت الحبـة فـي الارض حتـى تسـتحكم وتشـتد وتثمـر .. ثـم صـارت قلـة العيـان تزيـد فيـه وتوقـد نـاره، والانقطـاع يسـعره حتـى يـذهل العقـل وينهك البدن"[1].

---

(6) الجاحظ، تهذيب الاخلاق، ص28.

(1) سـعيد بن العاص بن ابي احيحة سـعيد بن العاص بن امية بن عبد شـمس الاموي، ادرك النبي صـلى الله عليه وسلم، وكان سعيد عامل عثمان على الكوفة، واستعمله معاوية على المدينة غير مرة، توفي سنة سبع او ثمان وخمسين / ينظر: ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسن الشافعي (ت 571هـ/1175م)، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، هذبه عبد القادر بدران، ط2، دار المسيرة، بيروت، 1979، جـ6، ص(147-133).

(2) الجاحظ، امل الامل، ص33.

(3) م.ن، ص28.

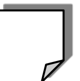
(4) م.ن، ص(27-26).

(5) م.ن، ص27.

(6) الجاحظ، الرسائل، القيان، جـ2، ص168.

(7) م.ن، جـ2، ص166.

(1) الجاحظ، الرسائل، القيان، جـ2، ص(169-168).



وهذا الداء يؤدي ان يصف العاشق لمعشوقه بالنعوت المختلفة، حتى ولو لم يكن متأكداً من ذلك، بل ان الداء يسحبه الى ذلك، فيصف معشوقه "بانه احسن من القمر، وأضوأ من الشمس، وابهى من الغيث"[(2)].

ويعتقد الجاحظ بان القضاء على هذا الداء لايتم الا من خلال الحمية، وهو دواء لذلك الداء، ولكنه يتحير من ذلك خشية اصابة صاحبها بداء اخر مسبباً آفات في صحته، ونحول جسمه[(3)]، وتبقى هكذا حيرته دون اعطاء الحلول لذلك.

ومن آفات هذا الداء، ان ينخدع المعشوق بعشيقه من الافعال التي يظهر فيها بوقار وهيبة ليجلب عواطف معشوقه نحوه، ولاتظهر حقيقته للعيان كما هي عليه، فقد نجد "الرجل الحليم، والشيخ الركين، يسمع الصوت المطرب من المغني المصيب، فينقله ذلك الى طبع الصبيان، والى افعال المجانين ـ فيشق جيبه .. ويفدي غيره، ويرقص كما يرقص الحدث الغرير، والشاب السفيه. ولم نجد احداً فعل ذلك عند رؤية معشوقه"[(4)].

ولكن عند الجاحظ ان العشق اذا لم يكن مسلكاً للهلاك فهو حسنة من الحسنات، ومنها عشق العلم والحكمة والشرف، ولذلك قال احد الرجال: (والله اني لأعشق الشرف كما تعشق المرأة الحسناء)[(5)]، وهنالك من يعشق الرزق، وقد "ذكر بعض الناس رجلاً كان مقعداً محروماً، ومنحوس الحظ، ممنوعاً، فقال: مارأيت احداً عشق الرزق عشقه، ولاأبغضه الرزق بغضه"[(6)].

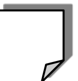
وتحدثنا في المبحث الاول وفي دائرة الاخلاق المحمودة عن المزاج وبأنه واحد من الخصال الحسنة في الاخلاقيات الاجتماعية، ولكن الجاحظ وضمن احتراسه من التطرف الزائد، وفلسفته الوسطية في الحياة، فانه يرى ان المزاح الزائد مذموم وله نتائج وخيمة على الناس، وبين المزاح والجد اقتراب، وان "الخطأ الى المزاح اسرع، وحاله بحال السخف اشبه. فاما ان يُذم حتى يكون كالظلم، وينفى حتى يصير كالغدر .. لان المزاح مما يكون مرةً حسناً ومرة قبيحاً"[(1)].

وان المزاح الزائد يؤدي الى كثرة الضحك، وفي ذلك محاذير اجتماعية كثيرة، ولذلك قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): "من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن اكثر من شيء عُرف به، ومن كثر مزاحه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل ورعه، ومن قل ورعه ذهب حياؤه، ومن ذهب حياؤه مات قلبه"[(2)]، وكان يقول ايضاً: "لكل شيء بذر وبذر العداوة المزاح"[(3)].

ومن مساوئ المزاح الزائد، ان يسترسل صاحبه في المجالس وهو يعبث مع الآخرين، "وذاك باب مكر وجنس خدع، يتكل المرء في اساءته الى جليسه، واستماعه لصديقه على ان يقول: (مزحتُ) وعلى ان يقول عند المحاكمة: (عبثت)"[(4)].

---

(2) الجاحظ، التربيع والتدوير، جـ3، ص(85-84).
(3) ينظر: الجاحظ،الرسائل، القيان، جـ2، ص166.
(4) م.ن، النساء، جـ3، ص143.
(5) م.ن، جـ3، ص140.
(6) م.ن، جـ3، ص140.
(1) الجاحظ، الرسائل، التربيع والتدوير، جـ3، ص80.
(2) الجاحظ، البيان، جـ2، ص188.
(3) الوشاء، الموشى، ص21.
(4) الجاحظ، الرسائل، التربيع والتدوير، جـ3، ص74.



ويلاحــظ ان المــزاح الزائــد والمفــرط "اصــبح معيبــاً، لان صــاحبه لايكــون الا معرضـاً لمجـاوزة الحـد، ومخـاطراً بمـودة الصـديق"[5]، ولـذلك كتـب "عمـر بـن عبـد العزيـز الى عماله: امنعوا الناس من المزاح، فانه يذهب المروءة، ويوغر الصدر"[6].

ويولـد هـذه النـوع مـن المـزاح والهـزل الحقـد والضـغينة، "لان الغلـط فيـه ومـن دواعـي الخطـأ اليـه ان كثيـراً ممـن تمازحـه يضـحك وان كنـت اغضـبته، ولايقطـع مزاحـك وان كنت قد اوجعته. فان حقد ففي الحقد الداء، وان عجل فذلك البلاء"[7].

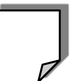
وبالتـالي فـان الجـاحظ يعـرض لنـا مـوقفين متبـاينين فـي المـزاح، وللخـروج مـن هـذه الازمـة الاجتماعيـة، وجـدنا ان الجـاحظ مـع المـزاح وكمـا ذكرنـا ذلـك فـي المبحـث السـابق، ولكنــه يعتـرض علــى المـزاح الزائـد والمفـرط لانــه ينقـل هـذا النـوع مـن الاخلاقيـات مـن المحمـودة الـى المذمومـة لمـا تخلفـه مـن آثـار سـلبية ونتـائج قاسية علـى النـاس، قـائلاً فـي ذلـك: "ونحـن نعـوذ بـالله ان نجعـل المـزاح فـي الجملـة كالجـد مـن الجملـة .. وكيـف لنـا بـذم جميـع المزح"[1].

وان المـزاح المعتـدل دليـل علــى "حسـن الحـال وفـراغ البـال .. والمـزح لايكـون الا من فضل الغنى .. وصاحب المزح في رخاءٍ الى ان يخرج منه"[2].

ووجـدنا فـي كتـب التـراث العربـي الاسـلامي، ان الـذي لايمــازح يطلـق عليـه لقـب الثقيـل، فكـان "ابـو هريـرة اذا رأى ثقـيلاً قـال: اللهـم اغفـر لـه وارحنـا منــه"[3]، وقـال آخـر: "اذا علم الثقيل انه ثقيل فليس بثقيل"[4].

---

(5) م.ن، جـ3، ص94.
(6) الوشاء، الموشى، ص22.
(7) الجاحظ، الرسائل، التربيع والتدوير، جـ3، ص74.
(1) الجاحظ، الرسائل، التربيع والتدوير، جـ3، ص96.
(2) م.ن، جـ3، ص93.
(3) الاصبهاني، محاضرات الادباء، جـ3، ص31.
(4) ابن قتيبة، عيون الاخبار، جـ1، ص427.



ثانيـاً / الحـرص والأنـانيـة

تطرقت مؤلفات الجاحظ الى عدد من المواضـــيع في الاخلاق المذمومة، وهو يحثنا على الابتعاد عن تلك الاخلاق، والتي جاءت في صـــيغ واســـاليب مختلفة، وجمعنا بعضـــاً من هذه النصوص، فوجدنا ان موضوع مذموميتها يعود بالاساس الى الحرص والانانية، ولاتنهض الامم والشعوب الا من خلال الايثار لا اللهاث وراء المنافع الخاصة والانانية الضيقة.

وينبهنا الجاحظ الى ان بعض الاصـدقاء لايهمه ســوى الحرص والانانية، ولابد الانتباه منه، لانه جاحد للصداقة والوفاء، قائلاً في ذلك: "وستجد من يتصل بك ممن يغلبه افراط الحرص، وحُميا الشـــره، ولين جانبك له، على ان ينقم العافية، ويطلب اللحوق بمنازل من ليس مثله، ولاله مثل دالته، فتلقاه لما تصنع به مستقلاً. ولمعروفك مستصغراً"[1].

ويرى ان الارزاق آتية للانســـان، ولكن هذه الارزاق يجب ان نتعامل معها بالشـــكل الصـــحيح، والذي يبعدنا عن الحرص والجشـــع والطمع، "فانك تجد الجماعة وبين ايديهم الفاكهه والرطب، فلا تجد يدين تلتقيان على رطبةٍ بعينها، وكل واحد من الجميع يرى ما حواه الطبق، غير ان شهوته وقعت على واحدةٍ غير التي آثرها صاحبه"[2].

ولذلك فان الله سبحانه وتعالى قد خالف بين طبائع الناس، وفي ذلك الحكمة الالهية للابتعاد عن الحرص والانـانيـة، لان "في اتفـاق طبـائعهم واســـبـابهم .. فســـاد امورهم، وقلـة فوائدهم واعتبارهم، وفي فساد اخبارهم فساد متاجرهم والعلم بما غاب عن ابصارهم"[3].

ويرى ان بعض الارزاق قدرية، فلا داعي الى الحرص الشديد ولابد الاقلال من الجهد في ذلك، لان الجهد الشـــديد لايؤدي الى النتائج التي نريدها دائماً، ويعلق الجاحظ على ذلك قائلاً: "حسبك تكلفاً حملك نفسك على متالفها مع علمك بقول الله في قصة لقمن: (يابنيّ انها ان تكُ مثقال حبةٍ من خردلٍ فتكن في صـــخرةٍ او في الســـماوات او في الارض يأتِ بها الله ان الله لطيفٌ خبير)[4]. الحرص يزري لصـــاحبه .. فلا تكابر القدر مكابرة المغالب ولاتتكل عليه اتكال المستسلم"[5].

ويرى بأن هنالك بعض العوامل المســـاعدة التي تؤدي دورها في اشـــتداد المنافســـة بين الناس، وبالتالي تلعب دوراً في تبلور الحرص والانانية لديهم، وان هذه المنافســـة هي المســـببة للعداوات، ومنها "المشـاكلة في الصـناعة، ومنها التقارب في الجوار، ومنها التقارب في النسـب. والكثرة في اسباب التقاطع في العشيرة والقبيلة، والساكن عدو للمسكن، والفقير عدو للغني، وكذلك الماشي والراكب، وكذلك الفحل والخصي"[1].

وان هذه العداوات على مستويات مختلفة، ولكن "امتن اسبابهم الى الشر واسرعها الى المروءة والعقل، واقدحها في العرض واحبطها على الدين ـ التشاح على المواريث"[2]، وهذا نابع من الحرص في الحياة وحب المال والثروة، والتي تسـبب التنازع والخصـومة مع الآخرين، واذا "اتفق ان يكون بين المتشـاكلين في القرابة كان السـبب اقوى، والداء ادوى. وعلى حسـاب ذلك ان جمعت هذه الخصـومة مع الجوار والقرابة واسـتواء الحظ في الصـناعة. ولذلك كتب عمر رضـي

---

(1) الجاحظ، الرسائل، المعاش والمعاد، جـ4، ص76.
(2) م.ن، حجج النبوة، جـ3، ص249.
(3) م.ن، جـ3، ص250.
(4) القرآن الكريم، سورة لقمان، الآية 16.
(5) الجاحظ، امل الامل، ص37.
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ7، ص96.
(2) الجاحظ، الرسائل، الجد والهزل، جـ1، ص264.

الله عنه الى قضـاته: ان ردوا القرابات عن حرا[3] القضـاء فان ذلك يورث التضـاغن"[4]، ولكننا نرى في الوقت نفسه ان التعاضد والنصرة بين الاقرباء والجيران موجود في اغلب الاحيان، وان هذه المنافسة لاتتم الا اذا سببت ضرراً على الآخرين.

وتداول العرب الامثال والحكم في حياتهم اليومية، وذم الحرص نصـيب لديهم، فيقولون: "(جاءنا فلان تضـب لثته ويدمي فوه، ويرذم انفه) اذا جاء طامعاً حريصـاً. فقولهم تضـب لثته أي يسيل من لثته الماء لايحبس من حرصه لعابه .. يدمي فوه من الدم أي يسيل منه الدم. واصله من اكل اللحم ان يحرص الرجل عليه فيسـرع اكله حتى يأكل العظم فيدميه. ويرذم انفه ان يسـيل منه المخاط من حرصه لايمسحه. والرذم: القطر"[5].

وهنالك من يحرص للوصـول الى طموحاته ليس فقط في المال والثروة، بل حتى في المناصـب والوظائف الرفيعة، ويقول الجاحظ في ذلك: "ونحن بالبصـرة اذا رأينا الرجل يطلب الرأي، ويركب بغلاً، ويردف خلفه غلاماً، قضينا بانه يطمع في القضاء"[6].

ويرى الجاحظ بان البعض من هذه العداوات لاتأتي من الحرص، بل من الغضب السريع والمتهور، والذي يصـاحبه الندم فيما بعد، فلقد شـاهد رجلين من البصـرة احدهما كوفي والآخر بصـري تنازعا في العنب النيروزي والرازقي، فجرى بينهما اللعين حتى تواثبا، فقطع الكوفي اصبع البصري، وفقأ البصري عين الكوفي، ثم لم يلبثا الا يسيراً حتى وجدا متصافيين متنادمين[1].

وعنده ان الحريص، يطمع في كل شـيء حوله، ولايتمناه لغيره، فيتصـف باللؤم، وللئيم صفات عامة مرسومة عليه، فهو "يظلم الضعيف، ويظلم نفسه للقوي، ويقتل الصريع، ويجهز على الجريح، ويطلب الهارب، ويهرب من الطالب .. ولايعمل على حقيقته"[2].

ويجمع اللئيم من الصفات المذمومة الاخرى، وهي الخيانة، والكذب، والنميمة، فاذا رأيت اللئيم "يعق اباه، ويحسد اخاه، ويظلم الضعيف، ويستخف بالاديب، فلا تبعده من الخيانة، اذا كانت الخيانة لؤماً،ولا من النميمة أذا كانت النميمة لؤماً ولامن الكذب، اذا كان الكذب لؤماً، ولاتأمنه على الكفر فانه الأم اللؤم واقبح الغدر"[3].

ثم ان هذه العداوة الناجمة من الحرص والانانية كامنة في النفوس، وتظهر عندما تصـاب مصالح الحريص بالاذى والضرر وعندما تتحرك مصالحة نحو مايريد، "فالعداوة لها عقل تسوس به نفسها فينجم قرنها، وتبدي صفحتها في اوقات الهتر. والا فانها كامنة تنتهز ازمنة الفرص"[4].

ويحذر الجاحظ اهل العلم من الوقوع في هذه الصـفات المذمومة، ومنها العداوات، قائلاً في ذلك: "ولااعلم تجارةً اكثر خسراناً ولااخف ميزاناً، من عداوة العاقل العامل"[5].

والحريص، له صفات عديدة، فهو لئيم واناني وصاحب عداوات، كذلك هو يتسم بالحسد على الآخرين لانه يرغب بسلب نعمة الآخرين منهم، واسباغها على نفسه، قال الله تعالى في كتابه العزيز: (ام يحسدون الناسَ على ما آتاهم الله من فضله)[6].

---

(3) حرا: حرية الاصل / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ4، ص178.

(4) الجاحظ، الرسائل، الجد والهزل، جـ1، ص265.

(5) الجاحظ، امل الامل، ص(37-36).

(6) الجاحظ، الرسائل، كتاب البغال، جـ2، ص307.

(1) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ7، ص8.

(2) الجاحظ، الرسائل، النبل والتنبيل، جـ4، ص177.

(3) م.ن، ص177.

(4) م.ن، فصل مابين العداوة والحسد، جـ1، ص345.

(5) م.ن، الجد والهزل، جـ4، ص85.

(6) القرآن الكريم، سورة النساء، الآية 54.

والحســد عند الجاحظ، هو "التألم بما يراه الانســان لغيره من الخير وما يجده فيه من الفضائل والاجتهاد في اعدام ذلك الغير ما هو له"[1].

"وتناول الجاحظ الحسد .. تناولاً يدل على دقته وثقوب بصيرته وقوة ملاحظته، درس فيه مظاهره وعلله وما ينتج فيه ويتولد عنه .. وان كان ظاهراً انه فيما يقرر انما كان يصــدر عن تجربة شخصية عميقة"[2].

ثم انه يتحدث بفضله عن دراسة الحسد، لان الدارسين درسوا العداوة ولم يتعمقوا بدراسة الحسد قائلاً في ذلك: "ولم نر الحسد اقر به احد من العرب والعجم في حال من الاحوال، ولاندب اليه ونبه عليه. وقد نبه على العداوة وفصل بين احوالها .. فظهر فضلها على الحسد بذلك"[3].

ومن المؤكد ان الحسد من الاخلاق المذمومة لما يسببه من اضرار على صاحبه وعلى الآخرين، لان "الحســد نار وقوده الروح .. لايفنى الوقود، والحســد لايبلى الا ببلي المحســود او الحاسد"[4].

ويحذرنا الجاحظ من الاصدقاء الحاسدين، لنتجنب شرهم، قائلاً في ذلك: "فاذا احسست .. من صديقك بالحسد فاقلل مااستطعت من مخالطته، فانه اعون الاشياء لك على مسالمته، وحصن سرك منه تسلم من شره وعوائق ضره. واياك والرغبة في مشاورته، ولايغرنك خدع ملقه .. فان ذلك حبائل نفاقه"[5].

وللحاسد علامات وسمات تظهر عليه، ولايمكن اخفاءها، من خلال "تغير لونه وتخوص عينيه واخفاء ســلامه، والاقبال على غيرك والاعراض عنك، والاســتثقال لحديثك، والخلاف لرأيك"[6].

وهنالك حالتان اتفق عليها الجميع بانهما "لاتقبلان الحســد، ولايخلوان من الرشــد: حال الصنيعة لمصطنعه، وحال المولى لمعتقه"[1].

واهل النعمة والفضل، هم المصابون بالحسد، ولذلك قال الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): "ما احدث الله بعبدٍ نعمةً الا وجدت له عليها حاسداً"[2].

وينتقل الجاحظ بنا الى نوع آخر من الحســد والانانية، وهو حســد العالم والعاقل ضــد الآخرين، وهنالك انانية اتجاه الاخرين في المجالات العلمية والثقافية. ويرى ان حسد الجاهل على اهل الكتابة يأتي من عدم فطنة، "فحسد الجاهل اهون شوكةً واول محناً، من حسد العارف الفطن لأن الحاسد الجاهل يبتدر الى الطعن على الكتاب في اول وهلةٍ يقرأ عليه، ومن قبل استتمام قراءته ورقةً واحدةً. ثم لايرضــى بأيســر الطعن واخفه حتى يبلغ منه الى اشــده واغلظه، من قبل ان يقف على فصــوله وحدوده .. ويجمل ذلك ويقول: هذا خطأ من اوله الى آخره، وباطل من ابتدائه الى

(1) الجاحظ، تهذيب الاخلاق، ص29.
(2) الحاجري، الجاحظ، ص374.
(3) الجاحظ، الرسائل، فصل مابين العداوة، جـ1، ص367.
(4) م.ن، جـ1، ص347.
(5) م.ن، الحاسد والمحسود، جـ3، ص16.
(6) م.ن، جـ3، ص(9-8).
(1) الجاحظ، الرسائل، الجد والهزل، جـ1، ص270.
(2) م.ن، فصل مابين العداوة، جـ1، ص344.

انقضــائه، ويحسـب انه كلما ازداد انحرافاً وطعناً واطناباً في الحمل على واضـع الكتاب، كان ذلك اقرب الى القبول منه"[3].

ثم يستطرق بالحديث الى الحاسد العارف فيقدم لنا طريقته في الانانية والحسد على الكتاب باسـلوب خداع وفيه مكر، يدل على فطنة صـاحبه لغرض ان يصـدقه الآخرون فيما يقول، ويعلق الجاحظ على ذلك قائلاً: "والحاســد العارف الذي فيه تقية .. اذا اراد ان يغتال الكتاب ويحتال في اسقاطه، تصفح اوراقه، ووقف على حدوده ومفاصله، وردد فيه بصره وراجع فكره، واظهر عند السـيد الذي هو بحضـرته وجلسـائه، من التثبت والتأني .. يقتنص بها قلوبهم، وسـبباً يسـترعي به البابهم، وسلماً يرتقي به الى مراده منهم، وبساطاً يفرش عليه مصارع الخدع"[4].

ويقدم لنا الجاحظ معرفته الاجتماعية وخبرته لفحص الحاسـد من الصـديق الحقيقي، "فان اردت ان تعرف آية مصداقه فأدنين اليه من يهينك عنده، ويذمك بحضـرته، فانه سيظهر من شأنه لك ما انت به جاهل، ومن خلاف المودة ما انت عنه غافل. وهو الح في حسده لك من الذباب"[5].

ويرى ان الحســد لايشــمل المقربين من الناس فقط، بل يشــمل كذلك الأبعد فالابعد منهم، وذلك تبعاً للمشاركة في الصناعات او المهن.

وشــاهد الجاحظ من ينتحل العلم والادب، وقد ســمع اخبار صــاحبه والمشــارك له في الصـناعة في احدى الامصــار البعيدة في "اتسـاق الرياسـة في بلده، وجميل حاله ونبيل محله عند اهل مصـره، وطاعة العامة له، وترادف الناس عليه، فطار قلبه فرقاً .. وتنفس الصـعداء وانتفض انتفاض المفلس"[1].

ثم يسـتطرد الجاحظ بهذه الرواية بالقول: "فقال لي رجل من اخواني كان عن يميني، حين رأى ما رأى منه: بحق قال من قال: لم يُر ظالم اشـبه بمظلوم من حاسـد نعمة، فان نفسـه متصـل، وكربه دائم، ومكرته لاتنام"[2].

وتتعدد متاعب ومشــاكل الحاســد، وما يعانيه في حياته اليومية من حســرات وآلام لان ماتحقق لغيره لم يتحقق له، "ومن العدل المحض والانصاف الصحيح ان تحط عن الحسود نصف عقابه، وان تقتصر على بعض مقداره، لان الم حسده لك قد كفاك مؤونة شطر غيظك عليه"[3].

ثم يقدم لنا الجاحظ، مايفكر فيه الحاســد من الآخرين، وعن المواضــيع التي تجلب له المتاعب والانانية المسـببة للحسـد، "فانه لايأتيك ولكن يناديك ولايحاكيك، ولكن يوازيك. احسـن ماتكون عنده حالاً اقل ما تكون مالاً، واكثر ما تكون عيالاً، واعظم ما تكون ضــلالاً. وافرح ما يكون بك اقرب ماتكون بالمصيبة عهداً، وابعد ما تكون من الناس حمداً"[4].

ويقدم الحاسد تبريراته من اجل ان يعيب على الناس، فمن شأن "الحاسد ان كان المحسود غنياً ان يوبخه على المال فيقول: جمعه حراماً ومنعه اثاماً. والب عليه محاويج اقاربه فتركهم له خصماء"[5].

ومن تبريرات الحاســد لمحســوده من العلماء، قائلاً:" مبتدع ولرأيه متبع، حاطب ليلٍ ومبتغى نيل، لايدري ماحمل، قد ترك العمل، واقبل على الحيل"[6].

---

(3) م.ن، جـ1، ص351.
(4) م.ن، جـ1، ص352.
(5) م.ن، الحاسد والمحسود، جـ3، ص16.
(1) الجاحظ، الرسائل، فصل مابين العداوة، جـ1، ص348.
(2) م.ن، جـ1، ص348.
(3) م.ن، الجد والهزل، جـ1، ص239.
(4) م.ن، الحاسد والمحسود، جـ3، ص20.
(5) م.ن، جـ3، ص7.
(6) م.ن، جـ3، ص8.

ويعتقد الجاحظ بان العداوة لها مدة وتنتهي، ولكن يبقى الحســد يتجدد عند الحاســد، فكل حاسد عدو، ولكن ليس كل عدو بحاسد، ويعطي مثالاً على ذلك بان اليهود حاربوا وكفروا الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهم متوقنون من سيرته وبعثته، ولكن علماء اليهود اخذهم الحسد فمنعوا بينه وبين الحقيقة، وهم يعرفونه كما يعرفون ابناءهم انه نبي صــادق ورســول محق، يقرءون بعثه في توراتهم، ثم نتج لهم الحسد عداوته[1]، ونرى ان هذا الحسد يكمن في قوة ومتانة الرسالة الاسلامية وعلى صاحبها افضل الصلاة والسلام، وما جبل عليه من مكارم الاخلاق، ولنقاوة الشريعة الاسلامية، ثم ان هذه الرسالة الجديدة ستقضي على الكثير من مصالح كبار علماء اليهودية ورجالها، وبالتالي فانهم لايرضــون بالرســالة المحمدية، ويطمعون الى زوالها[2]، ولكن ذلك لم يتحقق لهم وخاب بطلانهم.

ويقدم لنا الجاحظ، بعض الامثلة التي حدثت في المجتمع العربي الاســلامي آنذاك، فيما يخص الحســد، فهو يقدم لنا رواية تبين لنا بان امرأة كانت برصــاء، وقد رميتْ اليها بجمرٍ فبرش جلدها من النار. وقال بعضــهم: بل انما قيل ذلك لها من مخافة العين عليها، كما يســمون الرجل الجميل شيطان خوفاً عليه من الحسد[3].

ومر احد الرجال الحســاد في عصــر الجاحظ "بحوضٍ من حجارة، فقال: تالله مارأيت كاليوم قط. فتطاير الحوض فلقين، فأخذه اهله فضــببوه بالحديد، فمر عليه ثانية فقال: وابيك لقلما اضررت اهلك فيك فتطاير اربع فلق"[4].

ويقول احد الحساد:" اذا رأيت الشيء يعجبني، وجدت حرارة تخرج من عيني".[5]

ومن الصــفات الاخرى لصــاحب الحرص والانانية هو الكبر، حيث انانيته تشــعره بانه احسن وافضل من الآخرين، فالكبر هو "استعظام الانسان نفسه واستحسان مافيه من الفضائل والاستهانة بالناس واستصغارهم والترفع على من يجب التواضع له. وهذا الخلق مكروه ضار لصاحبه"[6].

وان صــاحب الكبر، يؤدي به غروره الى خســارة الكثير، فليس هنالك "عظيم الكبر صــاحب حربٍ الا كان منكوباً ومهزوماً ومخدوعاً. ولايشــعر حتى يكون عدوه عنده"[1]، ومن خسائر الكبر والاعجاب "ان يسلبان الفضائل، ويكسبان الرذائل"[2].

ويرى الجاحظ ان "الكبر من اسباب القسوة. ولو كان الكبر لايعتري الا الشريف والجميل، او الجواد، او الوفي او الصديق، كان اهون لامره، واقل لشينه، وكان يعرض لاهل الخير، وكان لايغلط فيه الا اهل الفضــل، ولكنا نجده في الســفلة"[3]، لانهم يحملون الاخلاق المذمومة لا المحمودة.

وقد اوجد الجاحظ العلاقة بين الكبر والحسد، وشكل فيهما توازناً طبيعياً للحياة الانسانية لان العجب والكبر بالنفس يبعدها ولو لحين عن الحســد، "ولولا ذلك لماتوا كمداً، ولذابوا حســداً

---

(1) ينظر: الجاحظ، الرسائل، فصل مابين العداوة، جـ1، ص346.

(2) قال معاوية بن ابي سفيان: كل الناس يمكنني ان ارضيه الا الحاسد، فانه لايرضيه الا زوال نعمتي / ينظر: الاصبهاني، محاضرات الادباء، جـ1، ص253.

(3) وهي البرشاء، ام قيس بن ثعلبة / ينظر: الجاحظ، البرصان والعرجان، ص110.

(4) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص141.

(5) م.ن، جـ2، ص142.

(6) الجاحظ، تهذيب الاخلاق، ص27.

(1) الجاحظ، الرسائل، النبل والتنبيل، جـ4، ص185.

(2) الاشبيهي، المستطرف، جـ1، ص197.

(3) الجاحظ، الرسائل، النبل والتنبيل، جـ4، ص(182-181).

ولكن كل انسـان وان كان يرى انه حاسد في شـيء فهو يرى انه محسود في شـيء"[4]، ويبدو ان هذه العملية المتوازنة ولو الى حين هو ظن كاذب بالنفس[5].

ويرى ان الكبر لبعض الفئـات الاجتمـاعيـة مقبول ومرغوب لـديهم لاغراض الهيبـة والسـيطرة على الاخرين، "فالكبر من جميع الناس قبيح، ومن كل العباد مسـخوط، الا انه عند الناس من عظماء الاعراب، واشـباه الاعراب اوجد، وهو لهم اسـرع، لجفائهم"[6]، ولذلك كان خلفاء الدولة العربية الاسلامية، يحثون على مقت الكبر والابتعاد عنه[7].

ويبين لنا الجاحظ ان الكبر لايتغلغل الا في المواقع الضـعيفة من التاريخ والمجتمع، معلقاً على ذلك قائلاً: "ولو كان في الكبر خير لما كان في دهر الجاهلية اظهر منه في دهر الاسـلام، لما كان في العبد افشى منه في الحر"[8].

ونعتقد ان هذا الحكم بحاجة الى التحقق، لانه هنالك من يخلط بين اسـتخدام الذوق الرفيع في فن العلاقات العامة التي اطلق عليها تسـمية (الظرف) وبين الكبر، ولذلك قال ابن جبير على اهل بغداد في العصـور اللاحقة للجاحظ: "لاتلقى منهم الا من يتصـنع بالتواضـع رياء، ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء .. ويظهرون لمن دونهم الانفة والاباء، ويستصغرون عمن سواهم الاحاديث والانباء .. فهم لايسـتكرمون في معمور البسـيطة مثوى غير مثواهم، كأنهم لايعتقدون ان لله بلاداً او عباداً سواهم"[1]، ونرى ان هذا الوصف هو ايضاً غير محقق فيه لانه خلط بين الظرف المتقدم لاهل بغداد آنذاك، وبين الكبر، فلا يمكن اطلاق قانون عام لهذه المواصفات على الحقب التاريخية او المجتمعات وفئاتها المختلفة.

والكبر له مشاكل عديدة، ويعتبر الجاحظ أن قادة الجيش لا يصلحون للحرب إذا كان فيهم الكبر، فلقد خرجت خارجة بخراسان فقيل لقتيبة بن مسلم لو وجهت فلان بن فلان لكفاهم فقال: هو "رجل عظيم الكبر .. وفي رأسـه نعرة، وأنما أنفه في أسلوب، ومن عظم كبره أشـتد عجبه، ومن أعجب برأيه لم يشـاور كفيا، ولم يؤامر نصـيحاً، ومن تبجح بالأنفراد وفخربالأسـتبداد كان من الظفر بعيداً، ومن الخذلان قريباً"[2]، وهذه الكلمات تدل على الحنكة العقلية لرموز أمتنا في إختيار القادة وكبار رجال الدولة وهو سر نجاحهم في حروب الفتح والتحرير.

ويرى الجاحظ، بأنه هنالك بعض القبائل العربية تمتاز بالكبر، قائلاً: "والمذكورون من الناس بالكبر، ثم من قريش بنو مخزوم، وبنو أمية. ومن العرب بنو جعفر بن كلاب، وبنو زرارة بن عدس خاصة"[3].

ويرى أن بني هاشـم يمتازون بالتواضـع وعدم الكبر، "فأبطرهم ما وجدوا لأنفسـهم من الفضيلة. ولو كان في قوى عقولهم وديانتهم فضل على قوى دواعي الحمية منهم"[4].

---

(4) م.ن، حجج النبوة، جـ3، ص244.
(5) ينظر: مسكويه، تهذيب الاخلاق، ص162.
(6) الجاحظ، الرسائل، النبل والتنبيل، جـ4، ص175.
(7) قال المأمون: ماتكبر احد الا لنقص وجده في نفسه / ينظر: الاصبهاني، محاضرات الادباء، جـ1، ص260.
(8) الجاحظ، الرسائل، النبل والتنبيل، جـ4، ص182.
(1) ابن جبير، ابو الحسـين محمد بن احمد (ت 614هـ/1217م)، رحلة ابن جبير، الشـركة العالمية للكتاب، بيروت، بدون سنة، ص157.
(3) الجاحظ، الرسائل، النبل والتنبيل، جـ4، ص185.
(3) الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص70.
(4) م.ن، جـ6، ص72.

ويعد الجاحظ أن الكبر، يلحق بالأنسان حتى في مشيه، وقد نبه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، أحدهم "وهو يمشي الخيلاء بين الصفين في الحرب فقال: (أن هذه لمشية يبغضها الله)"[1].
وحذر الخليفة عمر بن الخطاب (رضـــي الله عنه) "فتى من بني المغيرة رأه يتبختر في مشيته"[2].
وعنده أن أصـــحاب الخيلاء في المشـــي ثلاثة: "بنو مخزوم، وبنو بدر، وبنو جعفر بن كلاب"[3].
ومن أعظم أنواع الحرص والأنانية، البخل، لأن صاحبه يرغب بنفسه وفي ماله وثروته، ولا يتمنى مشـــاركة الأخرين في ذلك، والبخل مرفوض في الشـــريعة الأســـلامية، قال الله تعالى: (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله)[4].
والبخل عند الجاحظ، هو "منع المسترفد مع القدرة على رفده. وهذا الخلق مكروه من جميع الناس إلا أنه من النســاء أقل كراهية، بل قد يســتحب من النســاء البخل، فأما ســائر الناس فأن البخل يشـينهم"[5]، وعند أحد الأدباء فأن "البخلاء على ضـروب فبعضـهم أقبح فعلاً من بعض فمنهم من يبخل على غيره بما هو محتاج اليه لمصـلحة نفســه، ومنهم من يبخل بما هو مسـتغن عنه، ومنهم يبخل بمال غيره"[6].
وهنالك أمثلة في المجتمع العربي الأســـلامي، لها علاقة بذم البخل، بأعتباره من الأخلاق المذمومة غير المقبولة في العادات والتقاليد العربية الأصـــيلة، ولذلك قالوا: "هو أبخل من مادر، وهو رجل من بني هلال بن عامر بلغ من بخله أنه كان يسقي أبله فبقي في أسفل الحوض ماء قليل فسلح فيه ومدر[7] الحوض به فسمي مادراً"[8].

وعنده أن بعض الأمصـار قد تتسم بالبخل، فعن أحد رجال المعتزلة، قال له: " لم أرالديك في بلدة إلا وهو لا فظ، يأخذ الحبة. بمنقاره، ثم يلفظها قدام الدجاجة، الأ ديكة مرو[1]، فأني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج مافي مناقيرها من الحبّ قال، فعلمت أن بخلهم شـيء في طبع البلاد وفي جواهر الماء، فمن ثم عم جميع حيوانهم"[2].
وإن هذه الرواية تتفق ومع تطلعاته ضد الشعوبية والذي وصفهم بالبخل، وناصر العرب وتقاليدهم العريقة ومنها الكرم والضـــيافة، وأعتبر هاتين الصـــفتين من مفاخرهم، بعكس ما ذهب إليه الشعوبيون، بينما الشريعة الإسلامية لا تقر بالبخل ولا تعظمه[3].

---

(1) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص236.
(2) م.ن، ص238.
(3) م.ن، ص(236-235).
(4) القرآن الكريم، سورة النساء، الآية 37.
(5) الجاحظ، تهذيب الاخلاق، ص29.
(6) الاصبهاني، ابو بكر محمد بن داود (ت 297هـ/909م)، الزهرة، تحقيق د. ابراهيم السامرائي، د. نوري حمودي القيسي، ط2، مكتبة المنار، الاردن، 1985، جـ2، ص618.
(7) مدر: أي أصاب جسده التراب / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ5، ص162.
(8) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص51.
(1) مرو: اشهر مدن خراسان وقصبتها / ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ5، ص112.
(2) الجاحظ، البخلاء، ص31.
(3) كان الامام ابي حنيفة النعمان (رضـــي الله عنه)، لايقبل شـــهادة البخيل، ويقول محتجاً لذلك: ان البخيل يحمله بخله، على ان يأخذ فوق حقه، مخافة ان يُغبن، ومن كان هكذا لايكون مأموناً / ينظر: النويري، نهاية الارب، جـ3، ص295.

ويضـيف بالقول في بخل أهل مرو، نقلاً عن أصـاحبه، بأن المروزي يقول للزائر إذا أتاه، وللجليس إذا طال جلوســه: "تغديت اليوم؟ فأن قال: نعم، قال: لولا أنك تغديت لغديتك بغداء طيب، وأن قال: لا، قال: لو كنت تغديت لسـقيتك خمســة أقداح، فلا يصـير في يده على الوجهين قليل ولا كثير"[4].

أن مسـألة أتهام الجاحظ بأهل خراسـان بالبخل، ليس تعصـب منه للعرب ضـد القوميات الأخرى غير العربية، أو ضد الشعوبيين، ولكنه يقول الحقيقة في ذلك، ولهذا الأمر كان (سهل بن هارون)، وهو صاحب بيت الحكمة ببغداد، "وهو فارسي الأصل شعوبي المذهب شديد العصبية على العرب وله في ذلك كتب كثيرة ورسـائل في البخل ويرغبه فيه ويسـتميحه"[5]، وبالتأكيد فأن ذلك عائد لسهل بن هارون في نصرة الشعوبية على العرب، حيث أن كتبه جاءت لتقر وتؤيد البخل وناصرة له ضد الكرم، لأن الكرم من صفات العرب.

ومن طرائف البخلاء التي يرويها لنا الجاحظ، بأن أباعيسـى كان بخيلاً، "وكان إذا وضـع الدرهم في يده نقر بأصــبعه ثم يقول: كم من مدينة قد دخلتها، ويد قد وقعت فيها الأن إســتقر بك القرار وإطمأنت بك الدار، ثم يرمي به في صندوقه فيكون أخر العهد به"[6].

ثالثـاً / الكلام المذموم

الكلام هو التعبير الذي تميز به الأنســان، عن بقية الكائنات الحية، وقد حبى الله تعالى الأنسان في هذه الفضيلة ليتمكن من التخاطب مع الأخرين، ولكن لهذا الكلام مساوئه على الأنسان إذا لم يستخدم بالصورة الصحيحة، فيصبح من ألاخلاق المذمومة.

ومن بين الأخلاق المذمومـة في الكلام هو الخرق، والخرق "هو كثرة الكلام، والتحرك من غير حاجة وشدة الضحك"[1].

ويعتقد الجاحظ بأن كثرة الكلام برفع الصـوت يورث الهزال[2]، ويرى بأن "الصـوت إذا إشتد جداً لم يفهم معناه، إن كان صاحبه أراد أن يخبرهم عن شيء. ومتى كثرت الأصوات .. منع بعضاً من الفهم. فأذا لم يفهمها"[3].

صـار في معنى الأصـم، ويعطي لنا مثالاً ليقربنا من فهم الموضـوع، بأن أحد الناس حين آذوه بنو سعد فتحول من جوارهم في آخرين فآذوه، فقال: (بكل وادٍ بنو سعدٍ)[4].

ومن آفات الكلام، الغيبة، وهي ظاهرة في الكلام المذموم، لأن صـاحبها يقع في مشـاكل أجتماعية عديدة ويصبح مذموماً بين الناس.

ويظهر الذل بوضـوح عند المغتاب، "لأنه يخفي شـخصـه .. ويغض من صـوته، ولايزيد بما يناله من ذلك إلا بأن يرفع من قدر خصمه ويعظم من شأنه"[5].

---

(4) الجاحظ، البخلاء، ص30.

(5) ابن النديم: ابو الفرج محمد بن اسحاق (ت 385هـــ/995م)، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، بدون سنة، ص174.

(6) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص53.

(1) الجاحظ، تهذيب الاخلاق، ص25.

(2) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص571.

(3) م.ن، جـ4، ص394.

(4) م.ن، ص394.

(5) الجاحظ، الرسائل، كتمان السر، جـ1، ص164.

وللغيبة دائرة عريضـــة من العناصـــر الداخلة فيها، حتى لايســلم منها "إلا القليل من الناس، وهي ذكرك الانســان بما يكره ولو بما فيه، ســواء كان في دينه أو بدنه أو نفســه أو خلقه خُلقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجته أو خادمه، أو عمامته أو ثوبه أو مشيته أو حركته أو بشاشة"(6).

وعند الجاحظ، أن الأنسان بطبعه محب لنقل الأخبار وبذلك أصبحت للغيبة دورها في هذا المجال، بينما نقل الأخبار هي حالة صـــحية لبيان "حال الماضـــين الى الباقين وعن الغائب الى الشاهد ... ونقشوا خواطرهم في الصخور، وأحتالوا لنشر كلامهم بصنوف الحيل"(1).

ويبين الجاحظ بأن التوقي من الغيبة عند العامة من الناس قليل، ويبدو لنا أن هذا عائد الى المسـتويات والشـرائح الإجتماعية المختلفة، ودور البيئة الإجتماعية في ذلك، فالغيبة أكثر إنتشـاراً عند أهل الجهل والبطالة من الناس، فتكون الغيبة ديدنهم في قضاء أوقاتهم، ثم يضيف الجاحظ بأن عبيد الله بن عبد لله بن عنبة بن مسعود كان من نبلاء المغتابين وحذاقهم حيث يقول:

مسا تـراب الأرض منـه خلقتمـا	وفيهـــا المعـــاد والمصير الى الحشـــر
ولاتعجبـا أن تؤتيـا وتعظمـــا	فما حشي الأنسان شراً من الكبر
فلوشئت أدلي فيكما غير واحد	عـــلانيـــة أو قـــال ذلك في ســـر
فأن أنـا لم آمــر ولم أنــه عنكمـا	ضحكت له حتى يلـج فيستشـــري(2)

ويبدي إسـتغرابه من الناس الذين يسـتمعون الى أحاديث أهل الغيبة ولا يردون عليهم، بل يقومون بشـــكل غير مباشـــر بتعزيز موقفهم من التمادي في الغيبة، قائلاً في ذلك: "وإنما البلية في غيبة حذاق المغتابين الذين يســـمعون، فيضـــحكون ولا يتكلمون. وأحذق منهم الذين يســـتمعون ويســكتون القائل ويدعون الله بالصـــلاح للمقول فيه، فهم قد أســكتوا القائل المغتاب ودعوا للمقول فيـه، وأوكد وأقول القـائـل: لأنـه لوحـل عنـدهم محـل البراءة ممـا قيـل لـه لجبَـه القـائـل وردع عن قوله"(3).

ويرى أن الأغلبية من الناس لها ميول للتجســـس والغيبة، على الملوك، "وعشـــق نشـــر المعايب، وإســـتحلال الغيبة، ظاهراً في طباع الناس لا يكاد ينجو منه أحد منهم إلا من رحج حلمه وعظمت مروءته، وظهر سؤدده، وإشتد ورعه، حتى قال بعضهم: (الغيبة فاكهة النساك). ورووا عن بعضهم أنه قال: (الفاسق لا غيبة له)"(4).

ويفترض من الأنسان أن لا يصيب من كلامه إلا الحسن والطيب منه، فكما نريد أن نسمع الكلام الطيب من الأخرين لنا، فكذلك الناس هم بحاجة الى ســـماع الكلام الطيب منا، وقال أحد الخطباء العلماء: "قلت لأمة سوداء بالبادية لمن أنت ياسوداء؟ فقالت: السيد الحضر يا أصلع. قال: أو لست سوداء؟ قالت: أو لست أصلع. قال: ما أغضبك من الحق. قالت: الحق أغضبك، لا تشتم حتى تُرهب، ولأن تتركه أمثل"(1).

(6) الابشيهي، المستطرف، جـ1، ص130.
(1) الجاحظ، الرسائل، كتمان السر، جـ1، ص143.
(2) ينظر: م.ن، فصل مابين العداوة، جـ1، ص355.
(3) م.ن، جـ1، ص(355-354).
(4) الجاحظ، الرسائل، كتمان السر، جـ1، ص159.
(1) الجاحظ، الرسائل، فخر السودان، جـ1، ص178.

ويعطي لنا الجاحظ رواية أخرى تبين فيها الكيفية الصـــحيحة في الكلام والحديث مع الناس، حيث "رأى بعض النســاك صـديقاً له من النســاك مهموماً، فسـأله عن حاله ذلك فقال: كان عندي يتيم أحتسـب فيه الأجر، فمات. قال: فأطلب يتيماً غيره فأن ذلك لا يعدمك إن شـاء الله. قال: أخاف أن لا أصيب يتيماً في سوء خلقه. فقال: أما أني لو كنت مكانك لم أذكر سوء خلقه"[2].

ومن أفات الأخلاق المذمومة في الكلام، الكذب وهو إظهار الكلام غير الحقيقي، ويرى الجاحظ في ذلك أن الخاصـــة من الناس لها القدرة على تمييز الكلام الصـــادق أو الكاذب من خلال التحليل والأســتنتاج، وعنده أن العامة من الناس ليس لها القدرة، وبالتالي فأنها لا تمتلك القدرة في الشـــك لمعاني الكلام، قائلاً في ذلك: "والعوام أقل شـــكوكاً من الخواص، لأنهم لا يتوقفون في التصـديق والتكذيب ولا يرتابون بأنفسـهم، فليس عندهم إلا الأقدام على التصـديق المجرد، أو على التكذيب المجرد، والغوا الحال الثالثة من حال الشك التي تشمل على طبقات الشك"[3].

وفي إحدى مؤلفات الجاحظ، يقدم لنا رأيه في الكذب، مذكرنا ببعض فوائده، ويضـــعه في الميزان بالتســـاوي مع الصـــدق، مبيناً "بأن الناس يظلمون الكذب بتناســـي مناقبه وتذكر مثالبه، ويحابون الصـــدق بتذكر منافعه وبتناســـي مضـــاره، وأنهم لو وازنوا بين مرافقهما وعدلوا بين خصالهما، لما فرقوا بينهماهذا التفريق ولما رأوهما بهذه العيون"[4].

ويردف هذا الرأي برواية تؤيد ما أذهب إليه، قائلاً: "قلت لحباب[1]: أنك لتكذب في الحديث. فقال: وما عليك إذا كان الذي أزيد فيه أحسن منه. فو الله ما ينفعك صدقه ولايضرك كذبه. وما يدور الأمر إلا على لفظ جيد ومعنى حسن"[2].

ونحن لا نذهب مع رأي الجاحظ في الموازنة بين الصـدق والكذب، فالصـدق في موضـعه أرسـخ من الكذب في موضـعه، وإذا ما فاضـلنا بينهما، لكان الصـدق بالجملة أفضـل من الكذب في جملته، ولذلك فضــل الناس الصـــدق وذهبوا إليه ومدحوه، ورفضـــوا الكذب وذموه، وأعتبروه من الأخلاق المذمومة، ومع ذلك فنراه يذم الكذب في مكان أخر من مؤلفاته قائلاً في ذلك: "وقد إبتلينا بضـــربين من الناس، ودعواهما كبيرة، أحدهما يبلغ من حبه للغرائب أن يجعل ســمعه هدفاً لتوليد الكذابين، وقلبه قراراً لغرائب الزور .. فهو يدخل الغث في الســـمين .. والصـــنف الأخر، وهو أن بعضهم يرى أن ذلك لا يكون منه عند من يسمعه يتكلم إلا من خاف التقزز من الكذب"[3].

وفي التاريخ العربي الإســـلامي، هنالك أمثلة كثيرة لرجال أمتنا المجيدة، يجهدون فيها أنفسهم لتجنب الكذب، وأن ظهور الأسلام بين العرب، هذب فيهم القيم العليا، ومنها تجنب الشرور والرذائل وعلى وجه الخصوص الكذب[4].

ومن طرائف الكذب في مؤلفات الجاحظ، ما يحدثنا عن الأصـــمعي، بأن أحدهم قال له: يا أبا سعيد أعلمت أن طول رمح رستم سبعين ذراعاً من حديد، فقال له الأصمعي: (ههنا إعرابي له له معرفة، فأذهب إليه فحدثه بهذا)، فذهبا الى الإعرابي فحدثه بذلك، فقال الإعرابي: قد ســـمعت

---

(2) الجاحظ، البيان، جـ3، ص131.

(3) الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص(37-36).

(4) الجاحظ، البخلاء، ص16.

(1) هو حُباب بن جبلة الدقاق، بغدادي، روى عن مالك بن انس، وهو ثقة، مات ببغداد سنة ثمان وعشرين ومائتين / ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ8، ص284.

(2) الجاحظ، البيان، جـ2، ص339.

(3) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص178.

(4) قيل ان بلال الحبشي لم يكذب مذ اسلم رضي الله تعالى عنه / ينظر: الابشيهي، المستطرف، جـ1، ص358.

بذلك، وأن رســتم وشــخص أخر كانا في البادية، وأتيا الى لقمان، فوجداه نائماً، ورأســه في حجر امه، فقالت لهما: ماشأنكما، فقالا: (بلغنا شدة هذا الرجل فآتيناه) فأنتبه فزعاً من كلامهما، فنفخهما، فألقاهما الى أصـــبهان، فقبرهما اليوم بها، فقال ذلك الرجل: قبحك الله ما أكذبك. قال الإعرابي يا إبن أخي ما بيننا شيئاً إلا هو دون رمح رستم، ويقصد من ذلك إستهزاء الإعرابي بالكذب، وقدرة هذا الإعرابي على الكلام وذكائه فيه[5].

وعندما يضع الجاحظ كتمان الأسرار كأحدى حسنات الأخلاق المحمودة فأنه كذلك يضع العكس منها إشـــاعة الأســـرار من قبائح الأخلاق المذمومة والتي تخص الكلام بين الناس، "لأن إشاعة الأسرار فساد في كل وجه من الوجوه من العدو والصديق"[1].

ويعتبر أن حب إشاعة الأسرار عند الأنسان هي غريزة طبيعية في سلوكه، "فعسر على الأنســان الكتمان لأيثار هذه الشـهوة، والإنقياد لهذه الطبيعة، وكانت مزاولة الجبال الراسـيات عن قواعدها أسهل من مجاذبة الطباع"[2].

وإن المقربين من الناس، هم الأكثر إحتمالاً لأفشـاء الأسـرار، كما أن عمال الدولة العربية الإسلامية لهم دور في كتمان أو أفشأ أسرار الخليفة، وبهذا فأن الجاحظ يؤكد على دور الخليفة في إختيار من يفشـي سره له، فأن هذا الإختيار من الأهمية في توجهات الدولة للأمور المختلفة، قائلاً في ذلك: "وأكثر من يذيع أســرار الناس أهلوهم وعبيدهم، وحاشـيتهم وصـبيانهم، ومن لهم عليهم اليد والسـلطان. فالسـر الذي يودعه خليفة في عامل له يلحقه زينه وشـينه ... وهذا سـبيل كل سـر يستودعه الجلة والعظماء[3].

ومن آفات الكلام الفضـــول وكثرة الســؤال والإجابة بدون ســائل لذلك، ويعلق على ذلك بالقول: "وأنت إذا تأملت أكثر ما يتناجى به المتحدثون وجدت أكثر الســائلين يســأل عما لا يعنيه، ويكترث لما لا يكرثه، ويعني بما لا ينفعه ولا يضره، وأكثر المجيبين يجيب ولم يسأل، ويتكلف ما لايعلم، ولو قال له قائل من ســألك لأفتضـــح، ولوحاجّهُ فيما أدعى ووقفه لأ نقطع"[4]، ونعتقد بأن القول الحكم في الأكثرية غير دقيق في ذلك، ثم أن عامة الناس، إذا ما تفحصــنا مجالســهم، نلاحظ بأن الحديث الدائرفيه أخذ وعطاء في الأسئلة والإستنتاج.

ويرى بـأن فضـــول النـاس لا يوقفه إلا الرد الحـازم والعنيف لهم، وتحذيرهم لمثل هذه الأفعال المذمومة، ويروي لنا رواية في ذلك حيث مر "هشام بن عبد الملك ببعض أهل .. الفضول وعليه حلية ذيالة يســحبها في التراب، فقال له المتكلف: ياهذا، أنك قد أفســدت ثوبك. قال: وما يضرك من ذلك؟ قال: ليتك ألقيته في النار. قال: وما ينفعك من ذلك؟ فأفحمه غاية الإفحام. ولو تهيأ للمتكلفين في كل وقت مثل صرامة هشام لأزدجر من به حياء منهم، ولقلت الفضول"[5].

رابعـاً / الأفعـال الشخصية المـذمومة

وردت في مؤلفات الجاحظ بعض المواضـيع في الأخلاق المـذمومـة، وهي متفرقـة وجمعناها ضـمن تسمية الأفعال الشـخصية المذمومة، وهي تكملة للمواضيع السابقة في الأخلاق المذمومة.

(5) ينظر: الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص29.
(1) الجاحظ، الرسائل، المعاش والمعاد، جـ1، ص116.
(2) م.ن، كتمان السر، جـ1، ص144.
(3) م.ن، جـ1، ص151.
(4) م.ن، جـ1، ص163.
(5) م.ن، جـ1، ص164.

والحمق صفة من الصفات المذمومة، لأنها ترمي بصاحبها الى المصاعب والمشاكل وهو في غنى عنها، وفي الامثال قيل: "هو أحمق من باقل، وكان أشترى عنزاً بأحد عشر درهماً فسئل بكم أشتريت العنز؟ ففتح كفيه وفرق أصابعه وأخرج لسانه، يريد أحد عشر درهماً فعيروه بذلك، فقال الشاعر:

يلومون في حمقه باقلاً كأن الحماقة لم تخلق"[1]

ويحذرنا من الحمق ومصاحبه الأحمق، حيث قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): "إياك ومؤاخاة الأحمق، فأنه أراد أن ينفعك فضرك"[2].

وهنالك عدة صفات للأحمق، "قال هشام بن عبد الملك يوماً في مجلسه: (يعرف حمق الرجال بخصال: بطول لحيته، وشناعة كنيته .. فأقبل رجل طويل اللحية، فقال: هذه واحدة، ثم سأله عن كنيته فإذا هي شنعاء، فقال هاتان ثنتان"[3].

وعند أهل الأدب والعلم بأن للحمقى صفات عديدة أخرى تدل على سمات أصحابها من الحمق[4].

ومن الأفعال المذمومة الأخرى العجلة والسرعة في الأمور، "لأن الكيسُ كل الكيس، والحذق كل الحذق: أن لاتعجل ولا تبطئ، وأن تعلم أن السرعة غير العجلة، وأن الأناة خلاف الإبطاء"[1]، وهنا تظهر أيضاً فلسفة الجاحظ الوسطية في الامور والأشياء التي درسها،ولاننسى في ذلك أيضاً بعض الأراء والمواقف لديه والتي تتسم بالتطرف والتعصب دون الحلول الوسطية لها. وفي ضوء ميوله نحوالأناة والأبتعاد عن السرعة والعجلة،س والتي تكون قراراتها سهلة وغير مدروسة، إلا أنها تضع لنا نتائج وخيمة على صاحبها، "لأن صاحب العجلة .. صاحب تغرير ومخاطرة، إن ظفرلم يحمده عالم، وإن لم يظفر قطعته الملاوم ... وصاحب الأناة أن ظفر نفع غيره بالغنم، ونفع نفسه بثمرة العلم، وأطاب ذكره دوام شكره، وحفظ فيه ولده، وإن حرم فمبسوط عذره، ومصوب رأيه"[2].

ومن مذمومات النفس الأنسانية، الجبن، والجبن يؤدي الى ألإنهزام، والأنهزام يؤدي الى خسارة الأشياء، ومن رويات الجاحظ في ذلك، "قيل لجبان: إنهزمت فغضب الأمير عليك، قال ليغضب الأمير وأنا حي أحب اليَّ من أن يرضى وأنا ميت"[3]، وقال الحجاج لأحدهم وقد أنشده قصيدة يصف فيها الحرب: " هل قاتلت قط؟ قال: لا أيها الأمير إلا في النوم. قال: وكيف كانت وقعتك؟ قال: أنتهبت وأنا منهزم"[4].

---

(1) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص77.
(2) الجاحظ، البيان، جـ4، ص96.
(3) م.ن، جـ4، ص(18-19).
(4) ومنها: ثقته بمن لايعرفه، والعجب، وكثرة الكلام، وسرعة الجواب، وكثرة الالتفات، والخلو من العلم، والعجلة، والخفة، والسفه، والظلم، والغفلة، والسهو، والخيلاء، ان استغنى بطر، وان افتقر قنط، وان قال لم يحسن، وان قيل له لم يفقه، وان ضحك قهقه، وان بكى صرخ / ينظر: الابشيهي، المستطرف، جـ1، ص27.
(1) الجاحظ، الرسائل، التربيع والتدوير، جـ3، ص106.
(2) م.ن، الجد والهزل، جـ1، ص(244-243).
(3) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص67.
(4) م.ن، ص67.

ووصف الجاحظ بأن من مذمومات أخلاق النساء بما أطلق عليه تسميته مشي الهلوك من النســاء، وهي التي تهالك الى الرجال فتزيف في مشـيها إذا رأتهم، ويضـيف الجاحظ على الهلوك بالقول: "وقد أخطأ من زعم أن الهلوك البغي لا محالة. وقد تكون بغياً وغير بغي"[5].

والثـأر من المـذمومـات الأخلاقيـة الأخرى، ويبـدو أن ظـاهرة الثـأر ظلـت عبر التـأريخ متغلغلة في البادية والريف أكثرمنها في المدن المتحضـــرة، ومن أنواع الثأر عندهم القتل، ويقول في ذلك بأن "الأعراب تعد القتل سقماً وداءً لا يبرئه أخذ ثأره دون أخٍ أو إبن عمٍ"[6].

(5) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص221.

(6) الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص421.

الفصل الثالث / العادات والتقاليد الإجتماعية

تناولت مؤلفات الجاحظ العديد من المواضيع الإجتماعية ومن هذه المواضيع هي العادات والتقاليد، بأعتبارها محور كبير وأساس في الدراسات الإجتماعية، وبالتالي تلقي الضوء على حقبة تاريخية في مجتمعنا العربي الأسلامي.

والناس مجبولون على التمسك بعاداتهم وتقاليدهم، فضلاً عن تقاليدهم" للأباء والكبراء"(1)، ولذلك فأن الناس في عهد الجاحظ كانوا معجبين بمآثر العرب قبل الإسلام، وعمق فيهم الأسلام تلك المآثر حيث "عظم خطر ما ملكوا، وكثرة ما جاءت به أنفسهم، ومع الإسلام الذي شملهم، وجعله الله تعالى أولى بهم من أرحامهم"(2).

وقمنا في هذا الفصل بدراسة أهم العناصر في موضوع العادات والتقاليد الأجتماعية، والتي توارثها المجتمع العربي الأسلامي، وجاءت في مؤلفات الجاحظ، مع مناقشة تلك الموضوعات، وتسهيلاً للبحث وإيضاحه، فقد قمنا بتقسيم هذا الموضع الى عدة مواضيع محددة، كما هو مبين في الآتي من دراسة هذا الفصل.

التخاطب الإجتماعي

الكلام بين الناس، هو احد المكونات الأساسية للمجتمعات، ولكل مجتمع له طريقته الخاصة في التخاطب والحديث، والكلام أفضل من الصمت، لأن "بالكلام تخبر عن الصمت وفضله، ولاتخبر بالصمت عن فضل الكلام. ولو كان الصمت أفضل لكانت الرسالة صمتاً، ولكان عدم القرآن أفضل من القرآن"(3).

وعليه ولأهمية الكلام وصناعته، فهو "علق نفيس، وجوهر ثمين، وهو الكنز الذي لا يفنى ولا يبلى، والصاحب الذي لا يمل ولا يغل، وهو العيار على كل صناعة"(4)، ولمجالس العرب وأدابها مآثر كبيرة، ومن أدواتهم في تلك المجالس لغرض وضوح كلامهم" إستخدامهم المخاصر"(5).

ويستخدم العرب فضلاً عن المخصرة، العصا، "وهما الدليل على التأهب للخطبة، والتهيؤ للأطناب والإطالة، وذلك شيء خاص في خطباء العرب، ومقصور عليهم"(1).

والمتكلم يستخدم عدة أعضاء من جسمه لأيصال الحديث الى الناس، "فالمتكلمين يشيروا بأيديهم وأعناقهم وحواجبهم. فأذا أشاروا بالعصى فكأنهم قد وصلوا بأيديهم أيدياً أخر"(2).

ومن مناقب الإشارة بأعضاء الجسم عند الأنسان في التخاطب اليومي، هو إستخدامهم لليد في السلام والتحية على الآخرين(3)، ويرى الجاحظ أن الإشارة باليد في

---

(1) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص451.
(2) م.ن، جـ2، ص108.
(3) الجاحظ، الرسائل، الجد والهزل، جـ1، ص259.
(4) م.ن، صناعة الكلام، جـ4، ص244.
(5) الجاحظ، البيان، جـ3، ص41.
(1) الجاحظ، البيان، جـ3، ص117.
(2) م.ن، جـ3، ص116.
(3) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص49.

التحية ظلت قائمة، ولكن عباراتها الكلامية تغيرت، فأن الناس "تركوا أنعم صباحاً، وأنعم ظلاماً، وصاروا يقولون: كيف أصبحتم؟ وكيف أمسيتم"[(4)].

وعنده أن أستخدام هذه الأعضاء من الجسم في التخاطب مهمة، "فالمتكلم قد يشير برأسه ويده على أقسام الكلام وتقطيعه. ففرقوا ضروب الحركات على ضروب الألفاظ وضروب المعاني. ولو قبضت يده ومنع حركة رأسه، لذهب ثلثاً كلامه. وقال عبد الملك بن مروان: لو ألقيت الخيزرانة من يدي لذهب شطر كلامي"[(5)].

كما أنه يعتبر أن الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، هي ضرورية ومهمة، لأنها تحمينا من المشاكل والمصاعب، وعلى وجه الخصوص عندما يكون الشخص لا يريد إعلان كلامه وسماعه لدى الأخرين، لأن هذه الإشارات من الجوارح "مرفق كبير ومعونة حاضرة، في أمور يسترها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس. ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتة .. وقد قال الشاعر في دلالات الإشارة:

أشـــارت بطرف العين خيفة أهلها
أشـارة مذعورٍ ولم تتكلـم
فأيقنت أن الطرف قد قال مرحباً
وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيم"[(6)].

وفي التخاطب الإجتماعي بعض المشاكل، فمن آفاته من يرى من أحسن بعض صناعة الكلام: "أنه أحسنها كلها، وكل من خاصم فيها ظن أنه فوق من خاصمه حتى يرى المبتدئ أنه كالمنتهى ويخيل الى الغبي أنه فوق الذكي"[(1)].

ومن العادات الإجتماعية للعرب في التخاطب، أنهم "يمدحون الجهير الصوت، ويذمون الضئيل الصوت، ولذلك تشادقوا في الكلام"[(2)].

وكان العرب يمدحون يالرجل الشديد الرأي القادر على المحاججة والأقناع في المخاطبة، وقالوا بحقه: "(ذلك الفحل لا يقرع أنفه)"[(3)].

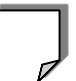
ويرى الجاحظ بأن للعرب مفاخر في التخاطب يدل على خلقهم الرفيع في ذلك، لأن الناس يغلطون، "ويزعمون أنهم قد يمدحون الثيء الذي قد يهجون به. وهذا باطل فأنه ليس شيء إلاوله وجهان.. فأذا أمدحوا ذكروا أحسن الوجهين، وإذا ذموا ذكروا أقبح الوجهين"[(4)].

ويعتبر أن أفضل الكلام والتخاطب بين الناس هو حديث الأعراب العقلاء الفصحاء، والعلماء البلغاء، وهذا عائد الى الفصاحة وشدة المحاججة عند الاعراب، والمعرفة اللغوية والكلامية عند العلماء، وهما بالطبع سر نجاحهما في ذلك، ويقول في هذا الخصوص: "انه ليس في الارض كلام هو امتع ولاآنق، ولاألذ في الاسماع، ولااشد اتصالاً بالعقول السليمة، ولاافتق اللسان، ولااجود تقويماً للبيان، من طول استماع حديث الاعراب العقلاء الفصحاء، والعلماء البلغاء"[(5)].

ولابد في التخاطب من الفصاحة في الكلام، ليكون مؤثراً على الآخرين، وللعرب الفضل في ذلك، فضلاً ان الخلفاء وكبار رجال الدولة، في الدولة العربية

---

(4) م.ن، جـ1، ص328.
(5) الجاحظ، البيان، جـ3، ص119.
(6) م.ن، جـ1، ص78.
(1) الجاحظ، الرسائل، صناعة الكلام، جـ4، ص(247-246).
(2) الجاحظ، البيان، جـ1، ص(121-120).
(3) م.ن، جـ3، ص44.
(4) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص(175-174).
(5) الجاحظ، البيان، جـ1، ص145.



الاسـلامية عبـر تاريخهـا قـد قربـوا وفضـلوا الخطبـاء والبلغـاء والشـعراء، ويعلـق الجـاحظ علـى ذلـك قـائلاً: "ولـم يـذكر الخطبـاء ولاقدمتهم الوفـود عنـد الخلفـاء الا مـاعرفوه مـن فضـل لسانهم وفضيلة بيانهم .. وللعرب من الفضل فصاحتها وحسن منطقها"[6].

ويـرى ان التخاطـب بـين النـاس، يكـون اكثـر شـدة وفعـالاً فـي المحفـل العظـيم، ويبلـغ محبتــه منهــا الا برفــع الصــوت وحركــة اليــد، وفــي هــذا الموضــوع فــان الجــاحظ يقــدم لنــا نموذجــاً عظيمــاً لقدرتــه فــي التحليــل والاســتنتاج الاجتمــاعي، معتبــراً ان هــذه الشــدة فــي التخاطـب تولـد فسـاد النيـة، وثـم عـدم ادراك الحقيقـة والتـي يجـب الوصـول اليهـا، قـائلاً فـي ذلـك: "وهـذه الحـال داعيـة الـى حـب الغلبـة. ولـيس شـيء ادعـى الـى التغلـب مـن حـب الغلبـة. وطــول رفــع الصــوت مــع التغلــب، وافســاد التغلــب طبــاع المفســد، يوجبــان فســاد النيــة، ويمنعان من درك الحقيقة. ومتى خرجا من حد الاعتدال اخطأ جهد القصد"[1].

ويبــين لنــا بأنــه هنالــك بعــض النــاس مــن لايســتخدم اعضــاء جســمه فــي المحاججــة والتخاطــب، لكنــه قــادر علــى الغلبــة والاقنــاع لــدى الآخــرون، وكــان احــدهم "اذا نــازع لــم يحـرك يديـه ولامنكبيـه، ولـم يقلـب عينيـه، ولـم يحـرك رأسـه، حتـى كـأن كلامـه انمـا يخـرج مـن صـدع صـخرة .. وكـان يقضـي علـى صـاحب الاشـارة بالافتقـار الـى ذلـك، وبـالعجز عـن بلوغ ارادته"[2].

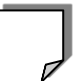
وعنـد الجـاحظ، بـأن التخاطـب والكـلام بـين النـاس لابـد ان يسـتند الـى متانـة الالفـاظ والمعـاني، ليخـرج بصـورته الصـحيحة، ويعطـي لنـا مثـالاً فـي ذلـك، حيـث قـال سـعيد بـن عثمـان بـن عفـان (رضـي الله عنهمـا)، "الطـويس المغنـي[3]: أيُنـا اسـنُ انـا ام انـت ياطـاوس؟ قـال: (بـأبي انـت وامـي، لقـد شـهدت زفـاف امـك المباركـة الـى ابيـك الطيـب"[4]، ويضـيف الجـاحظ فـي ذلـك معلقـاً: "فـانظر الـى حذقـه والـى معرفتـه بمخـارج الكـلام، كيـف لـم يقـل: زفاف امك الطيبة الى ابيك المبارك. وهكذا كان وجه الكلام فقلب المعنى"[5].

ويـرى الجـاحظ، بـأن الحفـظ فـي الكـلام لـه عـدة عوامـل مسـاعدة فـي ذلـك، ومنهـا قلـة الانشـغال فـي امـور الحيـاة، ولـذلك "فـان الاعمـى انمـا يحفـظ لقلـة خـواطره وشـواغله. وعلـى قدر الشواغل والخواطر تنبعث الهمة، وتصح الروية، وتُبعد الغاية"[6].

وان التشـوهات الخلقيــة للانســان، لاتمنعــه مــن الابــداع فــي الكــلام والفصــاحة، فقــد كلـم (علبـاء) وهـو اعـور دمـيم، عمـر بـن الخطـاب (رضـي الله عنـه)، "فلمـا رأى براعتـه وسـمع بيانـه، اقبـل عمـر يصـعد فيـه بصـره ويحـدره، فلمـا خـرج قـال عمـر: (كـل انـاس فـي جميلهم خبر"[1].

---

(6) الجاحظ، الرسائل، تفضيل النطق، جـ4، ص237.
(1) الجاحظ، الرسائل، صناعة الكلام، جـ4، ص247.
(2) الجاحظ، البيان، جـ1، ص91.
(3) طويس من مخنثي المدينة، وكان يسمى طاوساً، فلما تخنث سمي بطويس، ويكنى بأبي عبد النعيم، وهو اول من غنى في الاسلام بالمدينة، ونقر بالدف / ينظر: الثعالبي، ثمار القلوب، ص145.
(4) الجاحظ، البيان، جـ1، ص263.
(5) م.ن، جـ1، ص264.
(6) الجاحظ، الرسائل، البغال، جـ2، ص353.
(1) الجاحظ، البيان، جـ1، ص238.



وعلــى الــرغم مــاللكلام مــن فضــل كبيــر علــى الانســان باعتبــاره الاداة الرئيســة فــي التخاطــب الاجتمــاعي، الا هنالــك عــدداً مــن امــراض الكــلام ومشــاكله، ومنهــا اللجــلاج[2] والتمتام والالثغ والفأفاء، وذو الحبسة .. والرُتة[3] وذو اللف[4] والعجلة"[5].

"ويقــال فــي لســانه حبســة، اذا كــان الكــلام يثقــل عليــه ولــم يبلــغ حــد الفأفــاء والتمتــام. ويقــال فــي لســانه عُقلــة، اذا تعقــل عليــه الكــلام. ويقــال فــي لســانه لكنــة، اذا ادخــل بعــض حروف العجم في حروف العرب"[6].

وقـد تحـدث احـد المقـربين مـن الجـاحظ، بأنـه وفـي احـدى الظـروف الصـعبة ادمنـه الفكـر وامسـك عـن القـول فأصـابه حبسـة فـي لسـانه، ويعلـق الجـاحظ علـى ذلـك بـالقول: لان اللسـان يحتـاج الـى التمـرين علـى القـول حتـى يخـف لـه، كمـا يحتـاج اليـد الـى التمـرين علـى العمل، والرجل الى التمرين على المشي[7].

ويـرى كـذلك بـان الـتكلم والتخاطـب مـع شـعوب اخـرى، وبلغـات اخـرى تـؤدي الـى الاصـابة بمشـاكل اللسـان والكـلام، خصوصـاً عنـد تعلـم اللغـات الاخـرى فـي الكبـر ولـيس فـي الصـغر، فـان السـندي اذا جُلـب كبيـراً الـى مـوطن العـرب، "لايسـتطيع الا ان يجعـل الجـيم زاياً ولو اقام في عليا تميم، وفي سفلى قيس، وبين عجز هوازن، خمسون عاماً"[8].

واللثغـة مـن امـراض الكـلام المعروفـة، وتسـبب عرقلـة ومشـاكل وصـعوبة للمـتكلم فـي نطـق احـد الحـروف الاربعـة: "القـاف، السـين، الـلام، الـراء. فاللثغـة التـي تعـرض للسـين تكــون ثــاء .. كمــا يقولــون .. بــثم الله، اذا ارادوا .. بســم الله. والثانيــة اللثغــة التــي تعــرض للقـاف، فـان صـاحبها يجعـل القـاف طـاءً، فـاذا اراد ان يقـول: قلـت لـه، قـال: طلـت لـه .. وامـا اللثغـة التـي تقـع فـي الـلام فـان مـن اهلهـا مـن يجعـل الـلام يـاء فيقـول بـدل قولـه: اعتللـت: اعتييت .. واما اللثغة التي تقع في الراء فان عددها يضعف على عدد لثغة اللام"[1].

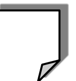
واللثغـة فـي الـراء فـي اربعـة مواضـع، فمنهـا مـن يجعـل الـراء يـاءً، او يجعـل الـراء غيناً، او الراء ذالاً، ومنهم من يجعل الراء غيناً معجمة"[2].

ويـروي لنـا الجـاحظ طريفـة عنـد احـد الرجـال وهـو يتهـرب فـي الكـلام مـن ذكـر الـراء صـراحة لانـه مصـاب باللثغـة فـي الـراء، "فـاذا اراد ان يـذكر البـر قـال: القمـح او الحنطـة. والحنطـة لغـة كوفيـة والقمـح لغـة شـامية. هـذا وهـو يعلـم ان لغـة مـن قـال بـر، افصـح من لغة من قال قمح او حنطة"[3].

وبـالرغم مـن المشـاكل التـي تسـببها اللثغـة لـبعض النـاس، الا انـه هنالـك مـنهم لـه القـدرة علـى التعامـل الايجـابي مـع هـذه المشـكلة، ويقـدم لنـا مـثلاً فـي ذلـك وهـو (واصـل بـن عطـاء)، وهـو احـد كبـار رجـال المعتزلـة فـي عصـره وكـان الثـغ بـل وفـاحش اللثـغ حسـب تعبيـر الجـاحظ، وبـالرغم مـن ذلـك فانـه "يريـد الاحتجـاج علـى اربـاب النحـل وزعمـاء الملـل، ولابـد لـه مـن مقارعـة الابطـال، ومـن الخطـب الطـوال، وان البيـان يحتـاج الـى تمييـز

---

(2) لجلج: التردد في الكلام / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ2، ص355.
(3) الرتة: عجلة في الكلام / ينظر: م.ن، جـ2، ص33.
(4) اللف: الرجل الثقيل اللسان / ينظر: م.ن، جـ9، ص319.
(5) الجاحظ، البيان، جـ1، ص12.
(6) م.ن، جـ1، ص(40-39).
(7) ينظر: المبرد، الكامل، نقلاً عن الجاحظ، جـ1، ص370.
(8) الجاحظ، البيان، جـ1، ص70.
(1) الجاحظ، البيان، جـ1، ص(35-34).
(2) ينظر: م.ن، جـ1، ص35.
(3) م.ن، جـ1، ص17.



وسياسة، والى ترتيب ورياضة .. ومن اجل الحاجة الى حسن البيان، واعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة ـ رام .. اسقاط الراء من كلامه، واخراجها من حروف منطقه، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه .. حتى انتظم له ماحاول، واتسق له ما أمل"[4].

وتطالعنا كتب التراث والادب العربي عن حالات، استخدم فيها المعلمون والمؤدبون طرقاً تدريسية لتلامذتهم، تمكنوا من خلالها القضاء على اللثغة[5].

ويبين لنا الجاحظ بان لسقوط الاسنان دور كبير في اضطراب النطق، ومن ثم عدم القدرة على التخاطب السليم بين الناس، وعنده ان سقوط الاسنان كلها اكثر سلامة في النطق من سقوط البعض منها، او احد شطريها، مبيناً بأنه شاهد الناس بعد "ان سقطت جميع اسنانهم، وبعد ان بقى منها الثلث او الربع. فمن سقطت جميع اسنانه وكان معنى كلامه مفهوماً"[1]، عند الناس.

ومن اشد المصاعب والمشاكل في الكلام، هو اللحن فيه، وكان خلفاء[2] الدولة العربية الاسلامية في غاية الانزعاج من الناس الذين يلحنون في كلامهم، وقد "اختصم رجلان الى عمر بن عبد العزيز فجعلا يلحنان: فقال الحاجب: قمنا فقد اوذيتما امير المؤمنين، فقال عمر للحاجب: (انت والله اشد اذاء منهما)"[3].

ويرى الجاحظ بان اهل المدينة وبالرغم من السنتهم الذلقة، والفاظهم الحسنة، وعباراتهم الجيدة، الا ان "اللحن في عوامهم فاشٍ"[4].

ومن اخطر امراض الكلام، هو الخرس، وهذا يعني الانقطاع الكامل عن الكلام وعدم القدرة عليه، وبذلك فهو فقدان لاهم المحاور الرئيسة في التحاطب الاجتماعي، والاخرس "هو من لايسمع ولايتبين الاصوات التي تخرج من فيه، على معناه"[5].

ومع ذلك فأن الكثير من هؤلاء الخرسان لهم القدرة على التكيف بعيداً عن الكلام، " فالأخرس يرى الناس يصفقون بأيديهم، عند دعاء أنسان، أو عند الغضب والحد، فيعرف صورة تلك الحركة، لطول ترددها لى عينيه، كما يعرف سائر الإشارات. وإذا تعجب ضرب بيديه كما يضربون"[6].

الحيـاة العـائلية

من اهم النشاطات الاجتماعية في المجتمع، هي العائلة، لانها تمثل المجتمع الاصغر، ومن العائلة تنطلق الكثير من العادات والتقاليد الاجتماعية، ولذلك فان دراسة هذه العادات والتقاليد في العائلة، فيها من الاهمية لدراستها وتسليط الضوء عليها.

---

(4) م.ن، جـ1، ص(14-15).
(5) ينظر: التنوحي، النشوار، جـ6، ص262.
(1) الجاحظ، البيان، جـ1، ص61.
(2) قال عبد الملك بن مروان: اللحن في الكلام اقبح من التفتيق في الثوب، والجدري في الوجه، وقيل له عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين، قال: شيبتني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن / ينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ2، ص(308، 357).
(3) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص8.
(4) الجاحظ، البيان، جـ1، ص146.
(5) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص407.
(6) م.ن، جـ4، ص401.

وتسهيلاً، وايضاحاً لهذا الموضوع، قمنا ببحثه وضمن المواضيع المتعلقة بدراسة الحياة العائلية ومفرداتها في مؤلفات الجاحظ.

البيوت:

البيت هو موطن العائلة، وفيه تدور احداثهم وذكرياتهم ونشاطهم، والعائلة تعتز ببيتها ايما اعتزاز وتدافع عنه وتبجله، وصاحب المنزل اذا هجر منزله واختار غيره، فانه حتى الحيوانات الاليفة في بيته لاتتبعه[1]، وهذا دليل على حب التعلق بالبيوت.

والبيوت تختلف تبعاً لموقعها الاجتماعي، "فبيوت الاعراب انما تعمل من الصوف والوبر"[2].

وان توفر المواد الاولية في بناء البيوت، لها الدور الرئيس في بيان الملامح العامة لها، وكذلك كلفتها المالية، وفي هذا الصدد فان الجاحظ يبين ان بيوت البصرة، لاتكلف مبالغ باهضة مقارنة بباقي المدن الاخرى، وذلك لتوفر المواد الاولية للبناء، "فلو ان رجلاً ابتنى داراً يتممها ويكملها ببغداد، او بالكوفة .. فبلغت نفقتها مائة الف درهم، فان البصري اذا بنى مثلها بالبصرة لم ينفق خمسين الفاً، لان الدار انما يتم بناؤها بالطين واللبن، وبالآجر والجص، والاجذاع والساج والخشب، والحديد والصناع، وكل هذا يمكن بالبصرة على الشطر مما يمكن في غيرها"[3].

وعنده، ان اهل الكوفة اذا اراد "احدهم ان يبني داراً فيجيء الى مزبلة، فيضرب منها لبناً، فان كانت داره مطمئنة ذات قعر حشا من تلك المزبلة"[1]، ثم انهم يبنون تنانيرهم في بيوتهم، "ويسجرون تنانيرهم بالكساحات[2] التي فيها من كل شيء"[3].

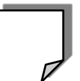
ويبدو لنا ان وصف الجاحظ لبيوت الكوفة، فيه نوع من المبالغة، وعلى الرغم من انه يضع عليها صفة التعميم لاالتخصيص، اذا ماعلمنا ان الكوفة من المدن العربية الاسلامية المعروفة ببيوتها ودروبها، كما انه يبين في موضع آخر ان بناء البيوت في البصرة اقل تكلفة من بناء البيوت في المدن الاخرى.

ومن اجل اضاءة البيوت، فتوضع فيها القناديل، وهذه القناديل مصنوعة من الزجاج، وفضلوا الزجاج في ذلك لانه "احفظ من غيره، والزجاج لايعرف الرشح ولاالنشف، ولايقبل الاوساخ التي لاتزول الا بالدلك الشديد او باحراق النار .. واذا وقع شعاع النار على جوهر الزجاج، صار المصباح والقنديل مصباحاً واحداً"[4].

ويبين لنا الجاحظ، بان اهل البحر بالبصرة تكون بيوتهم اكثر عرضة للصواعق، ولذلك "فلا يدعون في صحون دورهم واعالي سطوحهم شيئاً من الصفر الا رفعوه"[5]، وذلك تجنباً لحدوث الاتصال بين الصاعقة والصفر الذي يؤدي الى الاضرار الكبيرة.

---

(1) ينظر: الجاحظ، الرسائل، الاوطان والبلدان، جـ4، ص113.
(2) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص461.
(3) الجاحظ، الرسائل، الاوطان والبلدان، جـ4، ص(145-144).
(1) الجاحظ، الرسائل، الاوطان والبلدان، جـ4، ص143.
(2) الكساحة: ما كسح من التراب فالقي بعضه على بعض / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ2، ص571.
(3) الجاحظ، الرسائل، الاوطان والبلدان، جـ4، ص143.
(4) الجاحظ، البخلاء، ص(36-35).
(5) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص316.



وضــمن دائـرة اهتمــام الجــاحظ بالحيوانــات، فانــه يعطــي لنــا صــورة واضــحة عــن الحيوانـات التـي تتواجـد فـي البيـوت، ومنهـا النـافع والـذي يكـون تحـت رعايـة صـاحب البيـت، ومنها الضار التي تسبب المصاعب والهلاك لاهل البيت.

ومــن الحيوانــات التــي تتعــاون مــع صــاحب البيــت فــي حراســته والــدفاع عنــه هــو الكلـب، وهـو يتنقـل علـى "الحيطـان والسـطوح فـي ظلمـة الليـل لحراسـة منـزل صـاحبه، .. ويبلـغ مـن محبتـه لصـاحبه ان يبـذل نفسـه للمـوت دون ماشـيته ومالـه ويألفـه غايـة الالـف حتـى يصـبر معـه علـى الجـوع والعطـش"[1]، وكـذلك تسـتخدم للـدفاع عـن المواشـي عنـد الرعـاع، "والا فانها نهب للذئاب ولغير الذئاب"[2].

ثــم ان للكلــب خصــائص متعــددة، فربمــا "غــاب صــاحب الــدار حــولاً .. فــاذا ابصــره قادماً اعتراه من الفرح .. والعواء الذي يدل على السرور، وعلى شدة الحنين"[3].

وبـذلك فـان عصـر الجـاحظ، عـرف "بـان اكثـر اهـل البيـت عيـالاً علـى كـل كلـب"[4]، وقـد اسـتخدم كبـار التجـار كـلاب عديـدة مـن اجـل حراسـتهم لـيلاً، خوفـاً علـيهم مـن السـرقة والاعتداء[5].

وقـد اسـتعملوا كـلاب الزينـة فـي البيـوت، ومنـه الكلـب الصـيني، ويُسـرج علـى رأسـه سـاعات كثيـرة مـن الليـل فـلا يتحـرك، ويصـف لنـا الجـاحظ احـد هـذه الكـلاب بانـه "يدعونـه باسـمه ويرمـى اليـه ببضـعة لحـم والمسـرجة علـى رأسـه، فـلا يميـل ولا يتحـرك، حتـى يكـون القوم هم الذين يأخذون المصباح من رأسه، فاذا زايل رأسه وثب على اللحم فأكله"[6].

ويتخـذون النعامــة فــي البيــوت، ولكــن ضــررها شــديد، لانهــا ربمــا رأت فــي "اذن الجارية او الصبية قُرطاً فيه حجر، او حبة لؤلؤ، فتخطفه لتأكله. فكم اذنٍ قد خرقتها"[7].

وعملــوا علــى انشــاء البــرك واحــواض الســمك، وزعمــوا أن زبيــدة زوجــة الخليفــة هارون الرشيد كانت لها بركة ماء كبيرة، فيها عدداً كثيراً من سمك البني[8].

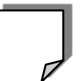
وكـذلك دجنـوا الحمـام وعمـل الـبعض مـنهم رفوفـاً فـي غـرف الحمـام "ليكـون مسـقطاً لما يدخل ويخرج منه"[9].

ودجنـوا الـدجاج، واعتنـوا بـه، والـبعض كـان يـرفض اتخـاذ الـدجاج فـي البيـوت لكـي لايكونوا اهل قرية[1].

امــا فــي تربيــة الــديك، فانــه "لايتــوقى ثــور رب الــدار ولافراشــه ولابســاطه. هــذا وحياته التراب، ولذا يدفن نفسه فيه ويدخله في اصول ريشه"[2].

والعصــافير مــن اكثــر الحيوانــات شــيوعاً فــي البيــوت، وانهــا "لاتقــيم فــي دار الا وهـي مسـكونة، فـان هجرهـا النـاس لـم تقـم فيهـا"[3]، وان "وجـدت داراً مبنيـةً لـم تسـكنها حتـى

(1) الجاحظ، الدلائل والاعتبار، ص29.
(2) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص178.
(3) م.ن، جـ2، ص128.
(4) م.ن، جـ2، ص178.
(5) ينظر: غرس النعمة، ابو الحسن محمد بن هلال الصابئ (ت 480هــ/1087م)، الهفوات النادرة، تحقيق د. صباح الاشتر، دمشق، 1967، ص53.
(6) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص179.
(7) م.ن، جـ4، ص334.
(8) ينظر: م.ن، جـ1، ص149.
(9) م.ن، جـ2، ص(157-156).
(1) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص296.
(2) م.ن، جـ2، ص264.
(3) م.ن، جـ2، ص262.



يسكنها انسان. ومتى سكنتها لم تقم فيها اذا خرج منها ذلك الانسان. فبفراقه تفارق، وبسكناه تسكن"[4].

وكانت سقوف البيوت اغلبها من الخشب، وبذلك فان "العصافير تخرب السقف تخريباً فاحشاً. وتجتلب الحيات الى منازل الناس، لحرص الحيات على ابتلاع العصافير وافراخها وبيضها"[5].

ومن آفات البيوت حشرة الارضة، وربما "افسدت الارضة على اهل القرى منازلهم، واكلت كل شيء لهم"[6].

ومن الافات الاخرى الحشرات والنمل، واستخدموا في الفتك بالنمل طريقة مفادها، بان "يصب في افواه بيوتها القطران والكبريت الاصفر، ويدس في افواهها الشعر"[7]، ولكن الجاحظ علق على ذلك قائلاً: "وقد جربنا ذلك فوجدناه باطلاً"[8].

المرأة:

المراة هي احدى المقومات الرئيسة للمجتمع، فهي الام والاخت والزوجة والبنت، ولها دور كبير في حياة الرجل لبناء العائلة.

ونرى بان الجاحظ يذهب الى مناصرة المرأة، فعلى الرغم من الامتيازات التي يتمتع بها الرجل الا ان الجاحظ يعلق على ذلك قائلاً: "فليس ينبغي لنا ان نقصر في حقوق المرأة. وليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء ان يصغر حقوق الامهات"[1].

وفي الوقت نفسه، فان للمرأة حالات هي ارفع من الرجل ، "لانها التي تُخطب وتُراد، وتعشق وتُطلب، وهي التي تُفدى وتُحمى"[2].

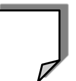
وقد كتب الجاحظ رسالة في النساء، من اجل مناصرتها، مبيناً بالقول "وان من العجز ان يكون الرجل لايستطيع توفير حقوق الآباء والاعمام الا بأن ينكر حقوق الامهات والاخوال، فلذلك ذكرنا جملةً ما للنساء من المحاسن"[3].

ويبدو لنا ان ظهور النساء على المسرح السياسي في عصر الجاحظ، كان له الدور الكبير في تهيئة الظروف المناسبة لمناصرتها، حتى وصل الامر في العصور العباسية ان "تجلس المرأة للمظالم ويحضرها القضاة والفقهاء والوزراء"[4].

ويرى الجاحظ ان المجتمع العربي، قد اعتاد على تقاليد لايشوبها سوء النية، فقبل ظهور الاسلام، لم يكن "بين رجال العرب ونسائها حجاب، ولاكانوا يرضون مع

---

(4) م.ن، جـ5، ص203.
(5) م.ن، جـ5، ص222.
(6) م.ن، جـ4، ص34.
(7) م.ن، جـ4، ص36.
(8) م.ن، جـ4، ص36.
(1) الجاحظ، الرسائل، النساء، جـ3، ص157.
(2) م.ن، جـ3، ص157.
(3) م.ن، جـ3، ص152.
(4) مؤلف مجهول، اخبار الزمان في تاريخ بني العباس، مخطوطة مصورة تحت رقم (1348) في المجمع العلمي العراقي، ورقة رقم (138).



سقوط الحجاب بنظرة الفلتة ولالحظة الخُلسة .. وكل ذلك بأعين الاولياء وحضور الازواج، لاينكرون ماليس بمنكر، اذا امنوا المنكر"[5]، "ولم يزل الرجال يتحدثون مع النساء، في الجاهلية والاسلام، حتى ضُرب الحجاب على ازواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة"[6].

ونرى بانه ليس هنالك تناقض في حقوق المرأة في المجتمع العربي قبل الاسلام، وبعد ظهوره، الا ان العادات والتقاليد شيء، والاحكام الشرعية الاسلامية شيء آخر، فالمشرع الاسلامي اعطى حقوق المرأة كاملة، بل وفي بعض الاحيان، افضل مما كان قبل الاسلام، والزم عليها واجبات تتماشى مع الشريعة الاسلامية، ولذلك فان الجاحظ يؤكد على ذلك ايضاً بالقول: "ثم كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث، ولم يكن النظر من بعضهم الى بعض عاراً في الجاهلية، ولاحراماً في الاسلام"[1].

ويبين لنا بان للنساء تأثير كبير على الرجال، فان" الرجل يستحلف بالله الذي لاشيء اعظم منه، وبالمشي الى بيت الله، وبصدقة ماله .. فيسهل ذلك عليه، ولايأنف منه. فان استحلف بطلاق امرأته تربد وجهه، وطار الغضب في دماغه، ويمتنع ويعص، ويغضب ويأبى .. ليس ذلك الا لما قد عظم الله من شأن الزوجات في صدور الازواج"[2].

ومن عادات المرأة، بانها "اذا ضعفت عن كل شيء فزعت الى الصراخ والولولة، التماساً للرحمة، واستحلاباً للغياث من حماتها وكفاتها"[3].

والمعروف من بين النساء من تتصف بالحزم والشدة، وهم "اذا رأوا المرأة حديدة الطرف والذهن، سريعة الحركة .. قالوا سعلاة"[4].

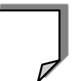
وتبين لنا مؤلفات الجاحظ، القدرة العالية للنساء في التدبير المنزلي والعائلي، حيث قامت ام يتزويج ابنتها، وتقيم عرساً مهيباً، وسألها زوجها عن عائدية هذه الاموال التي تمكنت منها من تزويج ابنتها بهذه الطريقة الجيدة، فقالت: "اعلم اني منذ يوم ولدتها الى ان زوجتها كنت ارفع من دقيق كل عجنة حفنةً، وكنا، كما قد علمت، نخبز في كل يوم مرة، فاذا اجتمع من ذلك .. بعته. قال زوجها: ثبت الله رأيك وارشدك"[5].

وقالوا في اوصاف المرأة، "ضخم الرأس في المرأة احمد"[1]، واذا مشت المرأة وكانت سمينة بمشي القطاة في تقارب الخطو والسكينة والوقار[2].

وقال الجاحظ، "زعموا ان المرأة اذا كانت صافية اللون رقيقة يضرب لونها بالغداة الى البياض وبالعشى الى الصفرة"[3].

---

(5) الجاحظ، الرسائل، كتاب القيان، جـ2، ص148.
(6) م.ن، جـ2، ص149.
(1) الجاحظ، الرسائل، كتاب القيان، جـ2، ص149.
(2) م.ن، النساء، جـ3، ص147.
(3) الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص379.
(4) م.ن، جـ6، ص(161-160).
(5) الجاحظ، البخلاء، ص49.
(1) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص524.
(2) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص576.
(3) المرتضى، امالي المرتضى، نقلاً عن الجاحظ، جـ2، ص141.



الخطبـة والزواج:

الخطبـة والـزواج همـا الرابطـة المقدسـة فـي العائلـة فـي جميـع المجتمعـات، وفيهمـا عادات وتقاليد خاصة في ذلك.

ومن عادات خطبة النكاح، "ان يطيل الخاطب ويقصر المجيب"[(4)].

وكـان اهـل قـريش عنـدما يخطبـون النسـاء قبـل الاسـلام يقولـون: "باسـمك اللهـم، ذُكـرتْ فلانـة وفـلان بهـا مشـغوف. باسـمك اللهـم، لـك ماسـألت ولنـا اعطيـت"[(5)]، وكـانوا يخطبـون المـرأة الـى ابيهـا او اخيهـا او عمهـا .. وكـانوا يخطبـون الكفـئ الـى الكفـئ. فـان كـان احدهما اكفئ من الآخر في الحسب، ارغب له المهر[(6)].

وفـي الاسـلام، لـم تكـن الخطبـاء تخطـب قعـوداً الا فـي خطبـة النكـاح، وعـن ابـي مخنـف[(7)]، قـال: "والله لقـد رأيـت عليـاً وانـه ليخطـب قاعـداً كقـائم، ومحاربـاً كمسـالم. يريـد بقوله قاعداً خطبة النكاح"[(8)].

وكـان الخليفـة عمـر بـن الخطـاب (رضـي الله عنـه)، يقـول: مايتصـعدني كـلام كمـا تتصـعدني خطبـة النكـاح)، وفـي خطبـة النكـاح تقتـرب الوجـوه مـن الوجـوه، ونظـر الحـداق مـن قـرب فـي أجـواف الحـداق. ولأنـه إذا كـان جالسـاً معهـم كـانوا كـأنهم نظـراء وأكفـاء، فـأذا علا المنبر صاروا سوقةً ورعيةً، عكس ما في خطبة النكاح[(9)].

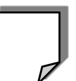
ويبـين لنـا الجـاحظ بأنـه مـن أراد خطبـة المـرأة، فـلا بـد لـه أن يقـدم معلومـات وافيـة وصـحيحة، والـبعض مـن الرجـال يقـدم معلومـات غيـر صـحيحة الـى المـرأة وذلـك لغـرض التضـليل عـن الحقيقـة وقبولهـا للخطبـة، وهنالـك مـن أراد الـزواج، فقـال أهلـه: "(هـو يبيـع الـدواب)، فلمـا نظـروا فـي امـره وجـدوه يبيـع السـنانير. فلمـا سـئل عـن ذلـك قـال: مـا كـذبت، لأن السـنور دابـة"[(1)]، وهنالـك إمـرأة رفضـت الـزواج مـن رجـل، فسـألت عـن سـبب رفضـها، فقالت: "هو أحمق له برذونان .. فيحتمل مؤونة أثنين وهما عند الناس واحد"[(2)].

وهنالـك مـن الأبـاء، يشـترط فـي زواج إبنتـه، أن يكـون الرجـل لـه معرفـة بـالقرآن الكـريم ولايطلـب غيـر ذلـك، ودخـل علـى الوليـد بـن عبد الملك فتـى مـن بنـي مخـزوم فقـال لـه زوجنـي ابنتـك، فقـال لـه هـل قـرأت القـرآن؟ قـال: لا. قـال: ادنـوه منـي. فـأدنوه فضـرب عمامتـه بقضـيب كـان فـي يـده، وقـرع رأسـه بـه قرعـات، ثـم قـال لرجـل: ضـمه اليـه فـاذا قـرأ القرآن زوجناه"[(3)].

واذا ارادوا الـزواج لولـدهم، اختـاروا صـفات معينـة للفتـاة التـي يطلبونهـا، فعنـدما اراد الحجـاج تـزويج ابنـه، طلـب فتـاة ان تكـون "امـرأة جميلـة مـن بعيـد، مليحـة مـن قريب،شريفة في قومها، ذليلةً في نفسها، أمةً لبعلها"[(4)].

---

(4) الجاحظ، البيان، جـ1، ص116.
(5) م.ن، جـ1، ص408.
(6) ينظر: ابن حبيب، المحبر، ص310.
(7) لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الازدي وكان مخنف بن سليم من اصحاب علي (رضي الله عنه)، وله معرفة باخبار العراق وفتوحاته / ينظر: ابن النديم، الفهرست، ص(137-136).
(8) الجاحظ، البيان، جـ1، ص118.
(9) ينظر: م.ن، جـ1، ص117.
(1) الجاحظ، البيان، جـ1، ص338.
(2) م.ن، جـ4، ص7.
(3) م.ن، جـ2، ص203.
(4) م.ن، جـ4، ص8.



وكـان احـدهم متـزوج مـن امـرأة عسـراء، فلمـا ماتـت جعـل يخطـب، "فكـان يـدل علـى مـا يسـأل النـاس عـن جمالهـا ومالهـا وعفافهـا وحسـبها، وهـو يسـأل فيقـول: خبرونـي عنهـا، عسـراء هـي؟ وخبرونـي عـن امهـا .. فكـانوا يضـحكون منـه، ويعتـذر الـيهم بمـا ابتلـي بـه فـي جميع ولده"[5].

وهنالـك مـن يـرى بـأن الزوجـة الصـالحة هـو مـن "رزقـه الله زوجـة مسـلمة امينـة عفيفـة حسـنة لطيفـة نظيفـة مطيعـة، ان ائتمنهـا زوجهـا وجـدها امينـة، وان قتـر عليهـا وجـدها قانعـة، وان غـاب عنهـا كانـت لـه حافظـة .. قـد سـتر حلمهـا، وزيـن دينهـا عقلهـا .. ان ايسـرت شكرت، وان عسرت صبرت"[6].

وكـان العـرب قبـل الاسـلام، يـدفعون الـى المـرأة صـداقها، وكـان صـداقها آنـذاك "أبلاً، وتلك الابل يقال لها النافجة"[1].

ويقـدم لنـا الجـاحظ حـال العـروس قبـل الاسـلام، فمـن عـاداتهم بـانهم كـانوا يضـربون علـى العـروس البنـاء، كالقبـة والخيمـة والخيـام، علـى قـدر الامكـان، فيقـال بنـى عليهـا، اشـتقاقاً مـن البنـاء .. والعـروس امـا ان تكـون مقيمـةٍ فـي مكانهـا او تتحـول الـى مكـان اقـدم مـن بنائها[2].

وكانـت ام العروسـة تقـوم بـالكثير مـن اجـراءات العـرس، ويـروي لنـا الجـاحظ بـان امـرأة زوجـت ابنتهـا، وهـي بنـت اثنتـي عشـرة سـنة، فحلتهـا الـذهب والفضـة وكسـتها بالثيـاب المروزيـة والحريـر المنقـوش وعلقـت المعصـفر، ودقـت الطيـب[3]، وذلـك لكـي تعظـم أمرهـا عند زوجها.

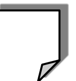
ويـرى أن المـرأة أذا أهـديت الـى زوجهـا،" تتفقـد مـن وجههـا وهيئتهـا مـالا تتفقـده وهي في قومها وأقاربها"[4].

ويتطـرق الـى موضـوع لـه علاقـة بالخطبـة والـزواج، حيـث بـين السـلفيون فـي الأسـلام بـأن النظـرة الأولـى الـى المـرأة والنظـرة الثانيـة حـرام، لأنـه لا تكـون محادثـة إلا ومعهـا مـا لايحصـى عـدده مـن النظـر، ويعلـق الجـاحظ علـى ذلـك قـائلاً: "إلا أن يكـون عنـي بـالنظرة المحرمـة النظـر الـى الشـعر والجسـد، مـا تخفيـه الجلابيـب ممـا يحـل للـزوج والـولي ويحرم غيرهما"[4].

ثـم يتطـرق الـى نسـاء بيـت الخلافـة مبينـاً بـأنهم "الـى اليـوم مـن بنـات الخلفـاء وأمهـاتهن، فمـن دونهـن يطفـن بالبيـت مكشـفات الوجـوه، ونحـو ذلـك لا يكمـل حـج إلا به"[5].

والغايــة مــن كــلام الجــاحظ هــذا، التأكيـد علــى ضــرورة أن يــرى الرجــل وجــه العروسـة أثنـاء الخطبـة قبـل الـزواج، لكـي يتحقـق الـزواج النـاجح فيمـا بعـد، ومبينـاً بـأن وجـه

[5] الجاحظ، البرصان والعرجان، ص596.
[6] الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص141.
[1] الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص(334-333).
[2] م.ن، جـ1، ص334.
[3] ينظر: الجاحظ، البخلاء، ص49.
[3] الجاحظ، الرسائل، رسالة في الحنين، جـ2، ص392.
[4] م.ن، القيان، جـ2، ص154.
[5] م.ن، جـ2، ص149.



المرأة ليس بمحرم أمام أعين الأخرين، خاصة إذا كان ذلك النظر بدون ريبة لكي لايدخل في التحريم.

ودليلة في ذلك بأن أكثر الأماء أحظى عند الرجال من الزوجات الحرائر، مفسراً ذلك، "بأن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شيء منها وعرفه .. فأقدم على إبتياعها بعد وقوعها بالموافقة. والحرة أنما يستشار في جمالها النساء، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال .. وأنما تعرف المرأة من المرأة ظاهرة الصفة، واما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فأنها لا تعرف ذلك"[1].

ويظهر من هذا الأستنتاج الذي قدمه لنا الجاحظ، قدرته وكفاءته العالية في رصد أحوال المجتمع، وإيجاد الصيغ والحلول الصحيحة، فأستنتاجه مبني على أسس نفسية وتربوية لابد من الأخذ بها، كما أن هذا الأستنتاج هو المتماشي ومع الشريعة الإسلامية السمحاء.

ويتطرق الى ظاهرة إجتماعية في الحياة الزوجية، قد إختفت في عصره، وهي أن الناس "كانوا لا يرون بأساً أن تنتقل المرأة الى عدة أزواج لا ينقلها عن ذلك إلا الموت مادام الرجال يريدونها. وهم اليوم يكرهون هذا ويستسمجونه في بعض، ويعافون المرأة الحرة، إذا كانت قد نكحت زوجاً واحداً، ويلزمون من خطبها العار ويلحقون به اللوم، ويعيرونها بذلك"[2].

أما الزواج من السبيات، فانه يرى بأن لكل مدينة ميول للزواج من نساء مدن معروفة أخرى، فأهل البصرة يرغبون بالهنديات، واليمن بالحبشيات، وأهل الشام بالروميات[3].

ويقدم لنا الجاحظ، نوع من أنواع الزواج والذي كان معروفاً في عصره، وهو الزواج النهاري، ويخبرنا بأن أحدهم تعشق جارية يقال لها سندرة، ثم تزوجها نهارية"[4].

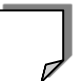
وأحدهم تزوج زواجاً نهارياً، فقالت زوجته الى أخر لترسله الى السوق: "أني قد تزوجت زوجاً نهارياً والساعة وقته ولست على هيئته فأشترلي بهذا الرغيف آساً وبهذا الفلس دهناً فأنك تؤجر فعسى الله أن يلقي محبتي في قلبه"[1].

ونعتقد أن الزواج النهاري، هو زواج شرعي تتوفر فيه الشروط المطلوبة في الشريعة الإسلامية، وأنما أصبح نهارياً، أما لمشاغل الرجل في العمل ليلاً، وأما ان يكون الرجل متزوج بزوجة أخرى ولا يريد مفارقتها ليلاً، أو أنه متزوج نهارياً لكي لا تعلم بذلك زوجته الأولى.

الولادة:

من نتائج الزواج، هو تكوين العائلة، والحصول على الأولاد، لكي تستمر مسيرة الحياة.

(1) الجاحظ، الرسائل، النساء، جـ3، ص157.
(2) م.ن، القيان، جـ2، ص158.
(3) ينظر: م.ن، فخر السودان، جـ1، ص215.
(4) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص467.
(1) الجاحظ، البخلاء، ص(177-176).



والطفل بعد الولادة، يكون "محمولاً ومرضـعاً ومعصـباً بالخرق ومسـجى في المهد"[2].
ويرى الجاحظ، أن كل "مولود في الأرض يولـــد أعمى، أن كان تأويـــل العمـــى أنه لا يبصر إلا بعد أيام"[3].
ولكن الطفل الرضيع، يبدأ بملاحظة الأشياء من حوله، "وأول ما يناغي، المصباح"[4].
ومن غرائب الولادة، بأنه هنالك من يتحدث عن القوابل في الأحواز، "بأنهن ربما قبلن الطفل المولود، فيجدونه في تلك الساعة محموماً[5]. يعرفن ذلك ويتحدثن به"[6].
وقـد أخبـر الجـاحظ، بـأن أحـدهم قـد إسـتوفى فـي بطـن أمـه ثلاثـة عشـر شـهراً، وقـد مـدح بـذلك وهجـى، ويعلـق علـى ذلـك قـائلاً:" ولـيس هـذا بالمسسـتنكر، وأن كنـت لـم أر قـط قابلة تقر بشيء من هذا الباب وكذلك الأطباء"[7].

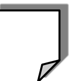
ويبـين أن ولادة الطفل قبـل موعـده أو بعـده، لا يـؤثر ذلـك علـى مقدرتـه الفكريـة والجسـمية، وهنالـك مـن أخبـره أن الحسـن بـن علـي (رضـي الله عنـه)، ولـد لسـبعة أشـهر، ويعلق على ذلك قائلاً: "فمن كان أبرع عقلاً وأتم قواماً منه"[1].
ويـرى أن المـرأة إذا "أفرطـت فـي السـمن عـادت عـاقراً، وسـمان الرجـال لا يكـاد يعتريهم ذلك"[2].
ويـرى بـأن المـرأة إذا إحتملـت "شـيئاً مـن نجـو[3] الفيـل بعـد أن يخلـط بـه شـئ مـن عسل فأنها لا تحبل أبداً"[4].
وعند الولادة، كانوا يذبحون الدجاج، ويتفاءلون به[5].

الأبنــاء:

إهتمـت مؤلفـات الجـاحظ بدراسـة الأبنـاء ودورهـم فـي المجتمـع، لمـا يمثلـه الأبنـاء من الأهمية في المجتمع العربي، حيث هنالك علاقة حميمة بين الوالدين وأولادهم،
فكانت العرب "تفتخر بكثرة الولد وتمدح الفحل ... وتذم العاقر والعقيم"[6].
وطلـب الولـد" بـاب مـن أبـوابهم عظـيم، فمـنهم مـن يطلبـه للكثـرة والنصـرة، وللحاجـة الى العدد والقوة"[7].

---

(2) الجاحظ، الدلائل والاعتبار، ص44.
(3) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص410.
(4) م.ن، جـ4، ص349.
(5) المحموم: علة يستحر بها الجسم في الحميم / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ12، ص155.
(6) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص143.
(7) م.ن، جـ7، ص(125-124).
(1) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص67.
(2) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص172.
(3) النجو: الجعر / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ15، ص207.
(4) الجاحظ، الحيوان، جـ7، ص87.
(5) ينظر: م.ن، جـ2، ص356.
(6) الجاحظ، الرسائل، لنصر، فضل هاشم، ص207.
(7) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص108.



ويـرى الجـاحظ بضـرورة أن يكـون للرجـل أبـن "يكـون ولـي بناتـه، وسـاتر عـورة حرمـه، وقاضـي دينـه، ومحـي ذكـره، مخلصـاً فـي الـدعاء لـه بعد موتـه، وقائمـاً بعـده فـي كـل ما خلفه مقام نفسه"[8].

وهنــاك مــن يطلــب الولــد "لبقــاء الــذكر وللرغبــة فــي العقــب. أو علــى جهــة طلــب الثواب في مباهاة المشركين، والزيادة في عدد المسلمين، أو للكسب والكفاية"[1].

ويـرى الجـاحظ، أن النفـوس لا تجـود لمـولى الكلالـة بمـا تجـود بـه لأولاد الأصـلاب ومـا مـس تلـك ـالأصـلاب، وعنـده أن هـذه الأصـلاب هـي أفضـل مـن أبنـاء العـم فـي موضـوع التركـة والـورث فـي حـين أن أبنـاء العـم هـم قـريبين وليسـوا بعيـدين فـي الكلالـة، والسـبب لأن الأصــلاب وهــم الأبنــاء معهــا "مايأطرهــا ويثنيهــا، ويحزنهــا ويبكيهــا، ويحــرك دمهــا ويستغرز دمعها"[2].

وهنالـك مـن طلـب الولـد وهـو كبيـر السـن حيـث يقـول: "أن يكـون لـي ريحانـة أشـمها وثمـرة أضـمها، وأن أجـد الـى الامـاني بـه سـبباً، والـى التلهـي سـلماً"[3]، وهنالـك مـن يطلـب الولـد فيقـول: "ولـد يحيـي ذكـري ويحـوي ميراثـي، ولا أخـرج مـن الـدنيا بحسـرتي ولا يأكلـه مراء يرصدني، وإبن عم يحسدني"[4].

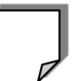
والجـاحظ يؤيـد ذلـك بـالرغم مـن انـه لـم يعقـب، ويـرى "ان الاب متـى نقـص ولـده فـي العدد عن ولد اخيه فقد ركبهم الاخرون بكل عظيمة"[5].

ولهـم فـي الحمـل معتقـدات، "فتـزعم الأعـراب والعـرب أن النطفـة إذا وقعـت فـي الـرحم فـي أول الهـلال، خـرج الوليـد قويـاً ضـخماً، وإذا كـان فـي المحـاق خـرج ضـئيلاً"[6]، وعوام الناس يعتقدون أن "الولد إنما يكون من البيضة اليسرى"[7] للرجل.

وإهـتم العـرب بأسـماء أبنـائهم، وإخـتلاف الأسـماء ضـروري لأنـه "لـولا إخـتلاف الأسباب لتنازعوا بلدة واحدة، وأسماً واحداً،وكنية واحدة"[8].

وأفضـل الأسـماء عنـدهم (محمـد)، ولـذلك قـال شـيخ مـن الكـوفيين: "إن ولـد لـك مائـة ذكر فسمهم كلهم محمداً .. فانك سترى فيهم البركة"[9].

(8) الجاحظ، الرسائل، النساء، جـ3، ص148.
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص109.
(2) الجاحظ، الرسائل، الجد والهزل، جـ1، ص255.
(3) م.ن، جـ1، ص255.
(4) م.ن، جـ1، ص(255-254).
(5) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص361.
(6) الجاحظ، البخلاء، ص158.
(7) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص123.
(8) الجاحظ، الرسائل، حجج النبوة، جـ3، ص244.
(9) الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص27.



وقد أوصى نصر بن سيار[1] قائلاً: "لا تسم غلامك إلا بأسم يخف على لسانك"[2] ومن عاداتهم في تسمية أولادهم، إذا الرجل" ولد له ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفأل، فأن سمع إنساناً يقول حجراً، أو راى حجراً سمى أبنه به وتفاءل فيه الشدة والصلابة، والبقاء والصبر"[3].

وسموا بأسماء الحيوانات، "فمن أسماء الناس: غراب، وصرد. وفي أسماء النساء: فاختة وحمامة. وفي أسماء الناس: يمام ويمامة .. وشاهين. وفي أسماء النساء: عقاب، وقطاة، وقطية، ودجاجة يكون للرجال والنساء. ويسمون بعصفور"[4]، ويقال "للرجل المفرط: يا ظل النعامة"[5].

وإذا أرادوا تحقير شخص قالوا: "وما رأس فلان إلا رأس بغل .. وما أخلاقه إلا من أخلاق البغال"[6].

وكانت العرب تكني البنات فقالوا: "فعلت أم الفضل، وقالت أم عمرو وذهبت أم حكيم .. حتى دعاهم ذلك الى التقدم في تلك الكنى"[7].

ويقال لمن به القوة، إذا سب: "يالطيم الشيطان"[8]، وتسمي العرب كل "صغير الرأس: رأس العصا"[9].

وإذا أرادوا تسمية أمرأة "بالجمال، والبركة، والحسن والصفاء، والبياض قالوا: ماء السماء"[1].

ويقول الجاحظ في موضوع التسميات وعلاقتها بعمر الشخص "ربما كان إسم الجارية غلم أو صبية أو ما شابه ذلك، فأذا صارت كهلة، وعجوزاً، وحملت اللحم وتراكم عليها الشحم، وصار بنوها رجالاً وبناتها نساء، فما أقبح حينئذ أن يقال: يا غليم كيف اصبحت؟ ويا صبية كيف امسيت؟"[2].

ومن اجل تنشئة الابناء، النشأة الصحيحة والسليمة، فلابد من من تربيتهم عند المؤدب، حيث يتكامل الطفل فيه "ذهنه فيعلم ... ليشغل عن اللعب والعبث الذي ربما خشي عليه وعلى اهله المضرة العظيمة"[3].

---

(1) وهو نصر بن سيار بن ليث بن رافع بن ربيعة، وامه زينب بنت حسان من بني تغلب، احد الولاة الامويين، فكان سنة 110هـ والياً على سمرقند، 111هـ والياً على بلخ، 120هـ والياً على خراسان، وفي سنة 121هـ غزا ماوراء النهر مرتين، مرض بالري ليومين، ومات في همدان سنة 131هـ، وهو ابن خمس وثمانين سنة / ينظر: الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ/922م)، تاريخ الامم والملوك، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، بيروت، بدون سنة، جـ7، ص(60، 154، 173، 403).

(2) الجاحظ، البيان، جـ2، ص211.

(3) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص324.

(4) م.ن، جـ7، ص53.

(5) م.ن، جـ6، ص178.

(6) الجاحظ، الرسائل، البغال، جـ2، ص282.

(7) الجاحظ، البيان، جـ1، ص(147-146).

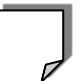
(8) الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص178.

(9) الجاحظ، البيان، جـ3، ص40.

(1) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص141.

(2) الجاحظ، البيان، جـ1، ص146.

(3) الجاحظ، الدلائل والاعتبار، ص64.



والتربية الصحيحة، تؤكد على عدم القسوة مع الابناء، وقد روي الجاحظ عن احدهم وقد دخل على صاحبه بعد ان ضرب غلمانه، فيقول: فقلت له: ماهذا الضرب المبرح، وهذا الخلق السيء؟ هؤلاء غلمان، ولهم حرمة وكفاية وتربية"[4].

ويرى ان لجفاء وقسوة الاولاد اسبابه، ومن تلك الاسباب مايورد قوله: "واما انا فقد رأيت الجفاء للاولاد شائعاً في اللواتي حملن من الحرام"[5].

وهنالك من النساء، لهن القدرة العالية، في تربية الاطفال، التربية الصحيحة والسليمة، وسُألت احدى الامهات عن سر نجاحها في تربية اولادها، فقالت: "(والله ماولدته يتناً[6]، ولاسقيته غيلاً[7] ولاابته على مأقة[8])"[9].

وهنالك من يكره ان تلد امرأته بنتاً، فلقد تزوج شيخ من الاعراب جارية من رهطه، وطمع ان تلد له غلاماً فولدت له بنتاً،فهجرها وهجر منزلها، وصار يأوى الى غير بيتها، فمر يوماً بخبائها، واذا هي ترقص بنيتها وهي تقول:

مالأبي حمزة لايأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان الا نلد البنيا تالله ماذلك في ايدينا
وانما نأخذ ماعطينا ونحن كالارض لزراعينا

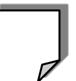
فلما سمع الابيات مر الشيخ نحوهما، حتى ولج عليها الخباء وقبل بنيتها وقال: ظلمتكما ورب الكعبة[1].

وكانت العرب قبل الاسلام، تئد البنات، "ولم يكن هذا في جميعها، انما كان في تميم"[2].

والرجل هو المسؤول عن صيانة وشرف البنت، وهو "أحق ببنته من الغريب وأولى بأخته من البعيد"[3].

ويناقش الجاحظ إحدى المعتقدات الإجتماعية الشائعة أنذاك، ومفادها أن الناس يقولون "كل طفل في الأرض فهو أعسر، لا يختلفون في هذا، حتى إذا شبوا أفترقوا فصار منهم الأعسر، والأيمن، .ومنهم من يصير أعسر يسراً إلا في أمساك الثدي فان الطفل أكثرما يمسكه باليمين"[4]، ويعلق على ذلك: بأن "هذا القول باطل، ولم تكن ها هنا علة، ولو كلنت علة ذلك التكلف لكانت العادة الاولى أخف عليهم، ولم يكونوا يستكرهوا أنفسهم على شيء لا يرون فيه من الفضل ما يوازن ذلك. ولو كان ذلك من

(4) الجاحظ، البخلاء، ص(56-55).
(5) الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص(167-166).
(6) اليتن: خروج رجل المولود قبل رأسه، وذلك علامة على سوءٍ ودليل على الفساد / ينظر: م.ن، جـ1، ص286.
(7) سقي الغيل: ارتضاع لبن الحبلى، وذلك فساد شديد / ينظر: م.ن، جـ1، ص286.
(8) المأقة: ان الصبي يبكي بكاءً شديداً متعباً موجعاً، فاذا كانت الام جاهلة حركته في المهد حركة تورثه الدوار / ينظر: م.ن، جـ1، ص287.
(9) م.ن، جـ1، ص(287-286).
(1) ينظر: الجاحظ، البيان، (جـ1، ص186)، (جـ4، ص47-48).
(2) المبرد، الكامل، جـ1، ص278.
(3) الجاحظ، البخلاء، ص15.
(4) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص565.



طريق الإتفاق لم يتفق ذلك في جميع الأمم في كل زمان وفي كل بلد إلا في الواحد الشاذ وهذا باطل"[5].

ومن الظواهر الإجتماعية الاخرى فيما يخص الأبناء والأطفال، بأن الصبيان كانوا يحملون على ظهور الخيل يوم الحلبة، إلا أن الخليفة عمر بن عبد العزيز، نهى عن ذلك[1].

وأن البعض من الصبيان يتعرضون للكلاب في الطريق من خلال رض عظامه إذا وجدوه نائماً في طريق خالٍ[2].

ويرى أن النار فيها خصال محمودة للطفل، "لأنه لا يناغي شيئاً كما يناغي المصباح. وتلك المناغاة نافعة نافعة له في تحريك النفس .. وفي السرور الذي له في النفس أكرم أكثر"[3].

وإن بعض الأباء يستخدمون الأصوات "لينومون الصبيان والأطفال"[4].

ويرى الجاحظ أن في ولد أبي طالب، إعجوبة، "وذلك أنه لم يوجد قط في أطفالهم طفل يحبو، بل يزحف زحفاً لئلا ينكشف منه عن شيء يسوءه، ليكون أوفر لبهائه، وأدل على ما خصوا به"[5]، ولا نعلم في ذلك بأنه أراد التخصيص أم التعميم لكل أولاد أبي طالب.

أما في مسألة ختان الأولاد، فالجاحظ يرى بأن ختان أولاد السفلة والفقراء، فالخاتن يفوت عليه الخطأ فيهم، ولكن ختان اولاد الملوك، وأشباه الملوك، فقد يقع الخاتن في الخطأ، وذلك بسبب شدة الإحتياط، وفرط الإجتهاد منه، فيؤدي ذلك الى الرعدة، ويقع الخطأ[6].

وعند ما يبلغ الغلام مرحلته من العمر، فيعرف عنده الإحتلام يوردها الجاحظ قائلاً: "منها تغير ريح إبطيه .. ومنها غلظ الصوت. ومن الغلمان من لا يحتلم، وفي الجواري جوارٍ لا يحضن، وذلك في النساء عيب وليس مثله من الرجال عيباً وقد رأيت رجالاً يوصفون بالقوة على النساء، وبعضهم لم يحتلم إلا مرة أو مرتين، وبعضهم لم يحتلم البتة"[1].

وهنالك من يرى أن الأولاد سبب في تنظيم الحياة العائلية اليومية، ومن ثم القدرة على التدبير الإقتصادي، "فقيل لشيخ من أهل البصرة: مالك لا ينمى لك مال؟

---

(5) م.ن، ص591.

(1) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص(180-179).

(2) م.ن، جـ1، ص282.

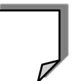
(3) م.ن، جـ5، ص119.

(4) م.ن، جـ4، ص192.

(5) الجاحظ، الرسائل، الاوطان والبلدان، جـ4، ص124.

(6) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ7، ص(27-26).

(1) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص32.



قال: لأني إتخذت العيال قبل المال، وأتخذ الناس المال قبل العيال، وقد رأيت من تقدم عياله ماله فجبره الإصلاح، ووفده الإقتصاد، واعانه حسن التدبير"[2].

الطـلاق:

من أبغض الظواهر الإجتماعية في الحياة العائلية، هو الطلاق لأنه بداية تفكك العائلة وضعفها.

ويرى الجاحظ بأن بعض حالات الغضب والتهور الذي يقع بين الزوج وزوجته، والذي يؤدي الى الطلاق، "فلا ينشب ذلك الغضب أن يزول، وذلك الأذى أن ينسى، فتتحرك له الدفائن، ويثمر ذلك الغرس، فيتبعها قلبه"[3]، ويصبح نادماً على ذلك.ولا بد عند قرارات الطلاق، التحسب، والتأني في ذلك، وقد قال الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)" لرجل هم بطلاق إمرأته، فقال له: لم تطلقها؟ قال: لا أحبها فقال عمر: أو كل البيوت بنيت على الحب؟ فأين الرعاية والتذمم"[4].

وهنالك من يرى بأن الغيرة الزائدة للزوجة على زوجها سبباً للطلاق، ولذلك قال أحدهم لأبنته: "إياك والغيرة، فأنها مفتاح الطلاق"[5].

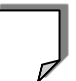
وهنالك من المطلقين والمطلقات، يأخذهم الحنين الى زواجهم الأول، حتى بعد زواجهم مرة ثانية، وذكروا أن الأخطل الشاعر "كانت عنده إمرأة، وكان بها معجباً، فطلقها وتزوج بمطلقة رجل من بين تغلب وكانت بالتغلبي معجبة، فبينا هي ذات يوم جالسة مع الأخطل، إذ ذكرت زوجها الاول، فتنفست الصعداء، ثم ذرفت دموعها، فعرف الأخطل ما بها، فذكر إمرأته الاولى، وأنشأ يقول:

كلانا على وجد يبيت كأنما
يجنيه من مس الفراش قروح
على زوجها الماضي تنوح وزوجها
على الطلة الاولى كذاك ينوح"[1]

وهنالك من يطلق إمرأته لعيب فيها، وطلق أحدهم "إمرأته حين وجدها لثغاء، وخاف أن تجيئه بولد ألثغ"[2].

الزينـة والتجميل:

(2) الجاحظ، البخلاء، ص284.
(3) الجاحظ، الرسائل، النساء، جـ3، ص(155-154).
(4) الجاحظ، البيان، جـ2، ص89.
(5) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص174.
(1) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص(135-134).
(2) الجاحظ، البيان، جـ1، ص57.



مـن العـادات والتقاليـد التـي يهـتم بهـا الإنسـان فـي كـل زمـان، هـي مسـالة الزينـة والتجميـل والنظافـة، بأعتبـار أن هـذه التقاليـد مـن الممارسـات الحضـارية فـي حيـاة الناس.

وعنـد الجـاحظ، فـأن حـب الزينـة هـو التصـنع "بحسـن البـزة والمركـوب والألات ... فأمـا الرهبـان والزهـاد والشـيوخ وأهـل العلـم وخاصـة الخطبـاء والـواعظين ورؤسـاء المـدن فـأن الزينـة والتصـنع مستقبح مـنهم. والمستحسـن مـنهم لـبس الشـعر والخشـن والمشـي والحفـا وزوم المساجد وكراهية التنعم"[3].

ونـــرى أن التـــنعم والبـــذخ شـــيء والتـــزين شـــيء أخـــر، وهـــذا لا يعنـــي أن جميـع أهـل العلـم، والأخـرين الـذين ذكـرهم الجـاحظ واصـفاً إيـاهم بامتنـاعهم عـن التـزين، قـد نبـذوا الزينـة والتجميـل، بـل أن رسـول الله (صـلى الله عليـه وسـلم)، كـان ميـالاً الـى التـزين والظهور بالمظهر اللائق، ولكن دون بذخ وترف[1].

ولـيس الجمـال فـي الهيئـة البشـرية فقـط، بـل حتـى نتحسسـه فـي حياتنـا اليوميـة، وبتفاصـيلها الدقيقـة، وأن الـنفس البشـرية متذوقـة الـى الجمـال، ولـذلك قـال الدمشـقيون: مـا تأملنـا قـط تـأليف مسـجدنا، وتركيـب محرابنـا وقبـة مصـلانا، إلا أثـار لنـا التأمـل، وإسـتخرج لنا التفرس، غرائب حسن لم نعرفها، وعجائب صنعة لم نقف عليها"[2].

وحتـى لـو كـان الرجـل "حسـناً جمـيلاً، وحلـواً مليحـاً ، وعتيقـاً رشـيقاً، وفخمـاً نبـيلاً، ثـم لا يكـون مـوزون الأعضـاء .. وأن كانـت هنـاك دقـائق خفيـة لا يراهـا الغبـي، ولطـائف غامضة لا يعرفها إلا الذكي"[3].

وعـرف العـرب بقـدرتهم علـى تفحـص المعـاني، وإسـتخراج قـيم الجمـال منـه، ولـذلك قيـل الإعرابـي: "مـا الجمـال؟ قـال: طـول القامـة وضـخم الهامـة .. وبعـد الصـوت"[4] كما أنهم أعابوا على الإنسان "إذا كان ضيق الفم"[5].

وعليـه ووفـق مـنهج الوسـطية عنـد الجـاحظ، فعنـده أن وزن خلقـة الإنسـان هـو إعتـدال محاسـنه وألا يفـوت شـيء منهـا شـيئاً، "كـالعين الواسـعة لصـاحب الأنـف الصـغير الأفطـس، والأنـف العظـيم لصـاحب العـين الضـيقة، والـذقن النـاقص والـراس الضـخم والوجـه الفخـم لصـاحب البـدن المجـدع ..، والظهـر الطويـل لصـاحب الفخـذين القصـيرتين، والظهـر القصـير لصـاحب الفخـذين الطـويلتين، وكسـعة الجبـين بـأكثر مـن مقـدار أسـفل الوجه"[6].

ويتطـرق الـى موضـوع الحـواس عنـد الإنسـان، وكيفيـة تنميتهـا، لكـي تتحسـس بقـيم الجمـال، فـالحواس تسـتلذ "مـن المنـاظر الحسـنة والـروائح العبقـة، والطعـوم الطيبـة،

---

(3) الجاحظ، تهذيب الاخلاق، ص(31-30).

(1) اوردت كتب السيرة، بان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حبب الى نفسه النساء والطيب، وهنالك من قال بأنه كان يخصـب شـعره، ويطلي بالنورة، ويحفي شـاربه، وانه يميل الى اللباس الابيض، واتخذ خاتم من الفضة، ويستعمل السواك، والمشط، والمكحلة والمرآة / ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ1، ص(398-484).

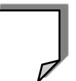
(2) الجاحظ، الرسائل، التربيع والتدوير، جـ3، ص85.

(3) م.ن، جـ3، ص83.

(4) الجاحظ، البيان، جـ1، ص121.

(5) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص263.

(6) الجاحظ، الرسائل، القيان، جـ2، ص(163-162).



والأصـوات المونقـة، والملامـس اللذيـذة ومما كراهيتـه فـي طبـاعهم أضـداد مـا وصـف مـن هذه الصفات"[1].

ويـذهب الجـاحظ بـأن قـيم الجمـال عنـد المـرأة عنـد أهـل البصـر بجـواهر النسـاء، "يقـدمون المجدولـة، والمجدولـة مـن النسـاء تكـون فـي منزلـة بـين السـمينة والممشـوقة .. وإعتدال المنكبين وإستواء الظهر"[2].

وبـذلك فـأن قـيم الجمـال، هـي قـيم طبيعيـة، والانسـان ميـالاً ومتبعـاً لهـا ، وعلـى الأرجـح، فأنـه ينـدفع نحـو الحفـاظ علـى جمـال الهيئـة البشـرية، وعلـى جمـال الأشـياء التـي تحـيط بـه، وأن هـذا الجمـال يكـون أكثـر بـروزاً وإتضـاحاً عنـدما يضـيف إليـه لمسـات التجمـل والتزين، للظهور بالمظهر الجميل.

ومـن أجـل أن يكـون الرجـل مقبـولاً عنـد المـرأة، فلقـد إهـتم بمظهـره الخـارجي، وبتكامـل جمالـه ليكـون مـؤثراً علـى النسـاء، ولـذلك يـرى الجـاحظ أن "عامـة إكتسـاب الرجـال وإنفـاقهم، وهمهـم وتصـنعهم، وتحسـينهم لمـا يملكـون، إنمـا هـو مصـروف الـى النسـاء والأسباب المتعلقة بالنساء"[3].

ويـرى أن مـن اهـم فعاليـات التجمـل والتـزين عنـد الرجـال "العطـر والصـبغ، والخضاب والكحل، والنتف والقص، .. والحلق، وتجويد الثياب وتنظيفها"[4].

ويعتقـد أن مـن أهـم ملامـح الجمـال عنـد الرجـال هـي اللحيـة، "لمـا فيهـا مـن العـز والجـلال والهيبـة ومنعـت المـرأة ليبقـى فيهـا نضـارة الوجـه والبهجـة التـي تشـاكل المفاكهـة والمباضعة"[5].

ومـن ضـمن إعتـزاز الرجـال بـاللحى، "فلـيس شـيء أشـد .. ولا أشـنع عنـدهم فـي عقوبة السلطان من حلق الرؤوس واللحى"[6].

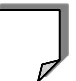
والـبعض يهـتم بلحيتـه، ويتمنـى أن تكـون طويلـة الشـعر، ويخبرنـا الجـاحظ بـأن عبـد الله بـن الزبيـر كـان "نحيفاً خفيـف اللحيـة جداً، وكـان يقـول: عالجتهـا سـتين سـنة فلمـا بلغتهـا يئست منها"[1].

ويخبرنـا بظهـور اللحـى والشـوارب عنـد بعـض النسـاء، وأ ن هـذا الخبـر هـو مـن تجربتـه الخاصـة بـذلك، فيقـول: "وقـد توجـد المـرأة ذات لحيـة. وقـد رأيـت ذلـك، وأكثـر مارأيتـه فـي عجـائز الـدهاقين، وكـذلك .. الشـارب، وقـد رأيـت ذلـك أيضـاً. وهـي ليسـت فـي رأي العـين بخنثـى، بـل نجـدها أنثـى تامـة .. وقـد ذكـر أهـل بغـداد، أنـه كـان لأبنـة مـن بنـات محمـد بـن راشـد الخنـاق، لحيـة وافـرة، وأنهـا دخلـت مـع نسـاء متنقبـات الـى بعـض الأعـراس لتـرى العـرس وجلـوة العـروس، ففطنـت لهـا أمـرأة فصـاحت: رجـل والله. وأحـال الخـدم والنساء علبها بالضرب"[2].

ونعتقـد أن ذلـك يعـزى الـى تغيـرات هرمونيـة فـي جسـم المـرأة، وكـذلك عـدم الإهتمـام بقضـايا التجميـل، ومنهـا إزالـة الشـعر عـن منطقـة الوجـه، ومـع هـذا فأننـا نـرى أن هذه الظاهرة لا تكاد نبالغ فيها، لأنها لا تصل الى مستوى ما موجود عند الرجال.

---

(1) الجاحظ، الرسائل، المعاش والمعاد، جـ1، ص103.
(2) م.ن، النساء، جـ3، ص(159-158).
(3) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص(111-110).
(4) الجاحظ، الرسائل، النساء، جـ3، ص142.
(5) م.ن، الدلائل والاعتبار، ص66.
(6) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص547.
(1) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص553.
(2) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص115.



ويرى الجاحظ أن الشيب في الشعر، فضلاً عن أسبابه الطبيعة، والمتمثلة بتقدم العمر في الإنسان إلا أنه هنالك أمور أخرى تساعد على إنتشاره عند الإنسان ومنها الحوادث والمصائب الكبيرة، وكذلك يبيض شعر الحدث إذا كان هنالك إظطراب في صفراء الكبد، أما في المرأة، فانه يبيض إذا طال نتفه[3].

ويرى أن للشيب رائحة كريهة، وبياض الشعر الأسود هو موته، وسواده حياته، ويعطي علاجاً في ذلك بأستخدام مشط صندل، لأن ريحه طيبة، والشعر سريع القبول، وأقل ما يصنع ان ينفي الريح الكريهة للشيب، وأن هذا المشط مصنوع من خشب الشجر الهندي، وله رائحة طيبة[4].

وفي كتب التراث العربي الإسلامي، روايات كثيرة في مسائل الشيب، وما يتعلق بهذا الموضوع من قضايا إنسانية وعاطفية[5].

وعند الجاحظ، فان عطر الغالية "تشيب الشعر، وغسل الرأس بالسدر يحرقه"[1].

ومن روائع التراث العربي الإسلامي في موضوع الشيب، ما يخبرنا الجاحظ بأنه "قيل لعبد الملك بن مروان: عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين. قال: (وكيف لا يعجل عليّ وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين). يعني خطبة الجمعة وبعض ما يعرض من الامور"[2]، وإذا ما أريد بقياس الأشياء فهذا يعني أن الخطباء والمعلمين والمفكرين، هم أكثر الناس جهداً، حتى وان لم يكن جهدهم جسدياً.

ثم أنه يرى بأن الناس ميالين الى التجميل، ويرغبون في إطالة الشعور، لأنه رمز جمالي في الرأس، ويرى أن السبب في ذلك يعود الى ما يسببه الشعر لزيادة في طول القامة، "والكاسي أفخم من العاري. ولولا أن حلق الرأس طاعة وعبادة، وتواضع وخضوع، وكذلك السعي ورمي الجمار، لما فعلوا ذلك"[3].

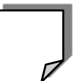
ومن المعتقدات عن أهل اليمن، فانهم كانوا "إذاحلقوا رؤوسهم بمنى وضع كل رجل منهم على رأسه قبضة من دقيق. فأذا حلقوا رؤوسهم سقط ذلك الشعر مع ذلك الدقيق، ويجعلون الدقيق صدقةً"[4].

ومن عاداتهم تلبيد الشعر، والتلبيد، "ان يأخذ شيئاً من .. آس وسدر، وشيئاً من صمغ فيجعله في اصول شعره وعلى رأسه، كي يتلبد شعره ولايعرق ويدخله الغبار، ويخم فيقمل"[5].

وقد انتشرت في بغداد ايام العباسيين، انواع عديدة من العطور[6]، وهذا يدل على ارتفاع وسمو ذوقهم الجمالي والحضاري.

---

(3) ينظر: الجاحظ، البرصان والعرجان، ص57.
(4) ينظر: الجاحظ، البخلاء، ص89.
(5) منها قال اعرابي: كنت انكر البيضاء فصرت انكر السوداء، فيا خير مبدولٍ وياشر بدلٍ / ينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ2، ص356.
(1) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص58.
(2) الجاحظ، البيان، جـ1، ص135.
(3) م.ن، جـ3،ص119.
(4) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص378.
(5) م.ن، جـ5، ص377.
(6) اهم هذه العطور هي: مثلثة برمكية سكرية، الغالية، العنبرية، الكافورية، والصفراء التي لاتؤثر في الثياب، والساهريات المتخذة بدهن العنبر ودهن الاترج، المسك الصيني، الزعفران / ينظر: الازدي، حكاية ابي القاسم، ص36.



ويبدو ان اهتمام الملوك بالعطور، هو اهتمام متميز عبر التاريخ، وله قواعده واصوله، "فمن الملوك من اذا مس الطيب وتغلل بالغالية، لم يعد الى مس طيب مادام عبقها في ثوبه. ومن الملوك من كان اذا مس الطيب، وتغلل بالغالية .. وعلقت بثيابه، امر بصب ماء الورد على رأسه حتى يسيل، فاذا كان من غدٍ، فعل مثل ذلك"[1].

ويخبرنا الجاحظ بان بعض خلفاء الدولة العربية الاسلامية، كانوا لايمسون طيباً مادام يجدوا عبق الطيب في ثيابهم[2]، لكي لاتختلط الروائح فيما بينها.

والبعض من الخلفاء المسلمين، لايستخدم الطيب البته، "فكان المعتصم قلما يمس الطيب .. وكان يذهب في ذلك الى تقوية بدنه"[3].

وقد عرف في التاريخ العربي الاسلامي، علاقة الطيب والعطر بالمدن المعروفة آنذاك، فاهل "المدينة اكثر الناس ظرفاً، واكثرهم طيباً"[4].

ويعطي الجاحظ للمدينة المنورة، الاولوية في طيبها وعطرها، ولذلك سميت طيبة، "ولطيبها قيل تلفظ خبثها وينصع طيبها ... وعرف ترابها ونسيم هوائها، والنعمة التي توجد في سككها وفي حيطانها دليل على انها جعلت آيةٍ حين جعلت حرماً"[5].

ومن دخل المدينة المنورة، "كائناً من كان من الناس، فانه يجد في تربتها وحيطانها رائحة طيبة .. وبذلك السبب طاب طيبها والمعجونات من الطيب فيها. وكذلك العود وجميع البخور، يضاعف طيبها في تلك البلدة على كل بلد استعمل ذلك الطيب يغنيه فيها"[6].

ويصف لنا المرأة السوداء في المدينة المنورة، حتى وان كانت فقيرة الحال، فعندما تجعل في رأسها شيئاً من بلح، وتضع على نفسها العطر، "فتجد لذلك خمرةً طيبة وطيب رائحةٍ لايعد لها بيت عروسٍ من ذوي الاقدار"[7].

وعنده ان بعض المدن لها رائحة طيبة لوجود الرياحين والبساتين فيها، معلقاً على ذلك بالقول: "فان ذكروا طيب سابور[1] فانما طيب سابور بطيب ارياح الرياحين، وذلك في ريح رياحينها وبساتينها وانوارها .. ونحن قد ندخل دجلة في نهر الابلة بالاسمار، فنجد في تلك الحدائق، ونحن في وسط النهر، مثل مايجد اهل سابور من تلك الرائحة"[2].

ويخبرنا، بانه هنالك من يزعمون ان شيراز[3] من بين قرى فارس"[4]، لها رائحة طيبة.

ويخبره احدهم عن احد الدهاقين بخراسان، وعندما حضر الى منزله، ومعه آخرين قائلاً: "فاتانا رب المنزل بدهن طيب فدهن بعضنا رأسه، وبعضنا لحيته،

---

(1) الجاحظ، التاج، ص157.

(2) وهم: معاوية وعبد الملك والوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز وهشام ومروان بن محمد، ومن خلفاء بني عباس: ابو العباس، وابوجعفر، والمأمون / ينظر: م.ن، ص158.

(3) م.ن، ص158.

(4) القيرواني، زهر الاداب، جـ1،ص214.

(5) الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص142.

(6) الجاحظ، الرسائل، الاوطان والبلدان، جـ4، ص(129-128).

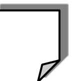
(7) الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص144.

(1) سابور: كورة مشهورة بأرض فارس ومدينتها النوبندجان / ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ3، ص167.

(2) الجاحظ، الرسائل، الاوطان والبلدان، جـ4، ص(130-129).

(3) شيراز: بلد عظيم معروف، وهو قصبة بلاد فارس / ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ3، ص380.

(4) الجاحظ، الحيوان، جـ7، ص230.



وبعضـنا مسـح شـاربه، وبعضـنا مسح يديـه وامرهمـا علـى وجهـه، وبعضـنا اخـذ بطـرف اصبعه فأدخل في انفه ومسح به شاربه"[5].

ويخبرنـا الجـاحظ بـان بعـض المـدن لهـا تـأثير علـى افسـاد العطـور، ومـن هـذه المدن، الاحواز، وانطاكية[6]، اذا قام ذلك العطر فيها الشهرين والثلاثة[7].

ولـذلك فـان الخليفـة العباسـي هـارون الرشـيد عنـدما اراد الاقامـة بأنطاكيـة، فقـال شيخ منهم: "ياأمير المؤمنين .. ان الطيب الفاخر يتغير فيها"[8].

وفـي هـذا الصـدد، فانـه يخبرنـا بـان بعـض القصـبات والمـدن تـؤثر علـى امـور اخـرى غيـر العطـور، وفـي ذلـك غرابـة، "فيـزعم تجـار التبـت ممـن دخـل الصـين .. وقلـب تلـك الجزائـر، ونقـب فـي الـبلاد، ان كـل مـن اقـام بقصـبة تبـت اعتـراه سـرور لايـدري ماسـببه، ولايـزال مبتسـماً ضـاحكاً مـن غيـر عجـب حتـى يخـرج منهـا"[1]، ونعتقـد ان ذلـك يعـود الـى طبيعـة المنطقـة واجواءهـا، والتـي تجعـل مـن الشـخص مسـروراً سـعيداً، ولكـن الضـحك هنـا، قد يكون للمبالغة في هذا الامر.

وكانـت العـروس تتعطـر فـي عرسـها، واعتبـروا المـاء فـي ذلـك مـن الطيـب، ولقـد اوصـى رجـل مـن العـرب ابنتـه ليلـة زفافهـا بوصـايا، فكـان ممـا قـال لهـا: "(احـذري مواقـع انفـه، واغتسـلي بالمـاء) .. واوصـيت امـرأة ابنتهـا بوصـايا، فكـان منهـا: (ولـيكن اطيـب طيبـك المـاء)"[2].

وعنـد الجـاحظ، ان العـروس اذا اكتمـل هيئتهـا، ووضـعت العطـر، اصـبحت اكثـر تألقـاً، قـائلاً فـي ذلـك: "فأمـا الطيـب فـاني لـم اشـمم رائحـة قـط احيـا للـنفس ولااعصـم للـروح .. ولااطيـب خمـرة مـن ريـح عـروس، اذا احكمـت تلـك الاخـلاط، وكـان عـرف بـدنها ورأسـها وشـعرها سـليماً. وان كانـت بمدينـة الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم فانـك سـتجد ريحـاً تعلـم انـه ليس فوقها الا ريح الجنة"[3].

وعنـدهم مـن اخـلاط الطيـب الغاليـة، وكانـت منتشـرة، واكثـر اسـتعمالاً بـين النـاس آنذاك، وان احدهم اذا زار قوماً، اكرموه وطيبوه، وجعلوا في شاربه الغالية"[4].

ولكـن الجـاحظ يـتحفظ مـن الاكثـار بالغاليـة، وعنـده انهـا "تـورث الشـيب"[5]، وتحـدثنا كتـب التـراث العربـي الاسـلامي، بـانهم كـانوا يضـعون الغاليـة علـى رؤوسـهم، وفـي ذلـك مضـار صـحية، وان احـد الاشـخاص اسـتخدم الاكثـار منهـا فلـم يبصـر، ولمـا فحصـه الطبيـب، فـرأى "الغاليـة علـى رأسـه، فصـب المـاء البـارد، حتـى لـم يبقـى لهـا اثـر، ثـم طـلاه بالصندل والماورد والكافور، واقامه في الهواء ساعة، فعاد بصره"[6].

---

(5) م.ن، جـ3، ص(33-32).

(6) انطاكية: قصـبة العواصـم من الثغور الشـامية وهي من اعيان البلاد وامهاتها / ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ1، ص266.

(7) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ7، ص230.

(8) م.ن، جـ3، ص143.

(1) الجاحظ، الحيوان، جـ7، ص230.

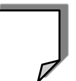
(2) م.ن، جـ5، ص138.

(3) م.ن ، جـ1، ص247.

(4) ينظر: الجاحظ، البخلاء، ص86.

(5) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص545.

(6) التنوحي، النشوار، جـ3، ص59.



ومــن العطــور الشــائعة آنــذاك،" المســك والعنبــر، وهمــا اســودان"[1]، والمســك يستخرج من "سرة الظباء"[2].

وللمســك انــواع، وخيــره "التبتــي اليــابس الفــاتح ... وكلمــا خــف وزنــه وفــاح فهــو اجود"[3].

وقــال احــدهم لآخــر: كيــف تقــول: "لاطيــب الا المســك، قــال فــأين انــت مــن العنبــر؟ قال: فقلت: لا الطيب الا المسك والعنبر"[4].

وتحــدث الجــاحظ مــع بعــض العطــارين مــن اصــحاب المعتزلــة، فقــص عليــه العطــار صــناعة المســك، وقــال: "لــولا ان رســول الله صــلى الله عليــه وســلم قــد تطيــب بالمســك لمــا تطيبت به"[5].

امــا عطــر العنبــر فانــه مــن البحــر[6]، "والبحــر هــو الــذي يخلــق الله تعــالى منــه الــدُر الذي بيعت الواحدة منه بخمسين الف دينار، ويخلق في جوفه العنبر"[7].

وللعنبر انواع، وخيره "الاشهب الزانجي[8]، ثم الازرق، ثم الاصفر"[9].

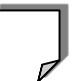
ومــن انــواع العطــور الاخــرى، الصــندل[10]، وخيــر الصــندل مااتخــذ مشــط منــه، فــان ريحه طيبة والشعر سريع القبول، واما مايصنع انه ينفي الرائحة الكريهة للشيب"[11].

وكانــت بغــداد ايــام العباســيين، مزدهــرة بعطورهــا الفواحــة، وهــي تقــف شــامخة ومتحضــرة مــع المــدن الاخــرى، ويــورد الــى بغــداد مــن بــلاد فــارس "انــواع العطــور، مــاء الورد ودهن النيلوفر ودهن الياسمين"[1].

ومــن الاخشــاب العطــرة ايضــاً، العــود الهنــدي، "الــذي لاغــش فيــه، وكلمــا كــان اصــلب فهــو اجــود. وامتحــان جودتــه .. بشــدة رائحتــه. وزعمــوا ان خيــر العــود الهنــدي الثقيــل الوزن الذي يرسب في الماء، وادونه الخفيف الوزن الذي يطفو على رأس الماء"[2].

---

(1) الجاحظ، الرسائل، فخر السودان، جـ1، ص207.
(2) م.ن ، تفضيل البطن على الظهر، جـ4، ص163.
(3) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص(23-22).
(4) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص309.
(5) م.ن، جـ5، ص304.
(6) عندهم ان العنبر ينبع من صخور وعيون في الارض، وقال البعض: ربما ابتلعته سمكة عظيمة يقال لها اكيال وتموت فيشق جوفها ويستخرج منها / ينظر: القلقشندي، صبح الاعشى، جـ2، ص130.
(7) الجاحظ، الرسائل، الاوطان والبلدان، جـ4، ص146.
(8) وهو مايقذفه بحر البربر الآخذ من بحر الهند في جهة الجنوب الى سـواحل الزنج وماولاها، وانه اجود العنبر وافضله / ينظر: القلقشندي، صبح الاعشى، جـ2، ص131.
(9) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص24.
(10) هو خشب شجر يؤتى به من سفالة الهند / ينظر: القلقشندي، صبح الاعشى، جـ2، ص137.
(11) ينظر: الجاحظ، البخلاء، ص89.
(1) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص40.
(2) م.ن، ص22.



ومن أدوات التجميل الاخرى المرتك[3]، وكان احدهم قد تعشق له جارية يقال لها سندرة، ثم تزوجها نهارية، وكانت ذات صنان، وكانت تعالجه بالمرتك[4].

ومن العادات والتقاليد الاجتماعية الاخرى التختم، "واتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخاتم في المحرم. ونقش عليه محمد رسول الله"[5].

ويخبرنا الجاحظ بان عوام الناس والفقهاء في عصره، "لايتختمون الا في اليسار، ومعاينة الخواتيم في الاصابع ليس للخاصة فيه فضل على العامة"[6].

وكانوا يضعون في خواتيمهم،الفصوص المتكونة من الأحجار الكريمة، وأفضلها عندهم "العقيق اليماني الشديد الحمرة الذي يرى في وجهه شبه الخطوط، وكلما كان أصفى وأضوأ كان أجود في الثمن"[7]. ومن "لبس من أحسنه سكنت حدته عند الخصومة وعند الضحك أيضاً"[8].

ووضعوا الياقوت[1]. في خواتيمهم، "وهو كريم حسن، وهو على جيد المرأة الحسناء أحسن"[2].

وكذلك إهتمت المرأة بالزينة والطيب، حتى أن احد الاباء، ينصح إبنته في ذلك إثناء عرسها، لكي تكون مقبولة عند زوجها، ومن ثم الحصول على السعادة الزوجية، قائلاً لها: "وعليك بالزينة والطيب، وإعلمي أن أزين الزينة الكحل، وأطيب الطيب الماء"[3].

ومن قضايا التجميل عندها، أن تجمر شعرها، ويقال: "قد جمرت المرأة شعرها إذا ضفرته"[4].

ويذهبن النساء بالإهتمام بشعورهن وتنظيفه والمحافظة على سلامته، ويعلق الجاحظ على ذلك: "ورايت مرة .... بقالاً .. وغذا امرأته جالسة بين يديه .. وقد جمعت بين باطن إبهامها وسبابتها عدة قمل، فوضعتها على ظفر إبهامها الايسر، ثم قلبت عليها ظفرها الأيمن فشدختها به، فسمعت لها فرقعة"[5].

وإستخدموا المرآة للنظر الى وجوههم ومن ثم إكتمال التجميل في ذلك، واكثر هذه المرايا نقاوة وجودة هي المرآة الصينية[6].

---

(3) هو اوكسيد الرصاص، وله استعمالات عديدة في صناعة الزجاج والفخار وكمادة ملونة / ينظر: ابن سينا، ابو علي الحسين بن علي (ت 428هـ/1037م)، القانون في الطب، تحقيق د. علي زيعور، مؤسسة عز الدين، بيروت، 1987، جـ4، هامش ص2087.

(4) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص468.

(5) المسعودي، التنبيه والاشراف، ص241.

(6) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص571.

(7) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص11.

(8) القزويني، زكريا بن محمد بن محمد (ت 682هـ/1283م)، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، دار الشرق العربي، بيروت، بدون سنة، ص201.

(1) هو حجر ذهبي / ينظر: القلقشندي، صبح الاعشى، جـ2، ص108.

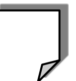
(2) الجاحظ، التربيع والتدوير، ص63.

(3) الجاحظ، البيان، جـ2، ص(92-91).

(4) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص128.

(5) م.ن، جـ5، ص383.

(6) ينظر: م.ن، جـ1، ص107.



ومن ضمن إهتمامهم بشعر الراس، ومن اجل إخفاء الشيب عنه فانهم إستعملوا الخضاب،" وأذا قيل للرجل خاضب، فانما يريدون الحناء فأذا كان خضابه بغير الحناء قالوا: صبغ ولا يقال خضب"[7].

وكذلك فان "النساء من يتحسسن ويستر عيبه بخضاب الشعر وغيره"[8].

واهتموا بالنظافة، بأعتبارها إحدى المقومات الأساسية في الطهارة، والتجمل، وأزالة الروائح الكريهة، وإهتموا بالحمامات، ولا بد من إستخدام الحرارة في الحمام شتاء[1]، وعلى صاحب الحمام "إن يبخر الحمام بالفحم. في كل يوم مرتين لا سيما إذا شرع في كنسها وغسلها ومتى بردت الحمام فينبغي أن يبخرها"[2].

وفي الوقت نفسه فان كتب التراث العربي الإسلامي، قد بينت لنا ان أهل بغداد إهتموا إهتماماً بالغاً في تنظيف وتجميل الحمامات، وهذا دليل على تحضرهم وسمو ورفعة ذوقهم في ذلك[3].

ومن اجل الحصول على الجودة في النظافة، فانهم قد إستخدموا" الأشنان[4]، والصابون"[5]، لأزالة الدهون والاوساخ من الجسم.

وبعض الناس "لا يجيد تنقية يديه بالأشنان، ويجيد دلكها بالمنديل"[6]، وسمي بالدلاك.

والذي يغسل يديه بالأشنان من بقايا اللحم، ومن دسم الشحم واللحم، حتى إذا أخضر وإسود من الدرن، دلك به شفته، وسمي ذلك بالمخضر[7].

وأهتموا كذلك بتجميل العين، "وأكرم ما في الأنسان حدقتاه، وهما سوداوان .. وأكرم الأكحال الأثمد، وهو أسود"[8] وكان هذا الكحل "يورد الى بغداد من أصفهان"[9].

الأعياد

---

(7) م.ن، جـ3، ص(249-248).

(8) الجاحظ، الرسائل، مفاخرة الجواري، جـ2، ص122.

(1) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص21.

(2) ابن بسام المحتسب (سنة وفاته مازالت مجهولة)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق حسام السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، 1968، ص69.

(3) كانت اكثر الحمامات مطلية بالقار، مسطحة به، فيخيل لرائية انه رخام اسود، وفي كل حمام منها خلوات كثيرة كل خلوة مفروشة بالقار، وفي داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه انبوبان احدهما يجري بالماء الحار والآخر بالماء البارد / ينظر: ابن بطوطة، ابو عبد الله محمد بن ابراهيم (ت 779هـ/1377م)، رحلة ابن بطوطة، دار بيروت، 1985، ص224.

(4) الاشنان يستعمل مع الماء لغسل الايدي بعد تناول الطعام، وهنالك الاشنان الطبيعي بالنسبة للفقراء، والاشنان المطيب بانواع الطيب بالنسبة للاغنياء / ينظر: فهد، د. بدري محمد، حضارة العراق، جـ5، ص82.

(5) الجاحظ، البخلاء، ص93.

(6) م.ن، ص111.

(7) م.ن، ص111.

(8) الجاحظ، الرسائل، فخر السودان، جـ1، ص205.

(9) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص39.

الأعيــاد مــن التقاليــد الاجتماعيــة، وتعبــر عــن الفــرح والســرور فــي المجتمــع، وهنالـك الإعيـاد القوميـة والوطنيـة والدينيـة، ولكـل منهـا تقاليـدها الخاصـة فـي ذلـك، وفـي الإسـلام، "فـان الـذي وردت بـه الشـريعة وجـاءت بـه السـنه عيـدان: عيـد الفطـر وعيـد الاضـحى"[1]، وقـد حـرص الخلفـاء علـى الاحتفـال فـي عيـد الفطـر المبـارك، "فكـان الخليفـة يخـرج مبكـراً فـي كوكـب مهيـب وقـد ارتـدى اجمـل ملابسـه وبمعيتـه كبـار رجـال الدولـة .. واذا حـل شـهر ذي الحجـة احتفلـوا فـي اليـوم العاشـر لاداء صـلاة العيـد. ثـم يخرجـون بعـدها لينشغلوا بنحر الاضاحي .. وتوزيع لحومها"[2].

وفضـلاً عـن هـذه الاعيـاد، فـان الجـاحظ يـذكر لنـا عيـد النـوروز الـذي هـو عنـوان الربيـع ويعظمـه الـبعض علـى سـائر الايـام، وتقـول فـي ذلـك انـه يـوم روحـاني فيـه تحركـت الافـلاك السـبعة. بعـد ان كانـت سـاكنة وفيـه دارت الكواكـب السـبعة فـي افلاكهـا بعـد ان كانـت واقفة[3].

وعنـد الـبعض مـن النـاس، فانهـا تتبـرك فـي صـبيحة يـوم النـوروز قبـل الكـلام بـأن تلعـق ثـلاث لعقـات عسـل وتتبخـر بـثلاث قطـع شـمع وتـزعم انـه شـفاء مـن الـف داء، وزعـم بعضــهم ان مـن ذاق السـكر صـبيحته قبـل الكـلام وادهـن بالزيـت دفـع عنـه فـي عامـه انـواع البلايـا[4]، وكـان يـوم النـوروز موعـداً لـدفع الضـرائب عـن الاراضـي الزراعيـة فـي العصـور العباسـية، وقـد اضـر هـذا النظـام بـالمزارعين ضـرراً كبيـراً، فكـان يجيـئ والـزرع اخضـر فـي الوقـت الـذي يجـب ان تـدفع فيـه الضـرائب[5]، وقـد اوردت كتـب التـاريخ وفـي العصـور اللاحقـة لعصـر الجـاحظ، بانـه هنالـك الـبعض مـن النـاس قـد اسـتخدموا النيـران والشـموع الكثيرة في ليلة النوروز وفي الجانب الغربي من بغداد[6].

ويـذكر الجـاحظ كـذلك عيـد المهرجـان، "وهـو دخـول الشـتاء وفصـل البـرد، والنيـروز اذن بـدخول فصـل الحـر. الا ان فـي النيـروز احـوالاً ليسـت فـي المهرجـان، فمنهـا .. افتتاح الخراج، وتولية العمال، والاستبدال وضرب الدراهم والدنانير"[1].

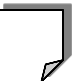
ويـزعم الـبعض مـن النـاس بـان للمهرجـان فضـائل، ومنهـا انـه "يـوم خلـق الله فيـه الاجسـاد قـراراً لـلارواح وفيـه دحـا الارض دحـواً ونشـر الخلائـق"[2]، ويبـدو لنـا بـان هـذا التفسـير لايقبلـه العقـل والشـرع، لان مثـل هـذه الامـور علمهـا عنـد الله عـز وجـل ولايعلمهـا سواه وماعدا ذلك فهو افتراء وكذب.

ويقـوم الـبعض مـن النـاس فـي "صـبيحة المهرجـان بأكـل الرمـان وشـم مـاء الورد"[3].

وفـي مثـل هـذه الاعيـاد يـتم تبـادل التهـاني والهـدايا، ويـروي لنـا الجـاحظ فـي ذلـك روايـة بـان احـدهم اهـدى الـى الخليفـة المتوكـل العباسـي فـي يـوم النيـروز ثـوب منسـوج، ومشـمة عنبـر، ودرعـاً مضـاعفة، وخشـبة بخـور نحـو القامـة، وثوبـاً بغـدادياً، فاعجبـه حسـنه، ثم دعا به فلبسه، وقال: انما لبسته لاسرك به[4].

---

(1) القلقشندي، صبح الاعشى، جـ2، ص444.
(2) فهد، د. بدري محمد، المجتمع العراقي في العصر العباسي، حضارة العراق، بغداد، جـ5، ص(96-97).
(3) ينظر: الجاحظ، سلوة الحريف، ص66.
(4) م.ن، ص67.
(5) Browne, Edward, A Literary History of Persia from the Earliest Times Until Firdawsi, London, 1909, vol. 1, p.259.
(6) ينظر: البيروني، ابو الريحان محمد بن احمد (ت 440هـ/1048م)، الآثار الباقية عن القرون الخالية، بدون سنة، ص315.
(1) الجاحظ، التاج، ص(149-148).
(2) الجاحظ، سلوة الحريف، ص68.
(3) م.ن، ص69.
(4) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص218.



الهـوايات والألعـاب

ـات والاساليب، ومن هذه الانشطة هي الهوايات والالعاب التي يمارسها الناس، لترويض فكرهم وتطويره، او لتطوير مهاراتهم الشخصية وكذلك لقضاء اوقات الفراغ في امور مسلية ومفيدة.

ومن الهوايات التي تناولها الجاحظ في مؤلفاته، هي مطالعة الكتب، وبالتأكيد فان هذه الهواية تأخذ مكانها في الاولوية بين الهوايات الانسانية عبر التاريخ، ومن فوائد الكتاب بانه قد يفضل ويرجح عند الجاحظ على "واضعه بامور منها: ان الكتاب يُقرأ بكل مكان وفي كل زمان، على تفاوت الاعصار، وبعد مابين الامصار ... ولولا مارسمت اليه الاوائل في كتبها، وخلفت من عجيب حكمها ودونت من انواع سيرها حتى شاهدنا بها ماغاب عنا، وفتحنا بها المستغلق علينا"[1].

وعنده ان الانسان تزداد مداركه بالسماع من الآخرين، ولكن من فوائد الكتاب بانه افضل للادراك من السمع، "فالانسان لايعلم حتى يكثر سماعه، ولابد من ان تكون كتبه اكثر من سماعه"[2].

وفي قراءة الكتب متعة ليس بعدها من متعة عند اهل العلم والفكر، ومن شرع بمطالعة كتاب وقد استهواه، يتمنى ان لاينتهي من قراءة ذلك الكتاب، ويحدثنا الجاحظ عن احد المقربين اليه قائلاً: "اذا غشيني النعاس في غير وقت النوم تناولت كتاباً فأجد اهتزازي للفوائد الاربجية التي تعتريني من سرور الاستنباه وعز التبين .. فاني اذا استحسنت كتاباً .. ورجوت فائدته، لم اوثر عليه عوضاً، ولم ابلغ به بدلاً، فلا ازال انظر فيه ساعة بعد ساعة، كم بقي من ورقة مخافة استنفاذه"[3].

والبعض من الناس تبجل بالاحترام والتقدير، الشخص الذي يطالع ويقرأ الكتب، ويقول احدهم: "مادخلت على رجل قط ولامررت ببابه، فرأيته ينظر في دفترٍ وجليسه فارغ اليد، الا اعتقدت انه افضل منه واعقل"[4].

---

(1) الجاحظ، الرسائل، الجوابات واستحقاق الامامة، جـ4، ص297.
(2) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص55.
(3) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص(6-5).
(4) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص60.

وتبين لنا مؤلفات الجاحظ، بان الزنادقة لهم خدعة في كتاباتهم، فانهم يهتموا بنوعية الورق وباستخدام الحبر الجيد، لكي تكون كتاباتهم مؤثرة على الناس، فهم "حرصاء على المغالاة بالورق النقي الابيض، وعلى تخير الحبر الاسود المشرق البراق، وعلى استجادة الخط والارغاب لمن يخط"[1].

ومن النشاطات الاجتماعية الاخرى، هي الالعاب ومنها الالعاب الرياضية، وللرياضة فوائد صحية جمة على صحة البدن وعلى مدى تفكير الانسان، فمن فوائد الرياضة فانها تعمل للقضاء على السمنة، لان الخفة مقرونة "بخفة البدن، وان الركانة والاناة مجموعان لصاحب السمن"[2].

ومن آفات البدن هي الدعة، وقلة الحركة، وتبين لنا مؤلفات الجاحظ بان الحمالين وعسس الليل هم اصح الابدان[3]، ونظراً لشدة حركتهم ونشاطهم الرياضي.

ويرى أن الألعاب الرياضية، تزيل الفوارق الأجتماعية بين الناس، فمن رسوم السلطان، بأن للرجل حق على الملك،"أذا ضرب معه بالكرة، أن يتقدم بدابته على دابة الملك، وصولجانه على صولجان الملك، وأن يعمل جهده في أن لا يبخس حظه ولا يفتر في مسابقة ولا التقاف كرة ولا سبق الى حدو نهاية وما اشبه ذلك، وكذلك في الرماية في الأغراض وطلب الصيد ولعب الشطرنج".[4]

ومن ابرز الألعاب الرياضية في المجتمع العربي الاسلامي، هي السباحة ويرى بأنه من الواجبات المهمة للأباء على الأبناء تربيتهم على ممارسة الألعاب الرياضية ومنها السباحة.[5]

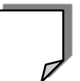
ولذلك فلقد أهتم أجدادنا القدامى بالسباحة لفوائدها الكبيرة، "وقال الحجاج لمعلم ولده: علم ولدي السباحة قبل الكتابة، فأنهم يصيبون من يكتب عنهم ولا يصيبون من يسبح عنهم."[6]

وكتب الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الى ساكني الأمصار: (أما بعد فعلموا أولادكم العوم والفروسية)،[1]ولذلك كانت العرب تسمي الرجل "أذا كان يكتب ويحسن الرمي ويحسن العوم وهي السباحة ويقول الشعر، الكامل"[2].

ورأى احدهم من المتصوفة مقبلاً من جهة النهر، فقال له: في أي شئ كنت اليوم؟ قال: في تعلم ما ليس ينسى، وليس لشئٍ من الحيوان عنه غنى. فقال له: وما ذاك؟ قال: السباحة.[3]

---

(1) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص55.
(2) الجاحظ، الرسائل، الجد والهزل، جـ1، ص269.
(3) ينظر: الجاحظ، البخلاء، ص197.
(4) الجاحظ، التاج، ص(74-73).
(5) الجاحظ، البيان، جـ2، ص180.
(6) م.ن، جـ2، ص179.
(1) الجاحظ، البيان، جـ2، ص180.
(2) ابن قتيبة، عيون الاخبار، جـ2، ص184.
(3) الجاحظ، البيان، جـ2، ص179.



وشهدت بغداد في العصور العباسية صور متعددة من فنون السباحة، ومنها كان الشاب يسبح قائماً، وفوقه حطب يشتعل تحت قدر الى ان تنضج ثم يأكل منها، الى ان يصل الى دار الخلافة[4]، وهذا يدل على براعتهم المتميزة في الفنون الرياضية.

ومن آفات السباحة هو الغرق ثم الموت، ويخبرنا الجاحظ بوجود حيوان يكون في البحر مما ليس بسمك وهو يعايش السمك، وأنه متى أبصر غريقاً عرض له وصار تحت بطنه وصدره، فلا يزال كالحامل له والمزجي، والمعين، حتى يقذف به الى جزيرة، أو ساحلٍ، أوجبلٍ[5]، ويبدو لنا بأن هذا النوع هو من الحيوانات الكبيرة، ولكن الجاحظ لم يسعفنا من ذكر اسمه،وهل ان سجية هذا الحيوان هي بأستمرار في انقاذ الغرقى، وعن مصداقية هذه المعلومة لأنه لم يشير الى رؤية ذلك الحيوان بعينه، بل أن معلوماته عنه قد جاءت من قبل الآخرين. ومن الألعاب الشائعة في المجتمع العربي الأسلامي، والتي شرحها بالتفصيل الجاحظ في مؤلفاته، هي الألعاب مع الحيوانات، وبالطبع فأن هنالك علاقة وطيدة عبر التاريخ بين الأنسان والحيوان وعمل الأنسان على ترويض الحيوان من أجل الأستفادة منه.

ومن تلك الألعاب مع الحيوانات، هي رياضة المراهنة بقتال الديوك، على الرغم من أن الجاحظ يبين في أحدى كتاباته بأن الناس أصبحوا لايرون ديكين في قتال[1] وهذه اللعبة تعتمد على حماسة الديكة في النزاع، ولذلك يقال "أحتمس الديكان أحتماساً، أذا أقتتلا أقتتالاً شديداً"[2].

ومن الالعاب الممتعة والجميلة والتي تعلق بها الانسان مع الحيوانات، هي اللعب بالحمام، وهو يمثل احد الحيوانات الداجنة والاليفة والجميلة، ومن "مناقب الحمام حبه للناس، وانس الناس به، وانك لم تر حيواناً قط اعدل موضعاً، ولااقصد مرتبة من الحمام"[3].

ويبدو ان البعض من الحمام قد بيع بسعر باهض في ذلك الوقت، وان هذا السعر يدل بانه كان مفضلاً عند الناس على بقية الحيوانات الاخرى، ويعلق الجاحظ على ذلك قائلاً: "وللحمام من الفضيلة والفخر، ان الحمام الواحد يباع بخمسمائة دينار، ولايبلغ ذلك بازٍ ولاشاهين، ولاصقر، ولاعقاب، ولاطاوس، ولاديك، ولابعير ولاحمار، ولابغل. ولو اردنا ان نحقق الخبر بأن برذوناً او فرساً بيع بخمسمائة دينار، لما قدرنا عليه الا في حديث السمر"[4].

ويخبرنا عن التعامل اليومي مع الحمام عند الناس، فكان احدهم يلعب بالحمام، ويشرف على منزل جاره. "وكان اذا طير الحمام يصفر ويصفق بيديه. وان سقط فرخ على حائط جاره رماه"[5]، وكذلك اللعب بالصقور الذي كان شائعاً آنذاك[6].

---

(4) ينظر: ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والامم، ط1، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، جـ6، ص(340-341).

(5) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ7، ص130.

(1) ينظر: الجاحظ، البيان، جـ3، ص220.

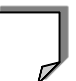
(2) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص339.

(3) م.ن، جـ3، ص147.

(4) م.ن، جـ3، ص212.

(5) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص97.

(6) Lewinsohn, Morus, Animal, Men and Myths, Trans into Eng., London, 1945, p.119.



وفـي تربيـة الحمـام كـانوا، "اذا ارادوا ان يمرنـوا الفـراخ اخرجوهـا وهـي جائعـة، حتـى اذا القـوا بهـا الحـب اسـرعت النـزول. ولاتخـرج والـريح عاصـف، فتخـرج قبـل المغرب وانتصاف النهار"[7].

ويبـين لنـا الجـاحظ العناية والعنـاء الكبيـرين التـي يبـذلها اهـل الحمـام، مـن اجـل تهيئـة الظـروف الملائمـة والافضـل لممارسـة هوايـاتهم المحببـة لـديهم، ومـن عنـائهم فـي ذلـك هـي كيـف "تفـرد الحمـام فـي البيـوت، وتجمـع اذا كـان الجمـع امثـل، وتفـرق اذا كانـت التفرقـة امثـل، وكيـف تنقـل الانـاث عـن ذكورتهـا، وكيـف تنقـل الـذكورة عـن اناثهـا الـى غيرهـا، وكيـف يخـاف عليهـا .. اذا تقاربـت انسـابها، وكيـف يخـاف علـى اعراقهـا مـن دخـول الخارجيات منها"[1].

وكان هنالك اللعب بالبيض، والبعض يأكل هذا البيض بعد اللعب[2].

وكـان لـديهم هوايـات اللعـب والمحاكـاة مـع الكـلاب، ويـرى الجـاحظ بـأن للكلـب "قبـول التلقـين، وحسـن التصـريف فـي اصـناف اللعـب، وفـي فطـن الحكايـات مـاليس فـي الجـوارح المذللـة لـذاك، المصـرفة فيـه، ومـاليس عنـد الـدب والقـرد والفيـل، والغـنم .. والببغاء"[3]. ومن العابهم في ذلك "هراش[4] الكلاب"[5].

ويبـين لنـا الجـاحظ ان الشـاعر ابـي نـؤاس كانـت لـه معرفـة بـالكلاب، "وكـان قـد لعـب بالكلاب زماناً، وعرف منها مالاتعرفه الاعراب"[6].

وهنالـك مـن يبـذل اهتمامـه الواسـع فـي تربيـة وتغذيـة الكـلاب، وخيـر الطعـام فـي اسمان الكلاب "رأس مطبوخ، وأكارع بشعرها"[7].

ومـع ذلـك فـان اللعـب بـالكلاب، كـان مرفوضـاً لـدى القضـاة، ولايجـوز الاخـذ بشاهدة من يلعب بالكلاب "[8].

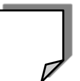
وكانـت الكبـاش تسـتخدم للعـب والهـدايا، ويبـين لنـا بـان مـن "الملـوك مـن يـراهن عليها، ويضع السبق عليها، كما يراهن على الخيل"[9].

وفي ميدان الالعاب، فان "الحملان يلعب بها الصبيان، والجداء لايلعب بها"[1].

ومـن الالعـاب الشـائعة والواسـعة فـي الدولـة العربيـة الاسـلامية، هـي اللعـب مـع القـرود، وان هـذا الاهتمـام الزائـد يـأتي مـاخص بـه القـرد "مـن الـذهن والفطنـة التـي بهـا يفهـم عـن سائسـه مايريـد منـه ويقبـل التأديـب ويعـرف مـايوحي اليـه ويحكـى كثيـراً ممـا يـرى الانسان يفعله حتى انه يقرب من خلق الانسان في شمائله"[2].

---

(7) الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص225.
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص213.
(2) م.ن، جـ2، ص292.
(3) م.ن، جـ2، ص(179-178).
(4) هراش: تقاتل / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ6، ص363.
(5) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص164.
(6) م.ن، جـ2، ص27.
(7) م.ن، جـ2، ص4.
(8) ينظر: م.ن، جـ2، ص187.
(9) م.ن، جـ5، ص458.
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص457.
(2) الجاحظ، الدلائل والاعتبار، ص34.



ومـن المزايـا التـي يتمتـع بهـا القـرد فـي التـأثير علـى الانسـان لكـي يعجـب بـه، فهـو "يضــحك ويطــرب، ... ويحكــي، ويتنــاول الطعــام بيديــه ويضــعه فــي فيــه، ولــه اصــابع واظفـار، وينقـي الجـوز، ويـأنس الانـس الشـديد، ويلقـن بـالتلقين الكثيـر، واذا سـقط فـي المـاء غرق ولم يسبح، كالانسان قبل ان يتعلم السباحة"[3].

وان القـرادين قـد تكسـبوا مـن مهنـتهم هـذه، فهـم يطوفـون بـالقرود ويلعبـوا معهـا امـام النــاس باعطــاء الاوامــر والتلقــين لهــا، وقــد ســمّوا النــاس هــؤلاء القــرادين باســماء مختلفــة ومنهــا: "مقــلاس، وكــيلاس، وشــلقطير، وخلقطيــر"[4]، واذا اراد احــدهم ان يشــتم آخــر او يعيره، يقول له "(ياقراد القرود)"[5].

وذهبـت تلـك الالعـاب باللعـب مـع الحيوانـات الكبيـرة والخطيـرة، ومنهـا اللعـب مـع الاسـود، "والـذي يعتريـه الضـعف فـي المـاء .. حتـى يركـب ظهـره الصـبي ثـم يقـبض علـى اذنيه فيغطه كيف شاء. وقد يفعل ذلك به غلمان السواد وشاطئ الفرات"[6].

ومـن الالعـاب الاخـرى القتـال بـين العقـارب والفئـران، ويـروي لنـا الجـاحظ فـي ذلـك روايـة لهـذا القتـال قـد رآهـا بنفسـه، حيـث وضـع احـدهم قنينـة زجـاج، "فيهـا عشـرون عقربـاً وعشرون فأرة، فاذا هي تقتتل"[7].

ومـن الالعـاب الممتعـة والمفيـدة، هـي لعبـة الشـطرنج، وهنالـك مـن امـتهن هـذه اللعبـة لغــرض التكســب، ويــروي لنــا الجــاحظ بــان "سُــكرٍ الشــطرنجي، وكــان احمــق القاصــين، واحــذقهم بلعــب الشــطرنج .. وانــه خــرج الــى جبــلٍ يتكســب بالشــطرنج"[1]، وعنــد بعــض الادباء، فان للشطرنج فوائد جمة مفيدة، وهي تختلف عن الكثير من الالعاب الاخرى[2].

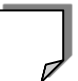
ويبــين لنــا الجــاحظ بــان لعبــة الشــطرنج هــي "اشــرف لعبــة واكثرهــا تــدبيراً وفطنة"[3]، عند اهل الهند.

وانتشـرت الالعـاب الفكريـة، ومنهـا الاحـاجي، وقـد اورد الجـاحظ الـبعض مـن هـذه الاحـاجي ومنهـا "مايحـاجى بـه النـاس بعضـهم بعضـاً ان يقولـوا: اتعرفـون شـيئاً اذا قـام كـان اقصـر منـه اذا قعـد؟ يريـدون الكلـب، لان الكلـب قعـوده اقعـاؤه، وهـو اذا اقعـى كـان، أرفـع لسـمكه، وارفـع فـي الهـواء طـولاً منـه اذا قـام"[4]، وممـا فـي المحاجـاة ان يقـال: "كيـف تعـرف الـديك مـن الدجاجـة اذا كـان صـغيراً حـين يخـرج مـن البيضـة؟ فقـالوا: يُعلـق بمنقـاره، فـان تحرك فهو ديك وان لم يتحرك فهو دجاجة"[5].

وهنالـك عـدداً مـن العـاب التسـلية، وهـي الالعـاب الشـعبية، والتـي تلقـي رواجـاً بـين النــاس، ومنهــا (عظــيم وضــاح)، "وهــي ان يأخــذ بالليــل عظمــاً ابــيض، ثــم يرمــي بــه واحــد

---

(3) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص98.
(4) م.ن، جـ6، ص28.
(5) الهمداني، المقامات، ص182.
(6) الجاحظ، الحيوان، جـ7، ص144.
(7) م.ن، جـ5، ص248.
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص147.
(2) يقول التنوخي في الشطرنج: هي تعلم الحرب وتشحذ اللب، وتدرب الانسان على الفكر، وتعلمه شدة البصيرة. فلو لم يكن فيها شــيء من المعوز في غيرها الا ان اهل الارض يلعبون بها منذ الوف الســنين، وما وقع فيها دست معاد قط من اوله الى اخره لكفى / ينظر: النشوار، جـ2، ص271
(3) الجاحظ، الرسائل، فخر السودان، جـ1، ص223.
(4) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص(212-211).
(5) م.ن، جـ2، ص260.



مـن الفـريقين، فـان وجده واحد مـن الفـريقين ركـب صـاحبه الفريـق الآخـر مـن الموضـع الـذي يجدونه فيه الى الموضع الذي رموا به منه"[6].

وهنالـك لعبـة الخطـرة، حيـث "يرمـي بـه واحـد مـنهم مـن خلفـه الـى الفريـق الآخـر، فان عجزوا عن اخذه رموا به اليهم، فان اخذوه ركبوهم"[1].

وهنالـك لعبــة (الضــب)، وهـو ان" يصــوروا الضــب فــي الارض، ثـم يحـول واحـد مـن الفـريقين وجهـه، ثـم يضـع بعضـهم يـده علـى شـيء مـن الضـب، فيقـول الـذي يحـول وجهـه: انـف الضـب، او عـين الضـب، او ذنـب الضـب .. حتـى يفـرغ، فـان اخطـأ ماوضـع عليـه يـده رُكـب ورُكـب اصـحابه، وان اصـاب حـول وجهـه الـذي كـان وضـع يـده علـى الضب، ثم يصير هو السائل"[2].

وكـذلك لعبـة (الشـحمة)، وتمـارس هـذه اللعبـة فـي ليـالي الصـيف، حيـث يختـار احـد الفــريقين غــلام مــن الفريــق الآخــر ويعملــون علــى ســحبه الــى جهـتهم، فــاذا غلبــوهم ركبوهم[3].

وهنالــك لعبــة (البقيــري)، "وهــي ان يجمــع يديــه علــى التــراب فــي الارض الــى اسفله، ثم يقول لصاحبة: اشتهِ في نفسك. فيصيب ويخطأ"[4].

ومـن الالعـاب، عمـل التماثيـل لغـرض التسـلية، "وهـي تعمـل مـن العيـدان ويلـف عليها الخرق وتشد بالخيوط ويطلى فوق ذلك بالصمغ"[5].

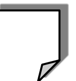
وهنالـك العـاب اخـرى، يمـارس اصـحابها حركـات عجيبـة فـي اجسـامهم، فهنالـك "فـي" النـاس مـن يحـرك اذنيـه مـن بـين سـائر جسـده، وربمـا حـرك احـداهما قبـل الاخـرى. ومـنهم مـن يحـرك شـعر رأسـه، كمـا ان مـنهم مـن يبكـي اذا شـاء، ويضـحك اذا شـاء ... ومـن يبكي باحدى عينيه وبالتي يقترحها عليه الغير"[6].

ويـروي لنـا الجـاحظ بمثـل هـذه الحركـات الغريبـة فـي الـيمن، حيـث ان جـوارٍ "لهـن قرون مضفورة من شعر رؤوسهن، وان احداهن تلعب وترقص على ايقاع موزون"[7].

وضــمن المــنهج العلمــي للجــاحظ، فانــه يعطــي لنــا تفســيراً لــذلك حــول رقــص الضــفائرقائلاً: "فلعــل التضــفير والترصــيع ان يكــون شــديد الفتــل بــبعض الغســل .. فــاذا اخرجته بالحركة التي تثبتها في اصل تلك الضفيرة شخصت"[1].

ولكننـا نـرى بانـه لـيس كـل حـدث غريـب وعجيـب، علينـا ايجـاد مبرراتـه ودوافعـه ليكـون مقبـولاً عنـد الاخـرين، بـل ان الكثيـر فـي مثـل هـذه الاحاديـث يغطـي علـى طابعهـا

(6) م.ن، جـ6، ص145.
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص(145-146).
(2) م.ن، جـ6، ص146.
(3) ينظر: م.ن، جـ6، ص146.
(4) م.ن، جـ6، ص145.
(5) الجاحظ، الدلائل والاعتبار، ص26.
(6) الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص466.
(7) م.ن، جـ6، ص466.
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص467.



المبالغـة الزائـدة وخصوصـاً اذا ماعلمنـا ان هـذه الروايـة رويـت للجـاحظ ولـم يشـاهدها بنفسه.

ويبـين لنـا بوجـود بعـض الالعـاب التـي يمـارس فيهـا الرهـان بـين النـاس، ويـروي لنـا عـن حادثـة رآهـا بعينـه عـن رجـل يفـرغ برجليـه قنـاني نبيـذ وفقاعيـات، فراهنـوه، وازعجـه امره فتركه عند ثقات له من الناس، فاكدوا له ماراهن عليه، وفاز به[2].

المعتقدات الموروثة الشعبية

…ن المعتقدات الموروثـة الشعبية في المجتمع العربي عبر تاريخه، مع مناقشة لتلك المعتقدات.

وكانـت لهـم معرفـة بـالجن، وكـانوا "يسـمعون فـي الجاهليـة مـن اجـواف الاوثـان همهمـةً"[1]، والـبعض قبـل الاسـلام، "مـن غلـق عليـه كعـب ارنـب .. وكانـت عليـه واقيـة، لان الجن تهرب منها"[2]، حسب معتقدهم.

ويـزعم الـبعض "ان الطـاعون طعـن مـن الشـيطان، ويسـمون الطـاعون رمـاح الجن"[3]، والبعض من الناس اذا "دخل احدهم قريةً خاف من جن اهلها"[4].

ويبـين الجـاحظ بـان النـاس يقولـون: "(فـلان مخـدوم) يـذهبون الـى انـه اذا عـزم علـى الشياطين والارواح .. اجابوه واطاعوه"[5].

---

(2) ينظر: م.ن، جـ3، ص(236-237).

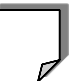
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص201.

(2) م.ن، جـ6، ص357.

(3) م.ن، جـ6، ص218.

(4) م.ن، جـ6، ص358.

(5) م.ن، جـ6، ص198.



وفـي الوقـت نفسـه، فانـه يبـين لنـا انـواع الجـن لـديهم، فـاذا ذكـروا "الجنـي سـالماً، قـالوا جنـي. فـاذا ارادوا انـه ممـن سـكن مـع النـاس قـالوا عـامر، والجميـع عمـار. وان كـان ممـن يعـرض للصـبيان فهـم ارواح. فـان خبـث احـدهم .. فهـو شـيطان، فـاذا زاد علـى ذلـك فهو مارد .. فان زاد على ذلك في القوة فهو عفريت"[6].

وعنـدهم، ان الجـن ينقـل الاخبـار "بوفـاة الملـوك .. كمـا تسـامعوا بمـوت المنصـور بالبصرة[2] في اليوم الذي توفى فيه بقرب مكة"[7].

ويخبرنـا الجـاحظ بـان العـاملين فـي هـذا الميـدان وهـم اصـحاب الرقـي والعـزائم، والسـحر، والشـعبذة، "يزعمـون ان العـدد والقـوة فـي الجـن والشـياطين لنازلـة الشـام والهند"[1].

ويقـدم لنـا صـور عـن خيـال الـبعض فـي هـذه المسـائل، حيـث يقولـون "مـن الجـن جـنس صـورة الواحـد مـنهم علـى نصـف صـورة الانسـان واسـمه شـقّ، وانـه كثيـراً مـايعرض للرجل المسافر اذا كان وحده"[2].

ويزعم البعض ايضاً "بان التناكح والتلاقح قد يقع بين الجن و الأنس"[3].

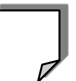
ويبـين لنـا بـأن سـبب الجنـون عنـدهم مـن الجـن، لان ذلـك "اسـم للجـن الـذين يخبلـون النـــاس باعيـــانهم"[4]، بـــل ويزعمـــون "ان المجنـــون اذا صـــرعته الجنيـــة، وان المجنونـــة اذا صرعها الجني، ان ذلك هو على طريق العشق"[5].

ويعتقـد الـبعض "ان الجـان مـن الحيـات .. وقتـل الجـان عنـدهم عظـيم"[6]، واذا رأوا اللبن مكشوف، قالوا: "غط اناءك. كانهم يرون ان الجن تشرع فيه"[7].

ومـن اسـتعراض معتقـداتهم فـي الجـن، فـان الجـاحظ وباسـلوبه العلمـي والادبـي، يـدحض هـذه الافكـار، كمـا ان لعقيـدة الاعتـزال التـي يعتنقهـا قـد دعمـت ذلـك، ويقـول احـد الادبـاء "مـن بركـة المعتزلـة، ان صـبيانهم لايخـافون الجـن"[8]، واعتبـر الجـاحظ ان مسـيلمة الكـذاب، اسـتخدم الحيـل علـى النـاس ليكسـبهم، ومنهـا مايدعيـه بانـه "صـاحب الجـن الـذي يزعم ان معه تابعه"[9].

---

(6) م.ن، جـ6، ص190.
(2) توفي الخليفة المنصور عندما كان متوجهاً الى مكة، ذلك عن اثر مرض، في سنة (158هـ) / ينظر: الطبري، تاريخ الامم والملوك، جـ8، ص(62-59).
(7) الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص203.
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص(232-231).
(2) م.ن، جـ6، ص206.
(3) م.ن، جـ1، ص188.
(4) م.ن، جـ6، ص195.
(5) م.ن، جـ6، ص(218-217).
(6) م.ن، جـ6، ص47.
(7) م.ن، جـ4، ص257.
(8) التنوخي، النشوار، جـ2، ص342.
(9) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص(370-369).



ويـرد علــى ادعـاءاتهم بمـا ذهـب اليـه اهـل تـدمر، مـن ان بنيـانهم مـن صـنع الجـن، معلقـاً علــى ذلـك قــائلاً: "ولكــنكم اذا رأيــتم بنيانــاً عجيبــاً، وجهلــتم موضــع الحيلــة فيــه، اضفتموه الى الجن، ولم تعانوه بالفكر"[1].

ثـم يشـير الجـاحظ الـى مسـألة تربويـة ونفسـية مهمـة، فيـرى ان بعـض الآبـاء ومـن جهـة المبالغـة فانـه يربـي طفلـه علـى اقاصـيص وحكايـات يـدعي بانـه خاضـها مـع نفسـه فـي مسـائل الجـن، وهـو كـذاب فـي ذلـك، وان هـذه الحكايـات سـتعمل علـى فـزع الطفـل والخـوف من الوحشة حتى عند الكبر، وقد رأى كل باطل، وتوهم كل زور من والده[2].

ويتعجـب الجــاحظ ممــا يدعيــه الــبعض حــول الجــن قــائلاً: "ومــن العجــب انهــم يزعمـون انمـا تصـرع المـرأة لان واحـداً مـن الجـن عشـقها، وانـه لـم يأتهـا الا علـى شـهوة الذكر للانثى او شهوة الانثى للذكر"[3].

ويـرد علـى ذلـك باسـلوبه العلمـي بـان "اصـل الانسـان مـن طـين، والجـان خلـق مـن نـار السـموم، فشـبه مـابين الجـن والانـس، ابعـد مـن شـبه مـابين الانسـان والقـرد. وكـان ينبغـي للقردة ان تلقح من الانسان"[4].

ويتبـين لنـا ان هـذا الموضـوع الزائـد عـن حـده عنـد بعـض النـاس قـد لاقـى تعليقـاً وتحلـيلاً ودحـض لـبعض هـذه الآراء وفـي تلـك الحقـب التاريخيـة، وخيـر مـاعلق علـى هـذا الموضـوع بصـيغة علميـة فضـلاً عـن الجـاحظ، هـو المـؤرخ المسـعودي، قـائلاً فـي ذلـك بـان الانسـان يتعـرض لتلـك الاوهـام نتيجـة "التوحـد فـي القفـار، والتفـرد فـي الاوديـة .. الموحشـة. لان الانسـان اذا صـار فـي مثـل هـذه الامـاكن وتوحـد، تفكـر، واذا هـو تفكـر وجـل وجـبن، واذا هو جبـن داخلته الظنـون الكاذبة، والاوهام المؤذية والسوداوية

الفاسـدة، فصـورت لـه الاصـوات، ومثلـت لـه الاشـخاص، واوهمتـه المحـال بنحـو مـايعرض لذوي الوسواس"[1].

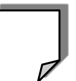
واعتقـدوا بـالغول، وهـو اسـم "لكـل شـيء مـن الجـن يعـرض للسـفار، ويتلـون فـي ضـروب الصـور والثيـاب .. وان اكثـر كلامهـم علـى انـه انثـى"[2]، وان "الغـول لهـا نـار توقدها بالليل، للعبث والتخييل، واضلال السابلة"[3].

وان الاعراب والعامة "تزعم ان الغول اذا ضربت ضربةً ماتت"[4].

وكعـادة الجـاحظ، فانـه يـرد علـى آرائهـم فـي هـذا الموضـوع، حيـث انهـم زعمـوا بـان الغـول تفـزع انسـاناً جمـيلاً فتغيـر عقلـه، ويعلـق علـى ذلـك قـائلاً: "لـو كـان ذلـك الـيهم لبـدؤا بعلي ابن ابي طالب، وحمزة بن عبد المطلب وبأبي بكر وعمر في زمانهم"[5].

---

(1) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص186.
(2) ينظر: م.ن، جـ6، ص(251-250).
(3) الجاحظ، الرسائل، البغال، جـ2، ص372.
(4) م.ن، جـ2، ص371.
(1) مروج الذهب، جـ1، ص469.
(2) الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص158.
(3) م.ن، جـ5، ص123.
(4) م.ن، جـ6، ص233.
(5) م.ن، جـ6، ص(160-159).



والبعض منهم يرى بالسعلاة، كما يرى في الغول[6]، فضلاً عن كائن اخر سموه النسناس وهو تركيب مابين الجن والانسان[7]، ويذكر ان بغداد قد ذعرت من كائن اخر سموه الزبزب، وذلك في سنة (304هـ)، وهو ادعاء وقول لاصحة فيه، وقد انتبهت لذلك الخلافة العباسية وقضت على هذه الاشاعة بحنكة كبيرة[8].

ومن المواضيع ذات العلاقة بالعادات والتقاليد الاجتماعية في المعتقدات الموروثة الشعبية، هو موضوع التطير[9]، واصبح البعض من الناس "اذا عاينوا الاعور من الناس او البهائم، او الاعضب او الابتر، زجروا عند ذلك وتطيروا عندها"[10]، وكذلك تطيروا "من العطاس"[11].

ويخبرنا الجاحظ، بان عبد الله بن الزبير "لما خرج مع اهله من المدينة الى مكة، سمع بعض اخوته ينشد:

وكل بنى ام سيمسون ليلةً ولم يبق من اعيانهم غير واحد

فقال لاخيه: مادعاك الى هذا؟ قال: اما اني مااردته. قال: ذلك اشد له. وهذا منه ايمان شديد بالطيرة"[1].

ويدرج لنا بعض مايتفاءل ويتشاءم به الناس، "فالبوم عند اهل الري واهل مرو يتفاءل به، واهل البصرة يتطيرون منه .. والريحان يتفاءل به، لانه مشتق من الروح .. والفرس تحب الآس وتكره الورد، لان الورد لايدم، والآس دائم"[2].

ويخبرنا الجاحظ بان اصحابه من المعتزلة لايؤمنون بالتطير، "وان الطيرة باطل، وذلك انه قد تتابع على منها ضروب، والواحدة منها كانت عندهم معطبة"[3].

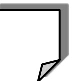
والبعض يتطير من الجرادة، ويخبرنا الجاحظ بان احدهم رجع من القتال عندما وثبت جرادة ذات الوان على ثوبه، فتطير لذلك[4].

والعرب "اعظم مايتطيرون منه الغراب"[5]، وهو عندهم من "باب الشؤم، الاتراهم كلما ذكروا مما يتطيرون منه شيئاً ذكروا الغراب معه. وقد يذكرون الغراب ولايذكرون غيره"[6]، ومن اجل هذا "التشاؤم بالغراب أشتقوا من اسمه الغربة، والاغتراب، والغريب"[7].

وسموا الغراب، بغراب البين، "اذا ارادوا به الشؤم، اما غراب البين نفسه، فانه غراب صغير. وانما قيل لكل غراب غراب البين، لسقوطها في مواضع منازلهم"[8].

---

(6) ينظر: م.ن، جـ1، ص(186-185).
(7) ينظر: م.ن، جـ1، ص189.
(8) ينظر: ابن الاثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1965،جـ8،ص105.
(9) الطيرة مشتقة من الطيران، كان الذي مايكره او يسمع يطير / ينظر: ابن رشيق، العمدة، جـ2، ص259.
(10) الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص438.
(11) الابشيهي، المستطرف، جـ2، ص90.
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص448.
(2) م.ن، جـ3، ص(458-457).
(3) م.ن، جـ3، ص453.
(4) ينظر: م.ن، جـ3، ص447.
(5) الابشبيهي، المستطرف، جـ2، ص90.
(6) الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص443.
(7) م.ن، جـ2، ص316.
(8) م.ن، جـ3، ص431.



ويخبرنا الجاحظ بان جماعة من الناس كانوا جلوساً، فطار غراب يصيح، فقال رجل من القوم: خير خير، فقال الآخر: "لاخير ولاشر، والذي حضرنا من الشعر في مثله:

غلط الذين رأيتهم بجهالة   يلحون كلهم غراباً ينعق"[1].

والبعض يتشاءم من ذبح الديك الابيض، لان ذابحه "ينكب في اهله وماله"[2]، وتقول العوام: انه اذا كان في الدار ديك ابيض عرقه مفروق لم يدخله شيطان، بالرغم من شؤمهم له[3].

ومن معتقداتهم الموروثة الاخرى، الرقي والعزائم، وان الرقية كالعزيمة "لايمتنع منها الشيطان"[4] على حد قول البعض منهم، وان الجن "لاتجيب لصاحب العزيمة حتى يتوحش ويأتي الخرابات والبراري، ولايأنس بالناس، فاذا .. توحش وعزم، اجابته الجن"[5]، وان الحيات يخرجها اخراجاً اذا عزم عليها[6].

وهنالك من الرقي بما "يعرف من التعويذ"[7]، فضلاً عن وجود رقي طبية متنوعة، وقد بين لنا الجاحظ واحدة منها في معالجة الضرس[8].

الموت والقبور

في حياة الانسان اليومية الكثير من الفعاليات الاجتماعية المختلفة، وفيها من الحزن والفرح، وقد عبر الانسان لكل حالة من هذه الحالات في طقوس وتقاليد معينة، اعتز بها جيل بعد جيل.

ومن هذه التقاليد الاجتماعية، الرثاء والحزن للموت، ومفارقة الاعزاء والاحباء، والمجتمع العربي الاسلامي لزاخر بمثل هذه الموقف، وذلك للعلاقات الحميمة بين الانسان واخيه الانسان في ظل هذا المجتمع.

والموت فيه الموعظة للانسان، لتذكره على الدوام رحيله عن هذه الدنيا، مع خلود اعماله الطيبة والصالحة، وان كان "صنف من الناس ينهون عنه ولاينتفعون به

(1) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص41.
(2) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص259.
(3) ينظر: م.ن، جـ2، ص207.
(4) م.ن، جـ4، ص(185-184).
(5) م.ن، جـ4، ص185.
(6) ينظر: م.ن، جـ4، ص186.
(7) م.ن، جـ4، ص186.
(8) ينظر: م.ن، جـ4، ص65.

فقـد ينتفـع بـه صـنف آخـر مـن النـاس فينزعـون عـن المعاصـي ويـؤثرون العمـل الصـالح ويجودون بالاموال والعقد النفيسة في الصدقة على الفقراء والمساكين"[1].

ولـذلك دخـل علـي ابـن ابـي طالـب (رضـي الله عنـه)، المقـابر فقـال: "امـا المنـازل فقـد سـكنت وامـا الامـوال فقـد قسـمت، وامـا الازواج فقـد نكحـت. هـذا خبـر ماعنـدنا فمـا خبـر ماعندكم؟"[2].

وكــان العــرب قبــل الاســلام لهــم طقوســهم وتقاليــدهم مــع الميــت[3]، وبمجــيء الاسلام، فقد حدثت بعض التغييرات في هذا الموضوع تماشياً مع الشريعة الاسلامية.

ويعـرض لنـا الجـاحظ وصـفاً لحـال عائلـة الميـت، قـائلاً: "ثـم ادرج فـي لفائفـه وحمـل علـى نعشـه، ينقلـه اخوانـه وخلصـانه، واحبـاؤه واصـفياؤه، وانـا احـدهم... فمـا رأيـت كـذلك المنظـر منظـراً لـو اعتبـر بـه النـاس جميعـاً .. ولـو رأيـت امـه البائسـة مرفوعـة الحجـاب ظـاهرة للرجـال، قـد عزهـا الجـزع فمـا ابقـى ... وكـان مـن اشـد النـاس علـيهم حنـواً، والطفهـم بهـا بـراً .. ولـو رأيـت حرمـه اللائـي كـان يسـترهن .. قـد هـتكن اسـتارهن، وبـدت خـدامهن، كقـوم حـل بهـم السـباء .. ولـو رأيـت ابنتـه بهـا ذل اليـتم، وخشـوع الاسـتكانة .. مكشـوفة غيـر محجوبـة، ظـاهرة الوجـه والقـدمين. ولـو رأيـت ابـاه، وان دموعـه لمراقـة، وان يـده لترعـد .. ولو رأيت ابنه لرأيت عبرة لاترقأ .. فائض الدمعة"[1].

ويـرى الجـاحظ بانـه قبـل المـوت هنالـك مطمعـة فـي الانسـان "تزيـد فـي القـوة علـى حالـه قبـل ذلـك اضـعافاً، وهـي التـي يسـمونها (راحـة المـوت)، ولـيس لـه بعـد تلـك الحـال لبث"[2].

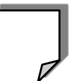
ثـم يبـين لنـا مـن علامـات المـوت عنـد الانسـان فهنالـك مـن مـات بـالبطن، قـال يصـف نفسـه: "اجـد روحـي قـد خرجـت مـن نصـفي الاسـفل، واجـد السـماء مطبقـة علـي، ولـو شـئت ان المسها بيدي لفعلت"[3].

ويسـتعرض الجـاحظ العديـد مـن القصـائد الشـعرية التـي كتبـت عـن المـوت ومفارقـة الحيـاة، وفيهـا الكثيـر مـن الاهتمـام بـان لمشـيب الشـعر انـذاراً للانسـان بـالموت، ومنهـا قـول الشاعر في ذلك:

"ابيـض في الـــرأس بعـــد سـواده
ودعـــا المشيب حليلتي لبعـــادِ
واستنفد القرن[4] الذي انا منهم
وكفى بذلك علامة لحصادي"[5].

ويبـين لنـا بـأن المقـابر تحتـوي علـى مختلـف الاجنـاس مـن البشـر، ويـدفن فيهـا الغنـي والفقيـر سـوية، والعـالم الجاهـل، ويـروي لنـا فـي احـدى رواياتـه، بـان بعـض النـاس دفنـوا مـن الاعيـان فـي احـدى المقـابر، وفـي المقبـرة هنالـك اربعـة سـودان يحملـون صـاحبهم، لغـرض

(1) الجاحظ، الدلائل والاعتبار، ص62.
(2) الجاحظ، البيان، جـ3، ص155.
(3) كان الرجل اذا مات، عمدوا الى راحلته التي ركبها، فيوقفوها على قبره معكوســة رأســها الى يدها، ملفوفة الرأس، لاتعلف ولاتســقى حتى تموت، ليركبها اذا خرج من قبره / ينظر: ابن حبيب، المحبر، ص(322-323).
(1) الجاحظ، رسائل الحاجري، رسالة رثاء وتأبين، ص(22-23).
(2) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص(110-111).
(3) م.ن، جـ6، ص504.
(4) القرن: الجعبة / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ13، ص339.
(5) الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص505.



دفنـه، فدفنا فـي آن واحـد مـن الاعيـان رجـل، ومـن السـود رجـل، والتفـت احـدهم الـى المقبـرة بعد الدفن قائلاً: ثم التفت التفاتةً فلم اعرف قبر الواحد عن الآخر[1].

وللمـوت صـور عديـدة فمـنهم مـن يمـوت حتـف انفـه، ولكنـه يخبرنـا ممـن قتـل نفسـه بيـده، وذلـك "امـا لخـوف المثلـة، وامـا لخـوف التعـذيب والهـوان وطـول الاسـر. وقـد كـان الحكـم بـن الطفيـل[2] .. واصـحابه خنقـوا انفسـهم فـي بعـض الايـام، فعيـروا بـذلك تعييـراً شديداً"[3].

وتبجـيلاً لقبـور الاحبـاء والاعـزاء، فانـه كانـت تضـع علـى القبـر رمـوز تـدل علـى اعتـزازهم بصـاحب القبـر، وهنالـك مـن شـهد دفـن عبـد الملـك ابـن الخليفـة الامـوي عمـر بـن عبـد العزيـز، "فلمـا سـوى قبـره بـالارض، جعلـوا علـى قبـره خشـبتين مـن زيتـون، احـداهما عند رأسه، والاخرى عند رجليه"[4].

وتعطـي لنـا مؤلفـات الجـاحظ بـان سـيد القبيلـة وشـيخها، هـو الـذي يصـلي علـى الجنائز، "فكان سيد بني تميم وموسرهم، والذي يصلي على جنائزهم"[5].

امـا اجـرة صـاحب الـدفن فهـي متغيـرة، تبعـاً للمسـتوى المعاشـي للمجتمـع، وفـي بعض الطواعين، حفر اعرابي قبر ميت بدرهمين[6].

وتصـل السـرقة حتـى الـى المقـابر، ويخبرنـا الجـاحظ بـان "اهـل الحجـاز يسـمون النباش المختفي، لانه يستخرج الكفن من القبر ويظهره"[7].

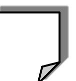
وان دفـن الميـت يـتم مـن يـده اليمنـى، الا انـه يبـين بـان بعـض النـاس "يـدفنون الميـت من يده اليسرى كي لايأخذ كتابه بشماله فقال زرارة بن اعين[8]:

فيـومئـذٍ قـامت شمـال بحقهـا
وقام عسيب العين ينعى ويخطب"[1].

والـبعض مـن النـاس، يتمتـع غايـة الامتـاع فـي النـزول بالمقـابر، لانهـا تـذكره بـامور كثيـرة قـد شـغلته عنهـا مجريـات الحيـاة اليوميـة، وكـان عبـد الله بـن عبـد العزيـز بـن عبـد الله بـن عمـر بـن الخطـاب، لايجـالس النـاس، ولكنـه كـان "ينـزل مقبـرة مـن المقـابر، وكـان لايكـاد يـرى الا وفـي يـده كتـاب يقـرؤه. فسـئل عـن ذلـك، وعـن نزولـه المقبـرة فقـال: لـم أر اوعـظ مـن قبر"[2].

---

(1) ينظر: الجاحظ، البيان، جـ3، ص147.
(2) كان ذلك في يوم ساحوق، عندما غزا بنو ذبيان بني عامر وهو اخ الحكم، فانهزم بنو عامر واخوه الحكم، وان الحكم ضـعف وخاف ان يؤسـر فجعل في عنقه حبلاً وصـعد الى شـجرة وشـده ودلى نفسـه فاختنق، فادركوه وخلصوه وعيروه بجزعه / ينظر: ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ1، ص644.
(3) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص272.
(4) الجاحظ، البيان، جـ2، ص341.
(5) الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص33.
(6) ينظر: الجاحظ، البيان، جـ4، ص11.
(7) الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص130.
(8) هومولي بني اسعد بن همام، وهو رئيس الشميطية / ينظر: م.ن، جـ7، ص122.
(1) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص596.
(2) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص62.



والجـدير بالـذكر ان عـدداً مـن المقـابر، قـد انشـأت فـي العصـور العباسـية فـي مدينـة بغـداد، ولكـل مقبـرة مـن هـذه المقـابر سـماتها وعنوانهـا المتميـز، وذلـك تبعـاً للرجـال المعروفين والمدفونين فيها[3].

ويظهـر لنـا الجـاحظ فـي مؤلفاتـه بـان الحـزن والاسـى واضـحين عنـد النسـاء فـي حـوادث المـوت، فـان بعـض النسـاء "ذوات المصـائب اذا قمـن فـي المناحـات كـن يضـربن صدورهن بالنعال"[4].

وتقـوم النسـاء كـذلك بـان تمسـك بخرقـة مـن القمـاش عنـد النـوح وهـن قيـام فـي المناحات[5].

اما جنائز النساء فانهم يضعون قباباً عالية وحشةً، فوق تلك الجنائز[6].

ويبـين لنـا الجـاحظ ان اصـحاب غسـل المـوتى، والاطبـاء، عنـدهم فـي المـوت دلالات، ومنهـا انهـم لايسـترون الميـت بالـدفن حتـى يجيـف، ليتأكـدوا هـل هـو حـي ام ميـت فعـلاً، ويعـرض علينـا روايـة فـي ذلـك، بـان احـدهم أخـر دفـن اخيـه لـبعض الامـر فقـدم اليـه فـي تلـك الليلـة فقـال: "مـاظن اخـي مـات، ثـم اخـذ فتيلتـين ضـخمتين، فرواهمـا دهنـاً ثـم اشـعل فيهمـا النـار، ثـم اطفأهمـا وقربهمـا الـى منخريـه، فلـم يلبـث ان تحـرك"[1]. وقـد اسـتنتج ذلـك من خلال تأخير دفن اخيه، لانه لم ينتن.

ولقـد بـرع العـرب فـي رثـاء ووصـف الميـت، وبمـا يتصـفون بـه مـن الفصـاحة وحسـن البلاغـة، ولـذلك كانـت كلمـاتهم عنـد تقـديم التعـازي مـؤثرة وعميقـة، وقـال احـدهم معزيـاً اخـر بمـوت ابنـه، قـائلاً: "كـان ابـوك اصـلك، وابنـك فرعـك، فمـا بقـاء شـيء ذهـب اصله ولم يبق فرعه"[2].

وقيـل لشـيخ مـن الاعـراب قـد تعـافى مـن المـوت: "قمـت مقامـاً خفنـا عليـك منـه، قـال: الموت اخاف، شيخ كبير ورب غفور، ولاديَنَ ولابنات"[3].

"وقيـل لرجـل: مـات صـديق لـك. فقـال: رحمـة الله عليـه، لقـد كـان يمـلأ العـين جمـالاً، والاذن بيانـاً ولقـد كـان يرجـى ولايخشـى، ويغشـى ولايغشـى، ويعطـي ولايعطـى، قلـيلاً لـدى الشر حضوره، سليماً للصديق ضميره"[4].

ومـن بـدائع الشـعر فـي ذلـك رثـاء سـليمان بـن عبـد الملـك، لمـا دفـن ايـوب ابنـه "وقـف ينظر الى القبر ثم قال:

كنت لنـــا انســـاً ففـــارقتنـــــا

---

(3) كان في الجانب الغربي من بغداد مقابر القريش، ومقابر باب الشـام، ومقبرة باب التبن على الخندق، ومقبرة باب حرب خارج المدينة وراء الخندق، ومقبرة باب الكناس، ومقبرة الشـونيزي، ومقبرة باب الدير، وفي الجانب الشـرقي مقبرة الخيزران، ومقبرة المالكية، ومقبرة باب البردان / ينظر: ابن الجوزي (منسـوب)، مناقب بغداد، تعليق محمد بهجة الاثري، مطبعة دار السلام، بغداد، 1923، ص(30-28).

(4) الجاحظ، البيان، جـ3، ص111.

(5) ينظر: م.ن، جـ3، ص117.

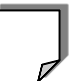
(6) ينظر: المقدسي، احسن التقاسيم، ص129.

(1) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص350.

(2) الجاحظ، البيان، جـ3، ص172.

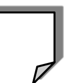
(3) م.ن، جـ3، ص197.

(3) م.ن، جـ4، ص92.



فالعيش من بعدك مر المذاق"[5].

[5] م.ن، جـ4، ص(58-59).



الفصل الرابع / الحياة المعاشية

ويتضمن هذا الفصل مواضيع متعددة في جوانب من الفعاليات الاجتماعية اليومية للمجتمع العربي الاسلامي، وتعطي لنا مؤشراً عن الجانب المعاشي الذي كان يتمتع به الفرد ومن ثم المجتمع.

ولقد تطرقت مؤلفات الجاحظ الى هذه الفعاليات والانشطة المعاشية الاجتماعية، وسنقوم في هذا الفصل بدراستها وبحثها مع مناقشتنا لاراء الجاحظ وملاحظاته في ذلك، ومن هذه الفعاليات المعاشية:

الملابس

اهتم الانسان بالملابس عبر التاريخ وتفنن فيها، "فهو يغزل وينسج ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالاً بعد حال وله في ذلك صلاح من جهات منها انه يشتغل بصنعة اللباس عن العبث وما تخرجه اليه الكفاية ومنها انه يستريح الخلع كسوته اذا شاء ويلبسها اذا شاء ومنها انه يتخذ لنفسه ضروباً من الكسوة لها جمال وروعة فيتلذذ بلبسها وتبديلها.. وكذلك يتخذ بالترفق والصنعة ضروباً من الخفاف والنعال يقي بها قدميه"[1].

واهتم الناس بالتحديث والتجديد في الملابس، بما في ذلك التصميم الخارجي لها، ويبين لنا الجاحظ بان احدهم كان يرتدي طيلسان[2] ابيض، وسراويل وشي[3]،فقال له آخر: سبحان الله، ما تصنع الحداثة باهلها، ان هذا ليس لباس هذا اليوم. فقال له: لا والله، ولكن ليس عندي ثوب الا اشهر مما ترى[4]، وفي الوقت نفسه، فان اهتمام المجتمع العربي بتجديد تصاميم الملابس، جعل البعض ان ينتقد احياناً من لم يلتزم بهذا التجديد[1].

ويبين لنا الجاحظ، ان الاهتمام بالملابس عند العرب قبل الاسلام، يأتي من خلال الانواع المختلفة من الملابس، وكان لكل فئة ومهنة لباسها الخاص في ذلك، " فكانت الشعراء تلبس الوشي.. والاردية السود، وكل ثوب مشهر[2] ، ويضيف قائلاً: كان عندنا منذ خمسين سنة شاعر يتزيا بزي الماضين .. وكان له برد[3] اسود يلبسه في الصيف والشتاء"[4].

---

(1) الجاحظ، الدلائل والاعتبار،ص30.

(2) طيلسان: وهو لباس خارجي، ملبس على الكتف، وانه ثوب يحيط بالبدن خال من التفصيل والخياطة/ ينظر: الجواليقي، ابو منصور موهوب بن احمد بن محمد(ت540هـ / 1145م)، المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم، تحقيق احمد شاكر محمد شاكر، مطبوعات دار الكتب المصرية،ص275.

(3) الوشي: مأخوذ من وشيت الثوب وشياً أي طرزته / ينظر: ابن سيده، المخصص، جـ4، ص66.

(4) ينظر: الجاحظ، البيان،جـ2، ص342.

(1) روي ان احد الناس راى صديقاً له اسمه ايوب، فقال عنه: رايت قميص ايوب يكاد يمس الارض، فكلمته في ذلك فقال: ان الشهرة فيما مضى كانت في تذبيل القميص وانها اليوم في تشميرة / ينظر: ابن قتيبة، عيون الاخبار، جـ1، ص415.

(2) الجاحظ، البيان، جـ3،ص115.

(3) البّردٌ: من الثياب، فيه خطوط / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ3، ص86.

(4) الجاحظ، البيان، جـ3،ص115.

وكذلك فان الكاهن لا يلبس الملابس المصبغة ذات الالوان، وان الظرفاء يجتنبون لبس الثياب ذات الالوان، لانهم كانوا يعتبرون ذلك من شأن النساء والاماء[5]، بينما عرف عن المتصوفة في الاسلام بانهم في بعض العصور التاريخية الاسلامية قد لبسوا اللون الازرق من الملابس[6].

وكان لباس العراق قبل الاسلام بأن"لا يدع تذييل قميصه وسحب ردائه.. وكان لحرائر النساء زي، ولكل مملوك زي .. وللاماء زي"[7]، ونلاحظ في الوقت نفسه " بان قوماً من الزهاد جعلوا تواضعهم في ثيابهم"[8].

وكانوا قبل الاسلام، " اذا اراد احدهم الحج تزيا بزي الحاج "[9].

وكان الخلفاء في الدولة العربية الاسلامية يرتدون "الجباب والاردية[1] .. وتلبسها السنة او اكثر ايام السنة، ومنهم من كان يلبس الجبة .. السنين الكثيرة .. وليس الجباب والاردية كالقميص والسراويل .. ولذلك كره من كره اعادة لبسها "[2].

اما مجالس الخلفاء فكانت في "الشتاء والصيف فرش الصوف .. وترى ان ذلك اكمل واجزل وافخم وانبل"[3]، وكان كبار ورجال الدولة يقلدون الخلفاء في ملابسهم[4].

اما لباس اصحاب الخليفة ومن دخل دار الخلافة، فعلى مراتب: "فمنهم من يلبس المبطنة[5]، ومنهم من يلبس الدراعة[6] ومنهم من يلبس القباء[7]"[8].

اما الخطباء العرب قبل الاسلام، فقد "لا يلبس الخطيب الملحفة ولا الجبة ولا القميص ولا الرداء .. والذي لابد منه العَمِةٌ .. وربما قام فيهم وعليه ازاره قد خالف بين طرفيه .. وربما قام فيهم وعليه عمامته"[9]، فضلاً عن ذلك فللخطباء رسوم كثيرة حسان[10] في الملابس.

واعتقد البعض من الناس بان الاهتمام الكبير في الملابس يؤدي الى اللهث وراء مغريات الحياة ومفاتنها، ولذلك فعندما بعث زياد بن ابيه "رجلاً يرتاد له محدثاً، واشترط على الرائد ان يكون عاقلاً مسدداً، فاتاه به موافقاً، فقال: أكنت ذا معرفة به؟ قال

---

(5) متر، آدم، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة، ط4، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967،جـ2، ص227.
(6) ينظر: ابن الجوزي، تلبيس ابليس، دار الرائد العربي، بيروت، بدون سنة، ص192.
(7) الجاحظ، البيان، جـ3،ص(97-96).
(8) م.ن، جـ3، ص153.
(9) م.ن، جـ3،ص95.
(1) الاردية من الملاحف ومفردها رداء / ينظر: ابن سيده، المخصص،جـ4، ص76.
(2) الجاحظ، التاج،ص157.
(3) الجاحظ،البيان،جـ3،ص115.
(4) ينظر: حسن، د. حسن ابراهيم، تاريخ الاسلام، ط7، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1965، جـ3،ص444.
(5) لباس للرجال يلبس فوق الثياب له بطانة قوته ثخينة، وهي لباس ملازم للكتاب يظهرون فيه ولايظهرون بدونه/ينظر: العبيدي، د.صلاح حسين، الملابس العربية الأسلامية في العصر العباسي، بغداد،1980،ص290.
(6) الدراعة: هي جبة مشقوقة المقدم/ي نظر: ابن سيده المخصص، جـ4،ص36.
(7) القباء: من الثياب لباس خارجي للرجال/ ينظر: م.ن، جـ4، ص86.
(8) الجاحظ، البيان، جـ3،ص(115-114).
(9) م.ن، جـ3،ص92.
(10) ومنها بان الخطباء كانوا يلبسون الأقبية والمناطق/ ينظر: المقدسي، أحسن التقاسيم،ص129.

لا، ولا رايته قبل ساعة ..قال فلم اخترته على جميع من رايته ؟ قال: يومنا يوم قائظ، ولم ازل اتعرف عقول الناس بطعامهم ولباسهم في مثل هذا اليوم، ورأيت ثياب الناس جدداً وثيابه لُبساً، فظننت به الحزم"[1].

ومن الناس ليست له القدرة على شراء الملابس الجديدة، ولكنه يؤمن بالقناعة في ذلك، ويروي لنا الجاحظ بان ابا الاسود الدؤلي[2] مر بالاحنف بن قيس[3] "وعليه ثياب رثة. فقال: (يا ابا الاسود لو استبدلت بمكانه)! فقال: (رب مملولٍ لا يستطاع فراقه) فبعث اليه .. من الوان الثياب "[4].

وتعطي الملابس الفاخرة عند البعض النشوة والسعادة، وقد شوهد شيخ يرتدي الثياب الفاخرة،والمبطنة بالحرير ويقومه الفرح والمرح[5].

وتبين لنا مؤلفات الجاحظ نماذج من الاقمشة المستخدمة في الملبوسات، ومنها المصنوعة في العراق ومنها المستوردة، واغلب هذه الاقمشة هي في عصر الجاحظ الذي عاشه، فلقد استخدموا الوشي في الثوب وهو لباس البدن الخارجي للانسان، وافضلها الكوفي، " والابريسمي، والمذهب المنسوج ثم الوشي الاسكندراني الكتان البحت، ثم الوشي الغزلي، ثم الذي لا ابريسم فيه ولا ذهب وهو اليماني "[6]

ومن الاقمشة التي تستخدم في " الفرش وارفعها ثمناً هو القرمزي[7] الارمني[8]، وكذلك " خير اللبود [9]الصينية، ثم المغربية الحمر،ثم ... الارمنية ثم الخراسانية "[10].

اما افضل انواع اقمشة الطيلسان، " فهي الطبرية[1].. ..، ثم المصرية، ثم القومسية[2]" [3].

واجود انواع اقمشة البزيون[4]، " فهو المسكي الدقيق النسيج، ثم المخطط"[5].

---

(1) الجاحظ، البخلاء،ص24-25.
(2) ابو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي، وهو اول من وضع النحو، وكان ينزل البصرة وتوفي فيها سنة تسع وتسعين/ ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان،جـ2، ص(539-535).
(3) ابو بحر الضحاك بن قيس بن معاوية بن حصيرة المعروف بالأحنف، كان من سادات التابعين رضي الله عنهم، مات بالكوفة سنة سبع وستين للهجرة/ ينظر: م.ن،جـ2،ص(506-499).
(4) الجاحظ، امل الأمل، ص29.
(5) ينظر: الجاحظ،سلوة الحريف،ص12.
(6) الجاحظ،التبصر بالتجارة،ص(26-25).
(7) ان القرمز حشيشة تكون في اصلها دودة حمراء تنبت في ثلاثة مواضع من الارض في ناحية المغرب بارض الاندلس، وفي ارض فارس، ولا يعرف هذه الحشيشة واماكنها الافرقة من اليهود يتولون قلعها كل سنة، فيتبس تلك الدودة ويصبغ بها الابريسم والصوف وغير ذلك/ينظر:م.ن، ص(32-31).
(8) م.ن،ص27.
(9) اللبود: اللبد من البسط، معروف / ينظر: ابن منظور لسان العرب،جـ3،ص386.
(10) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص30.
(1) نسبة الى طبرستان، وهي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم، وهي بين الري وقوس والبحر وبلاد الديلم والجبل / ينظر: ياقوت الحمري، معجم البلدان،جـ4،ص13.
(2) نسبة الى قومس، وهي كورة كبيرة يشملها هذا الأسم، وهي بين الري وقومس والبحر وبلاد الديلم والجبل/ ينظر: م.ن، جـ4، ص414.
(3) الجاحظ،التبصر بالتجارة،ص29.
(4) البزيون: السندس/ ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ13، ص52.
(5) الجاحظ، التبصر بالتجارة،ص28.

ويبين لنا الجاحظ اهمية قماش الكتان، واستخداماته الكثيرة والمتعددة، فلقد "علم الناس ان القطن بخراسان والكتان بمصر، ثم للناس من ذلك في تفاريق البلدان بعض بلاد هذين الموضعين "[6].

والاكسية، وهي من الملابس الخارجية للابدان، فافضلها واجودها هو الكساء الطبري، وقال احدهم " اشتريت كساءً ابيض طبرياً باربعمائة درهم، وهو عند الناس فيما ترى عيونهم قومسي يساوي مائة درهم "[7].

وكذلك فمن الاكسية الجيدة هي من الصوف المصرية والفارسية[8].

واستخدم الناس جلود وفراء وصوف الحيوانات في ملبوساتهم، وفي ذلك انواع وصفات،فمن اجود انواع جلود النمور هو " البربري الموشح الشديد بياضه المشبع سواده، الطويل الوشي .. واظرف النمور الذي يكون في وسط سواده نقطة سوداء صغيرة بينة .. واذا كانت فيه حمرة مع بياض وسواد حالك كان احسن وابلغ في الثمن"[9].

ومن جلود الثعالب هنالك انواع، وافضلها " الثعالب الاسود .. الغليظ الشعر الذي لا يغش بصبغ، ثم الابيض، ثم الاحمر"[10].

واستخدموا كذلك جلود حيوان السنجاب، وافضل جلودها هو الخوارزمي[1]، ثم الذي "لا غش فيه من زغب الارانب "[2].

وان اغلب الاقمشة الصوفية والجلدية، فانها تستخدم للوقاية من البرد، ويخبرنا الجاحظ بان احدهم قد أخبره وراه في شهر تشرين الاول، وقد بكر البردٌ شيئاً، بانه لبس كساءً قومسياً خفيفاً[3]، وان اهالي الجبال يستخدمون في الشتاء المبطنات لحمايتهم من البرد[4]، وان البعض من هذه المبطنات بما فيها من سعة الحجم بما مقطع الواحدة منها "الى اربعة اقمصة "[5].

ومن الجلود الحيوانية، هو جلد الماعز، ويعرف "بارتفاع ثمن جلده "[6].

ومن طرائف الملابس، بان البعض من الناس لم يلبس قط قميصاً، واخر لم ينزع قميصه قط[7]، وكان الشاعر بشار بن برد الاعمى، اذا اراد نزع شئ من ملابسه، " اطلق الازرار فسقطت الثياب على الارض، ولم ينزع قميصه من جهة راسه قط "[8].

---

(6) الثعالبي، ثمار القلوب، نقلاً عن الجاحظ، ص530.
(7) الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص27.
(8) ينظر: الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص29.
(9) م.ن،ص30-31.
(10) م.ن، ص26.
(1) نسبة الى خوارزم، وهي اسم للناحية بجملتها، فاما القصبة العظمى فهي الجرجانية/ينظر:ياقوت الحموي، امعجم البلدان،جـ2،ص395.
(2) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص26.
(3) ينظر: الجاحظ، البخلاء،ص87.
(4) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص70.
(5) الجاحظ، البخلاء، ص147.
(6) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص459.
(7) ينظر: الجاحظ، البيان، جـ3، ص116.
(8) م.ن، جـ3، ص116.

اما لباس الرأس، فهو مختلف ومتنوع ومنها العصابة والعمامة والقلنسوة[1]، وهما سواء، " واذا قالوا سيد معمم فانما يريدون ان كل جناية يجنيها الجاني من تلك العشيرة فهي معصوبة براسه "[2].

واعتز العرب بالعمائم وعظموها، ولذلك قال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه): " العمائم تيجان العرب "[3]، وقيل الاعرابي: " مالك لا تضع العمامة عن رأسك؟ قال: ان شيئاً فيه السمع والبصر لحقيق بالصون "[4].

وقد اظهرت كتب الادب العربي، بان للعمائم فضائل كثيرة ومتنوعة[5]، وفي الوقت نفسه فان الجاحظ يخبرنا بان للعمامة جمالية وهيبة، ولذلك قال " علي بن ابي طالب (رضي الله عنه): جمال الرجل في عمته "[6].

وتختلف العمامة بتصميمها وطرازها حسب اصناف الناس ومهنهم، " فللخلفاء عمة، وللفقهاء عمة، وللبقالين عمة، وللاعراب عمة، وللصوص عمة،وللابناء عمة، وللروم والنصارى عمة "[7].

ويبين لنا الجاحظ بان الاعرابي اكثر الناس استخداماً للعمامة، لانه "يجد في راسه من البرد، اذا كان حاسراً، ما لا يجده احد، لطول ملازمته العمامة، ولكثرة طيها وتضاعف اثنائها. ولربما اعتم بعمامتين "[8].

ويخبرنا بان القلنسوة هي اضخم واطول من العمامة[9]، ولذلك فان " استعمال القلنسوة اقل استعمالاً من العمامة وخاصة بين عامة الناس، وكان الخلفاء يتدخلون في تطويل القلنسوة او تقصيرها[10]، ويبدو ان عامة الناس تستخدم القلانس في الشتاء اكثر من الصيف لتحميهم من شدة البرد، ولكنهم يستخدموها صيفاً، اذا "دخلوا على الخلفاء وعلى الامراء، وعلى السادة والعظماء، لان ذلك اشبه بالاحتفال، وبالتعظيم والاجلال "[1].

ويبين لنا الجاحظ بان القلانس الطوال كانت صفة لبعض القادة وكبار رجال الدولة، وكان الحجاج بن يوسف " اذا وضع راسه طويلة، لم يجترئ احد .. ان يدخل وعلى راسه مثلها "[2].

وقد اتخذ القضاة القلانس العظام والطويلة ايضاً، حتى ولو في وسط النهار صيفاً، بل وان الخلفاء اذا استخدموا القلانس المكشوفة زادوا في طولها وحدة رؤسها[3]، وعليه فقد اصبحت هذه القلانس ملازمة للخلفاء ولا يسمح ان تضع على رؤوس العامة من الناس عند الدخول الى مجالس الخلفاء، ولذلك فعندما دخل احد الشعراء العمانيين

---

(1) القلنسوة والعمامة: ما يلاث على الرأس تكويراً / ينظر: ابن سيده،المخصص،جـ4،ص82.
(2) الجاحظ، البيان،جـ3،ص99.
(3) م.ن،جـ2،ص88.
(4) م.ن،جـ2،ص88.
(5) ومن فوائد العمائم انها ستر للراس، كذلك لاخفاء الصلع / ينظر: القيرواني، زهر الاداب،جـ1،ص303.
(6) الجاحظ، البيان،جـ2،ص88.
(7) م.ن،جـ3،ص114.
(8) الجاحظ، البخلاء،ص (308-307).
(9) ينظر: التنوخي، الفرج بعد الشدة، نقلاً عن الجاحظ، جـ1،ص361.
(10) الاطرقجي،د.رمزية، الحياة الاجتماعية في بغداد منذ نشأتها حتى نهاية العصر العباسي الاول، ط1، بغداد، 1982،ص268.
(1) الجاحظ، البيان،جـ3،ص114.
(2) الجاحظ، التاج،ص56.
(3) ينظر: الجاحظ، البيان،جـ3،ص117.

علـى الرشـيد لينشـده شـعراً، وعليـه قلنسـوة طويلـة، فقـال لـه الخليفـة: " ايـاك ان تنشـدني الا وعليك عمامة "[4].

وهنالـك مفـاخر واستحسـان للعمامـة عنـد العـرب، فكـان هشـام بـن عبـد الملـك لا يستسيغ وضـع العمامـة علـى راسـه لتغطـي اذنـه عنـد سـماعه حـديث بعـض النـاس المهمـين والمقربين لديه[5].

واذا اصابهم جوع او قحط، "شدوا بالعمائم اوساطهم "[6].

ويخبرنـا الجـاحظ بـان لفضـل العمامـة عنـد العـرب كبيـر، بحيـث جعلوهـا لـواءً، عندما قـام الاحنـف بـن قـيس بعقد اللـواء الـى احـدهم عنـدما " نـزع عمامتـه مـن راسـه فعقـدها له "[7].

وهنالـك مـن يضـع العمامـة او العصـابة علـى راسـه وهـي مكتـوب عليهـا، وقـد شـاهد الجـاحظ احـدى الجـواري وقـد وضـعت علـى راسـها عصـابة، مكتـوب عليهـا ابيـات مـن الشعر، جاء فيها:

"عين مسهدة في مائها غرقت ... ياليتهـا ذهبت لو لم تكن خلقت
لم تذهب النفس الاعند لحظتها ... ولا بكـت بـدمٍ الا لمـا ارقت
يا مقلةٍ سوف ابكيها ويا كبداً ... بها احاط الهوى والشوق فاحترقت "[1]

وفـي بعـض المعـارك، يضـع الـبعض مـن المسـلمين العمامـة علـى راسـه مقـدماً عمامتـه بريشـة، فكـان حمـزة بـن عبـد المطلـب (رضـي الله عنـه)، يضـع يـوم بـدر ريشـة نعامة حمراء[2].

واجتهدوا في عقد العمامة، فكان مصعب بن الزبير[3] يعقد عمامته في القفا[4].

ومـن انـواع الملابـس الاخـرى للـرأس هـو القنـاع، "وان رسـول الله (صـلى الله عليـه وسلم) كان لا يكاد يرى الا مقنعاً "[5].

والقنـاع "اهيـب فـي الصـدور، واجـل فـي العيـون والمتقنـع اروع مـن الحاسـر، لانـه اذا لـم يفارقـه الحجـاب وان كـان ظـاهراً فـي الطـرق كـان أشـبه بمباينـة العـوام وسياسـة الرعية .. وطرح القناع ملابسة وابتذال "[6].

امـا لبـاس القـدم فهـو الخـف والنعـال[7]، وهنالـك فـي الدولـة العربيـة الاسـلامية فـي العصـور العباسـية، انـواع عديـدة مـن الخفـاف والنعـال[8]، وارتـداء النعـال ظـاهرة وانسـانية

---

(4) م.ن،جـ1،ص95.
(5) ينظر: م.ن،جـ1،ص354.
(6) م.ن،جـ3،ص105.
(7) م.ن،جـ3،ص105.
(1) الوشاء، الموشى،نقلاً عن الجاحظ،ص257.
(2) ينظر: الجاحظ، البيان،جـ3،ص101.
(3) مصعب بن الزبير بن العوام، استعمله اخوه على البصرة، وقتل المختار، وقتل سنة احدى وسبعين للهجرة / ينظر: الكتبي، فوات الوفيات،جـ4،ص143.
(4) ينظر: الجاحظ، البيان،جـ3،ص103.
(5) م.ن،جـ3،ص102.
(6) م.ن،جـ3،ص118.
(7) الخف والنعال: ماوقيت به رجلك من الارض/ينظر:ابن سيده، المحفص،جـ4،ص114.
(8) ومنها النعال الزيجية،والثخان الكبناتية،والمشـعرة اليمانية والخفاف الهاشـمية والمكسـورة الكتانية /ينظر: الوشاء، الموشى،ص161.

اهتم بها العرب، ولذلك قال الاحنف بن قيس: " استجيدوا النعال فانها خلاخيل الرجال "[9].

ويخبرنا الجاحظ بان لعامة الناس في لبس النعال معتقدات وآراء، فعندهم "ان لبس النعال السود يورث الغم والنسيان "[1].

وللمجوس خصوصية في لبس النعال، " فلا تجده ابداً الا حافياً او لابساً نعلاً سندية"[2].

وهنالك من النساك، من يعترض على الاكثار من شراء النعال والخف، فلقد "لقى ناسك ناسكاً ومعه خف فقال: ما تصنع بهذا ؟ قال: عُدة للشتاء. قال: كانوا يستحيون من هذا "[3].

وعندما يتحدث الجاحظ عن بخل المروزيين، فانه يربط هذا الموضوع مع النعال والخفاف، فكان احد المروزيين " لا يلبس خفاً ولا نعلاً الى ان يذهب النبق اليابس، لكثرة النوى في الطريق والاسواق "[4]،وكذلك فان " ناس من المراوزة اذا لبسوا الخفاف في الستة الاشهر التي لا ينزعون فيها خفافهم، يمشون على صدور اقدامهم ثلاثة اشهر، وعلى اعقاب ارجلهم ثلاثة اشهر حتى يكون كانهم لم يلبسوا خفافهم الا ثلاثة اشهر،مخافة ان تنجرد نعال خفافهم او تنقب "[5]، وبما ان الرواية الاخيرة للجاحظ فيها البعض من المبالغة، الا انها لا تنفي في حقيقة الامر البخل عند اهل مرو، ومحاولات الجاحظ الدفاعية عن الكرم والسخاء واللذين هما من سمات الانسان العربي الاصيلة.

الطعام والأشربة

تطرقت مؤلفات الجاحظ الى عدة مواضيع فيما تخص الطعام والمأكولات والاشربة، وجميعها تعطي لنا صورة اضافية عن الحياة الاجتماعية في المجتمع العربي الاسلامي.

ويعطي لنا الجاحظ رؤيته الفكرية في حاجة الانسان اليومية الى الطعام، لان غاية الانسان في ذلك " هو الشبع لدفع الم الجوع وفاخر الطعام ودنيئه جميعاً مشبعان:

---

(9) الجاحظ، البيان،جـ2،ص88.

(1) الجاحظ، الحيوان،جـ5،ص380.

(2) الجاحظ، البخلاء،ص147.

(3) الجاحظ، البيان،جـ3،ص154.

(4) الجاحظ، البخلاء،ص(46-45).

(5) م.ن،ص45.

فليس للمبالغة في تجويد الطعام كبير. والاولى هو التوسط في انواع المآكل وان يكون من الجنس الذي نشأ عليه الانسان واعتاده والفه "[1]، كما ان اهل الاخلاق قد حثوا للتمسك عن الشره الى فنون الشهوات المحسوسة من المآكل والمشارب "[2].

ويبين لنا بان البحث عن الطعام من الامور المهمة للانسان بان يجعل " ذهنه في مطعمه ويشغل روحه وجوارحه فيه، لان تأخذ كل جارحةٍ بقسطها من الطعام، فيتغذى بها البدن "[3].

وتعظم العرب اهل الكرم والضيافة، ومنه القيام بتقديم الطعام للضيوف، ولذلك " كانت قريش تألف منزل ابي بكر رضي الله تعالى عنه لخصلتين: العلم والطعام، فلما اسلم اسلم عامة الناس من كان يجالسه "[4].

وان الكرم في الطعام لا يقتصر عليه في المآكل والمشارب، بل على الكريم "ان لا يستبد بالماكل والمشرب وحده بل يقصد ان يشرك في مآكله من ذلك اخوانه واوداءه ان رعية او سوقة وان كان ملكاً او رئيساً فيجمع عليهً غاشيته وندماءه ويعم به اصحابه واعوانه ويتفقد بفضلاته اهل الفقر والمسكنة "[5].

وعند الجاحظ بان للتغيرات المناخية من خلال الفصول الاربعة، لها دور في اعداد الغذاء والطعام للناس، وبيان ذلك بان فصل الخريف يجعل " الغني والفقير بميرته مثلين غير مختلفين، فبيوتهم مملوءة حبوباً، وحبابهم مشحونة مشروباً، ونهارهم مشغول باقتناء المير والذخائر التي اوسعها عليهم الخريف لشتائها .. ولياليهم ملهى بالشراب والطيب والفواكه اللذيذة والرياحين "[1].

وفي الربيع فان الناس غذاؤهم من "الخبز الحنطي النقي واللحم من الرضيع والشراب العنبي العتيق .. وتنقلهم بالفواكه التي قلما تعفن بمنزلة الرمان والسفرجل والتفاح ونحوها مما يبقى في الشتاء بقوته، ومشمومهم من الورد الرائح اللائح "[2].

ويتطرق الجاحظ الى ظاهرة تناول الطعام عند الرجال والنساء، وبين زعم البعض من الناس ان النساء في الجملة آكل من الرجال، ويبين علة ذلك بان " اكل النساء يكون متفرقاً، من غدوة الى الليل، والرجل اكله في الدفعة اكثر من هذا في الجملة "[3]، ونرى ان ذلك يعود الى مكوث المرأة في البيت،ولاوقات طويلة، ويكون الطعام بقربها، في حين يمكث الرجل طيلة النهار خارج البيت،منشغلاً في عمله اليومي.

وهنالك اداب ومراسيم لمآدب الطعام، وخاصة في مجالس الخلفاء، ويروي لنا الجاحظ عن ذلك، بان شاب من بني هاشم دخل على الخليفة المنصور، وهو يتناول طعام الغداء، فقال المنصور للفتى: ادنه. قال الفتى: قد تغديت يا امير المؤمنين، فلما خرج الفتى من مجلس الخليفة، وكان من وراء الستر دفع في قفاه من قبل الحجاب حتى اخرجوه من الدار، فدخل رجال من عمومة الفتى فشكوا للخليفة المنصور ذلك، فاستفسر

---

(1) الجاحظ، تهذيب الاخلاق،ص38.
(2) ابن سينا، رسالة في الاخلاق، ورقة رقم (15).
(3) الجاحظ،التاج،ص27.
(4) الجاحظ، البيان،جـ4،ص76.
(5) الجاحظ، تهذيب الاخلاق،ص48-49.

(1) الجاحظ، سلوة الحريف،ص20.
(2) م.ن،ص23.
(3) الجاحظ، الرسائل، البغال،جـ2،ص341.

الخليفة عن سبب طردهم للفتى،فقالوا له، هذا الفتى كان يسلم من بعيد وينصرف،فاستدناه امير المؤمنين حتى سلم عليه من قريب، ثم امره بالجلوس، ثم دعاه الى طعامه ليأكل من مائدته،فبلغ من جهله بفضيلة المرتبة التي صيرةٌ فيها ان قال حين دعاه الى غدائه: قد تغديت. فاذا ليس عنده لمن تغدى مع امير المؤمنين الاسَد خلة الجوع، ومثل هذا لا يقومه القول دون الفعل "[4]، وهو تدريب على اتقان الكلام اللائق امام كبار رجال الدولة.

وهنالك من يرى بان الدعوات لموائد الطعام يجب ان تكون للجميع دون تمييز، وهي احدى صفات الكرم، ولذلك " قيل لعروة بن عدي بن حاتم وهو صبي، في وليمة كانت لهم: قف بالباب فاحجب من لا تعرف وائذن لمن تعرف. فقال: لا يكون والله، اول شئ استكفيته منع الناس من الطعام "[1].

وقد تعاملوا مع الجوع بوسائلهم الخاصة، وتبين تلك الوسائل قدرتهم على الصبر والتحمل، " وان احدهم ليجوع حتى يشد على بطنه الحجارة، وحتى يعتصم بشدة معاقد الازار، وينزع عمامته من راسه فيشد بها بطنه، "[2] حتى كان اصحاب رسول الله صلى الله وسلم يشدون الحجر على بطونهم، من الجوع والجهد، "[3]ولذلك " قيل حالان لا يفلح صاحبهما: فقير كده الجوع. وغريب لا يمكنه الرجوع"[4]حتى ان طعام الفقراء ثم أصبح بسيطاً ومتواضعاً من اجل ان لا يقع تحت قسوة الجوع، فكان " طعامهم يتألف من خبز شعير .. وبقل وكراث، او من رغيف وقطعة من الجبن او من الباذنجان وخبز الشعير، او من الخس والكرفس والجبن"[5].

ومؤلفات الجاحظ، تحثنا على عدم الاكثار من الطعام والابتعاد عن السمنة والبدانة، قائلاً في ذلك: " لم صفت اذهان العرب، ولم صدقت احساس لبعرب، ولم صحت ابدان الرهبان، مع طول الاقامة في الصوامع، وحتى لم تعرف النقرس ولا وجع المفاصل ولا الاورام،الا القلة الرزء من الطعام، وخفة الزاد والتبليغ باليسير"[6].

وللسمنة اسبابها، فقيل لسمين: ما اسمنك؟ قال: قلة الفكرة، وطول الدعة، والنوم على الامتلاء من الطعام[7].

وان قوة الارادة للانسان لقادرة على التخلص من البدانة، فلقد " ذم رجل عند الاحنف بن قيس الكمأة بالسمن، فقال عند ذلك الاحنف: (رب مذموم لا ذنب له)"[1].

(4) ينظر: الجاحظ، البيان،جـ2،ص329.

(1) الجاحظ، الرسائل، الحجاب،جـ2،ص72.
(2) الجاحظ، البخلاء،ص307.
(3) الجاحظ، الحيوان،جـ4،ص427.
(4) الهمزاني، المقامات،ص155.
(5) عبد الرزاق ،فهمي، العامة في بغداد، بيروت،1983،ص210.
(6) الجاحظ، البخلاء،ص156.
(7) ينظر: م.ن،ص254.

(1) الجاحظ، الحيوان،جـ1،ص24.

ويعلق الجاحظ على مخاطر الافراط في الطعام قائلاً: " ولو سألت حذاق الاطباء لاخبروك ان عامة اهل القبور انما ماتوا بالتخم "[2]، ولذلك قال الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): "اياكم والبطنة فانها ثقل في الحياة ونتن في الممات"[3].

والبعض من الناس، يفضل الهزال على السمنة، وهنالك من اصابه المرض الشديد، فلزم بيته، فقيل له: " تموت هزلاً، قال: لان اموت مؤمناً مهزولاً احب الي من ان اموت منافقاً سميناً "[4].

وهنالك تسميات متعددة لمجالس الطعام، ومنها المادبة[5]، والدعوة[6]، والاعذار[7]، والوكيرة[8].

وهنالك تسميات اخرى في طرق تناول الطعام، ومنها اللكام[9]، والمصاص[10]، والمسوغ[11].

وتناول الطعام، يتم ام بيد واحدة او اثنتين، ولذلك " قربوا الى حسان بن ثابت طعاماً بعد ان كف بصره فقال لابنه: (اطعام يد او يدين) طعام يد: الثريد وما اشبه ذلك.. والعصائر .. والارز.. وطعام يدين كالشواء وما اشبه ذلك "[12].

وفي جودة الطبخ عند العبيد، فانه لا يوجد بينهم " اطبخ من السندي، هو اطبع على طيب الطبخ كله"[1].

ويبين لنا بان لاهل الهند مشاكل صعبة في الطبخ وتناول الطعام، فانهم "لا يطبخون قدراً، ولا يعملون حلوى ولا يكادون ياكلون الا ليلاً، لما يتهافت من الذبان في طعامهم "[2]، ونرى ان ذلك مبالغ فيه لان الانسان قد تكيف مع وسائل الطبيعة، من الطعام هو من الضروريات اللازمة له.

ولاهمية الطعام في بناء جسم الانسان، واعطاء الطاقة اللازمة له لممارسة حياته اليومية، فلا بد من التنويع في الطعام للحصول على عناصر ومركبات غذائية متنوعة، ولذلك سأل احدهم عن ادمه، فقال: "يوم لبن، ويوماً زيت، ويوماً سمن، ويماً تمر، ويوماً جبن، .. ويوماً لحم "[3].

ويرى البعض من الناس، بان وجبة العشاء يجب ان تكون بسيطة وغير ثقيلة، ومنهم من يتعشى على "الخبز والزيتون "[4].

---

(2) الجاحظ، البخلاء،ص155.
(3) الاصبهاني، محاضرات الادباء، جـ3، ص287.
(4) الجاحظ، البيان،جـ3،ص152.
(5) المأدبة اسم لكل طعام دعيت اليه الجماعات / ينظر: الجاحظ، البخلاء، ص297.
(6) الدعوة: حضور الشخص من خلال دعوته لشخص اخر/ينظر:الجاحظ، الرسائل،البغال،جـ2،ص365.
(7) الاعذار: الطعام في مناسبات الختان / ينظر: الجاحظ، البخلاء، ص299.
(8) الوكيرة: وهو طعام البناء. كان الرجل يطعم من يبني له، واذا فرغ من بنائه تبرك باطعام اصحابه ودعائهم / ينظر:م.ن،ص300.
(9) اللكام: الذي فيه اللقمة، ثم يلكمها باخرى قبل اجادة مضغها او ابتلاعها / ينظر: م.ن،ص110.
(10) المصاص: الذي يمص جوف قصبته العظم، بعد ان استخرج مخه، واستاثر به دون اصحابه / ينظر: م.ن،ص110.
(11) المسوغ: الذي يعظم اللقم، فلا يزال قد غص، ولا يزال يسيغه بالماء / ينظر: م.ن،ص111.
(12) الجاحظ، البرهان والعرجان، ص577.
(1) الجاحظ، الرسائل، مفاخر السودان،جـ1،ص224.
(2) الجاحظ، الحيوان،جـ3،ص328.
(3) الجاحظ، البخلاء،ص283.
(4) الجاحظ،البيان ،جـ4،ص12.

وهنالك اهتمام بادوات مائدة الطعام، فيصف لنا الجاحظ مائدة احد الناس، بانها تتكون من قاعدة لوضع الطعام صنعت من الخشب،وقد وضعت عليها اواني الطعام الخزفية، والالوان طيبة شهية وغذية،وكل رغيف في بياض الفضة، كانه البدر وكأنه مرآة مجلوة[5].

واستخدموا عظام الحيوانات كزيت في مصابيحهم، ومنها " قحف الراس واللحيان وسائر العظام فسبيله ان يكسر بعد ان يعرف، ثم يطبخ،فما ارتفع من الدسم كان للمصباح "[6].

وكذلك فانهم استفادوا من الزيت المستخلص من عظام الحيوانات في الادام للطعام[7].

اما المرق المصنوعة من الحيوانات، " فليس يجمد مرق لحم الحيوان السمين،مثل الخنزير والفرس، واما ما كان ... تجمد، مثل مرق لحم المعزى "[1].

واهتم العرب بتناول طعام الثريد في موائدهم، واعتبروها من الاطعمة المحببة لديهم، " ولعظم صفة الثريد في اعين قريش سموا عمرو بن عبد مناف بهاشم، حين هشم الخبز واتخذ منه الثريد، حتى غلب عليه الاسم المشتق له من ذلك[2].

ويصف لنا الجاحظ هيئة الثريد على مائدة الطعام عندما اتوه به، بانها قطعة ضخمة فيها ثريدة كهيئة الصومعة، مكللة باللحم وعظمها[3].

ويخبرنا بان البعض من العرب قبل الاسلام، " كانت تأكل دم الفصد[4]، وتفضل طعمه، وتخبر عما يورث من القوة "[5].

ومن الاكلات العباسية المعروفة في عصر الجاحظ، هي الهريسة[6]، ويفضل ان تقدم حارة لتناولها[7]، ويبدو ان الهريسة بالرغم من انها من الاكلات البسيطة الا انها كانت طعام الكبار رجال الدولة ايضاً[8].

ومن طعام الاعراب،اكل الجراد،" فلا يتقدمه في الطيب شئ "[9]، ويستفاد الاعراب منه كطعام، في مواسم غزوه للبوادي حيث " ينساب على وجه الارض مثل السيل فيغشى السهل والجبل والبدو والحضر حتى يستر نور الشمس بكثرته "[10].

وطعام الجراد "يطيب حاراً وبارداً، ومشوياً ومطبوخاً، ومنظوماً في خيط"[11].

---

(5) ينظر: الجاحظ، البخلاء،ص79.
(6) م.ن،ص54.
(7) م.ن،ص54.
(1) الجاحظ،الحيوان،جـ4،ص53.
(2) الجاحظ، البخلاء،ص108.
(3) ينظر:م.ن،ص277.
(4) الفصد: شق العرق / ينظر: ابن منظور، لسان العرب،جـ3،ص336.
(5) الجاحظ،الحيوان،جـ4،ص96.
(6) سميت هريسة لانها تهرس أي تدق / ينظر : ابن قتيبة، ادب الكاتب، ص143.
(7) ينظر: الجاحظ،البخلاء،ص100.
(8) التوحيدي، الامتاع والمؤانة، شرح احمد امين، مكتبة الحياة، بيروت،بدون سنة،جـ3،ص75.
(9) الجاحظ،الحيوان،جـ5،ص565.
(10) الجاحظ، الدلائل والاعتبار،ص42.
(11) الجاحظ،الحيوان،جـ5،ص565.

ومن اطعمة الاعراب ايضاً الحيات، وقال له احدهم: " كنت بالبادية،فرايت ناساً حول نار فسألت عنهم، فقالوا: قد صادوا حياتٍ فهم يشوونها ويأكلونها "[1].

ويبين لنا الجاحظ في مؤلفاته عن استخدامات دقيق الحنطة والشعير في صناعة الخبز والمعجنات، ومن اجود انواعه الخشكار[2] والخشكناته[3]،المستخدمه في عصره[4].

ويبين لنا، بان البعض من الخبازين يرمي بدرق الحمام " في الخمير لينتفخ العجين ويعظم الرغيف، ثم لا يستبين ذلك فيه "[5].

وعند علماء الاخلاق، ان للخبز اهمية لديهم، فلذلك ياكل "الخبز القفار الذي لا ادم معه في بعض الاوقات وهذه الاداب وان كانت جميلة فهي بالاغنياء افضل واجمل "[6].

ويخبرنا الجاحظ بان العلك كان معروف لديهم، " فدفعوا الى اعرابية علكاً لتمضغه فلم تفعل فقيل لها في ذلك فقالت: ما فيه الا تعب الاضراس وخيبة الحنجرة"[7].

ومن ابرز عناصر الطعام هي اللحوم، حتى ان البعض من الناس، اصبحت له عادة في اكل اللحوم لا يتمكن من تركها،واصبح " مدمن اللحم كمدمن الخمر "[8]،ولذلك " فلا عجب ان اكل اهل العراق وخاصة الاغنياء منهم الجداء المشوية ولحم الغنم والبقر المجزور وانواع الطيور والسمك والرؤوس "[9].

ولاهمية اكل اللحوم عند الناس، فانهم " لا يكادون يجمعون على خوان واحد بين الرؤوس واللحم "[1]، وان اهتمامهم الكبير باللحوم، ففضلاً عن طعومها المميزة، الا " ان اللحم اقوى الاغذية كلها ويقوي البدن "[2].

وعند الناس، فان " بطون البقر اطيب من ظهورها، وبطن الشاة كذلك"[3]،وان لحم " السرة من الشاة اطيب اللحم "[4].

ولارتفاع اسعار اللحوم، "قال بعضهم اني اشتري اللحم فاخفيه من جيراني مخافة ان يحسدوني وذلك ان الجيران رحمك اله طلائع عليك "[5].

وكانت عادة ذبح الذبائح والقربان موجودة عند العرب قبل الاسلام، " فكانوا يقولون في موضع الكفارة والامنية، كقول الرجل: اذا بلغت ابلي كذا وكذا وكذلك

---

(1) الجاحظ، الحيوان، جـ4،ص302.
(2) الخشكار: الخشكر ما خشن من الطحين/ينظر: شير، ادي، الالفاظ الفارسية المعربة، بيروت، بدون سنة،ص55.
(3) خشكنانة: كليجة/ينظر: البغدادي، محمد عبد الكريم (الف كتابة سنة 623 هـ/1226م)، الطبيخ، تحقيق د.داود الحلي، بيروت، بدون سنة،ص79.
(4) ينظر: الجاحظ، الرسائل، الجد والهزل، جـ1،ص266.
(5) الجاحظ،الحيوان،جـ3،ص253.
(6) مسكويه، تهذيب الاخلاق،ص50
(7) الجاحظ،البيان،جـ1،ص95.
(8) ابن عبد ربه، العقد الفريد، نقلا عن الجاحظ، جـ8، ص17.
(9) الالوسي،د.فاروق عبد الرزاق، الحياة الاجتماعية في العراق في العصر الاموي، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، كلية التربية/جامعة بغداد، 19995،ص85.
(1) الجاحظ، البخلاء،ص159.
(2) ابن سيار، ابو محمد بن علي بن عطية الحارثي (ما زالت سنة وفاته مجهولة)، الطبيخ، مخطوطة ومصورة في المجمع العلمي العراقي تحت رقم (1683)، ورقة رقم (14).
(3) الجاحظ، الرسائل،تفضيل البطن،جـ4،ص160.
(4) م.ن، جـ4،ص163.
(5) الجاحظ، الرسائل، للساسي،ص6.

غنمي، ذبحت عند الاوثان كذا وكذا عتيرة. والعتيرة من تنسك الرجبية والجمع عتائر- والعتائر من الظباء "[6].

ويأكل الصوفية والنصارى لحوم السمك ولا يأكلون اللحوم الاخرى، ويعلق على ذلك الجاحظ، قائلاً: " افلأن السمك لا يألم القتل، ام لان السمك لما قتلتموه بلا سكين لم يحس قتله؟ فالجميع حيوان، وكل مقتول يألم، وكل يحسّ "[7].

ويبين لنا بان البصريين " يختارون لحم الماعز الخصي على الضأن كله، ورؤوس الظأن اشحم والحم وارخص رخصاً واطيب ورأس التيس اكثر لحماً من رأس الخصي،لان الخصي من الماعز .. يقل لحم راسه ولا يبلغ جلده[8]، ويبدو ان تفضيلهم للحم الماعز يعود الى رخص سعره، " لان الماعز في الثمن عشر ما يبلغ جلد التيس "[9].

ويخبرنا الجاحظ، بان الخباز، فضلاً عن عمله في صناعة الخبز، الا انه يقوم كذلك بشوي اللحوم، والبعض من هؤلاء الخبازين يتعمد في اطالة شوي اللحوم ليستخلص دسمها ويستفاد منه، ولذلك عندما اراد احدهم شواء اللحم عند الخباز، " وكان يعجبه ما رطب من الشواء. فقال لخبازه: اتظن ان صنيعك يخفي علي ؟ انك لست تبالغ في انضاجه لتطيبيه، ولكن تستحلب جميع وسمه، فتنتفع بذلك منه "[1].

ويبدو ان احضار الجدي في الولائم هو من الموائد لرفيعة، وكان " كالعلامة لليسر والفراغ "[2].

ومن الاكلات المفضلة لاهل الشام في اللحوم، هو اكلهم للحملان، لانهم يطيبونها ويسمونها (العماريس).ولما قدم عبد الملك بن مروان الى الكوفة، وضعوا بين يديه جدياً، قال: فهلا جعلتموه عُمّروساً ؟ قالوا: يا امير المؤمنين،تلك عماريس الشام، فاما العراق فجداؤها اطيب واكرم[3].

وهنالك كراهية لاكل لحوم الماعز عند البعض من الاطباء، وقد اخبر احدهم الجاحظ في ذلك قائلاً: " يا ابا عثمان، اياك ولحم الماعز، فانه يورث الهم، ويحرك السوداء، ويورث النسيان، ويفسد الدم، وهو والله يخبل الاولاد "[4].

وهنالك تسميات لذبح واكل الذبائح، ومنها النقيعة[5]،والعقيقة[6].وهناك تقزز من اكل لحم الارنب عند الناس، ولكننا نرى البعض منهم، يأكل ذلك اللحم، ويرى الجاحظ السبب في ذلك: بان هؤلاء " ياكله مرة لبعض التجربة، او لبعض الحاجة، حتى صار ذلك سبباً الى اكلها، حتى يصير بهم الحال الى ان يصيروا ارغب فيها من اهلها "[7].

---

(6) الجاحظ، الحيوان،جـ1،ص18.
(7) م.ن،جـ4،ص433.
(8) الجاحظ، البخلاء،ص158.
(9) م.ن،ص158.
(1) الجاحظ، البخلاء،ص209.
(2) م.ن، ص137.
(3) يتظر: الجاحظ، الرسائل، كتاب البغال،جـ2،ص238.
(4) الجاحظ، الحيوان،جـ5،ص461.
(5) النقيعة: يسمون ما ينحرون من الابل والجزر من عرض المغنم / ينظر: الجاحظ، البخلاء،ص300.
(6) العقيقة: دعوة على لحم الكبش الذي يعق عن الصبي/ ينظر:م.ن،ص301.
(7) الجاحظ، الحيوان،جـ4،ص43.

ومن الاكلات المحببة الى الناس، هي لحوم الاسماك، " وشيئان لا تشبع منهما ببغداد: السمك والرطب "[1].

وافضل ما يقدم السمك في عصر الجاحظ، بان يجعل مشوياً على النار، " تحت الطابق، حتى لا يحتاج من الحطب الى كثير "[2].

وعندهم ان لحم سمك الشبوط معروف بعذوبة لحمه، وهنالك فضيلة لذنبه في ذلك عند الاكل[3].

ومن الاكلات المحببة الاخرى لدى الناس في اللحوم، هو لحم الدجاج، ويبين لنا الجاحظ بان الخلفاء وعامة الناس، " لا يرغبون في شئ من اللحمان رغبتهم في الدجاج، وهم يقدمونها على البط .. والقبج والدراج "[4]،وذلك لان الدجاج "اكثر اللحوم تصرفاً. لانها تطيب شواءً، ثم حاراً وبارداً .. ثم تطيب في الهرائس .. وتطيب طبيخاً .. وان قطعتها مع اللحم دسم ذلك اللحم. وتصلح للحشاوي "[5].

واهتموا بتناول الخضروات، ونظراً لاهميتها في الحياة اليومية، فان الخضروات تدخل في الكثير من الوجبات الغذائية، وعن اهمية الخضروات، فقد سأل الجاحظ ذات يوم ما سرجويه[6]: " ما بال الاكرة وسكان البساتين مع اكلهم الكراث والتمر وشربهم ماء السواقي على المالح اقل الناس خفشاناً وعمياناً وعوراً ؟ قال اني فكرت في ذلك فلم اجدله علة الاطول وقوع ابصارهم على الخضرة "[7].

ويبدو ان الاكثار من تناول الخضروات يؤدي الى التأثير على الاسنان، "فاذا قيل اخضر النواجذ[1]، فانما يريدون انه من اهل القرى، ممن يأكل الكراث والبصل"[2].

ويرى الجاحظ كذلك بان اكل البصل يؤدي الى تقوية العصب، وكذلك الى تقوية الذهن[3]، وهنالك البعض من الادباء من يؤيد بتناول البصل في الوجبات الغذائية نقلاً عن اطباء عصرهم[4].

ونرى الجاحظ يهاجم الباقلاء في مؤلفاته، واهل التجربة يقولون: "انه ما اقام احد اربعين يوماً في منبت باقلاء وخرج منه الا وقد اسقمه سقماً لا يزايل جسمه "[5]،

---

(1) التوحيدي، الامتاع والمؤانسة،جـ3،ص84.

(2) الجاحظ،البخلاء،ص184.

(3) ينظر:م.ن،ص142.

(4) الجاحظ، الحيوان،جـ1،ص233.

(5) م.ن،جـ2،ص249.

(6) ماسرجويه: طبيب يهودي المذهب سريانيا، وهو تولى في الدولة المروانية تفسير الكتب الى العربية/ينظر:ابن جلجل، ابو داود سليمان بن حيان الاندلسي (عاش في القرن الرابع الهجري)، طبقات الاطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، القاهرة،1955،ص61.

(7) الجاحظ، الحيوان،جـ3،ص323.

(1) النواجذ:اقصى الاضراس، وهي اربعة في اقصى الاسنان بعد الارحاء/ينظر:ابن منظور، لسان العرب،جـ3،ص513.

(2) الجاحظ،الحيوان،جـ3،ص248.

(3) ينظر:م.ن،جـ3،ص359.

(4) انه يشهي الى الطعام، وان اكتحل بمائه مع العسل جلا البصر /ينظر:ابن قتيبة،عيون الاخبار،جـ3،ص305.

(5) الجاحظ،الحيوان،جـ3،ص358.

ويعلق الجاحظ على ذلك مضيفاً: " والذباب يخلق من الباقلاء يكون دوداً، ثم يعود ذباباً. وما اكثر ما ترى الباقلاء مثقباً في داخله شئ كانه مسحوق، اذا كان الله قد خلق منه الذبان مصيره. وماكثر ما تجده فيه تام الخلق.ولو تم جناحاه لقد كان طار"[6].

ويضيف الباذنجان الى قائمة الاغذية الرديئة، وذلك على لسان احدهم قائلاً. "كل شئ ينبت منكوساً فهو ردئ للذهن، كالباقلاء والباذنجان "[7]، وكذلك فكان هنالك حذر شديد من تناول الباذنجان عند الازمات الصحية[8].

ومن الاكلات التي تعتمد على الخضروات، والبعض من الناس يتعشى بها، هي اكلة الطفشيل[1] بكثير من اللوبيا[2].

ومن الاغذية الاخرى هي الكمأ، وفيها احجام مختلفة، وتكاد تكون الواحدة " كالرمانة الفخمة، ثم تتخلف من غير بزر، وليس لها عرق تمص به من قوى تلك الارض .. اذا ابصر الاجرد .. استدل على مواضعها بانتفاخ الارض وانصداعها"[3].

ومن الاغذية والاطعمة المهمة هو العسل، " ويجمع في الخريف "[4]، ومن خواص العسل ان كل شئ يتسارع الفساد اليه اذا تركته فيه يبقى بحاله ولا تتعفن ولا يؤثر فيه الفساد"[5].

وللعسل انواع، واجوده " ما كان لونه لون الذهب "[6]، والذي اذا " قطرت منه قطرة على وجه الارض استدار كما يستدير الزئبق ولم ينفش ولم يختلط بالارض والتراب "[7]، وان كان فيه " غشوشة نفشت القطرة على قدر ما فيها، واخذت من الارض واعطتها "[8].

ويعتبر العسل مادة حافظة للمواد الغذائية، "فاذا لقى في العسل اللحم .. فاحتاج صاحبه اليه بعد شهر اخرجه طرياً لم يتغير "[9]، ومتى رجعوا " الى اللحم فغسلوه عنه وجدوه غضاً طرياً، لانه ذهبي الطباع "[10].

ولاهمية العسل، فقد اهتم به كبار رجال الدولة، وعامة الناس، حتى ان الحجاج بن يوسف الثقفي كتب الى عامل له بفارس بان يبعث له بعسل من عسل كرمان، ومن النحل المتميز[11].

---

(6) م.ن،جـ3،ص355.
(7) م.ن،جـ3،ص358.
(8) ان الجارية بدعة الكبيرة صاحبة عريب،دخل عليها وعينيها رمدة وهي تأكل باذنجانا، فقيل لها: أتاكلين هذا وعينيك شاكية؟ /ينظر:ابن الساعي، تاج الدين ابي طالب الخازن البغدادي (ت674هـ/1275م)، نساء الخلفاء المسمى جهات الائمة الخلفاء من الحرائر والاماء، تحقيق د.مصطفى جواد، دار المعارف ،مصر، بدون سنة،ص66.

(1) الطفشيل: ضربا من الاطعمة التي تحضر في التنور / ينظر: البغدادي، الطبيخ،ص220.
(2) ينظر: الجاحظ،الحيوان،جـ3،ص24.
(3) م.ن،جـ6،ص(482-481).
(4) الجاحظ، سلوة الحريف،ص43.
(5) القزويني، عجائب المخلوقات،ص406.
(6) الجاحظ،الحيوان،جـ5،ص417.
(7) ابن قتيبة،عيون الاخبار،جـ3،ص228.
(8) الجاحظ،الحيوان،جـ4،ص202.
(9) م.ن،جـ5،ص429.
(10) م.ن،جـ4،ص202.
(11) ينظر: البيان،جـ2،ص103.

كما اهتموا بالحليب ومشتقاته، واستخدموا من " مشتقاته الاجبان والالبان"[1].
وعندهم " ان لبن الضأن اطيب واخثروا دسم، وزبده اكثر "[2]، ويخبرنا الجاحظ بان البعض من الناس يستخدم اللبن في اغراض اخرى، ففي احدى الولائم قام صاحب المنزل بضرب خيمة، واذا حوله غنيمات، " فدعا بالطعام، فاذا خبزه قد ثرد نصفها في لبن "[3].
وقد اوردت كتب الادب والتراث بانه هنالك طعام يسمى المبطن، وهو الارز الريان مع اللبن[4].
وعند الجاحظ، فان الاجبان معرضة للتلف والفساد تبعاً لطبيعة ما يحيط بها، ويؤكد بان الكثير من الناس قد اخبروه بان اصحاب الجبن بالاحواز وقراها،" ياخذون القطعة الضخمة من الجبن الرطب، وفيها خرق للزنابير، وقد تولد فيها الديدان، فينفضها وسط راحته "[5]،ونلاحظ وفي اكثر من مناسبة بان الجاحظ له آراء متشددة على منطقة الاحواز في اجواءها وفي رجالها، ونعتقد بان هذا الموضوع لا يخلو من المبالغة، لان رواياته واخباره عن الاحواز ينفرد به، ولم نعثر على ما يؤيد ذلك في الكتب والمصادر التي اطلعنا عليها على حد معرفتنا بها.
وقد اهتم المجتمع العربي الاسلامي بصناعة الحلويات، والحلوى انواع كثيرة واجناس مختلفة، " وتحتاج الى النشأ واللوز .. وغير ذلك فقد يكون ذلك كثيراً في نوع، وقليلاً في نوع اخر"[6].
ولاهمية الحلوى والسكر في حياة الناس، لانها مصدر الطاقة للعمل والانتاج، مما دفع بالبعض منهم الى ان " يطعم المساكين السكرَّ "[7]،وعند الجاحظ بان للحلويات اضرار " فليس شئ حلو الا وهو ضار بالاسنان "[1]، ويولد من الحلو في " المعد التخم، وفي الابدان الوخم .. وحموضة تولد في الاسنان الضرس "[2].
ومن اشهر الحلويات شهرة في عصر الجاحظ، وفي العراق خاصة، هي الفالوذج[3]،بحيث ان احد الناس " كان له عرس فجعل طعامه كله فالوذق "[4]،وان هذا النوع من الحلوى معروف عند العباسيين ويحتاج الى عدة مواد لصنعها[5].
وتؤكل الفالوذج ساخنة او حارة، بحيث ان احدهم قد جئ اليه بفالوذج حار، فابتلع منها لقمة فغشى عليه من وشدة حرها، فلما افاق قال: لقد مات لي ثلاثة بنين ما دخل جوفي عليهم من الحرقة ما دخل جوفي من حرقة هذه اللقمة "[6].

---

(1) ابن سيار، الطبيخ، ورقة رقم (51).
(2) الجاحظ،الحيوان،جـ5،ص457.
(3) الجاحظ،الرسائل، البغال،جـ2،ص365.
(4) التوحيدي،الامتاع والمؤانسة،جـ3،ص77.
(5) الجاحظ،الحيوان،جـ4،ص46.
(6) الشيزري،نهاية الرتبة،ص40.
(7) الجاحظ، البيان،جـ3،ص158.
(1) الجاحظ،الحيوان،جـ1،ص208.
(2) الجاحظ،الرسائل، الشارب والمشروب،جـ4،ص267.
(3) الفالوذ من الحلواء، هو الذي يؤكل، يسوى من لب الحنطة/ينظر: ابن منظور،لسان العرب،جـ3،ص503.
(4) الجاحظ،البخلاء،ص186.
(5) ومنها الطحين ومغرفة حديد مصفاة حديد لقلع الرغوة/ينظر: ابن سيار، الطبيخ، ورقة رقم (10).
(6) الجاحظ، البيان،جـ2،ص239.

ومـن الاغذيـة المهمـة الاخـرى، هـي الفواكـه، وهـي "مصـححة للابـدان مطـردة للاحزان "[7].

ويـرى الجـاحظ بـان النـاس ميـالون الـى تعظـيم المـاكول اذ اكثـر ثمنـه، او كـان قلـيلاً فـي اصـل منبتـه، قـائلاً فـي ذلـك: " هـذا الجـزر الصـافي .. اطيـب مـن كمثـرى خراسـان، ومـن المـوز .. ولكـن قصـر همـتهم لا يشـتهون الا علـى قـدر الـثمن، ولا يجنـون الـى الشـئ الاعلـى قـدر القلـة. وهـذه العـوام فـي شـهوات الاطعمـة انمـا تـذهب مـع التقليـد، او مـع العـادة، او على قدر ما يعظم عندها من شأن الطعام "[8].

ومـن الفواكـه المتميـزة لاهـل العـراق هـو التمـر، ويبـين لنـا بـان التمـر فـي البصـرة يكـون " مصـبوباً فـي بيـادر التمـر فـي شـق البسـاتين، فـلا تـرى علـى شـئ منهـا ذبابـة لا فـي الليـل ولا فـي النهـار .. وتكـون هنـاك المعاصـر، ولاصـحاب المعاصـر ظـلال، ومـن شـأن الـذباب الفـرار مـن الشـمس الـى الظـل. ثـم لا تكـاد تـرى فـي تلـك الظـلال والمعاصـر، فـي انتصـاف النهـار، ولا فـي وقـت طلـب الـذبان .. الا دون مـا تـراه فـي المنـزل الموصـوف بقلـة الـذبان "[1]،ويضـيف بـان تمـر البصـرة اكثـر التمـور ودبسـهم اكثـر، ثـم يسـتعرض ابـرز انـواع التمـور آنـذاك، ومنهـا الشـهريز حيـث يبقـى عشـرين سـنة، ثـم بعـد ذلـك يخلـط بغيـره فيجـئ لـه الـدبس الكثيـر[2]، ومـن التمـور الاخـرى، الرطـب سـكر وجيسـران اسـود والبرنـي[3].

اما في البحرين، "فان لهم تمراً يسمى النابجي "[4].

ولاهميتـه التمـور، فعنـد الـبعض مـن النـاس اعتبـره وجبـة غذائيـة كاملة،وهـذا مـا قـام بـه احـدهم عنمـا دعـا جـاره الـى وليمـة طعـام، فقـدم لهـم تمـراً وسـمن، ولـيس فـي الخـوان الا هذا[5].

والعنـب مـن الفواكـه المعرفـة عنـد النـاس، وعنـدما استفسـر بـان اهـل كسـكر[6]، لا يوجـد لـديهم اعنـاب، بـالرغم مـن وفـرة الخيـرات لـديهم، فقـالوا لـه:" كـل ارض كثيـرة النمـل لا تصلح فيها الاعناب "[7].

وقـد اسـتخدموا الفواكـه فـي صـناعة المربـى، ومـنهم مـن يصـنع مربـى الاتـرج بالعسل[8]، ليزيد في مذاقها طعماً ولذةً.

واوردت مؤلفـات الجـاحظ معلومـات عـن الاشـربة والتـي تعتبـر عمـاد الحيـاة اليوميـة، وبـالطبع فـان افضـلها هـو المـاء الصـالح للشـرب، مبينـاً بانـه اذا كـان " خالصـاً سـالماً لـم يجـتح الـى ان يشـرب بشـئ غيرهـا فـي خلقتـه مـن الصـفاء والعذوبـة، والبـرد والطيب، والحسن، والسلس في الحلق "[9].

---

(7) ابن الفارض،عمر بن علي بن المرشد الحموي (ت632هــ/1235م)،فوائد البطيخ، مخطوطة مصورة في المجمع العلمي العراقي تحت رقم (1047)، رقم الورقة (141).
(8) الجاحظ، البخلاء،ص139.
(1) الجاحظ،الحيوان،جـ3،ص404.
(2) ينظر: الجاحظ،الرسائل، الاوطان والبلدان،جـ4،ص145.
(3) ينظر:الجاحظ، البخلاء،ص275.
(4) الجاحظ، الحيوان،جـ7،ص230.
(5) ينظر: الجاحظ، البخلاء،ص39.
(6) كسكر: قصتها واسط التي بين الكوفة والبصرة وهي كورة واسعة / ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ4،ص461.
(7) الجاحظ، الحيوان،جـ4نص15.
(8) ينظر:الجاحظ، البيان،ص178.
(9) الجاحظ،الحيوان،جـ5،ص138.

ثم انه يدحض قول بعض الاطباء بان شرب الماء مع الاكل يولد التخمة، ويقول في ذلك: " لو شرب الناس الماء على الطعام ما اتخموا، واقلهم عليه شرباً اكثرهم منه تخماً. وذلك ان الرجل لا يعرف مقدار ما اكل حتى ينال من الماء. وربما كان شبعان وهو لا يدري .. فلم يزد الا بقدر المصلحة "[1]،ثم انه يضيف في ذلك بان الاطباء في عصره يروجون مثل هذه الاراء لاغراض مهنية، قائلاً في ذلك: "والاطباء يعلمون ان ما اقول حق، ولكنهم يعلمون انهم لو اخذوا بهذا الرأي لتعطلوا، ولذهب المكسب. وما حاجة الناس الى المعالجين اذا صحت ابدانهم "[2].

وينصحنا بشرب الماء المعتدل الحرارة، لانه متى "اراد ان يتجرع جرعاً من الماء الحار لصدره او لغير ذلك، فان اعجله امر فبرده بماء بارد ثم حساه ضره ذلك، وان تركه حتى يفتر ببرد الهواء لم يضره. وسبيل المشروب غير سبيل المأكول "[3].

ويتحدث عن ماء زمزم، فيجد ان " البركة والشفاء الذي يجده من شرب من ماء زمزم على وجه الدهر وكثرة من يقيم عليه يجد فيه الشفاء "[4].

ويستعرض فضيلة نهر النيل وما فيه من المياه، مبيناً بان نهر النيل هو خلاف جميع الانهر، لان نضوبه في وقت زيادة الانهر، وزيادته في وقت نقصانها، وفضيلة اخرى لنهر النيل هو وجود التماسيح في عصر الجاحظ معتبراً ان ذلك مضرة معروفة بلا منفعة بوجه من الوجوه، ولم ير تمساح قط في دجلة ولا في الفرات[5].

ويبين لنا بان لاهل البصرة مشاكلهم في الحصول على الماء العذب الصالح للشرب،وقال شيخ منهم: " ماء بئرنا، كما قد علمتم، مالح اجاج، لا يقربه الحمار ولا يستسيغه الابل وتموت عليه النخل، والنهر منا بعيد وفي تكلف العذب علينا مؤونة "[6].

وللماء اهميته على جميع الاشربة الاخرى، فعندما مد الشعبي[1] يده وهو على مائدة قتيبة بن مسلم يلتمس الشراب، فلم يدر صاحب الشراب اللبن، ام العسل، ام بعض الاشربة؟ فقال له: أي الاشربة احب اليك؟ قال: اعزها مفقوداً، واهونها موجوداً. قال قتيبة: اسقه ماءً "[2].

وفضلاً عن ذلك فان في الماء: "اطيب شراب عمل وركب، مثل السكنجبين .. وغير ذلك ما يشرب من الاشربة .. فالماء يشرب صرفاً وممزوجا، الاشربة لا تشرب صرفاً، ولا ينتفع بها الا بممازجة الماء. وهو بعد طهور الابدان،وغسول الادران"[3].

---

(1) الجاحظ،البخلاء،ص138.
(2) م.ن،ص138.
(3) الجاحظ، الرسائل،الاوطان والبلدان،جـ4،ص137.
(4) الجاحظ،الحيوان،جـ3،ص140-141.
(5) ينظر: الثعالبي، ثمار القلوب،نقلا عن الجاحظ،ص569.
(6) الجاحظ، البخلاء،ص47.

(1) ابو عمر عامر بن شراحبيل الشعبي، عالم، فقيه، وله في الكوفة حلقة عظيمة / ينظر: ابو نعيم الاصفهاني، احمد بن عبد الله (ت430هـ/1038م)، حلية الاولياء وطبقات الاصفياء،ط1،دار الكتب العلمية، بيروت،1988،جـ4،ص310.
(2) الجاحظ،الحيوان،جـ5،ص137.
(3) م.ن،ص146-147.

وفـي عصـر الجـاحظ، فـان تنـاول المـاء الصـالح للشـرب يـتم بواسـطة الكـوز المخصصـة لـذلك وهـي تكـون بموضـع المـنكس، ولعلهـم بصـنيع الهـواء اذا احتصـر، جعلـوا سـمك الكـوز الصـينية مثـل طولهـا[4]، لتلافـي ذلـك، لان الكـوز العاديـة اذا اردت ان تشـرب المـاء جـاءت الـى فيـك، وان " اردت ان تصـب مـن رأس الكـوز لتخـرج رجعـت "[5]،والسبب ان الماء يستقر في جوف الكوز.

ويبـدو ان هـذه الكـوز تصـنع مـن الخـزف وهـي " ليست بصـغيرة فيسـقى بهـا ولا كبيـرة فيسـتقى منهـا، وهـي ضـيقة الفـم، ويمنـع ذلـك مـن النظـر الـى القـذى فيهـا، وثخينـة فـلا يصل اليها الهواء، وثقيلة على اليد "[6].

ويسـتخدم الـبعض مـن النـاس هـذه الكـوز لاغـراض اخـرى غيـر شـرب المـاء، ومنهـا الوضـوء، ولـذلك قـال احـدهم لاخـر: سـبحان الله، تتوضـأ بالعـذب، والبئـر لـك معرضـة؟ فقـال له: ليس بعذب، انما هو من ماء البئر[7].

وكـان لهـم الطـرق فـي تبريـد الميـاه للشـرب اثنـاء موسـم الصـيف، وهنالـك مـن يـامر غلمانــه فــي تصــفية المــاء، وفــي تبريــده، وتقديمــه لاصــحابه وزواره[1]،ويجلـب الـثلج مـن المنـاطق الجبليـة و يسـتخدم فـي المـاء الصـالح للشـرب صـيفاً، ويـرى الـبعض مـن الادبـاء والمـؤرخين، بـان الحجـاج بـن يوسـف الثقفـي، هـو اول مـن امـر بنقـل الـثلج الـى واسـط[2]، واصبح ذلك عادة عند كبار رجال الدولة في العصور العباسية فيما بعد[3].

وكانـت الجـرار المذاريـة[4]، غيـر صـالحة لتبريـد المـاء، لانهـا تنشـفه[5]، ولـذلك فكــان النــاس لا يســتخدمونها صــيفاً، ولان الجــرار المذاريــة هــي جــرار شــتوية وليســت صـيفية، لان المـاء فـي بغـداد والبصـرة يكـون بـارداً فـي الاصـل شـتاءً، " بـل ربمـا جمـدوا الماء في البصرة وجميع بغداد "[6].

ومــن الاشــربة اللذيــذة عنــدهم، عنــدما يلقــى العســل .. " علــى عصــير الكــروم فيجودهما "[7].

امـا شـرب النبيـذ، فـان الـبعض مـن النـاس مـن يـزعم " ان معـاقرة الشـراب تعظـم الانـف "[8]، ويبـدو ان هـذا التبريـر لا يسـتند الـى الحقـائق الدينيـة والعلميـة والعقليـة، لان " الخمـرة اول مـا تعملـه، انهـا تـذهب العقـل، وافضـل مـا فـي الانسـان عقلـه، وتحسـن القبـيح وتقبح الحسن "[9].

---

(4) ينظر: م.ن،جـ5،ص116-117.
(5) الثعالبي، ثمار القلوب، نقلا عن الجاحظ،ص618.
(6) الاصبهاني، محاضرات الادباء،جـ4،ص379.
(7) ينظر: الجاحظ،البخلاء ،ص30.
(1) ينظر: الجاحظ، البخلاء، ص56.
(2) ينظر: البيهقي،المحاسن المساوئ،جـ2،ص394.
(3) سـقي مرة الوزير العباسـي ابن الفرات ماء مثلوجا، فلم يسـتبرده، فاسـتزاد من الثلج حتى صـار مائعا، ثم شـربه/ينظر:الصـابئ، ابو الحسـين هلال بن المحسـن بن ابراهيم (ت448هـ/1056م)، الوزراء او تحفة الامراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبد الستار احمد فراج، دار احياء الكتب العربية،1958،ص140.
(4) نسـبة الى المدار، وهي في ميسـان بين واسـط والبصـرة وهي قصـبة ميسـان/ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان،جـ5،ص88.
(5) ينظر: الجاحظ،البخلاء،ص67.
(6) المقدسي، احسن التقاسيم،ص126.
(7) الجاحظ،الحيوان،جـ5،ص430.
(8) الجاحظ،البرصان والعرجان،ص501.
(9) ابن عبد ربه،العقد الفريد،جـ8،ص50.

وبـالرغم مـن المعارضـة الدينيـة والاخلاقيـة والاجتماعيـة، لشـرب النبيـذ والخمـر، الا اننـا نلاحـظ الجـاحظ يـدافع عـن النبيـذ، ويؤلـف رسـالة فـي مـدح النبيـذ ويـذهب بـالقول بـان " مـن اسـتغناء النبيـذ بنفسـه، وقلـة احتياجـه الـى غيـره، ان جميـع مـا سـاواه مـن الشـراب يصلحه الثلج، ولا يطيب الا به "[1].

ويؤكـد علـى دعـم قولـه بـان الظرفـاء والادبـاء فـي عصـره، لهـم رغبـة فـي شـرب النبيـذ، " ولا اجلـب للمؤنسـين، ولا ادعـى الـى خـلاف الممتعـين، ولا اجـدر ان يسـتدام بـه حديثهم ويخرج مكنونهم، ويطول به مجلسهم منه "[2].

وعنـدما يتطـرق الـى ذكـر النبيـذ والمـدح بـه، فانـه يقصـد بـذلك النبيـذ الـذي يسـبب السكر، حيث انـه يصـف مـن يشـرب النبيـذ مـن النـاس، " بـان تـراه وهـو يشـرب فـلا تنكـر منـه شـيئاً، حتـى يغلـب عليـه نـوم السـكر ضـربة واحـدة، ومـنهم مـن تـراه والنبيـذ ياخـذ منـه الاول فـالاول، وتـراه كيـف تثقـل حركتـه، ويغلـظ حسـه ويتمحـق، حتـى يطـيش عليـه السـكر بـالعبث، ويطبـق عليـه النـوم .. ومـنهم مـن يعتريـه البكـاء،ومنهم مـن يعتريـه الضـحك، ومـنهم مـن يعتريه .. التسليم على المجالس، والتقبيل لرؤس الناس "[3].

وعنـده ان النبيـذ " هـو الـذي يـرد الشـيوخ فـي طبـابع الشـبان، ويـرد الشـبان فـي نشـاط الصبيان "[4].

ولكننـا نـرى بـان راى الجـاحظ فـي النبيـذ، فـي حقيقـة الامـر لا يتطـابق مـع الـرأى العـام فـي ذلـك، وقيـل احـدهم لآخـر: "مـا تصـنع بشـرب النبيـذ قـال يهضـم طعـامي قـال امـا انـه يهضم من دينك وعقلك اكثر "[5].

ولكنـه فـي الوقـت نفسـه يخـدرنا مـن شـرب الخمـور وتفضـيلها علـى النبيـذ، لان مـن يفضـل ذلـك " لا تجـده الا جـاهلاً مخـذولاً، او حـدثاً مغـروراً، او خليعـاً ماجنـاً، او رعاعاً همجاً، ومن اذا غدا بهيمة "[6].

والنبيـذ فـي مصـر مميـز، لانـه يتكـون مـن شـراب العسـل الـذي ينتبـذ بمصـر، "وفيـه اعجوبـة: وذلـك انهـم لا يعملونـه الا بمـاء النيـل اكـدر مـا يكـون. وكلمـا كـان اكـدر كـان اصـفى. وان عملوه بالصافي فسد "[1].

فضـلاً عـن ذلـك فـان هنالـك عـدداً مـن انـواع النبيـذ الـذي كـان موجـوداً فـي عصـر الجاحظ[2].

---

(1) الجاحظ، الرسائل، مدح النبيذ،جـ3،ص122.
(2) م.ن،جـ3،ص123.
(3) الجاحظ،الحيوان،جـ2،ص225-226.
(4) الجاحظ، الرسائل، مدح النبيذ،جـ3،ص120.
(5) الابشيهي،المستطرف،جـ2،ص306.
(6) الجاحظ، الرسائل، الشارب والمشروب،جـ4،ص273.
(1) الجاحظ،الحيوان،جـ5،ص429.
(2) وفي تلك الانواع: نبيذ الحمص والعسل الماذي، وعصر الكرم، رزين الاحواز من الزبيب، ومن سلالة الرطب الجنى، والمعتق من انبذة التمر، وكذلك بنبيذ الجزر/ينظر:الجاحظ، الرسائل، الشارب والمشروب،جـ4،ص (272-268).

الحـالة الصحيـة

تتضمن الحياة المعاشية في المجتمعات عدة محاور، ومنها الحالة الصحية، لانها تعطي صورة عن سلامة الأبدان والنفوس، وأن سلامتها لها دور كبير في البناء والعمران والتقدم، وبما أن العمل ينقسم الى مافي النفس وما في الجسم، "وهذا جميع ما يحتاج إليه في علم الطب وعمله"[(1)].

وعليه، فعلى الاطباء مسؤولية عظيمة في سلامة النفوس، واول هذه الشروط التي وضعت في أعناقهم "ستر ما يطلعون عليه في أبدان المرضى، وكذلك حكم من غسل الموتى"[(2)].

ومن سمات الطب في ذلك العصر، بانه يقوم على البرهان في التجارب الأساسية للعلاج، مما يتطلب عملاً مبني على الملاحظة والأختبار لاعراض المرض"[(3)].

وكانت هنالك نزاهة في هذا العمل المقدس، ولذلك قال "شيخ من الأطباء: الحمد لله، فلان يزاحمنا في الطب ولم يختلف الى البيمارستانات تمام خمسين سنة"[(4)].

كما أن الخلافة العباسية قد إهتمت بالجوانب الصحية، وفي القرن الرابع الهجري، جرى غلط على رجل من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل، فامر بمنع سائر المتطببين من التصرف إلا بعد الامتحان لهم[(5)].

وان الإهتمام بالصحة العامة للأنسان تؤدي به الى طول العمر، "وان في الأعراب لاعماراً أطول"[(6)].

وعندهم دلائل على حدوث الأمراض والأوبئة، "فأذا ذهبت الريح المريسية وهي ريح الجنوب ـ ثلاثة عشر يوماً تباعاً، إشترى أهلها الاكفان والحنوط، وأيقنوا بالوباء القاتل"[(1)].

وإن المدخل الحقيقي للوقاية من الأمراض، والتمتع بالسلامة والعافية، تبدأ من الاهتمام بالنظافة، وكان ببغداد أيام العباسيين حمامات كثيرة، وأن هذه الحمامات تحتوي على عدة أفراد متخصصين فيها، مثل الحمامي والزبال والوقاد والسقاء[(2)].

ويستعملون الحجر في الحمامات لازالة الاوساخ، ويخبرنا الجاحظ بانه شاهد شيخ عظيم البدن، جهير الصوت وقد دخل الحمام، ويضيف قائلاً: "بصرت عيني به في الحمام وتناول قطعة من فخار فاعطاها رجلاً وقال له:حك بها ظهري"[(3)].

---

(1) الكوفي، جابر بن حيان (ت 200هـ/815م)، مختار رسائل جابر بن حيان، نشر. كراوس، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1935، ص49.

(2) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص15.

(3) Reuben, Levy, The Social Structure of Islam, Cambridge, 1957, p. 499.

(4) الجاحظ، البيان، جـ3، ص252.

(5) ابن ابي اصيبعة، موفق الدين ابي العباس الخزرجي (ت 668هـ/1269م)، عيون الانباء في طبقات الاطباء، تحقيق د. نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت، بدون سنة، ص302.

(6) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص157.

(1) الثعالبي، ثمار القلوب، نقلاً عن الجاحظ، ص656.

(2) ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ1، ص(118-117)؛ ابي الجوزي، مناقب بغداد، ص24.

(3) الجاحظ، البيان، جـ3، ص(210-209).

ويستعملون النورة في الحمامات أثناء الغسل، للحصول على المزيد من النظافة والإحتفاظ بالصحة، وهنالك احد الاشخاص يجيء الى الحمام بين فترة وأخرى ويمسح جزء من جسمه بالنورة ثم يغتسل فيما بعد، ويأتي مرة أخرى وفي نفس الساعة، فيقوم بوضع النورة والغسل، حتى يغسل بذلك جميع أجزاء جسمه[4].

ولهم في العلاج طرق مختلفة، ومنها الطريف في ذلك، فقد خاف أحدهم الجذام، وهو بلال بن أبي ردة والي البصرة، "فوصفوا له الإستنقاع في السمن، فكان إذا فرغ من الجلوس فيه أمر ببيعه"[5].

ومن مظاهر الحفاظ على الصحة والسلامة البدنية، هو التمتع بالقدر الكافي من النوم،"وسلطان النوم معروف. وإن الرجل ممن يغزو في البحر، ليعتصم بالشراع وبالعود، وبغير ذلك، وهو يعلم أن النوم متى خالط عينيه إسترخت يده، ومتى إسترخت يده باينه الشيء الذي كان يركبه ويستعصم به، وإنه متى باينه لم يقدر عليه، ومتى عجز عن اللحاق به فقد عطب. ثم هو بذلك لا يخلو، إذا سهر ليلة او ليلتين، من أن يغلبه النوم ويقهره"[6].

وجعلوا النوم بالليل "الضربين: أحدهم لأن الليل إذا كان من طبعه البرد والركود.. واما الوجه الأخر فلان الليل موحش مخوف الجوانب من الهوام والسباع"[1].

ويبين لنا الجاحظ بأن الاطباء يزعمون بان النوم على شق اليمين يوهن الكبد ويثقل الكبد عن هضم ما في المعدة، وأنه راي من لايحصى من الرجال أكثر نومهم عن الشق الايمن، وما أحسوا بسوء قط[2].

وهنالك من الاعراب من ينام في الضحى، فسأله عن ذلك، فقال: "مبردةً في الصيف، مسخنة في الشتاء"[3].

ويخبرنا بأن النوم في عصره أثناء الصيف هو في سطوح البيوت، أما في الشتاء، فانه يكون في داخل البيوت وهنالك حاجة الى اللحاف للوقاية من البرد[4].

وهنالك عدد من الامراض التي تصيب الانسان، ومنها ان "القمل يعرض لثياب كل الناس إذا عرض لها الوسخ والعرق"[5].

كما يخبرنا بأن عدد من الأطباء وأصحاب التجارب، قد أخبروه بانهم "راوا القمل عياناً وهو يخرج من جلد الانسان"[6].

وعنده بأن الذباب من الآفات الصحية في بيوت الناس، وان أفضل طريقة للخلاص منه، بأن تفتح أبواب البيت مع حجب الضياء في البيت، "فانهن يتبادرن الى الخروج، ويتسابقن في طلب الضوء والهرب من الظلمة، فأذا أرخى الستر وفتح الباب عاد الضوء وسلم اهله من مكروه الذباب"[7].

---

(4) ينظر: الجاحظ، البخلاء، ص(67-66).
(5) م.ن، ص215.
(6) الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص407.
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص284.
(2) ينظر: الجاحظ، البرصان والعرجان، ص(600-599).
(3) الجاحظ، البيان، جـ2، ص72.
(4) ينظر: الجاحظ، البخلاء، ص60.
(5) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص371.
(6) م.ن، جـ5، ص374.
(7) م.ن، جـ3، ص(320-319).

ويعتقد البعض أن الذباب إذا ألقي به في الكحل وسحق معه، فيزيد ذلك "في نور البصر ونفاذ النظر وفي تشديد مراكز شعر الأشفار في حافات الجفون"[(1)]، ولابد من إبعاد الذباب للحفاظ على صحة الناس من خلال "تغطية اوانيهم، وحفظها من الذباب، وهوام الارض"[(2)].

وهنالك أمراض عند الكبر، "ومنها وجع المرفق مثل وجع الاذن، وضربان الضرس، ليس من اوجاع الكبر في شيء"[(3)] وكذلك فان صكك[(4)] الركبتين[(5)] يكون ولادياً وليس عند الكبر.

ومن امراض الكبر سقوط الأسنان، ويخبرنا الجاحظ "بان أحدهم لم يثغر قط، وانه دخل قبره بأسنان الصبا"[(6)].

ويرى بضرورة عدم إقتراب الطامث من اناء اللبن، وذلك على راي كبار الاطباء في عصره، "لأن لبدنها ما دام ذلك العرض يعرض لها، رائحة لها حدة وبخار غليظ، يكون لذلك .. مفسداً"[(7)].

ومن امراظ الصرع ما يعرف بالموتة، "إلا أن صاحبه إذا أفاق عاد الى كمال عقله كالنائم والسكران والمغشى عليه، وان عاش صاحب الموتة في ذلك مائة عام"[(8)].

وهنالك حذر من الإصابة بمرض الرعاف، "ويقال: أن أهل تهامة هلكوا بالرعاف مرتين"[(9)].

ومن الحالات الصحية المؤلمة هي لسعة العقارب، وأن سائر العقارب "تقصد الى الصوت، فأذا ضربت إنساناً فرت كما يصنع المسئ الخائف للعقاب. والعقرب لا تضرب الميت ولا المغشى عليه، ولا النائم إلا أن يحرك شيئاً من جسده، فانها عند ذلك تضربه"[(1)].

والملسوعون من العقارب، "يصرخون من لسعتها الليل كله، وإذا طلعت الشمس سكن ما بهم. فاذا بقيت فضلة من تلك الجارحة في الشمس فما أكثر مايسكن. وسمومها بالليل أشد"[(2)].

---

(1) الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص322.
(2) الشيزري، نهاية الرتبة، ص34.
(3) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص357.
(4) الصكك: اضطراب الركبتين / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ10، ص456.
(5) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص399.
(6) م.ن، جـ4، ص52.
(7) م.ن، جـ2، ص140.
(8) م.ن، جـ2، ص225.
(9) م.ن، جـ4، ص14.
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص217.
(2) م.ن، جـ4، ص222.

ومن الامراض التي يخاف منها العرب، "الجرب .. والجدري"[3]، ويبدو ان الجرب كان أكثر إنتشاراً في بلاد الزنج في عصره[4].

ومن الأفات الصحية الاخرى هي حصى الكليتين، وان الألم في ذلك يسبب "تلف النفس أو غاية التعذيب"[5].

وهنالك في مؤلفات الجاحظ اشارات الى بعض الطرق العلاجية للأمراض، ومنها ان" سرة حمار الوحش شفاءً يتداوى بها"[6].

ويخبرنا بأنه إشتكى أيام في صدره، من سعال قد أصابه، فأشاروا عليه بالخزيرة تتخذ من النشا والسكر ودهن اللوز، فيقول في ذلك: "فأستثقلت المؤونة وكرهت الكلفة ورجوت العافية. فبينا أنا أدافع الأيام، إذ قال لي بعض الموفقين: عليك بماء النخالة، فأحسسه حاراً، فحسوت، فأذا هو طيب جداً، وإذا هو يعصم"[7].

ويبين لنا بأن علاج مرض الجرب عند شيخ من بني ليث،" وأعتراه جرب، وأنه تطلى بالمرتك والدهن، ثم دخل الحمام فرأى قملاً كثيراً، يخرج من تلك .. القروح"[8].

وعلاج لسعة العقرب، "أن يحجم، وكان الحجام لا يرضى إلا بدنانير ودنانير، لأن ثناياه ربما نصلت، وجلد وجهه .. من السم الذي يرتفع الى فيه، بمصيته وجذبته من أذناب المحاجم حتى عمدوا بعد ذلك الى شيء من قطن، فحشوا به تلك الإنبوبة. فأذا جذب بمصته فأرتفع إليه من بخار الدم أجزاء من ذلك السم، تعلقت بالقطن، ولم تنفذ الى فيه .. ثم وقعوا بعد ذلك على حشيشة فوجدوا فيها الشفاء"[1]، وكذلك يعالج الملسوع، "أن يشق بطن الضفدع، ثم يرفد به موضع اللسعة"[2].

ويخبرنا بان كلية الجدي تزيد في الدماغ، " وقد أوصى لذلك الى سليمان بن عبد الملك، وهو يومئذ ولي عهد، وقدامه جدي"[3].

وعلاج الإمساك، بان يحقن صاحب الإمساك بحقنة شرجية فيها أدهان، تزيد من حركة البطن[4].

ويخبرنا الجاحظ بأن تناول مضيرة اللبن مع السمك، يؤدي الى زيادة القوة والنشاط في الجسم، ولكن هذا لم يثبت لديه، فلقد قدم إليه طعام من مضيرة اللبن والسمك ومعه الطبيب يوحنا بن ماسويه[5]، وقد سال الجاحظ أحد الشيوخ في مائدة الطعام عن فوائد أو مضار هذا النوع من الطعام، فقال: "أيها الشيخ لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاداً له، فان كان أحدهما ضد الآخرة فهو دواء له، وإن كانا من طبع واحد فلنحسب أنا قد أكلنا أحدهما الى أن إكتفينا، فقال يوحنا: والله مالي خبرة بالكلام،

---

(3) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص53.

(4) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص139.

(5) الجاحظ، الرسائل، الجد والهزل، جـ1، ص252.

(6) م.ن، تفضيل البطن، جـ4، ص163.

(7) الجاحظ، البخلاء، ص(51-50).

(8) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص374.

(1) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص(361-360).

(2) م.ن، جـ5، ص(541-540).

(3) الجاحظ، البيان، جـ2، ص238.

(4) ينظر، الجاحظ، البخلاء، ص215.

(5) يوحنا بن ماسويه: كان طبيباً ذكياً فاضلاً خبيراً بصناعة الطب، وخدم في صناعة الطب المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، وكان الواثق مشغوفاً طنيناً به، توفي بسامراء سنة ثلاث واربعين ومائتين في خلافة المتوكل / ينظر: ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص(255-246).

ولكن كل يا أبا عثمان، وانظر ما يكون في غد. فأكل أبو عثمان نصرة لدعواه، ففلج في ليلته، فقال: هذه والله نتيجة القياس المحال"[6].

ويبدو لنا بأن الجاحظ لم يكن ممتهناً بالكفاية اللازمة لصناعة الطب، .. "والذي ظلل أبا عثمان إعتقاده أن السمك من طبع اللبن. ولوسامحناه في أنهما من طبع واحد لكان لأمتزاجهما قوة ليست لأحدهما"[1].

وفي الوقت نفسه فأن شيخ الاطباء إبن سينا[2]، هاجم الجاحظ في ملاحظاته الطبية من خلال كتابه "الرد على الجاحظ في نقض صناعة الطب"[3].

وفي مجال ذوي العاهات الجسمية والصحية، فعند الجاحظ بأن البرص عند العرب قليل، "لأن عدد البرصان في جزيرة العرب قليل، ولو قصدتم الى أمة من الامم يكون عدد جماعتهم على الشطر من عدد جماجم العرب لوجدتم عدد برصانهم على الضعف من عدد برصان العرب"[4].

ويعتقد البعض من الناس أن البرص علته عقوق الوالدين، وكان أحدهم بينه وبين أبيه إساءة، "فرفع عن بطنه، فاذا على بطنه مقدار الدرهم برص فقال: هذا ثمر العقوق"[5].

ومن العاهات الاليمة، هو العمى، وهنالك من الناس وظيفته قيادة الأعمى[6].

أما عاهات الاطراف، فأن ذوي العاهات تلك، لهم القدرة على التكيف والتحمل لأداء الحياة اليومية، فهنالك "إعرابي مقطوع اليد اليمنى، والرجل اليسرى، وهو يمشي على عصا"[7].

والأيمن من الناس لهو الأفضل في الحرب، "ومتى لقي في الحرب رجل أعسر رجلاً أيمن مع كل واحدٍ منها سيف أو عصاً كان الأيمن أشد هيبة للأعسر من الأعسر للأيمن"[8].

وإذا كان أكثر عمل الرجل "بيساره كان أعسر، فأذا إستوى عملاً بهما قيل (أعسر يسر) .. وسموها اليد اليسار واليد اليسرى، على نفي العسر والنكد"[1].

وعند الجاحظ بأن الأعسر "إذا إشتمل بثوبه ومشى فكأنه مخبل، ويظهر عند ذلك نقصه والتشويه الذي في خلقه. والعسر قبيح بالرجال، وهو بالمرأة أقبح"[2]، ونرى

---

(6) م.ن، ص253.

(1) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص254.

(2) هو ابو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، طبيب، وفضائله اظهر من ان تسطر، عاش في بخارى، ثم انتقل الى الري، وتوفي سنة ثمان وعشرين واربعمائة، وقبره في همدان، وقيل انه نقل الى اصفهان / ينظر: م.ن، ص(259-437).

(3) م.ن، ص422.

(4) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص69.

(5) م.ن، ص52.

(6) الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص30.

(7) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص388.

(8) م.ن، ص565.

(1) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص516.

(2) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص586.

أن ذلك مبالغ فيه لأنه هنالك صعوبة في تمييز الناس بين ما هو أيمن وأعسر من خلال مشيهم أو حركاتهم، ولكنها تظهر أكثر وضوحاً في الإستخدام لليد.

وعندهم أن إحدى الطرق المهمة للحفاظ على الصحة ودوامها هي الحجامة[3] والفصد.

ويهاجم الجاحظ على الحجامين في أكثر من موضع في مؤلفاته، ومنها قوله: "كل حجام في الأرض فهو شديد الإستهتار بالنبيذ، وان إختلفوا في البلدان والأجناس"[4].

ويؤكد لنا رأيه في الحجامين، عندما يتطرق الى آراء الناس فيهم أيضاً، فالحجام حتى وإن كان مسترضعاً مع الأخرين فهو في موضع الكره وعدم الرضا عندهم، ولذلك قال أحدهم عن حجام إسترضع معه: "إني رأيته يحتجم في بيوت إخوانه"[5]، ولذلك فهو لايعطيه أي موقع في قبيلته.

ومن مساوءهم، ما حدث به أحدهم الى الجاحظ، بأنه رأى "شيخ أصفر كانه جرادة، وقد جلس على قارعة الطريق، وحجام زنجي يحجمه، وقد وضع على كاهله وأخذ عليه محاجم .. وقد مص دمه حتى كاد أن يستفرغه"[6].

ولكنه لا ينسى من ذكر الفضلاء منهم في وسط الزحام الملئ بالمساوئ مبيناً فيه، بأن فرج الحجام، "كان من أهل العدالة والمقدمين في الشهادة"[7].

وتبين لنا مؤلفات الجاحظ، الحذر من تناول الطعام بعد "الحجامة والفصد والحمام"[1].

ومن الطرائف والنوادر في الحجامة، بانه بينما"كان الشعبي جالس وأصحابه يناظرونه في الفقه، إذا شيخ بقربه قد أقبل عليه بعد أن طال جلوسه، فقال له: إني أجد في قفاي حكة أفترى لي أن أحتجم؟ قال الشعبي: الحمد لله الذي حولنا من الفقه الى الحجامة"[2].

ويحتاج الحجام في عمله الى شد قصب وهما خشبتان مشدود أوساطهما بحديدة تجعل في طرفها فتلتزم ما فيهما لزوماً شديداً، ولابد من تعيين موضع الحجم، ومشرط[3].

وقد أصيب الخليفة الرشيد بعلة شديدة، حتى أنهم توقعوا قد مات، فقال لهم الطبيب: أنه لم يمت، والصواب أن يحجم الساعة .. فقال المأمون: الامر قد وقع، وليس يضر أن نحجمه. وأحضر الحجام، فقال له الطبيب: ضع محاجمك، ففعل، فلما مصها شوهد الموضع قد أحمر، فعلم أنه حي، فقال الطبيب للحجام: أشرط، فشرط، فخرج الدم .. وجعل كلما خرج الدم، تحرك رأسه، الى أن تكلم[4].

---

(3) الحجّام: المصاص، ويقال للحاجم حجّام لامتصاصه فم المجمحة: قارورته، والمحجِم، الآلة التي يجمع فيها دم الحجامة عند المص / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ12، ص117.

(4) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص105.

(5) الجاحظ، البيان، جـ3، ص209.

(6) الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص32.

(7) الجاحظ، الرسائل، فخر السودان، جـ1، ص181.

(1) الجاحظ، البخلاء، ص166.

(2) الجاحظ، البيان، جـ2، ص322.

(3) ينظر: م.ن، جـ1، ص380.

(4) التنوخي، الفرج بعد الشدة، جـ4، ص219.

ويخبرنا الجاحظ بانه من كان أحمر الوجه فهو بحاجة الى الحجامة، وكان أحدهم "أحمر غليظاً، يحتجم في كل سبعة أيام مرة"[5].

وعنده أن من حق "الملك أن يتفرد في قراره بثلاثة أشياء، فلا يطمع طامع في ان يشركه فيها:" فمنها الحجامة، والفصد، وشرب الدواء، فليس لأحد من الخاصة والعامة ممن في قصية دار المملكة أن يشركه في ذلك"[6].

ويذكر بأنه وفي إحدى المرات إحتاج الخليفة المأمون الى الفصد، فقالوا له الاطباء: البلد بارد، فقال: لا بد لي منه، ففصدوه، فلما كان وقت الظهر حضروا، فراموا فجر العرق، فأذا هو قد إلتحم، فشدوا الرباط، فلم يظهر الدم، فقال لهم المأمون: عقرتموني، فحلوا الرباط، فقال المامون لأسود كان على رأسه: أدن، فمص الجرح، ففعل فثار الدم فقال: أدع هؤلاء الحاكة، فجاؤوا، وشهدوا خروج الدم، فقال المأمون لهم: أين كنتم؟[1]، وهذه الرواية تظهر القدرة الفنية الطبية لشخص ليس متخصصاً في الفصد، وقد برع فيه.

وكانت تقدم الى حلات الفصد هدايا، فمنها الورود[2].وعندما "إفتصد المعتصم إهدي إليه صينية عقيق، عليها قدح أسبل عليها منديل مطيب مكتوب عليه بالعنبر"[3].

وقد اهدي للمعتصم أيضاً في الفصد، "طبق صندل مكتوب عليه. كما يدور عليه شمامات مسك وعنبر"[4].

الأسواق والتجارة

من المواضيع المهمة في الحياة المعاشية للمجتمعات، هي الأسواق والتجارة، لأنها تبين لنا أهم المحاور في النشاطات التجارية والتي تعتبر سبباً لرقيها وتطورها، وتحضرها، وسنقوم بدراسة ما يتعلق بالحياة الإجتماعية في الأسواق والتجارة.

ويخبرنا الجاحظ، بأنه كان من عادة فرسان العرب قبل الإسلام، "وفي أسواق العرب كأيام عكاظ[5] وذي المجاز[6] وما أشبه ذلك، التقنع، إلا ما كان من أبي سليط طريف بن تميم، أحد ني عمرو بن جندب، فانه كان لا يتقنع ولا يبالي أن تثبت عينه جميع فرسان العرب، وكانوا يكرهون أن يعرفوا فلا يكون لفرسان عدوهم هم غيرهم"[7].

---

(5) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص147.
(6) الجاحظ، التاج، ص93.
(1) ينظر: الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص224.
(2) ينظر: م.ن، ص223.
(3) م.ن، ص222.
(4) م.ن، ص223.
(5) سوق عكاظ: بأعلى نجد يقوم في ذي القعدة وينزلها قريش وسائر العرب الا ان اكثرها مضر، وبها كانت مفاخرة العرب / ينظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ1، ص238.
(6) ذي المجاز: كان الناس يرتحلون من سوق عكاظ وسوق ذي المجاز الى مكة لحجهم، م.ن، جـ1، ص238.
(7) الجاحظ، البيان، جـ3، ص(101-100).

وأكدت الشريعة الإسلامية على ضرورة إتخاذ التدابير الأخلاقية اللازمة في الأسواق من خلال البيع والشراء[1]، وان يكون مصدر الأموال المتداولة في الأسواق من منابع نزيهة وصافية والتي تتوافق مع ما أكده الإسلام من تعاليم، ولذلك قيل لبعض المياسير: بم كثر مالك؟ قال: ما بعت بنسيئة[2] قط، ولا رددت ربحاً وإن قل، وماوصل إلي درهم إلا صرفته في غيرها. وكما يقال لا تشتروا ما ليس لكم إليه حاجة فيوشك أن تبيعوا ما لا تستغنون عنه"[3].

ولا بد من الحذر عند العمل في الأسواق، وأن يكون العمل موافقاً لما حلل وحرم الله في شريعته وأن "لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة، وذلك بأن يكون أول داخل واخر خارج"[4] في السوق.

ويبين لنا الجاحظ بأن إعرابياً قال لأخيه: "قد كنت نهيتك عن مسالة قوم أرزاقهم من السنة الموازين وأفواه المكاييل"[5].

وعليه فأن علماء الاسلام والأخلاق عندهم "أن العبد إذا دخل السوق للتكسب فكان درهمه أحب إليه من درهم غيره لم ينصح للمسلمين في المبايعة"[6].

ثم يتطرق الجاحظ بالمناقشة لبعض التجار في عصره، والذين لا يرغبون في شراء البيوت، زاعمين أن تصريف ثمن الدار في وجوه التجارات أربح، وتحويله في أصناف البياعات أكيس، مبيناً بأن النتائج المترتبة عن شراء البيت هي أفضل مما يتصورون، وإن هذه البيوت فيها حق المجاورة والحاجة الى السكنى وموافقة المنزل[7].

ويتطرق الى تجار مكة، فيرى انهم "قد إعتصموا بالبيت، وإذا خرجوا علقوا عليهم المقل[1] ولحاء الشجر حتى يعرفوا فلا يقتلهم أحد"[2].

ويشيد بالنشاط التجاري في البصرة، لأن السفن التي تدخل إليها في أشهر "تبلغ مابين ألفي سفينة تمرٍ أو أكثر في كل يوم، ولا يبيت فيها سفينة واحدة فان باتت فأنما صاحبها هو الذي يبيتها"[3].

ويستعرض لنا أهم النشاطات التجارية في بغداد، وهي معروفة في العصور العباسية بكثرة صادراتها ووارداتها، وتدل على حيوية هذه المدينة، وانها كانت مرتبطة بشبكة واسعة من الطرق التجارية مع مدن العالم آنذاك[4].

---

(1) ينظر: ابن تيمية، ابو العباس تقي الدين احمد الحراني (ت 728هـ/1327م)، الحسبة في الاسلام، بيروت، بدون سنة، ص17.
(2) نسأ الشيء: باعه بتأخير / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ1، ص167.
(3) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص12.
(4) الغزالي، الاحياء، جـ2، ص109.
(5) الجاحظ، امل الامل، ص43.
(6) المكي، قوت القلوب، جـ2، ص34.
(7) ينظر: الجاحظ، البخلاء، ص126.
(1) المقل: شجرة تشبه النخلة / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ11، ص628.
(2) الجاحظ، الرسائل، فخر السودان، جـ1، ص188.
(3) م.ن، الاوطان، جـ4، ص144.
(4) كانت بغداد ترتبط بشبكو من الطرق التجارية ومنها طريق الى اقصى خراسان وغيرها من البلدان، وطريق من بغداد الى مكة، ومن بغداد الى الكوفة، ومن بغداد الى البصرة، ومن بغداد الى واسط / ينظر: ابن رسته، ابو علي احمد بن عمر (ت بعد 290هـ/900م)، الاعلاق النفيسة، ليدز، 1891، ص(185،184،182،163).

وكـان يجلـب مـن الهنـد الـى بغـداد، اليـاقوت الأحمـر والصـندل الأبـيض وجـوز الهنـد، ويجلـب مـن الصـين الحريـر والكاغـد والمـداد والطـواويس والبـراذين والسـروج والدارصيني[5].

ومـن أرض العـرب، الخيـل والنعـام والادم، ومـن المغـرب النمـور، واللبـود والبـزاة السود[6].

ومـن الـيمن، البـرود، والأدم والزرافـات والجـواميس والعقيـق، ومـن مصـر الثيـاب الرقاق والقراطيس[7].

ومـن أرض خـوارزم المسـك، والسـنجاب وقصـب الطيـب، ومـن سـمرقند، الكاغد[8].

ومـن بلـخ ونواصـيها العنـب الطيـب، ومـن مـرو الجيـاد والثيـاب المرويـة، ومـن جرجان العنب وحب الرمان الجيد[1].

ومن الري، الخوخ والزئبق والأسلحة والثياب الرقاق والأمشاط[2].

ومـن أصـفهان، الشـهد والعسـل والسـفرجل والكمثـرى الصـيني والتفـاح والملـح والزعفـران والأشـنان والكحـل والسـرر والمطبقـة والأثـواب الجيـاد والشـراب مـن الفواكـه، ومن كرمان الكمون[3].

ومن فارس، الثياب الكتان، وماء الورد، والأشربة[4].

ومـن سـواحل البحـر وعمـان، اللؤلـؤ، ومـن ميسـان، الوسـائد، ومـن الأحـواز ونواصيها السكر والديباج والخز[5].

ومن الموصل، الستور والمسوح[6].

ومـن حلـوان[7]، الرمـان والتـين، ومـن أرمينيـة، الفـرش والبسـط الرقـاق والصوف[8].

وإن هـذا العـدد الكبيـر مـن الـواردات الـى بغـداد، يعطـي لنـا صـورة واضـحة الـى حجـم الأسـواق فيهـا، والتـي تنتشـر تـدريجياً فـي محـال بغـداد الشـرقية والغربيـة أيـام العباسـيين، بـل أن أحـد المستشـرقين يـرى أن حـدوث الحرائـق والمشـاجرات والصـراعات، قد أدى ذلك الى إنفصال المحـال بعضها من بعض الأخر بالخـرائب

(5) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص33.
(6) م.ن، ص34.
(7) م.ن، ص34.
(8) م.ن، ص36.
(1) ينظر: الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص37.
(2) م.ن، ص(39-38).
(3) م.ن، ص39.
(4) م.ن، ص40.
(5) م.ن، ص41.
(6) م.ن، ص42.
(7) حلوان: هو آخر حدود السـواد مما يلي الجبال من بغداد / ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ2، ص290.
(8) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص42.

والبساتين، الذي أدى الى إنتشار الأسواق في تلك المحلات أيضاً في العصور العباسية المتأخرة[1].

ويبين لنا الجاحظ بأن أهل المال من الصيارفة قد إعتمدوا على أهل السند لأمانتهم، قائلاً في ذلك: "أن الصيارفة لا يولون أكيستهم وبيوت صروفهم إلا السنة واولاد السند، لأنهم وجدوهم أنفذ أمور الصرف، وأحفظ وآمن. ولا يكاد أحد أن يجد صاحب كيس صيرفي ومفاتيحه إبن رومي ولا أبن خراساني"[2]، ولقد بلغ من "تبرك التجار بهم أن صيارفة البصرة .. لما رأموا ما كسب فرج أبو روح السندي لمولاه من المال والأرضين إشترى كل أمرئ منهم غلاماً سندياً، طمعاً فيما كسب أبو روحٍ أبو روحٍ لمولاه"[3].

ويخبرنا عن وجود تجارة السنانير، وللسنور تجار و باعة، ودلالون، وقال أحدهم: "ما أعياني أحد في أهل الأسواق: من التجار، ومن الباعة والصناع كما أعياني أصحاب السنانير، يأخذون السنور الذي ياكل الفراخ والحمام، ويواثب أقفاص الفواخت .. ويدخلونه في دنٍ، ويشدون رأسه، ثم يدحرجونه على الأرض حتى يشغله الدوار، ثم يدخلونه في قفصٍ فيه الفراخ والحمام، فأذا رآه المشتري رأى شيئاً عجباً، وظن أنه قد ظفر بحاجته. فأذا مضى به الى البيت مضى بشيطانٍ فيجمع عليه بليلتين أحداهما أكل طيوره وطيور الجيران"[4].

وهنالك السنور المنمر،" وهو الذي يقال له: البقاليّ، وذلك لكثرة إتخاذ البقالين لها، من بين سائر السنانير، لأنها أصيد للفأر"[5].

ويبين لنا الجاحظ عن وجود ظاهرة في السوق، وهي أن الصبيان ياتون ببيضتين مكسورتين، ويأخذون من أحد البقالين بدلاً عنها بيضة صحيحة واحدة، وإن هذا العمل لا بأس به في الشرع الإسلامي[6].

الترف والفقر والقدرة الشرائية

الترف والفقر والقدرة الشرائية، من المواضيع المهمة في الحياة المعاشية للمجتمعات، لانها تبين الطبيعة المعاشية الحقيقية للناس، وقدرتهم على الشراء والتبضع من المواد الغذائية والإستهلاكية.

ويرى الجاحظ أن الناس ذموا الفقر فأكثر والان الفقر بلوى والغنى عافية، ولكنه يؤكد على مفهوم الفقر، ويذهب للثناء على الفقراء، مبيناً بأن "من إبتلي فصبر كمن عوفي فشكر، وإن كان كلتا المنزلتين عند الله وجيهتين معظمتين، لأن المبتلى الصابر يكاد يبلغ درجة الأنبياء صلى الله عليهم. وينبغي للعاقل أن يسأل الله عز وجل العافية

---

(1) ينظر: Cahen, Claude, Baghdad at temps de ses derniers califes arabica, vol. special, 1962, p. 290.

(2) الجاحظ، الرسائل، مفاخر السودان، جـ1، ص224.

(3) م.ن، جـ1، ص225.

(4) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص(340-339).

(5) م.ن، جـ5، ص318.

(6) ينظر: م.ن، جـ2، ص365.

على كل حال، ولا يتعرض للبلاء على حال، غير أن محمل العافية خفيف ومحمل البلاء ثقيل، فعلى قدر ثقل البلاء وشدته يرى للصابر عليه الثواب من ربه"[1].

وفي الوقت نفسه فأنه يهاجم على الغنى والترف، قائلاً: ولكننا إذا ميلنا بين الفضيلة التي مع السرور، وبين لذة الطعام، وما يحدث الشره له من ألم السهر والإلتهاب والقلق القبيح .. رأينا أن صاحبه مفضول غير فاضل. هذا مع ما يسب به، ومع حلمه له على القبيح، وعلى أن نعمته متى زالت لم يكن أحد أشقى منه"[2].

ثم أن صاحب الترف والثروة، يشعر بالأنتكاس والخيبة، إذا ذهب هذا الجاه منه، ويذكر أن زياد بن أبيه قال لحرقة إبنة النعمان بن المنذر: "أخبريني بحالكم. قالت إن شئت أجملت وإن شئت فسرت. فقال لها أجملي. فقالت: (بتنا نحسد، وأصبحنا نرحم). فخطبها زياد وكانت في ديرٍ لها فكشفت عن رأسها، فأذا رأس محلوق، فقالت: أرأس عروس كما ترى يا زياد؟ واعطاها دنانير فأخذتها وقالت: جزتك يد إفتقرت بعد غنىً، ولا جزتك يداً إستغنت بعد فقر"[3].

ويبين لنا الجاحظ بانه هنالك البعض من أهل الترف والثروة، وهو يتمتع بألوان الحياة الزاهية، وفي الوقت نفسه لا يؤشر لديه أي نشاط إنساني، قائلاً في ذلك "وبعد فلا يخلو صاحب الثروة والصامت الكثير، الخامل الذكر من أن يكون ممن يرغب في المركب الفاره، والثوب اللين، والجارية الحسنة، والدار الجيدة، والمطعم الطيب"[1].

وان هذا الخمول في النشاط الإنساني لدى صاحب الثروة يؤشر الى تدني فكره ونواياه، لأن "الغرض في كون الناس أكثرهم فقراء، وخوف الأغنياء من الفقر، هو الحث لهم على الإجتهاد في إتخاذ الصنائع"[2].

وعلى الرغم من الموقف المؤيد للفقراء عند الجاحظ، لكنه يبين في الوقت نفسه المخاطر الكبيرة المترتبة على الفقر والعوز على المستوى المادي والنفسي للأنسان، لأن "الفقر داعية الى أصحابه مقت الناس، وهو مسلية للعقل وللمروءة، ومذهبة للعلم والأدب، ومعدن للتهمة ومجمعة للبلايا.من نزل به الفقر والفاقة لم يجد بداً من ترك الحياء، ومن ذهب حياءه ذهب سروره،ومن ذهب سروره مقت وأوذي، ومن أوذي حزن، ومن حزن فقد عقله وأستنكر حفظه وفهمه، ومن أصيب بفهمه وعقله، وحفظه كان أكثر قوله وعمله قيمة عليه لا له"[3].

ونحن نؤيد رأي الجاحظ في ذلك، ولكن لابد من الأشارة بأن السعادة والسرور هي مسألة نسبية، فهنالك البعض من الفقراء وهم في سعادة ونعيم، وهنالك من الأغنياء وهم في تعاسة وشؤم في حياتهم اليومية، والعكس صحيح، وإن بعض من الأغنياء ليس متشبثاً بما وصل إليه لأنه مؤمن بقضاء وقدر الله تعالى، وهو موسع الأرزاق، وأشار الذلك أحد الأغنياء بعد تحذيره من فقد ثروته قائلاً: "إني أكره أن أترك أمراً قد وقع، لأمر لعله لا يقع"[4].

ويبدو أن لله تعالىالقدرة على خلق التفاوت بين الناس، وذلك من أجل إعمار الأرض، وعليه لما سكن أهل الغياض والأدغال في الحروالوخامة، ولما سكنوا مع البعوض، ولما سكن سكان القلاع في الجبال، ولما اقام أصحاب البراري مع الذئاب

---

(1) الجاحظ، امل الامل، ص51.
(2) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص98.
(3) الجاحظ، الرسائل، فصل مابين العداوة، جـ1، ص372.
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص(99-98).
(2) اخوان الصفا، الرسائل، جـ1، ص286.
(3) الجاحظ، امل الامل، ص(48-47).
(4) ابن قتيبة، عيون الاخبار، جـ2، ص43.

والأفاعي، ولألتمس الجميع السكنى في بيضة العرب وفي دار الامن والمنعة[5]. ويخبرنا الجاحظ بأن الحياة عند العرب، تميل الى البساطة والتواضع بعيداً عن الترف ولذلك فعندما تريد القبائل على التحالف فأنهم "يتحالفون على الملح. و الملح شيئان: أحدهما المرقة، والأخرى اللبن"[1].

ومن التناقضات الموجودة في مؤلفات الجاحظ، فأنه وبالرغم من تأييده للفقراء في قضيتهم، إلا أنه وفي موضع أخر من مؤلفاته، يقوم بالدعم الشديد للمال والأغنياء، وقد جعلهم في مرتبة أعلى من مرتبة العلماء قائلاً في ذلك: "وعبتموني حين زعمت أني أقدم المال على العلم، لأن العلم به يغاث العالم ويه تقوم النفوس، قبل أن تعرف فضيلة العلم. وإن الأصل أحق بالتفضيل من الفرع .. وقيل: فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتي الأغنياء أبواب العلماء؟ ..لمعرفة العلماء بفضل الغنى، ولجهل الأغنياء بفضل العلم"[2].

وفي موضع أخر يصف الجاحظ أحد العلماء وهو في بيته قائلاً: "ثم دخلت عليه وهو معزول، وإذ وإذا هو في بيت كتبه، وحواليه الرقوق[3]، والدفاتر والمساطر والمحابر، فما رأيته قط أفخم ولا أنبل، ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم، لأنه جمع مع المهابة المحبة، ومع الفخامة الحلاوة، ومع السؤدد الحكمة"[4].

وإن البعض من الأغنياء واهل الثروة حريص على كسب ماله بطريق الحلال وبالطرق الشرعية الصحيحة ليبارك الله تعالى فيه، وينقل ذلك الجاحظ عن أحدهم، حيث كان يقول: "كسبت في هذه السوق ستين ألف درهم، ما منها درهم إلا وأنا أخاف أن أسأل عنه"[5].

وإن تقرب الناس الى أهل المال والثروة، هو موقف مؤقت يزول بزوال تلك النعمة، ولا يدوم لصاحبها، ولذلك "كان أحيحة بن الجلاح[6] ينزل بالمدينة، فأفتقر فجفاه إخوانه وأحباؤه وجفته زوجته .. فقال في ذلك:

إستغن أو مت ولا يغررك ذو حسب
من إبن عم ولا عم ولا خال[1].

وعنده ما دام المال والثروة في يد صاحبها فأنه ينعم بالإحترام والمحبة من قبل الناس، "وإن من فقد المال قلت الرغبة إليه والرهبة منه، ومن لم يكن بموضع رغبة ولا رهبة إستهان الناس به"[2].

---

(5) الجاحظ، الرسائل، الاوطان، جـ4، ص(110-111).
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص466.
(2) الجاحظ، البخلاء، ص(27-28).
(3) الرّق: الصحيفة البيضاء / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ10، ص123.
(4) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص(61-62).
(5) الجاحظ، البيان، جـ3، ص131.
(6) هو احيحة بن الحلاج بن الحريش، سيد الاوس في الجاهلية، صحابي شهد بدراً وقتل يوم بئر معونة / ينظر: البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت 1093هـ/1682م)، خزانة الادب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، جـ3، ص(357-359).
(1) الجاحظ، امل الامل، ص(48-49).
(2) ابن عبد ربه، العقد الفريد، نقلاً عن كتاب الادب للجاحظ، جـ2، ص344.

والحر من الناس أكثر تمتع في الحياة، وأكثر ثراء من العبد، ولذلك كان من عادات العرب في الجاهلية قبل الإسلام "أن كل من علا الكعبة من العبيد فهو حر، لا يرون الملك على من علاها"[3].

وهنا يثير الجاحظ الى مسالة مهمة وهي أن العبد يستحقر الحر أيضا، قائلاً في ذلك: "إني لم أرَ ذا كبر قط على من دونه إلا وهو يذل لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه"[4]،وهذا مترتب على إعتزاز النفس الإنسانية بكرامتها وعزها وهيبتها.

ومن أهل الترف، من يحاول أن يبرز نفسه أمام الاخرين، ليزدادوا أكثر وقاراً وهيبة له على حد إعتقاده في ذلك بان "يحاول عرض جبته وطول ذيله .. وحذف شاربيه على وجهه"[5]، ويتوهم الواحد منهم انه المتبوع ليس التابع، والمليك فوق الملك.

وإن الترف والثروة في الريف والبادية متعلق بالامطار، وبالزراعة، وبالإنتاج الزراعي وتسويقه في ذلك، وعند العرب قبل الإسلام نار الإستمطار، وهي "النار التي كانوا يستمطرون بها في الجاهلية الأولى، فأنهم كانوا إذا تتابعت عليهم الأزمات وركد عليهم البلاء، وأشتد الجدب، وإحتاجوا الى الإستمطار، إجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر، ثم عقدوا في أذنابها .. ثم صعدوا بها في جبلٍ وعر، وأشعلوا فيها النيران، وضجوا بالدعاء والتضرع. فكانوا يرون أن ذلك من أسباب السقيا"[6].

ومن أجل ذلك فأن كبار الرجال في الدولة العربية الإسلامية، "كانوا يتابعون ذلك فيسألون من يقدم عليهم من البادية عن المطر والعشب"[1].

وإن البعض من كبار رجال الدولة، كان يرفض الترف والبذخ والتبذير، فعندما أهدي الى هشام بن عبد الملك، "والى أمهات أولاده هدايا كثيرة من الكساء والعطر والجوهر وغيرها، فأستكثرها هشام، وقال: (بيت المال أحق بهذا)"[2].

وعند الجاحظ، أن الثروة والمال تعتمد على طبيعة المدينة ومنتجاتها، وبشكل عام فأنه يرى بأن أرض العراق، هي الأرض الطيبة المعطاء، وهي "موضع التميمة، وواسطة القلادة، بها تلاحقت الطبائع ، وصرحت عن اللب الأصيل والخلق الجميل"[3].

اما مدينة البصرة، والمتحمس لها دوماً، فعنده "بأن طعامهم أجود الطعام وسعرهم أرخص الأسعار وتمرهم أكثر وريع دبسهم أكثر وعلى طول الزمان أصبر، ببقاء تمرهم الشهريز عشرين سنة، ثم بعد ذلك يخلط بغيره فيجيء له الدبس الكثير والعذب والخاثر القوي"[4].

وعلى الرغم من صعوبة المناخ وقسوته صيفاً في البصرة، إلا أنه هنالك موضع يقال له "الحزيز، يقال أن الناس لم يروا قط هواءً أعدل، ولا نسيماً أرق، ولا ماءاً أطيب منها في ذلك الموضع"[5].

ويعترف الجاحظ بأن للقصب في البصرة فائدة إقتصادية كبيرة لديهم، قائلاً في ذلك: "لقد جهدت جهدي أن جمع منافع القصب ومرافقه وأجانسه، وجميع تصرفه وما يجيء منه، فما قدرت عليه حتى قطعته وانا معترف بالعجز، مستسلم له"[6].

---

(3) الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص140.
(4) م.ن، جـ6، ص72.
(5) الجاحظ، الرسائل، ذم اخلاق الكتاب، جـ2، ص191.
(6) الجاحظ، الحيوان، جـ4، ص466.
(1) الآلوسي، الحياة الاجتماعية، ص(66-65).
(2) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص217.
(3) التوحيدي، البصائر، نقلاً عن الجاحظ، جـ9، ص47.
(4) الجاحظ، الرسائل، الاوطان، جـ4، ص145.
(5) م.ن، جـ4، ص139.
(6) م.ن، جـ4، ص146.

وينقل لنا حديثاً عن أحد الخطباء بان ":البصرة أكرم بلاداً، وأوسع سواداً، وأكثر ساجاً وعاجاً وديباجاً، وأكثر خراجاً"[7].

ويعزي التدهور الإقتصادي في الحيرة الى الأرض والمناخ، فالتربة في الحيرة التي بينها وبين قصبة الكوفة كثيرة الحصى خشنة الملمس والحيرة أرض باردة في الشتاء، وفي الصيف شديدة الحر[1].

أما أهل مكة، فليس لهم "مشتىً ولا متصيف لأنهم يتبردون بالطائف ويتدفون بجدة"[2].

وهنالك من الناس، ما لا خير فيه من كل شيء، وقد حصل على قطعة أرض كبيرة، وإذا ما تفحصنا طريقة جمعه للمال، لوجدنا بانه يبيع الأشياء مقابل الأرباح القليلة، فلم يزل يجمع من الصغار والكبار، حتى إجتمع ما إشترى به[3].

وتؤيد كتب الأدب العربي ذلك، حيث هنالك محلة من محلات بغداد "يتنافس عليها الأخيار في نزولها، ويتغاير الكبار حلولها. ثم لا يسكنها غير التجار"[4].

وقد تفاوتت دور عامة الناس في بغداد في "حجمها وفخامتها تبعاً للمستوى المادي، فقامت دور فخمة عاش فيها الأغنياء من التجار وكبار الموظفين وأصحاب المهن البارزة وكبار الشعراء وأرباب الفنون والعلوم"[5].

ويحذر الجاحظ من كساد الدور وعدم النشاط في البيع والشراء بها، ويرى في ذلك "فساد لأثمان الدور، وجراة للمستأجر، وإستحطاط من الغلة، وخسران في أصل المال"[6]، ويعني ذلك تقييد حركة المال في دور لا يمكن بيعها بسرعة عند الحاجة، بينما يمكن إستثمار تلك الاموال في المشاريع التجارية والإستثمارية.

ويخبرنا بأن إرتفاع أسعار الدور واضح في ثلاثة مواقع: "دار البطيخ بسر من رأى، ودار الزبير بالبصرة، ودار القطن ببغداد"[7].

ويخبرنا بان البعض من التجار من ذوي الترف والثروة، يفضلون السكن في بيوت الكراء المؤجرة على أن يشتري بيت له، وذلك عندهم بأن نزول دور الكراء أصوب من نزول دور الشراء .. لأن صاحب الشراء "قد أغلق رهنه وأشرط نفسه، وصار بها ممتحناً وبثمنها مرتهناً .. ورأى أنه قد أخطأ في إختيارها على سواها، وأنه لم يوفق لرشده حين آثرها على غيرها. وإن من كان ذلك فهو عبد داره.. وان صاحب الكراء الخيار في يده والأمر إليه، فكل دار هي له متنزه أن شاء، ومتجر إن شاء، ومسكن إن شاء لم يحتمل فيها اليسير من الذل، ولا القليل من الضيم، ولا يعرف الهوان"[1]، وعليه فان طريقة التأجير كانت شائعة "شيوعاً كبيراً، فكان الناس لا يستأجرون في المدن المساكن فقط، بل كانوا يستأجرون الأثاث أيضاً"[2].

ويظهر أن الناس في عصر الجاحظ ميالون للسكن في المدينة، حتى أن أحدهم قد تحدث مع أخر مبيناً له بأن من علامات القرية هي كلب "ينبح، ويزقو فيه ديك، فقال

---

(7) م.ن، جـ4، ص147.
(1) ينظر: الجاحظ، الرسائل، الاوطان، جـ4، ص147.
(2) م.ن، فخر السودان، جـ1، ص187.
(3) ينظر: الجاحظ، البخلاء، ص50.
(4) الهمذاني، المقامات، ص(120-119).
(5) الاطرقجي، د. رمزية، الحياة الاجتماعية، ص216.
(6) الجاحظ، البخلاء، ص(127-126).
(7) الثعالبي، ثمار القلوب، نقلاً عن الجاحظ، ص519.
(1) الجاحظ، الحيوان، ص(126-125).
(2) متز، آدم، الحضارة الاسلامية، جـ2، ص389.

الأخر له: لا تصير القرية قرية حتى يصير فيها حائك ومعلم، فرد عليه:يامجنون، إذا صارت الى هذا فقد صارت مدينة"،[3] حيث أن المدينة تتوفر فيها الصناعات والعلوم، بينما تفتقر الى ذلك القرية.

أما أسعار المواد الغذائية فهي متغيرة، فالسعر "يوصف بالغلاء مرة وبالرخص مرة أخرى، فالرخص هو بيع الشئ باقل مما أعتيد بيعه في ذلك الوقت وفي ذلك البلد، والغلاء بالعكس من ذلك"[4]، ويبين لنا الجاحظ في ضوء تلك الفرضية بان اللحوم تكون في الصيف أرخص مما هي في الشتاء[5].

والبعض من اهل الترف، قد ولع في جمع الجواهر المختلفة الباهضة الثمن، وإذا ماجمعت لديهم تلك الجواهر فانها "دراهم ولآل منثورة عليهم وورده وشقائقهم دنانير ويواقيت مبذولة لهم وكأن بناتها زبرجد ومينا وفيروز متوجه إياهم"[6].

ومن المعادن المرغوبة عند الناس هو الذهب، وذلك "لطول بقائه على الزمان واحدة .. وقبوله للعلامات التي تصونه والسمات التي تحفظه من الغش ثانية"[7]، ويزداد "نضارته وحسنه إذا عتق، ولأن الأشياء تنقص عند المس والدفن ما خلا الذهب فأنه لا ينقص البتة"[1].

وقد زين أهل الترف قلائدهم ومصوغاتهم الذهبية باللؤلؤ، وهو على ضربين "عذب المذاقة عماني، وملح المذاقة .. وكلاهما يرسب في الماء"[2]، ومن أفضل أنواع اللؤلؤ هو "الصافي العماني المستوي الجسد، الشديد التدحرج والإستواء .. وأثمانها ترتفع على زيادة وزنها وتدحرجها"[3].

أما الياقوت، "فأجوده الصافي النقي المضئ من أي لون كان، وإرتفاع القيمة على قدر كبرها وصغرها، والياقوت الأحمر الصافي إذا بلغ وزنه نصف مثقال ربما بلغ في الثمن خمسة ألاف دينار"[4].

ومن الجواهر الأخرى هو "الزبرجد الشديد الخضرة، الصافي الجوهر .. وخير الزبرجد الناضر الصافي النقي، فأذا بلغ وزن قطعة منه نصف مثقال بلغ في الثمن ألفي مثقال ذهباً"[5].

والبلور "يختار لصفائة عظمه .. وخير الماس البلوري الصافي ألابيض النقي، ثم الأحمر"[6].

ومن الأحجار الكريمة هو العقيق، "وخيره اليماني الشديد الحمرة الذي يرى في وجهه شبه الخيوط، كلما كان أصفى وأضوأ كان أجود في الثمن"[7].

---

(3) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص193.
(4) المعتزلي، عبد الجبار بن احمد (ت 415هـ/1024م)، شرح الاصول الخمسة، تحقيق د. عبد الكريم عثمان، ط1، القاهرة، 1965، 788.
(5) ينظر: الجاحظ، البخلاء، ص159.
(6) الجاحظ، سلوة الحريف، ص40.
(7) قدامة بن جعفر (ت 310هـ/922م)، الخراج وصناعة الكتابة، شرح د. محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1986، ص435.
(1) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص14.
(2) م.ن، ص16.
(3) م.ن، ص17.
(4) م.ن، ص18.
(5) م.ن، ص19.
(6) م.ن، ص21.
(7) م.ن، ص20.

والجدير بالذكر أن قيمة العقيق قد هبطت في القرن الرابع الهجري وذلك "لأقتدار العامة عليه، وصاروا لا يتخذون منه إلا ما كان حجراً كبيراً"[8].

والبعض من أهل الترف قد جمع في بيته عدد من الحيوانات النادرة، فالفيلة إنما يفتخرون بها السودان، كالحبشة والهند، أما كبار رجال الدولة في العراق فأنما "يتخذون منها بقدر ما يقال أن عندهم من كل شئ شيئاً"[9]. ولذلك أصبحت تجارة بعض الحيوانات النادرة الى العراق من التجارات المعروفة، فكان "يجلب من الهند النمور والفيلة وجلود النمر"[1].

وإستخدموا من الفيل عظامه ونابه، ونابه أثمن وأكرم، وقد إستخدمت عظام الفيل في مواقع كثيرة منها الحجال والمداهن، ويعرف ذلك بالرزانة[2].

ويبين لنا الجاحظ دور المال في وسائل الترف، لأنه الوسيلة الرئيسية نحو البذخ والإنغماس في الترف، وقد ينتبه المترف في اواخر عمره الى غفلته أمام لله تعالى في تصريف أمواله، ولذلك باع أحدهم "أرضاً بثمانين ألفاً، فقيل له: لو إتخذت لولدك من هذا المال ذخراً قال: أنما أجعل هذا المال ذخراً لي عند الله، وأجعل الله ذخراً لولدي. وقسم المال"[3].

وهنالك إنتقادات واضحة لذوي اليسار والمال، حول مشروعية جمعهم لتلك الاموال، ومنها ما حدثنا به أحدهم قائلاً: "أتاني إعرابي بدرهم فقلت له: هذا زائف، فمن أعطاكه؟ قال: لص مثلك"[4].

وعند الجاحظ أن اكثر الاموال تبذيراً هي "مال القمار ومال الميراث، والى مال الإلتقاط وحباء الملوك أسرع"[5].

وفي الوقت نفسه فانه يؤكد على ضرورة الإهتمام بالدخل ومعرفته، ومعرفة ما ينفق من مال، لئلا يقع الشخص الى التهلكة، "لأن من لم يحسب ذهاب نفقته لم يحسب دخله، ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الاصل، وإن من لم يعرف للغنى قدره، فقد أذن بالفقر وطاب نفساً بالذل"[6].

وإن هذا التحفظ في صرف الاموال ياتي من مخاطرها السريعة وغير المحسوبة، لأنه "للغنى سكراً أو ان للمال لنزوة، فمن لم يحفظ الغنى من سكر الغنى فقد أضاعه، ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر فقد أهمله"[7].

ولقد صار الإنسان مجبول على حب المال، "وان المال محروص عليه، ومطلوب في قعر البحار وفي رؤوس الجبال وفي دغل الغياض، ومطلوب في الوعورة كما يطلب في السهولة"[1].

والميل الى حب المال، جعل البعض من الناس حريص عليه، وليست له الرغبة في مساعدة الاخرين عند الحاجة والعوز، ولذلك فعندما احتاج أحدهم ليستلف المال من

(8) متز، آدم، الحضارة الاسلامية، جـ2، ص(327-326).
(9) الجاحظ، الرسائل، البغال، جـ2، ص355.
(1) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص33.
(2) الجاحظ، الحيوان، جـ7، ص231.
(3) الجاحظ، البيان، جـ3، ص146.
(4) م.ن، جـ4، ص9.
(5) الجاحظ، البخلاء، ص26.
(6) م.ن، ص26.
(7) م.ن، ص27.
(1) الجاحظ، البخلاء، ص266.

صديقه الثري، الذي آثر عدم مساعدته من خلال قوله: انا اليوم مضيق، وليست الحال كما نحب. واحق من عذر الصديق العاقل، فلما ورد كتابه الى صاحبه المعوز، كتب راداً إليه: إن كنت كاذباً فجعلك الله صادقاً، وإن كنت ملوماً فجعلك الله معذوراً[2].

وان هذه الرغبة في خزن المال والحرص عليه، جعل البعض أن يميل الى البخل والتقتير، "وفي المثل: هو أبخل من ابي حباحب، وهو رجل في الجاهلية بلغ من بخله أنه كان يسرج السراج، فاذا اراد احد أن ياخذه منه أطفأه، فضرب به المثل"[3].

وعند الجاحظ، أن في جمع المال آفة كبرى في حراسته أو عدم حراسته، لأنه "لابد للمال الكثير من الحراسة الشديدة ومن الخوف عليه، فان أعمل الحراسة له، وتعب في حفظه وحسب الخوف، خرج عليه فضل. فان هو لو يخف عليه، ولا يكون ذلك في سبيل التوكل، فهو في طباع الحمار وفي جهله"[4].

ويتضح أن الاموال في عصر الجاحظ كانت تؤخذ بالعد، "إذا كانت الرقابة شديدة على عيار النقد والتأكيد قوياً على أن يكون وزن النقود صحيحاً وكانت الحكومة تمنع الناس مع التعامل بالنقود المكسورة"[5].

ويخبرنا بأن "خير الدنانير هي العتق الحمر، وزعم بعض الأوائل انما يمتحن الدينار بلصوقه الشعر واللحية وصعوبة إستمراره فيهما"[6].

وهنالك الدرهم المغشوشة والمزيفة، وعلى الصيارفة عدم ترويجها على الناس لأن ذلك ظلم لهم[1].

والدرهم المغشوش يكون "مالح جرسي الطنين، والفضة صافية الطنين لا يشوبها صمم وهي تقطع العطش إذا مسكت في الفم"[2].

وكانت الخلافة العباسية تتابع بأهتمام الذين يعملون في صناعة هذه النقود المزيفة، حتى أنه وبعد عصر الجاحظ، قد تم كبس أحد البيوت وفيه الآت لضرب الدراهم المعمولة، فتم ضرب صاحب البيت واطافوا به على جمل، وكانت قصته قبيحة جداً عند الناس[3].

ويخبرنا الجاحظ من طرائف النقود، بانه هنالك "ضرب من الفار يسرق الدراهم والدنانير والحلي، ويفرح به ويظهره ويغيبه في الحجر وينظر إليه ويتقلب عليه"[4].

وكذلك فان سائلاً وقف على أحد المجالس يطلب النقود، فادخل أحدهم "يده في الكيس ليخرج فلساً .. فغلط بدرهم .. فلم يفطن حتى وضعه في يد السائل"[5].

---

(2) م.ن، ص(296-295).
(3) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص52.
(4) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص99.
(5) الدوري، د. عبد العزيز، تاريخ العراق، ص244.
(6) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص(15-14).
(1) ينظر: القرشي، محمد بن محمد بن احمد (ت 648هـ/1250م)، معالم القربة في احكام الحسبة، تحقيق د. محمد محمود شعبان، مصر، 1976، ص126.
(2) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص15.
(3) ينظر: الصولي، ابو بكر محمد بن يحيى (ت 335هـ/946م)، اخبار الراضي بالله والمتقي لله من كتاب الاوراق، نشر هيروث، د ن، دار المسيرة، بيروت، 1979، ص148.
(4) الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص479.
(5) الجاحظ، البخلاء، ص68.

العمل والصناعة

طلب العمل، والبحث عنه من الامور المقدسة عند الناس، "والمعاش هو عبارة عن إبتغاء الرزق والسعي في تحصيله"[1]، ويحتاج الناس الى الصناعة مثل حاجة الناس الى "الفلاحة والنساجة والبناية فأن الناس لا بد لهم من طعام يأكلونه وثياب يلبسونها ومساكن يسكنونها"[2].

ويؤكد على ذلك الجاحظ أيضاً، ويخبرنا بان "العرب تفضل الرجل الكسوب والغر[3] الطلوب، ويذمون المقيم الفشل والدثور الكسلان"[4].

ومع تقسيم العمل تتعين درجات متفاوتة من المراتب الإجتماعية، فتكون قيمة حرفة ما اعلى من غيرها، ونتيجة لذلك يتمتع من يمارس تلك الحرفة باهتمام اكبر"[5].

ومن الناس من يحب العمل وهو كبير السن ، فقيل لأبي الأسود الدؤلي: "مالك كثير الجولان وأنت كبير السن؟ قال: لئلا أكون جليس المرأة وجليس البيت"[6].

وفي هذا الصدد،فأن الراي العام يتفق مع الإتجاه نحو العمل، فتقول العامة: "كلب جوال خير من أسد رابض .. ومن سعى رعى، ومن لزم المنام راى الاحلام"[7].

ويبين لنا بأن المثابرة للعمل عند البعض من الحشرات، مثالاً يقتدى به للانسان وهو أفطن الكائنات وأفضلها، ولذلك "فأن رجلاً من العرب طلب الأدب حيناً فأعياه فتركه، فبينا هو في بعض الطريق يسير اذ مر بصخرة ملساء فتاملها فأذا الذر[1] يدب عليها فمن كثرة دبيبه كان أثر في الصخرة.

ففكر فقال في تفكره مع صلاته هذا الصخر وخفة هذا الذرّ الذي اثر فيه هذا الاثر، فانا حري: أن أدوم على الطلب وأجد في الادب فلعلي أصير فيه راساً. فراجع الأكباب على الادب فلم يلبث أن خرج فيه مبرزاً[2].

اما في مجال الصناعات، فأن الجاحظ يبين لنا أهمية صناعة الورق والذي يعد ظاهرة حضارية لا بد منها في المجتمعات لغرض رقيها وتقدمها، وكان المسلمون "حتى اوائل القرن الثالث الهجري يكتبون على الرقوق أو البردي .. وبعد القرن الثالث

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، جـ2، ص462.
(2) ابن تيمية، الحسبة، ص21.
(3) الغرّ: الكرم / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ5، ص12.
(4) الجاحظ، البخلاء، ص336.
(5) Landtman, G., the Origin of Inequality of the Social Classes, Kegan Paul, London, 1938, p.81.
(6) الجاحظ، امل الامل، ص61.
(7) الجاحظ، المحاسن والاضداد، ص95.
(1) الذَّرُّ: صغار النمل / ينظر: ابن منظور، لسان العرب، جـ4، ص304.
(2) الجاحظ، امل الامل، ص63.

أخذ الورق الصيني يرد الى العراق الا أن صناعة الورق ما لبثت أن أتقنها اهل البلاد أنفسهم"[3].

وعندما يظهر لنا الجاحظ مظاهر تلك الصناعة، فانه يميل إليها، وفي الوقت نفسه، كارهاً لصناعة الجلود في الكتابة، وعلى "الجلود يعتمد في حساب الدواوين، وفي الصكاك والعهود، وفي الشروط وصور العقارات"[4].

أما مساوئ الجلود عنده، فهي "جافية الحجم، ثقيلة الوزن، أن أصابها الماء بطلت .. وأن نديت. فضلاً على أن تمطر، وفضلاً على أن تغرق إسترسلت فأمتدت. ومتى جفت لم تعد الى حالها .. وهي أنتن ريحاً وأكثر ثمناً .. وأحمل للغش: يغش الكوفي بالواسطي، والواسطي بالبصري وتعتق لكي يذهب ريحها"[5].

وافضل أنواع الورق هو "الصيني، والكاغد الخراساني"[6]، ولكن ليست هنالك رغبة من الناس لشراء الدفاتر القطنية، "وإن كان فيها كل حديث طريف، ولطف مليح، وعلم نفيس، ولو عرضت عليهم عدلها في عدد الورق جلوداً ثم كان فيها كل شعر بارد وكل حديث غث، لكانت أثمن ولو كانوا عليها أسرع"[7].

ويخبرنا الجاحظ بان العمل في الصيد غير مرغوب عند العرب، قائلاً في ذلك: "وقد وجدنا العرب يستذلون الصيد ويحقرون الصياد"[1].

ومن الصناعات المهمة والتي تدخل بشكل رئيس في توفير الغذاء للناس هي صناعة الطحين، "وطحن الحمير والبغال والبقر والابل، لا يجيء إلا مع تغطية عيونها، ومنافع الطحين عظيمة جداً، وطحن البغال أطيب .. وطحين أرحاء القرى لا يكون له طيب، لأن أرحاء الماء التي هي أرحاء القرى تحدق الدقيق، وتفسد الطعم"[2].

النقل

شاركت مؤلفات الجاحظ في تزويدنا ببعض المعلومات عن وسائل النقل المتبعة في المجتمع العربي الإسلامي، وقد إستخدموا الركب في ذلك، "وأجمعوا على أن الركب كانت قديمة، إلا أن ركب الحديد لم تكن في العرب .. وكانت العرب لا تعود أنفسها إذا أرادت الركوب أن تضع أرجلها في الركب، وإنما كانت تنزو نزواً،"[3] ولكنهم كانوا "وأن إتخذوا الركب فأنهم كانوا لا يستعملونها إلا عندما لا بد منه كراهة أن يتكلوا على بعض ما يورثهم الإسترخاء ... ويضاهئوا أصحاب الترفة والنعمة"[4].

وهنالك البعض من الناس، يفضل ركوب الحمير على بقية الحيوانات الاخرى، وكان الفضل بن عيسى الرقاشي من أخطب الناس، وكان متكلماً قاصاً مجيداً.. وكان لا يركب إلا الحمير، فسأله أحدهم عن ذلك، فقال: لما فيها "من المرافق والمنافع لا تستبدل بالمكان على قدر إختلاف الزمان، ثم هي أقلها داءً وأيسرها دواءً .. وأسهل مرتقىً

(3) حتي، فيليب، تاريخ العرب (المطول)، دار الكشاف للنشر، بيروت، 1952، جـ2، ص(503-502).
(4) الجاحظ، الرسائل، الجد والهزل، جـ1، ص253.
(5) م.ن، جـ1، ص(253-252).
(6) م.ن، جـ1، ص252.
(7) م.ن، جـ1، ص253.
(1) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص309.
(2) الجاحظ، الرسائل، البغال، جـ2، ص353.
(3) الجاحظ، البيان، جـ3، ص23.
(4) م.ن، جـ3، ص24.

واخفض مهوىً .. وأشهر فارهاً .. يزهى راكبه وقد تواضع بركوبه، ويكون مقتصداً وقد أسرف في ثمنه"[5].

ويخبرنا الجاحظ بان جميع "العرب النازلين على شاطئ دجلة من بغداد الى بلد لا يرعون الخيل في الصيف على .. شاطئ دجلة، ولا يسقونها من مائها، لما يخاف عليها .. من الآفات . وأصحاب الخيل .. إنما يسقونها بسر من راى، مما إحتفروها .. ولا يسقونها من ماء دجلة، وذلك أن ماء دجلة مختلط، وليس هو ماءً واحداً، ينصب فيها من الزابين والنهراوانات وماء الفرات، وغير ذلك من المياه"[1].

وعنده أن صاحب البرذون هو أفضل للركب من صاحب الحمار[2].

وكان النقل المائي، من الوسائل الرئيسة آنذاك عند الناس، وقد أستخدموا أنواع عديدة من المراكب النهرية[3] في ذلك.

ويخبرنا الجاحظ بأن الحجاج بن يوسف الثقفي، "هو أول من أجرى في البحر السفن المقيرة المسمرة .. والمدهونة والمسطحة"[4]، وذلك لكي يحافظ على سلامة المركبة.

وقد أطلقوا تسمية الصدر على مقدمة المركب، والذنب على مؤخرة المركب النهري[5].

التعليم والمعرفة

إستقبال المعرفة، والقدرة على التعلم، هي إحدى السمات المميزة للمجتمعات الناجحة، والقادرة على الإبداع والتميز، وعند الجاحظ فلا بد من إستقبال االمعرفة "بالحواس الخمس: جودة الشئ بالنظر أن يكون حسناً رائقاً، وبالخيشوم إذا كان طيباً..، وبالمذاق إذا كان حلواً عذباً، وبالسمع أن يكون صافي الوقع والصوت، وباللمس أن يكون ليناً ناعماً"[1].

---

(5) م.ن، جـ1، ص(306-307).

(1) الجاحظ، الرسائل، الاوطان والبلدان، جـ4، ص(136-137).

(2) ينظر: م.ن، الجد والهزل، جـ4، ص89.

(3) تسميات المراكب النهرية البغدادية في عهد العباسيين هي: السفن والسميريات والمراكب العماليات والزبازب والطيارات والشذوات والبرمات والحراقات والزلالات والمالست والكمندوريات والبالوع والطبطاب والجدي والجاسوس والورحيات والقوارب والخيطيات والشلملي والجعفريات / ينظر: الازدي، حكاية ابي القاسم، ص107.
ينظر: الكرملي، الاب انستانس، لغة العرب، مقالة لجيب زيات (السفن والمراكب في بغداد في عهد العباسيين)، مطبعة الايتام، بغداد، بدون سنة، جـ5، ص463.

(4) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص82.

(5) ينظر: الجاحظ، البخلاء، ص210.

(1) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص(48-47).

وهنالك حدود دنياً للمعرفة عند جميع الناس، "فالأنسان يستعمل في القتال كفيه في ضروبٍ، ومرفقيه ورجليه ومنكبيه وفمه وراسه وصدره، كل ذلك له سلاح ويعلم مكانه، يستوي في ذلك العاقل والمجنون، كما يستويان في الهداية في الطعام والشراب الى الفم"[(2)].

إن التوجه نحو إستقبال المعرفة، من خلال التعليم، له أهمية كبيرة في حياة الانسان، فالجهل آفة انسانية كبرى تؤدي الى المهالك الكبيرة، وبهذا الجهل " نزل المنهزم عن فرسه الجواد، ليحضر ببدنه، يظن إجتهاده أنجى له، وانه إذا كان على ظهر الفرس أقل كداً، وان ذلك أقرب له الى الهلاك .، ولمثل هذه العلة يتشبث الغريق بمن أراد إنقاذه حتى يغرقه ويغرق نفسه، وهما قبل ذلك قد سمعا بحال الغريق والمنهزم"[(3)].

ولذلك فمن الضروريات الرئيسة في الحياة هي التعلم، "والفتيان فالأجدر بهم أن يكونوا أهل المدارس والجوامع.. وأهل العلم والعبادة والورع"[(4)]، ولكن الجاحظ يبين لنا الصعوبات التعليمية لكبار السن، وهنالك أسباب لذلك منها الشواغل العارضة، والقوى المتقسمة. ومن "ذلك ما يكون من خرق المعلم، وقلة رفق المؤدب، وسوء صبر المثقف. فاذا صفا الله ذهنه ونقحه وهذبه وثقفه، وفرغ باله، وكفاه إنتظار الخواطر.. لم يلبث أن يعلم"[(4)].

ولا بد للمعلم إذا علم البنات أن يكون أصغر منهن، ولذلك "مر الوليد بن عبد الملك بمعلم صبيان فراى جارية فقال: ويلك ما لهذه الجارية؟ فقال: أعلمها القرأن. قال: فليكن الذي يعلمها أصغر منها"[(1)].

ومن صعوبات التعلم عند الناس، هو تعلم اللغات، واللغات إنما "تشتد وتعسر على المتكلم بها، على قدر جهله باماكنها التي وضعت فيها، وعلى قدر كثرة العدد وقلته، وعلى قدر مخارجها، وخفتها وسلسها، وثقلها وتعقدها في أنفسها... وبالجملة ان من أعون الأسباب على تعلم اللغة فرط الحاجة الى ذلك"[(2)].

ومن المعارف الشائعة في تلك العصور، هو علم التنجيم[(3)]، وهذا "العلم عويص غامض عميق.. ومعول أهله على الحدس والظن"[(4)].

ويرى الجاحظ أن "خطأ المنجمين كثير، وصوابهم قليل، بل هو أقل من القليل"[(5)].

وقد نجد "المنجمين يختلفون في القضية الواحدة، ويخطئون في أكثرها .. فالناس غير مستعظمين لكثرة كذب المنجمين وخطاياهم وخدعهم"[(6)]، وزعم قوم منهم "أن الفلك والنجوم تعقل وأنها ترى وتسمع، ولا تذوق ولا تشم، وهذه دعوى بلا برهان وما كان هكذا فهو باطل، مردود عند كل طائفة باول العقل"[(7)].

(2) الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص379.
(3) م.ن، جـ6، ص(377-376).
(4) ابن المعمار، الفتوة، ص291.
(5) الجاحظ، البيان، جـ3، ص(294-293).
(1) الجاحظ، البيان، جـ2، ص203.
(2) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص(290-289).
(3) علم التنجيم: هو علم النجوم يسمى بالعربية التنجيم وباليونانية اصطرفوميا، واصطر هو النجم ونوميا هو العلم / ينظر: الخوارزمي، ابو عبد الله محمد بن احمد بن يوسف (ت 383هـ/993م)، مفاتيح العلوم، مطبعة الشرق، مصر، بدون سنة، ص122.
(4) التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، جـ1، ص40.
(5) الجاحظ، الرسائل، حجج النبوة، جـ3، ص261.
(6) م.ن، جـ3، ص262.
(7) ابن حزم، الملل والنحل، جـ5، ص147.

ومن المعارف الشعبية الاخرى، هي النظر في أسرار الكف، وفي مواضع قرض الفأر وفي النظر في الأكتاف، والقضاء بالنجوم، والعلاج بالفكر[8].

ويبين لنا الجاحظ بأن الخليفة المنصور العباسي، تحدث له قرض للفأر في بساطه الذي يجلس عليه، وقد أخبروه ومن خلال ذلك القرض عن فاله، فحدث ذلك له فعلاً[1].

ومن تلك المعارف الاخرى هي الكهانة، "وكانت فاشية في الجاهلية حتى جاء الإسلام فلم يسمع فيه بكاهن"[2].

أما العراف، "وهو دون الكاهن[3]"[4]، فهنالك عدد من البارزين[5] منهم والذين ظهروا في المجتمع العربي قبل الإسلام أيضاً.

الموسيقى والغناء

تميز عصر الجاحظ بنشاط بعض الفنون المختلفة، ومنها الموسيقى، والموسيقى "معناه تاليف الألحان واللفظة يونانية وسمي المطرب ومؤلف الألحان الموسيقور والموسيقار"[6].

والجدير بالذكر أن الغناء والموسيقى، قد تطور في العصر العباسي، تطوراً كبيراً "بفضل إهتمام الخلفاء والأمراء، وكبار رجال الدولة الذين عملوا على رفع شأنهما"[7].

ومن المغنيات من لهن القدرة على حفظ الشعر، وتردي " الحاذقة منهن أربعة ألاف صوت فصاعداً، يكون الصوت فيما بين البيتين الى أربعة أبيات، عدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه ببعض عشرة ألاف بيت"[1].

---

(8) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص205.

(1) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص(304-303).

(2) الابشيهي، المستطرف، جـ2، ص86.

(3) ابرز الكهان: حارثة جهينة، وكاهنة باهلة، وعُزى سلمة، ومثل شقّ، وسطيح، واشباههم / ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ6، ص204.

(4) م.ن، جـ6، ص205.

(5) ومنهم: الابلق الاسدي، والاحلج الزهري، وعروة بن زيد الاسدي، وعراف اليمامة رباح بن كحلة / ينظر: م.ن، جـ6، ص205.

(6) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص126.

(7) رحمة الله، د. مليحة، الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة، مطبعة الزهراء، بغداد، 1970، ص83.

(1) الجاحظ، الرسائل، القيان، جـ2، ص176.

ومن فنون الموسيقى والغناء هو اللحن، "ويختص بمعرفة أجزائها وقسمها، ومقاطعها ومخارجها ووزنها " حتى يستوى على الإيقاع ويدخل في الوتر وغير ذلك"[2].

ولليد دور رئيس في الفنون الموسيقية، فلها " ضرب الطبل والدف وتحريك الصفافتين، وتحريك مخازن خروق المزامير، وما في ذلك من الأطلاق والحبس"[3].

ويرى من المستشرقين، بانه "منذ القرن الثالث الهجري، نجد تمييزاً قائماً بين الغناء .. وبين الموسيقى النظرية. لكن لسوء الحظ لا نملك إلا القليل عن وصف هذا الغناء أو تحليله"[4].

أما في مجال الموسيقى، فلهذا الفن شروطه وقوانينه[5] ويبدو أن السوداء من النساء هي الأقدر على إستعمال آلة الزمر بصورة متقنة[6].

وللزنج القدرة على "الرقص الموقع الموزون، والضرب بالطبل على الايقاع الموزون، من غير تأديب ولا تعليم"[7]، ولهم كذلك "غناء معجب، ولهم الكنكلة وهي وتر واحد يمد على قرعة فيقوم مقام أوتار العود والصنج، ولهم ضروب الرقص والخفة"[8].

ويحتاج الغناء الى عدة مهارات شخصية، "فللحنجرة والحنك والنفس.. وتحت اللسان من نغمها .. وما يحفر بالهمز أو يحرك بالضم، وكالقول بأن الهزج بالبنصر أطيب أو بالوسطى؟"[1].

وللغناء تأثير على الناس بعد أن يطربهم، فقد نجد "الرجل الحليم والشيخ الركين يسمع الصوت المطرب من المغني المصيب فينقله ذلك الى طبع الصبيان والى أفعال المجانين فيشق جيبه .. ويفدى غيره ويرقص كما يرقص الحدث الغرير والشاب السفيه"[2].

ويبين الجاحظ بأن البعض من المغنين ليست لهم معرفة بعلوم هذا الفن، قائلاً في ذلك: "ولكن العجب ممن يموت مغنياً وهو لا طبع له في معرفة الوزن"[3].

وعنده أن المعرفة والإلمام بالفنون الموسيقية، تجعل من المغني أن يكون معلماً ومغني خاصة بدلاً من أن يكون مطرب ومغني للعامة من الناس[4].

ويرى أن الغناء للنساء أطيب من الرجال، "لأن الرجال دخلاء على النساء في الغناء ، كما رأينا رجالاً ينوحون، فصاروا دخلاء على النوائح"[5].

---

(2) م.ن، طبقات المغنين، جـ3، ص131.
(3) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص49.
(4) شاخت وبوزورث، تراث الاسلام، ترجمة د. حسين مونس، ط2، الكويت، 1988، جـ2، ص357.
(5) ومنها: ان يعلم على العروض والتصريف وعلم النغم والايقاع وعلم الشعر وصنعته والمعروفة بالاوزان الهوائية / ينظر: الكوفي، جابر بن حيان، مختار رسائل، ص14.
(6) الجاحظ، البيان، جـ1، ص93.
(7) الجاحظ، الرسائل، فخر السودان، جـ1، ص195.
(8) م.ن، جـ1، ص223.
(1) الجاحظ، الرسائل، الشارب والمشروب، جـ4، ص279.
(2) الجاحظ، رسائل الساسي، رسالة في العشق، ص(164-163).
(3) الجاحظ، الحيوان، جـ1، ص202.
(4) ينظر: م.ن، جـ1، ص203.
(5) الجاحظ، الرسائل، النساء، جـ3، ص144.

ثم يضيف في ذلك بالقول: "وبعد، فأيما أحسن وأملح، وأشهى .. أن يغنيك فحل ملتف اللحية، كث العارضين، أو شيخ منخلع الأسنان.. أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس، أو كأنها ياسمينة، أو كأنها خرطت من يا قوتة، أو من فضة مجلوة"[6].

ثم يقدم الجاحظ وسائله للدفاع عن الغناء، قائلاً في ذلك: "لانرى بالغناء بأساً إذا كان أصله شعراً مكسواً نغماً: فما كان منه صدقاً فحسن، وما كان منه كذباً فقبيح"[7].

ويرد على من يدعي بأن للغناء حرمة متأتية من أنه يلهي عن ذكر الله تعالى، فانه يعلق على ذلك قائلاً: "فقد نجد كثيراً من الأحاديث والمطاعم والمشارب والنظر الى الجنان والرياحين، وأقتناص الصيد، والتشاغل بالجماع وسائر اللذات، تصد وتلهى عن ذكر الله .. ونعلم أن قطع الدهر بذكر الله لمن أمكنه أفضل، إلا أنه إذا أدى الرجل الفرض في هذه الأمور كلها له مباحة، وإذا قصر عنه لزمه المأثم"[1].

أما الذين حرموا السماع الى الغناء ، لأنه عندهم بانه داعية الى الزنى[2]، وعند البعض أن "الوتر أو العود وحده من غير وتر لو ضرب لم يحرم ولم يطرب فأذا إجتمعا وضرب بهما على وجه مخصوص حرم وازعج"[3].

وقد نظم المغنين على شكل مراتب وطبقات في عهد الخليفة الرشيد"[4].

ومن ابرز المغنين الذين ذكرهم الجاحظ في مؤلفاته: علوية المغني[5]، إسحاق الموصلي[6].

الجريمة والانتحار

(6) م.ن، جـ3، ص145.

(7) م.ن، القيان، جـ2، ص160.

(1) الجاحظ، الرسائل، القيان، جـ2، ص161.

(2) ينظر: الجاحظ، الحيوان، جـ3، ص293.

(3) ابن الجوزي، تلبيس ابليس، ص245.

(4) كان ابراهيم الموصلي، واسماعيل ابو القاسم بن جامع، وزلزل منصور الضارب في الطبقة. والطبقة الثانية: سليم بن سلام ابو عبيد الله الكوفي، وعمرو الغزال. والطبقة الثالثة: اصحاب المعازف والونج والطنابير / ينظر: الجاحظ، التاج، ص45.

(5) علوية المغني، وهو علوية الاعسر، وكان راوية للغناء وعالماً به جيد الصنعة، وهو احد مطربي عصره، وكان يضرب بالعسراء من غير ان يغير الاوتار وكان صحيح الضرب صافي الوتر / ينظر: الجاحظ، البرصان والعرجان، ص(164-163).

(6) اسحاق بن ابراهيم الموصلي: اجتمعت له في ذلك الآت، منها معرفته بالغناء، وكثرة استماعه اياه وعلمه بحسنه من قبيحه، ومنها حذقه بالضرب والايقاع، وعلمه بوزنها. وألف في ذلك كتباً معجبة. وسهل له فيها ماكان مستصعباً على غيره، فصنع الغناء بعلم فاضل، وحذق راجح، ووزن صحيح، وعلى اصل مستحكم له دلائل صحيحة واضحة، وشواهد عادلة / ينظر: الجاحظ، الرسائل، طبقات المغنين، جـ3، ص132.

لا يخلو مجتمع من المجتمعات من آثار للجريمة والإنحراف، وهنالك "طبائع لدى بعض الناس من شان التقلب الى هلكتهم وفساد دينهم، وذهاب دنياهم، وإن كانت العامة أسرع الى ذلك من الخاصة"[(1)].

وعند الجاحظ أن الجريمة لا يمكن تجنبها الا من "خلال القصاص العادل .. ثم بالأخافة الشديدة والحبس"[(2)].

ولذلك "فأن أهل الصلاح والقدر، عند غلبة السفلة والدعار، وهيج العوام، يقوم منهم العدد اليسير في الناحية والقبيلة، والدرب والمحلة .. يقمع شذاذ الدعار، حتى يسرح الضعيف ويأمن الخائف، وينتشر التاجر"[(3)]، لأن الحياة الامينة والهادئة والبعيدة عن العبث والفوضى، لتعطي فرصة للناس من اجل العمل والإبداع.

ثم أنه يبين لنا بأن البعض من الناس لا ينصاعون الا بالقوة، فهنالك من الرجال المعروفين بالطيش، مظهراً للصولة، ويداريه الجليس، ويترك مجاراته للذين يعرفون بوادر حدته، وشدة تسعره والتهابه، وكثرة فلتاته. ثم لا يلبث أن يحضر الرجل المنيع، فيلقى ذليلاً خاضعاً، أو حليماً وقوراً، أو أديباً رفيقاً، أو صبوراً محتسباً[(4)].

وعنده السرقة أنواع وأشكال، "فلا بد مما لا يمنع الناظر من النظر الى الزرع والغرس والتفسح في خضرته والإستنشاق من روائحه. ويسمى ذلك كله له حلاً مالم يمد له يداً. فأذا مدّ يداً الى مثقال حبة.. بغير حقها فعل مالا يحل، وأكل ما يحرم عليه"[(5)].

ومن طرائف اللصوص، بأنه هنالك أخوين أحدهما أيمن والاخر أعسر، فكان الأيمن يفخر على الأعسر فأخذا في سرقٍ فقطعت أيديهما، فكان الايمن لا يستطيع أن يعمل بيده، وكان الأعسر يعمل بيده العسرى أعماله كلها على صحته وعادته، ففخر الأعسر على الأيمن بذلك فقال الأيمن: ما علمت للأيسر فضيلة إلا أن يسرق فيؤخذ فتقطع يمينه"[(1)].

أما في مجال الإنحراف الإجتماعي، فهنالك جريمة الإنتحار، وإن هذه الظاهرة لا يختارها "السليم العقل والطباع"[(2)].

أما أنواع طرق الإنتحار فهي "أن يذبح نفسه أو يختنق أو يتردى في بئر، أو يرمي نفسه من حالق[(3)].

ويحدد لنا الجاحظ الأسباب الرئيسية للانتحار، فهي "الخوف من المثلة أو التعذيب أو التعيير وتقريع الشامتين، أو لأن به وجعاً شديداً فيحرك عليه المرَّة فيحمى لذلك بدنه ويسخن جوفه، فيطير من ذلك شيء الى دماغه أو قلبه، فيوهمه ذلك أن الصواب في قتل نفسه، وإن ذلك هو الراحة، وإن الحزم مع الراحة"[(4)].

---

(1) الجاحظ، الرسائل، جوابات واستحقاق الامامة، جـ4، ص300.
(2) م.ن، جـ4، ص300.
(3) م.ن، جـ4، ص289.
(4) م.ن، جـ4، ص301.
(5) الجاحظ، الرسائل، القيان، جـ2، ص163.
(1) الجاحظ، البرصان والعرجان، ص590.
(2) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص312.
(3) م.ن، جـ2، ص312.
(4) م.ن، جـ2، ص312.

ويخبرنا عن المنتحرين من المناطق المرتفعة، فأذا ما أمتنع ذلك الشخص بترك هذا العمل، نراه يعدل عنه، ومن تلك المناطق المرتفعة هي عقرقوف[5]، ويقول في ذلك: "وقد يعتري الذي يصعد على مثل .. عقرقوف ..، فأنه يعتريه أن يرمي بنفسه من تلقاء نفسه، فيرون عند ذلك أن يصعد إليه بعض المعاودين المجربين، ولا يصنع شيئاً حتى يشد عينيه ويحتال لأنزاله. فهذا المعنى عام فيمن كانت طبيعته تثور عند مثل هذه العلة"[6].

الحوادث والكوارث

الحوادث والكوارث الجماعية او الفردية، لها دور في الحياة الإجتماعية للناس لانها تؤثر على جوانب إقتصادية وصحية لها علامة ببعض الفعاليات الإجتماعية المختلفة.

ومن هذه الحوادث والكوارث هي الفيضانات، "ولأهل البصرة المد والجزر على حساب منازل القمر لا يغادران من ذلك شيئاً. فيأتيهم الماء حتى يقف على أبوابهم، فأن شاءوا أذنوا، وأن شاءوا حجبوه"[1].

ويحدثنا الجاحظ بأن للمياه الجوفية وفيضان دجلة لهما الأثر الكبير في حياة البغداديين، معلقاً على ذلك بالقول: "وهذه أرض بغداد في كل زيادة ماءٍ ينبع الماء في أجواف قصورهم الشارعة بعد أحكام المسنيات التي لا يقوى عليها .. ثم يهدمون الدار التي على دجلة فيكبسون بها تلك السكك، ويتوقعون الغرق في كل ساعة"[2].

ومن الحوادث الفردية، هو الغرق، "وإذا غرقت المرأة رسبت. فأذا أنتفخت وصارت في بطنها ريح .. طفا بدنها وأرتفع، إلا أنها تكون منكبة ، ويكون الرجل مستلقياً"[3].

ومن الكوارث الطبيعية هي الصواعق، "ويزعمون أن الصاعقة تسقط في حانوت.. فتذيب السيوف بطبعها .. وتسقط على الرجل ومعه الدراهم فتسيك الدراهم، ولا يصيب الرجل أكثر من الموت"[4].

والبحريون في البصرة والأبلة التي تكون عنها الصواعق، "لا يدعون في صحون دورهم وأعالي سطوحهم، شيئاً من الصفر إلا رفعوه، لأنها عندهم تنقض من اصل مخارجها، على مقدار من محاذاة الأرض، ومقابلة المكان. فأذا كان الصفر لها ضاحياً، عدلت إليه عن سننها"[5].

---

(5) عقرقوف: وهي قرية من نواحي وجبل، بينها وبين بغداد اربعة فراسخ، والى جانبها تل عظيم من تراب يرى من خمسة فراسخ كأنه قلعة عظيمة / ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ4، ص137.

(6) الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص(313-312).

(1) الجاحظ، الرسائل، الاوطان والبلدان، جـ4، ص145.

(2) م.ن، جـ4، ص140.

(3) الجاحظ، الحيوان، جـ5، ص118.

(4) م.ن، جـ4، ص316.

(5) م.ن، جـ4، ص316.

ومن الكوارث الأخرى، هي الوقوع في البئر، وما يصيب "ذلك الأسن من البخار المختنق في البئر إذا صار فيها، فأنه ربما إستقى وأستخرج وقد تغير عقله .. وأن دواءه أن يلقوا عليه دثاراً ثقيلاً .. وإن كان في تموز وآب"[1].

[1] الجاحظ، الحيوان، جـ2، ص311.

خاتمة البحث

تعد الدراسات الإجتماعية واحدة من البحوث التاريخية في التاريخ العربي الإسلامي، ولهذه الدراسة أهمية خاصة، لانها تبحث في تاريخ الاغلبية من الناس مع بيان جوانب متعددة من حياتهم اليومية والشخصية، ولذلك أزدهرت كتب التاريخ والادب العربي بمعلومات إجتماعية واسعة.

وقد تبين لنا من خلال هذا البحث بأن للجاحظ القدرة الكبيرة في مجال الملاحظة الاجتماعية التاريخية، وقدرته البارعة في مناقشة تلك الملاحظات، ولا حظنا بانه يوظف في ذلك ما يحيط بالتأثير الإجتماعي أن كان جماعياً أم فردياً من تأثيرات بيئية ووراثية على الحالة الاجتماعية وأثر الحالة في التأثير والتغيير على مجريات وأحداث التاريخ عبر العصور.

وتبين لنا ومن خلال البحث قدرته الشخصية في التأثير والتأثر علىالأخرين، وبما يتمتع به من ثقافة واسعة ومطالعة كبيرة للكثير من الكتب والمؤلفات والتي جعلت منه مؤلفاً موسوعياً ومطالعة كبيرة للكثير من الكتب والمؤلفات والتي جعلت منه مؤلفاً موسوعياً متنوعاً، ينقل من الأخرين، ويكتب ملاحظاته عنهم ويؤرخ الأحداث في عصره، مع قدرته في الرد على الأخرين ومناقشة ملاحظاته وآرائه في مجالات الظواهر الإجتماعية والتأريخية والادبية، وتتسم مناقشاته وردوده بالعمق الفكري والعلمي وقدرته العالية على الإقناع.

ومن خلال هذا البحث وجدت أن الاهتمام والبحث عن المواضيع الإجتماعية الاخرى والمختلفة والمتخصصة عميقة الفائدة، لانها تعطي للباحث فرصة أوسع للحصول على معلومات واسعة وأشمل في البحث التاريخي، كما توفر للباحث فرصة الإطلاع على عدد كبير من المصادر والكتب وفي مجالات وإختصاصات مختلفة، وذلك لأن الأحداث الإجتماعية لا تكون وحيدة الجانب بل تتعدى ذلك الى جوانب عديدة ومختلفة، كما وان الدراسات الإجتماعية التاريخية، تضيف العبر والمواعظ للمجتمعات الانسانية عبر كل العصور التاريخية.

ويتضح لنا من خلال هذا البحث، بأن التراث العربي الإسلامي، لا يزال فيه الكثير من مصادر القوة والإقتدار، ولا يزال فيه الكثير من جوانب البحث والمناقشة والدراسة لانه تراث زاخر، وملئ بالمفردات الكثيرة والعظيمة، ومن الله التوفيق....

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

أولاً / المخطوطات العربية:

ابن سيار، أبو محمد بن علي بن عطية الحارثي (مازالت سنة وفاته مجهولة).
1- الطبيخ، مخطوطة مصورة في المجمع العلمي العراقي تحت رقم (1683).
ابن سينا، أبو علي الحسين بن علي (ت 428 هـ/1037م),
2- رسائل ابن سينا، رسالة في الأخلاق، مخطوطة مصورة في المجمع العلمي العراقي تحت رقم (529).
ابن الفارض، عمر بن علي بن المرشد الحموي (ت 632 هـ/1235م).
3- فوائد البطيخ، مخطوطة مصورة في المجمع العلمي العراقي تحت رقم (1047).
مؤلف مجهول،
4- أخبار الزمان في تاريخ بني العباس، مخطوطة مصورة في المجمع العلمي العراقي تحت رقم (1348).

ثانياً / المصادر العربية المطبوعة:

الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت850 هـ / 1446م).
1- المستطرف في كل فن مستظرف دار مكتبة الحياة، بيروت، 1989.
ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت 630هـ/1232م).
2- اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، بدون سنة.
3- الكامل في التأريخ، دار صادر، بيروت، 1965.
أخوان الصفا، عاشوا في القرن الرابع الهجري/
4- رسائل إخوان الصفا، دار صادر بيروت، 1957.
الأزدي، محمد بن أحمد أبي المطهر (ت منتصف القرن الرابع الهجري).
5- حكاية أبي القاسم البغدادي، مكتبة المثنى، بغداد، 1902.
الأزرق، أبو اليد محمد عبد الله بن أحمد (ت 244 هـ/858م).
6- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح، دار الأندلس، بيروت، بدون سنة.
الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود (ت 297 هـ / 909م).
7- الزهرة، تحقيق د.براهيم السامرائي، د. نوري حمودي القيسي، ط2، مكتبة المنار، الأردن، 1985.
الأصبهاني، أبو الفرج (ت 356 هـ /967م).
8- الأغاني، تحقيق لجنة من الأدباء، دار الثقافة، بيروت، 1983.

إبن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس الخزرجي (ت 668 هـ / 1269م).
9- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق د.نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت، بدون سنة.
إبن بسام المحتسب (سنة وفاته ما زالت مجهولة).
10- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق حسام السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، 1968.
إبن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن أبراهيم (ت 779 هـ / 1377م).
11- رحلة إبن بطوطة، دار بيروت، 1985.
البغدادي، محمد عبد الكريم (ألف كتابه سنة 623 هـ / 1226م).
12- الطبيخ، تحقيق د. داود الحلبي، بيروت، بدون سنة.
البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت 1093 هـ /1682م).
13- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون سنة.
البيهقي، إبراهيم بن محمد (ت قبل 320 هـ / 933م).
14- المحاسن والمساوئ، إشراف فريدريك شوالي، ليسك، 1901.
البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت 440 هـ / 1048م).
15- الأثار الباقية عن القرون الخالية، بدون سنة.
التنوخي، أبو علي المحسن بن علي (ت 384 هـ / 994م).
16- الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود الشالحي، دار صادر، بيروت، 1978.
17- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي، بيروت، 1973.
التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس (ت 414 هـ / 1023م).
18- البصائر والذخائر، تحقيق د. وداد القاضي، ط 4، دار صادر، بيروت 1999.
19- الإمتاع والمؤانسة، شرح أحمد أمين، مكتبة الحياة، بيروت، بدون سنة.
إبن تيمية، أبو العباس تقي الدين أحمد الحراني (ت 728 هـ /1327م).
20- الحسبة في الاسلام ، بيروت، بدون سنة.
الثعالبي، أبو المنصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت 429 هـ 1037م).
21- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار النهضة، مصر، 1965.
الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت 255 هـ/868م).
22- آثار الجاحظ، تقديم عمر أبو النصر، ط 1، 1969.
23- أمل الامل (منسوب)، تحقيق رمضان ششن، ط1، دار الكتاب الجديد، 1968.
24- البخلاء، دار بيروت، لبنان، 1980.
25- البرصان والعرجان والعميان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1982.
26- البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط 5، مكتبية الخانجي، القاهرة، 1985.
27- التاج في أخلاق الملوك (منسوب) تحقيق وتقديم فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت 1970.
28- التبصر بالتجارة (منسوب)، نشر حسن حسين عبد الوهاب، دمشق، 1932.
29- الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط 3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969.
30- رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هاروتن، ط 1، مكتبة الخانجي، مصر 1979، وتشمل الرسائل آلاتية وحسب تسلسلها في الكتاب:
- الجزء الأول/
- مناقب الترك.
- المعاش والمعاد.
- كتمان السر وحفظ اللسان.

- فخر السودان على البيضان.
- في الجد والهزل.
- في نفي التشبيه.
- في كتاب الفتيا.
- إلى أبي فرج بن نجاح الكاتب.
- فصل ما بين العداوة والحسد.
- صناعات القوادز
- الجزء الثاني/
- في النابتة.
- كتاب الحجاب.
- مفاخرة الجواري والغلمان.
- كتاب القيان.
- ذم أخلاق الكتاب.
- كتاب البغال.
- الحنين إلى الأوطان.
- الجزء الثالث/
- الحاسد والمحسود.
- المعلمين.
- التربيع والتدوير.
- في مدح النبيذ وصفة أصحابه.
- طبقات المغنين
- النساء
- مناقب الترك
- حجج النبوة
- خلق القرآن
- الرد على النصارى
- الجزء الرابع /
- الرد على المشبهة
- مقالة العثمانية
- المسائل والجوابات في المعرفة
- المعاد والمعاش
- الجد والهزل
- الوكلاء
- الأوطان والبلدان
- البلاغة والإيجاز
- تفضيل البطن على الظهر
- النبل والتنبل وذم الكبر
- المودة والخلطة
- استحقاق الأمامة
- استنجاز الوعد
- تفضيل النطق على الصمت
- صناعة الكلام
- الشارب والمشروب

- الجوابات في الأمامة
- مقالة الزيدية والرافضة
31- رسائل الجاحظ، شرح محمد أفندي سآسى المغربي، مطبعة السعادة، مصر، بدون سنة.
32-رسائل الجاحظ، تقديم الشيخ د.محمد علي الزغبي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986
33-رسالة التربيع والتدوير، تحقيق فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، بدون سنة
34-الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير،ط1، حلب، 1928
35-سلوه الحريف بمناظره الربيع والخريف، دار الرائد العربي، بيروت، 1982
36-المحاسن والأضداد (منسوب)، تحقيق فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، 1969

أبن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد (ت 614 هـ/1217م)/
37- رحلة أبن جبير، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، بدون سنة.

أبن جلجل، أبو داود سليمان بن حيان الأندلسي (عاش في القرن الرابع الهجري)/
38-طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد،القاهرة،1955

الجمحي، محمد بن سلام(ت 231 هـ/ 844م)/
39-طبقات فحول الشعراء، شرح محمود محمد شاكر، القاهرة، بدون سنة

الجواليقي، أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد (ت 540 هـ/ 1145م)/
40-المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تحقيق أحمد محمد شاكر،مطبوعات دار الكتب المصرية، بدون سنة.

أبن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597 هـ/ 1200م)/
41-الأذكياء، المطبعة الحيدرية،النجف،1969
42-تلبيس إبليس، دار الرائد العربي، بيروت، بدون سنة.
43-القصاص و المذكرين، تحقيق د. محمد بن لطفي الصباغ، ط2، المكتب الأسلمي، بيروت، 1988
44-المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، بدون سنة

أبن حبيب، أبو جعفر محمد(ت245هـ/858م)/
45-المحبر، تصحيح ايلزة ليختن شيتر،دار الأفاق الجديدة، بيروت،بدون سنة

أبن حزم الندلسي، أبو محمد بن أحمد الظاهري (ت456هـ/1063م)/
46-الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق د.محمد أبراهيم النصر، دار الجيل، بيروت، بدون سنة

الخطيب البغدادي، ابو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت463هـ/1071م)/
47-تاريخ بغداد او مدينة السلام،دار الكتاب العربي، بيروت، بدون سنة
48-التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم واشعارهم، تعليق كاظم المظفر، المكتبة الحيدرية، النجف،1966

ابن خلدون، أبو يزيد عبد الرحمن بن محمد(ت808هـ/1405م)/
49-المقدمة، الدار التونسية للنشر،1984

أبن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر(ت681هـ/1282م)/
50-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. أحسان عباس، دار صادر، بيروت، بدون سنة

الخوارزمي، أبو عبدالله محمد بن يوسف(ت383هـ/993م)/
51-مفاتيح العلوم، مطبعة الشرق، مصر، بدون سنة.

الرازي، أبو بكر محمد(ت303هـ/915م)
52-المنصوري في الطب، تحقيق د. حازم البكري، ط1، الكويت،1987

الراغب الصفهاني، أبو القاسم حسين محمد(ت502هـ/1108م)/
53-محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، دار مكتبة الحياة، بيروت،1961
ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر(تبعد290هـ/900م)/
54-الأغلاق النفيسة، ليدز،1891
ابن رشيق،أبو علي الحسن القيرواني(ت456هـ/1064م)/
55-العمدة في محاســن الشــعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط4، دار الجيل، بيروت،1972
أبن الساعي، تاج الدين أبي طالب الخازن البغدادي(ت674هـ/1275م)/
56-نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والأماء، تحقيق د. مصطفى جواد، دار المعارف، مصر، بدون سنة
أبن سعد، محمد بن سعيد بن منيع الزهري(ت230هـ/845م)/
57-الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت
السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي(ت562هـ/1166م)/
58-الأنساب، تعليق عبدالله عمر البارودي،ط2، دار الكتب العلمية،بيروت،1988
السهر وردي، شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد (632هـ/1234م)/
59-عوارف المعارف، مؤسسة الحلبي، القاهرة،1967
أبن سيدة، أبو الحسن علي بن اسماعيل النحوي الأندلسي(ت458هـ/1065م)/
60-المخصص، دار الفكر، بيروت، بدون سنة.
الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد(ت388هـ/998م)/
61-الديارات، تحقيق كوركيس عواد، ط3، دار الرائد العربي، بيروت، 1968.
الشهرستاني، أبو الفتح محمد عبد الكريم أبن أبي بكر أحمد(ت548هـ/1153م)/
62-الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة،1968
الشيزري، عبد الرحمن بن نصر(ت774هـ/1372م)/
63-نهاية الرتبة في طلب الحســبة، تحقيق د.الســيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، بدون سنة
الصابئ أبو الحسين هلال بن المحسن بن أبراهيم(ت448هـ/1056م)/
64-الوزراء أو تحفة الامراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبد الســتار احمد فراج، دار أحياء الكتب العربية، 1958
الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى(ت335هـ/946م)/
65-أخبـار الراضــي والمتقي لله من كتـاب الاوراق، نشــر هيورث دن، دار المســيرة، بيروت،1979.
الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت310هـ/922م)/
66-تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل أبراهيم، بيروت، بدون سنة.
أبن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد(ت597هـ/1200م)/
67- العقد الفريد، تحقيق د.عبد المجيد الترحيني،ط3، دار الكتب العلمية، بيروت،ذ1987
أبن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي(ت571هـ/1175م)/
68-تهذيب تاريخ دمشق الكبير، هذبه عبد القادر بدران،ط2، دار المسيرة، بيروت،1979
أبن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي(ت1089هت/1678م)/
69-شذرات الذهب في اخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون سنة
غرس النعمة، ابو الحسن محمد بن هلال الصابئ(ت480هـ/1087م)/
70-الهفوات النادرة، تحقيق د.صباح الاشتر، دمشق،1967
الغزالي،ابو حامد(ت505هـ/1111م)/
71-أحياء علوم الدين، مؤسسة الحلبي للنشر، القاهرة،1967

الفراهيدي،ابو عبد الرحمن خليل بن احمد(ت175هـ/791م)/
72-كتاب العين،تحقيق مهدي المخزومي،د.ابراهيم السامرائي، بغداد،1980
القالي،ابو علي اسماعيل بن القاسم(ت356هـ/968م)/
73-الآمالي والذيل، المكتب التجاري، بيروت،بدون سنة
ابن قتيبة الدينوري،ابو محمد عبد الله بن مسلم(ت276هـ/889م)/
74-عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون سنة
75-ادب الكاتب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط4، مطبعة السعادة، مصر،1963
قدامة بن جعفر(ت310هـ/922م)/
76-الخراج وصناعة الكتابة، شرح د.محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر،بغداد،1986
القرشي، محمد بن محمد بن احمد(ت648هـ/1250م)/
77-معالم القربة في احكام الحسبة، تحقيق د.محمد محمود شعبان، مصر،1976
القزويني، زكريا بن محمد بن محمود(ت682هـ/1283م)/
78-عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، دار الشرق العربي، بيروت، بدون سنة
القيرواني، ابو اسحاق ابراهيم بن علي(ت453هـ/1061م)/
79-زهر الآداب وثمر الألباب، شرح د.زكي مبارك، ط4، دار الجيل، بيروت، بدون سنة
الكتبي، محمد بن شاكر(ت764هـ/1362م)/
80-فوات الوفيات، تحقيق د.احسان عباس، دار صادر، بيروت،بدون سنة
الكوفي، جابر بن حيان(ت200هـ/815م)/
81-مختار رسائل جابر بن حيان،نشر ب-كراوس، مكتبة الخانجي، القاهرة،1935
المبرد، ابو العباس محمد بن يزيد(ت285هـ،/897م)/
82-الكامل في اللغة والادب، بيروت، بدون سنة
ابن المرتضى، احمد بن يحيى(ت840هـ/1436م)/
83-طبقات المعتزلة، تحقيق سوسنة ديفلد-فلزر، دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون سنة
المرتضى، علي بن الحسين الموسوي العلوي(ت436هـ/1044م)/
84-أمالي المرتضى(غرر الفوائد ودرر القلائد)، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم،ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967
المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي(ت346هـ/957م)/
85-التنبيه والاشراف، دار مكتبة التراث،بيروت،1981
86-مروج الذهب ومعادن الجوهر،ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت،1982
مسكويه، ابو علي احمد بن محمد(ت421هت/1030م)/
87-تهذيب الأخلاق،ط1،دار الكتب العلمية، بيروت، 1981
المعتزلي، عبد الجبار بن احمد(ت415هـ/1024م) /
88-شرح الاصول الخمسة، تحقيق د. عبد الكريم عثمان،ط1، القاهرة،1965
المقدسي، شمس الدين ابي عبد الله محمد بن احمد(ت380هـ/990م)/
89-احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم،ط3، مكتبة البابي الحلبي، مصر،1961
ابن منظور، ابم الفضل جمال الدين محمد(ت711هـ/1311م)/
91-لسان العرب، دار صادر، بيروت، بدون سنة
الميداني، ابو الفضل احمد بن محمد النيسابوري(ت518هـ/1124م/
92-مجمع الأمثال دار القلم، بيروت، بدون سنة
ابن النديم، ابو الفرج محمد بن اسحاق(ت385هت/995م)/
93-الفهرست، دار المعرفة، بيروت، بدون سنة
ابو نعيم الاصفهاني، احمد بن عبد الله(ت430هـ/1038م)/
94- حلية الاولياء وطبقات الاصفياء،ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،1988

النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب(ت733هـ/1332م)/
95-نهاية الأرب في فنون الادب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، بدون سنة.
الهمذاني، ابو الفضل احمد بن الحسين(ت398هـ/1007م)/
96-مقامات بديع الزمان الهمذاني، شرح د.علي بو ملحم،ط1، مكتبة الهلال، بيروت،1993
الوشاء، ابو الطيب محمد بن اسحاق بن يحيي(ت325هـ/936م)/
97-الموشى أو الظرف والظرفاء، تحقيق كمال مصطفى، دار صادر، بيروت،1965
ياقوت الحموي، شهاب الدين ابي عبدالله(ت626هـ/1228م)/
98-معجم الادباء، دار احياء التراث العربي، بيروت، بون سنة
99-معجم البلدان، دار صادر، بيروت، بدون سنة
اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن جعفر(ت بعد292هـ/904م)/
100-تاريخ اليعقوبي، تعليق محمد صادق بحر العلوم،ط4،المكتبة الحيدرية، النجف،1974
ابو يوسف القاضي، يعقوب بن ابراهيم(ت182هـ/797م)/
101-الخراج، بدون سنة.

ثانياً / المراجع العربية:

الأطرقجي، د.رمزية/
1-الحياة الأجتماعية في بغداد منذ نشأتها حتى نهاية العصر العباسي الأول،ط1،بغداد،1982
أمين، أحمد/
2-ظهر الأسلام،ط5، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969
البغدادي، اسماعيل باشا/
3-هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، دار الفكر، بيروت، 1982
جار الله، زهدي حسن/
4-المعتزلة، مطبعة مصر، القاهرة، 1947
جبر، د.جميل/
5-الجاحظ ومجتمع عصره، المطبعة الكاثوليكية، بيروت،1958
6-نوادر الجاحظ، دار الأندلس، بيروت،1963
الحاجري،د.طه/
7-الجاحظ حياته وآثاره، دار المعارف، مصر، 1962
حتي، فيليب/
8-تاريخ العرب(المطول)، دار الكشاف للنشر، بيروت،1952
حسن، د.حسن أبراهيم/
9-تاريخ الأسلام،ط7، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،1965
حمدي، د.محمد بركات/
10-سخرية الجاحظ من بخلائه، بيروت، بدون سنة
الخوانساري، محمد باقر/
11-روضات الجنات في احوال العلماء والسادات، دار المعرفة، بيروت، بدون سنة
الدوري، د.عبد العزيز/
12-تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري،ط3، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،1995
رحمة الله، د.مليحة/

13-الحالة الجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة، مطبعة الزهراء، بغداد، 1970
الزركلي، خير الدين/
14-الأعلام، بدون سنة
سركيس، يوسف الياس/
15-معجم المطبوعات العربية والمعربة، مطبعة سركيس، مصر،1926
شلبي، أحمد/
16-تاريخ التربية الأسلامية،ط3، مكتبة النهضة العربية،1966
شير، آدي/
17-الآلفاظ الفارسية المعربة، بيروت، بدون سنة
عاشور، د.سعيد عبد الفتاح/
18-دراسات في تاريخ الحضارة الأسلامية العربية،ط2، ذات السلاسل، الكويت،1986
عبد الرزاق، فهمي/
19-العامة في بغداد، بيروت، 1983
العبيدي، د.صلاح حسين/
20-الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي، بغداد،1980
علي، محمد كرد/
21-الاسلام والحضارة العربية،ط3، القاهرة،1968.
عويس،د.محمد/
22-المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ، دار الثقافة، مصر،1977
فروخ، د.عمر/
23-تاريخ الادب العربي،ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1981
فهد، د.بدري محمد/
24-المجتمع العراقي في العصر العباسي، حضارة العراق، بغداد
كتابجي، زكريا/
25-الترك في مؤلفات الجاحظ ومكانتهم في التاريخ الأسلامي حتى أواسط القرن الثالث الهجري، دار الثقافة، بيروت، بدون سنة
محيي الدين، د.عبد الرزاق/
26-أبو حيان التوحيدي، سيرته وآثاره،ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،1979
مصطفى، شاكر/
27-التاريخ العربي والمؤرخون،ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1978
بو ملحم، د.علي/
28-المناحي الفلسفية عند الجاحظ،ط1، دار الطليعة، بيروت،1980
النجم، د.وديعة طه/
29-الجاحظ والحاضرة العباسية، مطبعة الأرشاد، بغداد،1965
وجدي، محمد فريد/
30-دائرة معارف القرن العشرون،دار الفكر، بيروت، بدون سنة

ثالثاً / المراجع الاجنبية المعربة:

بروكلمان، كارل/
1-تاريخ الأدب العربي، ترجمة د.عبد الحليم النجار، دار المعارف، مصر، 1962
بلات، شارل/

2-الجاحظ في البصرة و بغداد وسامراء، ترجمة د.ابراهيم الكيلاني، دار اليقظة العربية للتاليف والنشر، دمشق،1961
جرنفيل،فريمان/
3-التقويمان الهجري والميلادي، ترجمة د.حسام محيي الدين الآلوسي،ط2، بغداد، ص1986
4-دائرة المعارف الأسلامية،ترجمة احمد الشيناوي واخرون، بدون سنة
شاخت وبوزورث/
5-تراث الأسلام، ترجمة د.حسين مؤنس،ط2، الكويت،1988
متز، آدم/
6-الحضارة الأسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط4، دار الكتاب العربي، بيروت،1967

رابعاً / المجلات والبحوث:

1-الحسيني، د. أحمد حماد، كتاب الحيوان للجاحظ، مقالة في مجلة تراث الأنسانية، دار الفكر، بيروت،
2-الملاح، د.هاشم يحيى، الجاحظ أسهاماته الثقافية في تعزيز وحدة الأمة، مقالة في مجلة المورد، م30، سنة2002م.
3-الموروث الشعبي في آثار الجاحظ، صدر بمناسبة أنعقاد الندوة العربية للفولكلورفي بغداد، بغداد، من (10-1/آذار 1977).

خامساً / الرسائل الجامعية:

1-الآلوسي، د.فاروق عبدالرزاق، الحياة الأجتماعية في العراق في العصر الأموي، رسالة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة، مقدمة الى مجلس كلية التربية/أبن رشد، جامعة بغداد.
2-الغريري، د.صبري أحمد، الجاحظ ودوره في التدوين التاريخي، رسالة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة، مقدمة الى الجامعة المستنصرية، ايلول،1990.

سادساً/ المراجع الأجنبية:

1- Browne, Edward, A Literary History of Persia from the Earliest Times until Firdawsi, London, 1909.
2- Cahen, Claude, Baghdad a temps de ses derniers califes arabica, Vol. Special, 1962.

3- Khadduri, M, Law of War and Peace in Islam,London,1940.

4- Kremer,Alfred,Orient under the Caliphs, Calculta

5- Landthman, G, The Origin of Inequality of the Social Classes, Kegan Paul, London, 1936.

6- Lewinsohn,Morus,Animal, Men and Myths, Trans into English, London,1945 .

7- Reubu, Levy, Sociology of Islam, London,1931.

8- Reuben, Levy, The Social Structure of Islam, Cambridge,1957.

9- Tritton, A.S, The Caliphs and their Non- Muslem Subjects, Oxford university Press, England,1939.